
@ketab_n
Follow Me
21.2.2016
هاربر لي
لا تقتل
عصفوراً ساخراً
ترجمة: توفيق الأسدي
التكوين
رواية

هاربرلي

لا تقتل عصفوراً ساخراً

رواية

ترجمة

توفيق الأسدي



لا تقتل عصفوراً ساخراً

رواية

ولدت المؤلفة «هاربر لي» في بلدة «مونروفيل» من ولاية ألاباما عام 1926، ودرست في المدارس العامة المحلية وجامعة ألاباما. وقبل أن تبدأ بالكتابة عملت في قسم الحجز في شركة طيران عالمية. أما اهتماماتها إلى جانب الكتابة فهي لعبة الغولف والموسيقى وعلم الإجرام وتجميع مذكرات رجال الدين في القرن التاسع عشر. وهي تعيش في نيويورك الآن.

HARPER LEE
TO KIL A MOCKING BIRD

الطبعة الأولى 2015

هاتف: 00963 112236468

فاكس: 00963112257677

ص. ب: 11418، دمشق . بيروت

www.attakwin.com

taakwen@yahoo.com

الإهداء

إلى السيد «لي» وإلى «آليس»

حباً وعاطفة

«المحامون، على ما أعتقد، كانوا مرة أطفالاً».

تشارلز لام

القسم الأول

الفصل الأول

حين كان أخي «جِم» في الثالثة عشرة من عمره، كسرت ذراعه كسراً خطيراً عند المرفق. وحين شفي وما عاد يخشى من فقدانه المطلق للقدرة على لعب كرة القدم بعد تلك الحادثة، صار نادراً ما يخجل من إصابته. أصبحت ذراعه اليسرى أقصر نوعاً ما من اليمنى. ولدى الوقوف أو المشي، أصبح ظاهر يده يشكل زاوية قائمة مع جسده، وإبهامه موازياً لفخذه. ولكنه ما كان ليهتم كثيراً طالما أنه يستطيع أن يمرر الكرة ويضربها قبل أن تصل الأرض.

وحين مرّ من السنين ما كان كافياً لجعلنا نعود بأفكارنا إلى تلك الأوقات، كنا نناقش أحياناً الحوادث التي أدت إلى تلك الواقعة. ففي رأيي أن عائلة «يوويل» هي التي سببت كل ذلك، ولكن جم الذي يكبرني بأربعة أعوام، قال إن الأمر بدأ قبل ذلك بزمن طويل. قال إن المسألة بدأت في ذلك الصيف حين زارنا «ديل»، وحين طرح علينا «ديل» للمرة الأولى فكرة جعل «بو رادلي» يخرج من بيته.

قلت إنه لو أراد أن ينظر إلى الموضوع نظرة شاملة، فإن المسألة بدأت فعلاً مع «اندرو جاكسون»[1]. فلو أن الجنرال جاكسون لم يطرد «الكريك»[2] ويجعلهم يهربون باتجاه أعلى النهر، لما كان «سايمون فينتش»

---

(1) (1767 ـ 1845) رئيس الولايات المتحدة (1829 ـ 1837) (المترجم)

(2) اتحاد (50) قبيلة هندية حمراء من سكان ألاباما الأصليين، وقد هزمهم «أندروجاكسون» في «حرب الكريك» (1813 ـ 1814) (المترجم).

سيجدّف شاقاً طريقه في نهر ألاباما، وأين كنا يا ترى لولاه؟ وبما أننا كنّا عندها أكبر سناً من أن نحل خلافنا بقبضة اليد، فقد استشرنا «أتيكوس». فقال أبونا إننا كلانا على صواب.

وحيث أننا من سكان الولايات الجنوبية. فقد كان بعض أفراد عائلتنا يشعر بالخجل إذا لم يكن لنا أجداد مسجلة أسماؤهم بين المشاركين في أحد طرفي «معركة هاستينغز»[1]. كل ما كان بحوزتنا هو «سايمون فينتش» الصيدلي الذي عمل في نصب الأفخاخ لحيوانات الفراء، القادم من (دوقية) «كورنوول»، ذو الورع الشديد والبخل الأشد. حين كان في انكلترا، تضايق سايمون من الاضطهاد الذي تعرض له ما كانوا يسمون أنفسهم بـ«الميثوديين»[2] على يد أخوتهم الأشد ليبرالية منهم، ولما كان سايمون يسمي نفسه «ميثودياً»، فقد شق طريقه عبر الأطلنطي إلى فيلادلفيا، ومنها إلى جامايكا، ومن هناك إلى «موبيل» حتى وصل إلى «سانت ستيفنز». ولما كان حريصاً على التعاليم المشددة التي نادى بها «جون ويلزي» فيما يخص عدم استعمال كلمات كثيرة لدى البيع والشراء، فقد جمع ثروة من ممارسة الطب، ولكنه لم يكن سعيداً في هذه المهنة، فقد كان يخشى الإغواء الذي يؤدي إلى ارتكاب ما لا يرمي إلى تمجيد الله، كارتداء الحلي الذهبية والملابس الفاخرة. وهكذا قام سايمون، الذي نسي رأي معلّمه فيما يخص امتلاك العبيد من البشر، بشراء

---

(1) معركة هاستينغز Battle of Hastings: المعركة التي حدثت عام 1066 بين جيش ويليام الفاتح النورماندي الفرنسي وا الجيش الأنغلو ساكسوني في مقاطعة ساسكس في إنكلترا (المترجم).

(2) Methodists. أتباع الحركة الدينية الإصلاحية التي قادها في أكسفورد عام (1729) تشارلز وجون ويلزي محاولين فيها إحياء كنيسة انكلترا. (المترجم).

ثلاثة من العبيد، وأسس بمساعدتهم منزل الأسرة على ضفاف نهر الألاباما على بعد حوالي أربعين ميلاً من «سانت ستيفنز». ولم يعد إلى «سانت ستيفنز» سوى مرة واحدة، وذلك بحثاً عن زوجة، وقد أسس معها ذرية كانت معظمها من البنات: وقد عاش سايمون حتى بلغ من العمر عتياً ومات غنياً.

وكان من عادة رجال الأسرة أن يبقوا في منزل الأسرة، المسمى «فينتشز لاندينغ»، ويعيشوا على زراعة القطن. كان المكان ذا اكتفاء ذاتي، أي متواضعاً بالمقارنة مع الامبراطوريات المحيطة به، ولكنه كان ينتج على أية حال كل ما هو مطلوب للحياة عدا الثلج، ودقيق القمح، والملابس، التي كانت تزوّده بها الزوارق النهرية القادمة من «موبيل».

ولو أن سايمون عاش حتى شهد الحرب بين الشمال والجنوب، لكان سينظر إليها بعين الغضب العاجز، حيث أنها عرّت ذريته من كل شيء عدا أرضهم، ومع ذلك فإن تقليد العيش على تلك الأرض استمر دون انقطاع حتى القرن العشرين وبعد مرور سنوات عديدة منه، أي حتى ذهب أبي واسمه «أتيكوس فينتش» إلى «مونتغومري» لدراسة القانون، وذهب أخوه الأصغر إلى «بوسطن» لدراسة الطب. أما أختهما «ألكسندرا» فكانت هي سليلة عائلة «فينتش» التي بقيت في منزل العائلة «فينتشز لاندينغ». كانت متزوجة من رجل صموت ينفق معظم وقته متمدّداً في أرجوحة شبكية قرب النهر متسائلاً إن كانت صنانير صيده قد امتلأت.

وحين امتهن أبي المحاماة، عاد إلى «مايكوم» وبدأ يمارس هذه المهنة. وكانت بلدة «مايكوم» هذه التي تبعد حوالي عشرين ميلاً إلى الشرق من «فينتشز لاندينغ»، هي حاضرة المقاطعة المسماة باسمها. وكان مكتب أتيكوس في دار المحكمة لا يحوي سوى حامل

(شماعة) للقبعات، ومبصقة، ورقعة الداما، ونسخة غير متسخة من «قانون ألاباما». وقد كان أول زبونين له هما آخر شخصين شنقا في سجن مديرية ألاباما. كان أتيكوس قد حثّهما على قبول كرم «الولاية» التي تسمح لهم بأن يعترفا بارتكاب جريمة من الدرجة الثانية وينجوا بحياتهما، ولكنهما كانا من عائلة «هافرفورد»، وهو اسم مرادف في مقاطعة مايكوم لكلمة «حمار» أو «مغفّل». وكان هذان قد قتلا كبير حدّادي مايكوم بسبب سوء تفاهم ناجم عن احتجازه المزعوم وغير الشرعي لفرس، وقد كنا طائشين إلى حد أنهما قتلاه في حضور ثلاثة شهود عيان، وأصرّا على أن ابن القحبة ذاك كان يستحق أن يموت، وأن ذاك كان دفاعاً كافياً لأي شخص. وقد أصرا على أنهما «غير مذنبين» بارتكاب جريمة من الدرجة الأولى، ولذا لم يكن ممكناً لأتيكوس أن يفعل أي شيء لزبونيه إلا أن يكون حاضراً في مناسبة رحيلهما، وهي المناسبة التي كانت على الأرجح، بداية لكره أبي العميق لمهنة المحاماة الجنائية.

وخلال سنواته الخمس الأولى في مايكوم، مارس أتيكوس الاقتصاد والتوفير أكثر من أي شيء آخر. وقد استثمر ما كان يكسبه من ذلك الحين فصاعداً في تعليم أخيه. كان «جون هايل فينتش» يصغر أبي بعشر سنوات، وقد اختار دراسة الطب في وقت كان فيه القطن لا يساوي تكاليف زراعته، ولكن بعد أن بدأ «العم جاك» بالدراسة، كان أتيكوس قد بدأ يحصل على دخل معقول من المحاماة. وقد أحب أبي بلدة مايكوم، فقد ولد فيها وتربى فيها، وكان يعرف أهلها، وكانوا هم يعرفونه، وبسبب مهنة سايمون فينتش، فقد كانت تربط أتيكوس بكل عائلة في البلدة تقريباً صلة الدم.

***

كانت مايكوم بلدة قديمة، ولكنها صغيرة. وحين عرفتُها أول ما عرفتها كانت بلدة عتيقة متعبة. ففي الطقس الماطر تستحيل شوارعها إلى وحل أحمر، وينمو العشب على أرصفة المشاة، كما يغور مبنى المحكمة في الساحة. الطقس في تلك الأيام كان أشد حرارة نوعاً ما، وكنت ترى كلباً أسود يعاني من قيظ يوم صيفي، وبغالاً بارزة العظام مشدودة إلى عربات «هوفر» تهش بأذيالها الذباب في الظل القائظ لأشجار السنديان النابضة بالحياة في الساحة. كانت ياقات الرجال المنشاة تتهدّل منذ الساعة التاسعة صباحاً، كما اعتادت السيدات على الاستحمام قبل الظهر، وبعد قيلولة الساعة الثالثة بعد الظهر. ومع حلول الظلام كن يتحولن إلى شيء أشبه بكعكات الشاي الطرية المزركشة بحبات العرق والبودرة المحلاّة.

في تلك الأيام اعتاد الناس على السير ببطء. كانوا يسيرون الهوينى عبر الساحة، ويدلفون داخلين وخارجين من المخازن التي حولها. متمهلين في كل ما يفعلونه. اليوم كان أربعاً وعشرين ساعة أيضاً. ولكنه كان يبدو أطول. لم تكن هناك حاجة إلى العجلة، فلا مكان يذهب الناس إليه، ولا شيء يبتاعونه ولا مال يبتاعون به، ولا شيء يُرى خارج حدود مديرية مايكوم. ولكن ذلك العهد كان عهد تفاؤل غامض بالنسبة لبعض الناس: فقد قيل لمديرية مايكوم مؤخراً إنه ليس على سكانها أن يخافوا أي شيء عدا الخوف نفسه.

كنا نعيش في الشارع السكني الرئيسي من البلدة: أتيكوس وجم وأنا، بالإضافة إلى كالبورنيا طباختنا. كنا، أخي وأنا، نستلطف أبانا: فقد اعتاد أن يلعب معنا، ويقرأ لنا. ويعاملنا بتجرّد دمث.

أما كالبورنيا فكانت شيئاً آخر. كانت نحيلة بارزة العظام، ضعيفة البصر، ذات نظرة شزراء ويد كبيرة أشبه بخشبة السرير وأقسى منها

بمرتين. كانت تـأمرني دومـاً بـالخروج مـن المطـبخ، وتـسألني لمـاذا لا أستطيع أن أكـون مؤدبـة شـأن جـم وهـي العارفـة أنـه أكـبر سـناً، وتستدعيني للعودة إلى البيـت حـين لا أكـون جـاهزة للعـودة. كانـت معاركنا ملحمية أحاديـة الجانـب. فقـد كانـت كالبورنيـا هـي الرابحـة دائماً، وذلك أن أتيكوس كان ينحاز إليها دائماً. كانت تعيش معنا منـذ أن ولد جم، وقد أحسستُ بوجودها الاستبدادي منذ أن وعيتُ.

ماتت أمنا حين كنت في الثانية، ولذا لم أفتقدها أبداً. كانـت مـن عالة «غراهام» من بلدة مونتغومري، وقد عرفها أتيكوس حين انتخـب لأول مرة عضواً في برلمان الولايـة. كـان في منتـصف العمـر حينـها، وكانت هي تصغره بخمس عشرة سنة. ثم جاء جم كثمرة لأول عام من زواجهما، وبعد ذلك بأربع سنوات ولـدت أنـا، وماتـت أمـي بعـدها بسنتين من نوبة قلبية مفاجئة. قـالوا إن ذلـك متـوارث في عائلتـها. لم أفتقدها، ولكني اعتقدت أن جـم كـان يفتقـدها، فقـد كـان يتـذكرها بوضوح. وفي بعض الأحيان، كان يتنهد فجأة في غمار لعبة نمارسها، ثم يبتعد ويلعب وحده خلف مرآب السيارة. وحين يكون في مثل هـذا المزاج، كنت أتركه لشأنه.

حين كنت في السادسة تقريباً وكان جم في العاشرة، كانت حـدودنا في العطلة الصيفية (وهي لا تتعدى المسافة التي يصلها صـوت كالبورنيـا) منزل «السيدة هنري لافاييت دوبوز» الذي يبتعـد عـن منزلنـا قـدر مبنـيين فقط باتجاه الشمال، أما منزل «آل رادلي» فكان على بعـد ثلاثـة مبـان إلى الجنوب. ولم نجرب أبـداً أن نتخطـى هـذه الحـدود. في مـنزل آل رادلي سكنت كينونة مجهولة كان مجرد سماع وصف لها كافياً لجعلنـا نتـصرف بأدب خلال أيام بحالها، أما السيدة دوبوز فكانت جحيماً صرفاً.

وكان ذلك هو الصيف الذي جاءنا فيه «ديل».

في أحد الصباحات الباكرة، وما أن بدأنا لعبنا النـهاري في الفنـاء الخارجي، سمعنا جم وأنـا صـوتاً مـا في البيـت المجـاور في الرقعـة الصغيرة المزروعة بالملفوف من فناء الآنسة «راشيل هارفورد». مـضينا نو حاجز الأسلاك الشائكة لنرى إن كان هناك جـرواً مـا: كانـت كلبـة الآنسة راشيل علـى وشـك الوضـع، ولكننـا وجـدنا بـدلاً عـن ذلـك شخصاً ما يجلس هناك وينظر إلينا. كـان لا يبـدو وهـو جـالس أطـول كثيراً من نباتات الملفوف. حدقنا فيه حتى تكلم أخيراً فقال:

ـ مرحباً.

قال له جم بلهجة لطيفة:

ـ مرحباً بك.

ـ اسمي تشارلز بيكر هاريس. وأستطيع أن أقرأ.

قلت له:

ـ وماذا في ذلك؟

ـ ظننت أنكم تودون ربما معرفـة أني أقـرأ. وإذا كـان لـديكم مـا تحتاجون إلى قراءته، أستطيع أن أفعل ذلك...

سأله جم:

ـ كم عمرك؟ أربعة ونصف؟

ـ أقترب من السبعة.

قال جم و، ويشير إليّ بإبهامه:

ـ لا عجب إذن، فأختي «سكاوت» تقـرأ منـذ أن ولـدت، وهـي حـتى لم تـذهب إلى المدرسة بعـد. تبـدو ضـئيلاً جـداً بالنـسبة إلى عمرك.

قال:

ـ أنا ضئيل ولكني كبير السن.

رفع جم شعره بيده عن جبينه ليراه على نحو أفضل. ثم قال له:

ـ لم لا تأتي إلينا يا تشارلز بيكر هاريس؟ يا للرب ما هذا الاسم؟

ـ إنه لا يدعو للضحك أكثر من اسمك. فالخالة راشيل تقول إن اسمك هو «جيريمي أتيكوس فينتش».

قطب جم ثم قال:

ـ حجمي يناسب اسمي. أما اسمك فأطول منك. وأراهن على أنه أطول منك بمقدار قدم.

قال «ديل» وهو يناضل تحت الحاجز:

ـ الناس يدعونني بـ«ديل».

قلت له:

ـ الأفضل لك أن تقفز من فوقه بدلاً عن أن تزحف من تحته. من أين أتيت؟

كان ديل من بلدة «ميريديان» من الميسيسبي، وكان يقضي الصيف مع خالته، الآنسة راشيل، وسيقضي كل صيف من الآن فصاعداً في مايكوم. كانت عائلته في الأصل من إقليم مايكوم، أما أمه فكانت تعمل كمصورة في ميريديان، كما أنها اشتركت بصورته في مسابقة «أجمل طفل» وكسبت خمسة دولارات. ثم منحت النقود إلى ديل الذي ذهب إلى السينما عشرين مرة بذلك المبلغ.

قال جم:

ـ ليست لدينا عروض للسينما هنا، إلا تلك التي تدور حول حياة المسيح والتي تعرض في قاعة المحكمة أحياناً. هل سبق لك ورأيت فيلماً جيداً؟

كان ديل قد رأى فيلم «دراكيولا»، وكان ذلك مدعاة لأن ينظر إليه جم ببدايات احترام.

قال له:

ـ احكه لنا.

كان «ديل» طفلاً غريب الأطوار، يرتدي بنطالاً قصيراً من الكتان مربوطاً بأزرار إلى قميصه، وله شعر أبيض بلون الثلج يلتصق برأسه كالزغب الدبق. كان يكبرني بعام واحد، ولكني كنت أطول منه بكثير. وحين راح يحكي لنا الحكاية القديمة كانت عيناه الزرقاوان تومضان وتظلمان. كانت ضحكته فجائية مرحة، كما اعتاد أن يشد خصلة شعر في منتصف جبينه.

وبعد أن حكى ديل كيف مات دراكيولا وقال جم أن الفيلم يبدو أفضل من الكتاب. سألت ديل عن والده، قلت له:

ـ لم تذكره أبداً.

ـ ليس لي أب.

ـ هل هو ميت؟

ـ لا....

ـ إذن، إن لم يكن ميتاً، فلا شك أن لك أباً، أليس كذلك؟

احمرّ وجه ديل وطلب مني جم أن أسكت، وهذه علامة على أنه قد جرت دراسة ديل وأنه تبيّن لجم أن ديل شخص مقبول. ثم ومنذ ذلك الحين فصاعداً مرّ الصيف باطمئنان روتيني. وكان ذلك اطمئناناً روتينياً بالفعل: فقد أدخلنا بعض التحسينات على كوخنا الصغير الذي كان معلقاً بين شجرتين توأمين عملاقتين من أشجار الأزادرخت في الفناء الخلفي، وكنا نتجادل ونمثّل لائحة التمثيليات

التي كنا نؤلفها من حكايات «اوليفر أوبتيك»[*] و«فيكتور أبلتون» و«إدغار رايس بوروز». وقد اعتبرنا نفسينا محظوظين في أن يكون معنا ديل في هذا المضمار، فقد رضي أن يلعب أدواراً كان جم يدفعني سابقاً بالقوة إلى تمثيلها: كالقردة في «طرزان» و«السيد كرابترى» في «أولاد روفر»، و«السيد دامون» في «توم سويفت». وهكذا أصبحنا نعرف ديل على أنه «مرلين»[1] بحجم الجيب، حيث كان رأسه يعج بخطط عجيبة، وتشوّفات غريبة وخيالات طريفة.

ولكن مع حلول نهاية آب (أغسطس) أصبحت ذخيرتنا من الدراما مملّة من كثرة ما أعدناها وكررناها، وحينذاك طرح علينا ديل فكرة جعل «بو رادلي» يخرج من بيته.

كان منزل آل رادلي قد ألهب خيال ديل. ورغم تحذيراتنا وتفسيراتنا إلا أن المنزل كان يجذبه إليه كما يجذب القمر مياه البحر، ولكنه ما كان يتجرأ على الاقتراب إلى أكثر من عمود النور على الزاوية، وهو يقع على مسافة آمنة من باب منزل آل رادلي. وكان يقف هناك، وذراعه حول العمود الثخين، يحدق ويتساءل.

يقع منزل آل رادلي في نتوء يشكل منعطفاً حاداً إلى ما وراء منزلنا. فإذا ما اتجه المرء جنوباً كان يواجهه رواق ذلك المنزل، وكان رصيف الشارع يستدير ثم يجاور الرقعة من الأرض التي تجاوز المنزل. كان المنزل واطئاً، ويبدو أنه كان قد طلي مرة باللون الأبيض، بينما طلي رواقه الأمامي بلون داكن ومصاريع نوافذه باللون الأخضر، ولكن ألوانه تحولت منذ زمن بعيد وبفعل مرور السنين إلى

(*) اسمه الحقيقي «ويليام تايلور ادامز» (1822 ـ 1897) وهو مؤلف حكايات للأطفال له (116) كتاباً في هذا المضمار (المترجم).

(1) «مرلين» شخصية الساحر الرهيب في أسطورة الملك أرثر. (المترجم).

لون رمادي بلون ألواح الكتابة وبلون الفناء المحيط به. كانت ألواح خشبية صغيرة تعفّنت بفعل المطر تتدلى فوق أفاريز الشرفة، أما أشجار السنديان فكانت تحجب عنه الشمس، كما كانت بقايا سياج من الأوتاد لا تزال تحمي الفناء الأمامي على نحو مخمور: وهو فناء مرتد إلى الوراء لم يعرف التنظيف أبداً، وقد نمت فيه بغزارة أعشاب الجونسون وتبغ الأرنب.

وفي داخل المنزل كان يعيش شبح حاقد يقول عنه الناس إنه موجود، ولكننا لم نره أبداً لا جم ولا أنا. وكان الناس يقولون إنه يخرج ليلاً حين يكون القمر في وسط السماء ويتلصص على نوافذ الناس. وحين كانت نباتات الأزاليا تتجمد في هجمات البرد المفاجئة، فقد كان السبب هو أنه تنفس عليها. كما كانت أية جرائم صغيرة ترتكب خلسة في مايكوم من فعله هو. وقد روّعت البلدة مرة بسبب سلسلة من الحوادث الليلية المفزعة: كانت دجاجات الناس وحيواناتها المدللة تتعرض للقتل والتشويه، ورغم أنه عرف مرتكب هذه الحوادث على أنه «آدي المجنون»، الذي أغرق نفسه فيما بعد في «دوامة باركر» في النهر، إلا أن الناس كانوا لا يزالون يوجهون أنظارهم إلى منزل آل رادلي، غير راغبين في نبذ شكوكهم الأولى. ما كان أي زنجي يجرؤ على المرور بالقرب من منزل آل رادلي في الليل، بل كان يقطع الطريق نحو الرصيف المقابل ويصفّر بفمه وهو يسير. كانت مدرسة مايكوم تحاذي القسم الخلفي من أرض منزل آل رادلي، ومن ساحة تربية الدواجن الخاصة بآل رادلي كانت أشجار الجوز الأمريكي تسقط ثمارها في فناء المدرسة، ولكن الأطفال ما كانوا يجرؤون على لمس الجوزات: إن الجوز القادم من أشجار آل رادلي سيقتلك إذا أكلته. كما كانت كرة البيسبول التي تسقط في فناء آل رادلي تعتبر مفقودة ولا مجال لاستردادها.

كن بؤس ذلك المنزل قد بدأ قبل أن ترى عينا جم وعيناي النور بسنوات عديدة. كان آل رادلي، المرحب بهم في أي مكان في البلدة، من النوع المنعزل من الناس، وهي نزعة لا يغفرها أهل مايكوم أبداً. فما كان آل رادلي يذهبون إلى الكنيسة، وهو الاستجمام الرئيسي في مايكوم، بل كانوا يصلّون في البيت، أما السيدة رادلي فنادراً ما عبرت الشارع لتتناول قهوة استراحة منتصف النهار مع جيرانها، ولم تشارك - وهذا أكيد - في أية حلقة تبشيرية أبداً. وكان من عادة السيد رادلي أن يسير نحو البلدة في الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح كل يوم ويعود من غير إبطاء في الثانية عشرة، حاملاً في بعض الأحيان كيساً من الورق بني اللون يفترض الجيران أنه يحوي حاجات الأسرة من البقالة. لم أعرف أبداً مصدر دخل السيد رادلي العجوز. قال جم إنه «يشتري القطن» وهو مصطلح مهذب يعني أنه لا عمل له، ولكن السيد رادلي وزوجته كان يعيشان هناك مع ابنيهما منذ فترة طويلة جداً.

في أيام الآحاد كانت تغلق مصاريع نوافذ وأبواب منزل آل رادلي، وهي عادة غريبة على بلدة مايكوم: فالأبواب المغلقة لا تعني سوى المرض والطقس البارد فحسب. ومن بين كل أيام الأسبوع كان يوم الأحد هو يوم الزيارات الشكلية التي تتم بعد الظهر. إذ كانت النساء ترتدي المشدّات، ويرتدي الرجال ستراتهم كما يرتدي الأطفال أحذيتهم. ولكن لم يحدث أبداً أن صعد أحد الجيران درجات منزل آل رادلي الأمامية في عصر يوم من أيام الآحاد وقال: «مرحباً». كان منزل آل رادلي دون أبواب خارجية ذات شريط منخلي، وقد سألت أتيكوس مرة إن كان لذلك المنزل مثل تلك الأبواب من قبل فأجابني أن نعم، ولكن قبل أن أولد.

ووفقاً للأسطورة السائدة في الجوار، فإنه يقال أن الابن الأصغر لآل رادلي تعرّف وهو بعد مراهق على بعض الشبان من آل كانينغهام من بلدة «أولد ساروم»، وهي قبيلة هائلة العدد والفوضى، تسكن في القسم الشمالي من الإقليم، وقد شكلت أقرب ما يكون إلى العصابة، وهو الشيء الذي لم تعرفه مقاطعة مايكوم أبداً. كان ما يفعلونه تافهاً، وإن يكن كافياً ليتحول إلى موضوع لأحاديث البلدة وليحذّر منه من على ثلاثة منابر: كان أولئك يتسكعون حول دكان الحلاق ويركبون الباص إلى «أبوتسفيل» أيام الآحاد ويذهبون إلى دور العرض، كما كانوا يحضرون حفلات الرقص في نادي القمار الخاص بالمديرية والواقع على شاطئ النهر واسمه: «نزل قطرة الندى ومعسكر صيد السمك»، كما كانوا يحتسون الويسكي المصنوع منزلياً والمحرّم بيعه. لم يجرؤ أحد في مايكوم على أن يقول للسيد رادلي إن ابنه كان متورطاً مع عصبة ضالة.

وفي إحدى الليالي، وفي نوبة من الاهتياج والمرح الشديدين، قاد الشبان سيارة صغيرة رخيصة وعتيقة وداروا بها من حول ساحة البلدة؛ كما قاوموا السيد كونر، وهو مساعد المأمور، حين أراد إلقاء القبض عليهم، وحبسوه في المرحاض الخارجي لدار المحكمة. وقد قررت البلدة أنه لا بد من اتخاذ إجراء ما، وقال السيد كونر إنه كان يعرف كل واحد منهم وإنه مضطر ومصمم على أن ينالوا العقاب المناسب. وهكذا حوكم الشبان من قبل قاضي إشهاد بتهمة التصرف غير اللائق وإقلاق الراحة، والاعتداء والضرب، واستعمال ألفاظ نابية بذيئة في حضور وسماع أنثى. وقد سأل القاضي السيد كونر عن سبب إدراجه للتهمة الأخيرة، فقال هذا إنهم قد شتموه بصوت عال جداً، إلى حد أنه متأكد من أن كل سيدة في مايكوم قد سمعتهم. وقد قرر القاضي إرسال الشبان إلى معهد الولاية المهني، حيث كان الأولاد

يرسلون إلى هناك أحياناً لا لشيء عدا أن يقدم لهم الطعام والمأوى الجيد: لم يكن ذلك سجناً، كما لم يكن شيئاً معيباً. ولكن السيد رادلي كان يعتقد ذلك، فقال إنه لو أطلق القاضي سراح ابنه «آرثر»، فإنه ـ أي السيد رادلي ـ سيكفل ألا يثير ابنه أية مشاكل بعد اليوم. وبما أن القاضي كان يعرف أن السيد رادلي ينفذ ما يعد به، فقد كان سعيداً بأن يعمل بنصيحته.

وقد ذهب الشبان الآخرون إلى المدرسة المهنية وتلقوا أفضل تعليم ثانوي في الولاية، كما أن أحدهم تابع دراسته ودخل معهد الهندسة في «أوبيرن». ولكن أغلقت أبواب منزل آل رادلي في أيام الأسبوع كما في يوم الأحد، ولم ير أحد ابن السيد رادلي مرة أخرى مدة خمسة عشر عاماً.

ثم جاء يوم، يتذكره جم بصعوبة، سمع فيه الناس عن «بو رادلي» بل وشاهده كثيرون منهم، ولكن جم لم تتح له هذه الفرصة. قال إن أتيكوس لم يتحدث أبداً بإسهاب حول آل رادلي. وحين كان جم يسأل أتيكوس عن الموضوع، كان الجواب الوحيد الذي يتلقاه هو أن يهتم بأموره ويترك آل رادلي وشأنهم، فذاك حقهم. ولكن حين حدث ما حدث، قال جم إن أتيكوس هز رأسه وقال: «هم، مم، مم». وهكذا كان جم يتلقى معظم معلوماته من «الآنسة ستيفاني كروفورد» وهي امرأة من الجيران سليطة اللسان كانت تقول إنها على معرفة بالأمر كله. ووفقاً لرواية الآنسة ستيفاني، فإن «بو» كان جالساً في غرفة لجلوس يقص بعض القصاصات من صحيفة «مايكوم تريبيون» ليلصقها على ألبوم القصاصات الخاص به حين دخل أبوه إلى الغرفة. وبينما كان السيد رادلي يمر إلى القرب من ابنه، قام هذا بطعن أبيه في ساقه بالمقص ثم أخرجه ومسحه ببنطاله وعاد إلى عمله.

خرجت السيدة رادلي زاعقة إلى الشارع قائلة إن «آرثر» سيقتلهم جميعاً، ولكن حين وصل المأمور وجد أن «بو» كان لا يزال جالساً في غرفة الجلوس يقص من الصحيفة. وكان وقتها في الثالثة والثلاثين من العمر.

قالت الآنسة ستيفاني إن السيد رادلي صرح بأنه لن يسمح لأي فرد من آل رادلي بالذهاب إلى أي ملجأ كان، وذلك حين قيل له إن قضاء «بو» فترة ما في «توسكالوزا» قد تكون مفيدة له. لم يكن «بو» مجنوناً، بل كان شديد العصبية أحياناً. كان حبسه في المنزل أمراً مناسباً كما اعترف السيد رادلي، ولكنه أصر على ألا يتهم «بو» بأي شيء: فهو لم يكن مجرماً. ولم يكن المأمور ليرضى أن يضعه في السجن جنباً إلى جنب مع الزنوج، وهكذا حبس «بو» في قبو دار المحكمة.

كانت عملية نقل «بو» من القبو إلى بيته شيئاً ضبابياً في ذاكرة جم. قالت الآنسة ستيفاني كروفورد أن بعض أعضاء مجلس البلدة قالوا للسيد رادلي إنه إذا لم يعد «بو» إلى الدار، فإنه سيموت متعفناً من الرطوبة. وفوق ذلك، فإن «بو» لايمكنه أن يعيش إلى الأبد على سخاء المقاطعة.

لا أحد يعرف أي نوع من التهديد استخدمه السيد رادلي حتى يبقي «بو» بعيداً عن الأنظار، ولكن جم يعتقد أنه يبقيه مقيداً بسلسلة حديدية إلى السرير معظم الوقت. قال أتيكوس إن ذلك غير صحيح، فلم يكن الأمر كذلك، بل كانت هناك وسائل أخرى لتحويل الناس إلى أشباح.

وقد تذكرتُ كيف كنت أرى السيدة رادلي تفتح أحياناً الباب الأمامي، وتمشي حتى نهاية الرواق، وتصب الماء على نباتات الكنا[1]. ولكننا جم وأنا كنا نرى السيد رادلي يسير نحو البلدة ثم عائداً

---

(1) canna عشب استوائي مزهر عريض الأوراق (المترجم).

منها. كان رجلاً نحيلاً لوحت الشمس بشرته ودبغتها، ذا عينين لا لون لهما، إلى حد أنهما لم تكونا تعكسان النور. أما عظام خده فحادة وفمه واسع جداً، وله شفة عليا رقيقة وسفلى ممتلئة. وقالت الآنسة ستيفاني كروفورد أنه كان مستقيماً إلى حد أنه كان لا يعترف بأي قانون سوى كلمة الرب، وقد صدقناها، لأن هيئة السيد رادلي كانت مستقيمة صارمة.

لم يسبق أن تحدث إلينا. وحين كان يمر كنا ننظر إلى الأرض ونقول «صباح الخير يا سيدي»، وكان جوابه هو السعال. كان ابنه الأكبر يعيش في «بنساكولا»، ويأتي إلى البيت في عيد الميلاد، وهو واحد من الأشخاص القليلين الذين شاهدناهم يدخلون أو يخرجون من ذلك المكان. ومنذ ذلك اليوم الذي أخذ فيه السيد رادلي ابنه آرثر إلى البيت، يقول الناس أن المنزل قد مات.

ولكن حدث في أحد الأيام أن قال لنا أتيكوس إنه سيضربنا إذا ما أحدثنا ضجيجاً في الفناء، وفوّض كالبورنيا أن تقوم مقامه خلال غيابه إذا ما سمعت ضجة تصدر عنا. كان السيد رادلي يحتضر.

ولكنه استغرق في احتضاره زمناً طويلاً، فوضعت الحواجز الخشبية لتسد الطريق عند نهايتي المرج المحيط بالمنزل، ونثر القش مع الرصيف، وحوّل السير إلى الشارع الخلفي. كان الدكتور رينولدز يوقف سيارته أمام منزلنا ويمشي نحو منزل آل رادلي في كل مرة كان يعود فيها. وقد رحنا أنا وجم نتحرك زحفاً في الفناء أياماً بحالها. وأخيراً رفعت الحواجز الخشبية، ووقفنا نراقب من الرواق الأمامي بينما قام السيد رادلي برحلته الأخيرة ماراً بمنزلنا.

همهمت كالبورنيا: «هاهو أخسّ رجل خلقه الله إطلاقاً»، ثم بصقت ـ وهي في حالة تأمل ـ على أرض الفناء. نظرنا إليها بدهشة، فقد كانت كالبورنيا لا تعلّق إلا نادراً على أساليب الناس ذوي البشرة البيضاء.

ظن الجيران أنه مع دفن السيد رادلي سيخرج «بو» من المنزل، ولكن شيئاً آخر حدث: عاد أخو «بو» الأكبر من «بنساكولا» واحتل مكان السيد رادلي. وكان الخلاف الوحيد بينه وبين أبيه هو الفرق في السن. قال جم إن السيد ناثان رادلي كان «يشتري القطن» أيضاً. ولكن السيد ناثان كان يرد علينا على أية حال حين كنا نقول له صباح الخير، وكنا نراه أحياناً عائداً من البلدة وفي يده مجلة.

وكلما كنا نحكي لديل عن آل رادلي، كان هذا يود معرفة المزيد، وكانت وقفاته وهو يعانق عمود النور عند الزاوية تطول، وكانت تساؤلاته تزيد.

كان يهمهم قائلاً: «ما الذي يفعله هناك يا ترى؟ يبدو وكأنه لا يخرج سوى رأسه من الباب».

قال جم: «إنه يخرج على أية حال، ولكن حين يكون الظلام مخيماً. قالت الآنسة ستيفاني كروفورد إنها استيقظت مرة في منتصف الليل فرأته يحدق فيها مباشرة عبر النافذة... قالت إن رأسه كان يشبه جمجمة تحدق فيها. هل حدث أن استيقظت في الليل وسمعته يا ديل؟ إنه يمشي هكذا». تزحلق جم بقدميه فوق الحصى. «ولماذا تظن أن الآنسة راشيل تقفل الأبواب بهذا الإحكام ليلاً؟ لقد شاهدت أنا آثاره في فنائنا الخلفي مرات كثيرة في الصباح، كما سمعتُه في إحدى الليالي يخرش بأظافره الباب المنخلي الخلفي، ولكنه كان قد اختفى عند وصول أتيكوس».

قال ديل: «يا ترى كيف هو شكله؟»

قدم جم وصفاً معقولاً لبو: كان طول بو حوالي المترين وذلك إذا ما أخذنا آثاره بعين الاعتبار. وكان يتعشى على السناجب النيئة وأية قطط يستطيع الإمساك بها، ولذا كانت يداه ملطختين بالدماء:

إذا أكلت حيواناً نيئاً، لا يمكنك أبداً أن تغسل الدم عن يديك. كما كانت هناك ندبة طويلة متعرجة على امتداد وجهه، أما ما تبقى له من أسنان فهي صفراء وقد نخرها السوس. كما كانت عيناه جاحظتين وكان يريّل معظم الوقت.

قال ديل: «لنحاول أن نجعله يخرج من البيت. أود أن أرى شكله».

قال جم لديل أنه إذا أراد أن يُقتل فليس عليه سوى أن يذهب ويطرق ذلك الباب الأمامي.

وقد حدثت غارتنا الأولى لأن ديل راهنٍ جم على «الشبح الرمادي» مقابل نسختين من «توم سويفت» متحدياً إياه أن يجرؤ على الذهاب إلى أبعد من البوابة الخارجية لمنزل آل رادلي. في حياته كلها لم يرفض جم أي تحدٍ لشجاعته.

فكر جم في الموضوع مدة ثلاثة أيام وأعتقد أنه كان يحب الشرف أكثر من حياته، فقد استطاع ديل أن ينهكه بسهولة. قال له ديل: «أنت خائف». وكان ذلك في اليوم الأول. قال جم: «لست خائفاً، ولكنها سطوة الاحترام». وفي اليوم التالي قال ديل: «أنت خائف جداً وإلى حد أنك لا تجرؤ على وضع إبهام قدمك في الفناء الأمامي». قال جم إنه يعتقد أن الأمر ليس كذلك وأنه قد مرّ عبر منزل آل رادلي في كل يوم من أيام حياته قضاه في المدرسة.

قلت: «ولكنك تفعل ذلك دائماً وأنت تجري».

إلا أن ديل حاصره تماماً في اليوم الثالث حين قال له إن الناس في «ميريديان» ليسوا بكل تأكيد جزعين كسكان مايكوم، وإنه لم يسبق له أن رأى أناساً جزعين كأولئك الذين رآهم في مايكوم.

كان هذا كافياً لجعل جم يمشي حتى الزاوية، حيث توقف مستنداً إلى عمود النور، مراقباً البوابة المعلقة بجنون على المفصّلة المصنوعة منزلياً.

قال جم حين لحقنا به: «آمل أن تكون قد استوعبت أنه سيقتلنا جميعاً وفرداً فرداً يا ديل هاريس، ولا تلمني حين يقتلع عينيك، فأنت الذي بدأ هذا الأمر كله. تذكرْ».

همهم ديل بصبر: «لازلت خائفاً».

أراد جم من ديل أن يتحقق نهائياً من أنه لم يكن خائفاً من أي شيء: «المشكلة هي أني لا أستطيع أن أجد الطريقة بحيث أجعله يخرج دون أن نعطيه الفرصة للإيقاع بنا». وفوق ذلك كان مع جم أخته الصغيرة التي يجب أن يأخذها في الحسبان.

وحين قال ذلك، عرفت أنه كان خائفاً. لقد قال جم هذا الكلام نفسه مرة حين تحديتُه أن يقفز من أعلى المنزل، إذ قال: (لو أني قتلت، فماذا سيحل بك؟) ثم قفز وهبط سالماً، وقد غادره حسه بالمسؤولية حتى جوبه الآن بتحدي منزل آل رادلي.

سأله ديل: «أتراهن؟ إن كنت تجرؤ على المراهنة، إذن..».

قال جم: «يا ديل، عليك أن تفكر أولاً في مثل هذه الأمور، دعني أفكر دقيقة واحدة... إن هذا أشبه بجعل السلحفاة تخرج رأسها..»..

سأله ديل: «وكيف ذلك؟»

أجاب جم: «تشعل عود كبريت تحتها».

قلت لجم إنه إذا أشعل حريقاً في منزل آل رادلي فسأشي عليه عند أتيكوس.

قال ديل إن إشعال عود ثقاب تحت سلحفاة أمر كريه.

زمجر جم قائلاً: «ليس كريهاً، هذا مجرد إقناع لها. هذا لا يشبه رميها في النار».

ـ وكيف لك أن تعرف أن عود الثقاب لا يؤذيها؟

ـ السلاحف لا إحساس لها يا غبي.

ـ هل سبق وكنت سلحفاة؟

ـ يا للسماء يا ديل. دعني أفكر... أعتقد أننا نستطيع أن نهزّه...

ظل جم يفكر فترة طويلة إلى حد أن ديل تنازل أخيراً بلطف، قال: «لن أقول أنك جبنت فلم تجرؤ على الرهان، وأقبل مبادلتك بـ«الشبح الرمادي» إذا ذهبت ولمست المنزل فحسب».

لمعت عينا جم: «ألمسه فحسب؟ ذاك كل ما في الأمر؟»

أطرق ديل برأسه.

ـ هل أنت واثق من أن هذا هو كل ما في الأمر؟ لا أريد منك أن تطالب بشيء آخر بمجرد أن أعود.

قال ديل: «حسناً، لن أطالبك بأكثر من ذلك. ربما سيخرج ليطاردك في الفناء، ثم سنهجم عليه أنا و«سكاوت» ونمسك به حتى نستطيع أن نقول له إننا لا نريد إيذاءه».

غادرنا الزاوية وعبرنا الشارع الجانبي الذي يوازي واجهة منزل آل رادلي وتوقفنا عند الباب.

قال ديل: «هيا، سكاوت وأنا خلفك تماماً».

قال جم: «سأذهب، لا تعجلني».

مشى حتى زاوية المرج المحيط بالمنزل ثم عاد ثانية، وهو يدرس الأرض المنبسطة وكأنه يحاول أن يقرر أفضل طريقة للدخول. كان قد قطب جبينه وراح يحك رأسه.

عندها عبرت عن سخريتي منه.

فتح جم الباب وأسرع نحو جانب المنزل، صفعه بكفه وعاد يجري متجاوزاً إيانا، ودون أن ينتظر ليرى إن كانت غزوته ناجحة. ولحقنا به ديل وأنا فوراً. ولما أصبحنا آمنين عند رواقنا، نظرنا إلى الخلف لاهثين.

كان المنزل العتيق لا يزال كمنا هو، متهدلاً ومريضاً، ولكن حين حدقنا عبر الشارع ظننّا أننا شاهدنا مصراعاً داخلياً يتحرك، نقرة خفيفة. حركة صغيرة غير مرئية تقريباً، ثم هاهو المنزل وقد عاد ساكناً.



الفصل الثاني

غادرنا ديل في بداية شهر أيلول (سبتمبر) للعودة إلى ميريديان. وقد ودعناه حتى محطة باص الساعة الخامسة، وشعرت بالبؤس بدونه حين تذكرت أني سأذهب إلى المدرسة للمرة الأولى خلال أسبوع. ولم أكن قد تطلعت في حياتي كلها إلى أي شيء آخر بمثل هذه اللهفة. فخلال أوقات الشتاء كنت أجدني جالسة في الكوخ الصغير فوق الشجرتين أتطلع إلى باحة المدرسة، أتجسس على حشود الأطفال من خلال تلسكوب (يكبّر بمقدار مرتين) كان جم قد أعطانيه، فأتعلّم ألعابهم، وأتابع سترة جم الحمراء عبر حلقات لعبة «الغميضة» (الاستغماية) المتمّعجة، وأشارك سراً أولئك الأطفال هزائمهم وانتصاراتهم الصغيرة. وكنت أتوق إلى الانضمام إليهم.

وقد تنازل جم ووافق على اصطحابي إلى المدرسة في اليوم الأول، وهو عمل يقوم به عادة والدا التلميذ، ولكن أتيكوس قال إنه سيسرّ جم أن يريني غرفة صفّي. وأعتقد أن بعض النقود قد تم تبادلها في هذه الصفقة، فبينما كنا نهرول من حول الزاوية عبر منزل آل رادلي، سمعت رنيناً غير مألوف آت من جيوب جم. وحين أبطأنا لنمشي على حافة باحة المدرسة لم ينس جم أن يشرح لي أن علي ألاّ أزعجه خلال ساعات المدرسة، وألا أقترب منه طالبة منه أن نمثل فصلاً عن «طرزان ورجال النمل»، أو أن أحرجه بتلميحات إلى حياته الخاصة، أو أن أتبعه كظله في الفرصة وعند الظهر. كان علي أن ألزم حدود الصف الأول وهو سيلزم حدود الصف الخامس. أي باختصار، كان علي أن أتركه وشأنه.

سألته: «أتعني أننا لن نستطيع أن نلعب معاً بعد الآن؟»

قال: «في البيت سيكون الأمر على ما هو عليه، ولكنك سترين أن المدرسة شيء مختلف».

وكانت فعلاً كذلك. فقبل أن انتهى أول صباح لي هناك، كانت معلمتنا «الآنسة كارولاين فيشر» قد جذبتني إلى مقدمة الصف وربتت على كفي بمسطرة، ثم جعلتني أقف في زاوية الصف حتى الظهر.

لم يكن عمر الآنسة كارولاين يزيد عن الحادية والعشرين. كان لها شعر كستنائي لامع، وخدان ورديان، وتضع طلاء قرمزياً على أظافر يدها. كما كانت ترتدي حذاء ذا كعب عال وثوباً مقلّماً باللونين الأحمر والأبيض. كان شكلها ورائحتها أشبه بقرص النعناع. وكانت قد استأجرت الغرفة الأمامية من الطابق العلوي من منزل «الآنسة مودي أتكينسون» الذي يقع عبر الشارع من منزلنا ولا يبعد عنه سوى بمبنى واحد، وحين قدمتنا إليها الآنسة مودي مرة من المرات، ظل جم أياماً بحالها في حالة ضبابية.

كتبت الآنسة كارولاين اسمها على اللوح الأسود، وقالت: «هذه الكتابة تقول إن اسمي هو الآنسة كارولاين فيشر. أنا من ألاباما الشمالية، من مديرية ونستون». همهم الصف بقلق من يتوجس شراً، فلعلّ هذه الآنسة تتمتع بتلك الطبائع الشاذة التي عرف بها أهل تلك المقاطعة. (حين انسحبت ألاباما من «الاتحاد» في 11 كانون الثاني (يناير) من عام 1861، انسحبت مقاطعة ونستون من ولاية ألاباما وكان كل طفل في مقاطعة مايكوم يعرف ذلك). كانت ألاباما الشمالية مشهورة بمصانع الكحول والبغال الكبيرة الحجم وشركات الفولاذ وبالجمهوريين والأساتذة والأشخاص الآخرين الذين لا خلفية اجتماعية لهم.

بدأت الآنسة كارولاين اليوم الدراسي بقراءة حكاية عن القطط. وكانت هذه القطط تتحاور طويلاً فيما بينها، وترتدي ملابس صغيرة جميلة وتعيش في منزل دافئ تحت مدفأة المطبخ. وحين ذهبت «السيدة قطة» إلى الدكان لتطلب «فئراناً مذوبة بالشوكولاته» كان الصف قد بدأ يتلّوى من الملل كدلو مليء بديدان «الكاتاوبا». لم يبد أن الآنسة كارولاين كانت مدركة أن تلاميذ الصف الأول المهلهلي الثياب، المرتدين قمصاناً من القطن وتنانير مصنوعة من أكياس الدقيق، والذين كان معظمهم قد مارس قطع القطن وإطعام الخنازير منذ أن عرفت أقدامهم السير، أن هؤلاء محصّنون ضد الأدب الخيالي. وصلت الآنسة كارولاين إلى نهاية الحكاية ثم قالت: «أوه، ألم تكن تلك حكاية جميلة؟».

ثم مضت نحو اللوح وكتبت عليه الأحرف الهجائية بأحرف استهلالية ضخمة وذات زوايا قائمة، ثم استدارت نحو الصف وسألت: «هل يعرف أحدكم ما هذه؟»

كان الجميع يعرفون، فقد كان معظم تلاميذ الصف الأول من راسبي السنة الماضية.

أعتقد أنها اختارتني لأنها كانت تعرف اسمي، وبينما كنت أقرأ الأبجدية برز خط خفيف بين حاجبيها، وبعد أن جعلتني أقرأ معظم كتاب «قراءتي الأولى» وأسعار البورصة في صحيفة «ذا موبيل ريجستر» بصوت عال، اكتشفت أني كنت متعلمة ونظرت إلي بأكثر من مجرد كره خفيف. قالت لي الآنسة كارولاين أن أقول لأبي ألا يعلّمني بعد اليوم أي شيء، فهذا سيؤثر على ما أتلقاه في المدرسة.

سألتها مندهشة: «يعلّمني؟» ثم أضفت: «إنه لم يعلمني شيئاً يا آنسة كارولاين. ليس لدى أتيكوس وقت كاف لتعليمي أي شيء»،

فابتسمت الآنسة كارولاين وهزت رأسها. ولكنني تابعت قائلة: «إنه يكون متعباً في الليل إلى حد أنه لا يفعل شيئاً عدا القعود في غرفة الجلوس والقراءة».

سألتني الآنسة كارولاين بودّ: «إذا لم يعلمك هو، فمن علّمك إذن؟ لا بد أن أحداً قد علمك. فأنت لم تولدي وأنت تقرئين «ذا موبيل ريجيستر»».

قلت: «يقول جم إني ولدت كذلك وقد قرأ في أحد الكتب أن كنيتي هي «بولفينتش» وليس «فينتش». ويقول جم إن اسمي الحقيقي هو «جان لويز بولفينتش»، وأنه تمت مقايضتي حين ولدت وأني بالفعل..».

كان واضحاً أن الآنسة كارولاين كانت تظنني أكذب. قالت: «لا يجب أن نترك خيالنا يسرح بنا يا عزيزتي. والآن قولي لأبيك ألا يعلمك شيئاً بعد اليوم. من الأفضل أن يبدأ المرء بتعلّم القراءة وذهنه صاف. ستقولين له إني سأتولى أمرك من الآن فصاعداً وسأحاول أن أزيل الضرر..».

ـ سيدتي؟

ـ أبوك لا يعرف كيف يعلّم. يمكنك أن تجلسي الآن.

تمتمت بأني آسفة وجلست إلى مكاني وأنا أفكر في جريمتي. أنا لم أتعلم القراءة عمداً، ولكني نوعاً ما كنت أتخبّط متعثرة وعلى نحو محظور في الجرائد اليومية. هل تعلمت يا ترى في الساعات الطويلة في الكنيسة؟ لم أستطع أن أتذكر أني كنت يوماً غير قادرة على قراءة التراتيل. والآن بما أني كنت مضطرة إلى التفكير بالموضوع، فإني أعتقد أن القراءة أمر أتاني هكذا، تعلمتُها كما تعلّمت أن أزرّر قاعدة سروالي الداخلي الشتوي الطويل دون أن أنظر إلى الخلف، أو أن

أربط سير حذائي صانعة منه عقدة ذات قوسين. لا أستطيع أن أتذكر متى بدأت الأسطر التي كانت فوق أصبع أتيكوس المتحرك تنفصل إلى كلمات، ولكني كنت أحدق فيها كل الأمسيات التي في ذاكرتي، وأصغي إلى الأخبار اليومية: مشاريع القوانين التي ستتحول إلى قوانين، ويوميات «لورنزو داو»، وأي شيء آخر يحدث أن يكون أتيكوس يطالعه حين أتسلل إلى حضنه كل ليلة. وحتى الآن؛ أي حين أحسست أني قد أخسر القراءة، لم أشعر أني أحببتها في يوم من الأيام، فالمرء لا يحب التنفس مثلاً.

كنت أعرف أني أزعجت الآنسة كارولاين، ولذلك ظللت وحيدة ورحت أحدق عبر النافذة إلى الخارج حتى حان موعد الفرصة، حين أخذني جم من بين سرب الصف الأول في باحة المدرسة. سألني كيف هي الأمور، فقلت له:

ـ إذا لم أكن مضطرة للبقاء هنا، فإني أرغب في الرحيل. يا جم، إن تلك السيدة الملعونة تقول إن أتيكوس كان يعلمني القراءة وإن عليه أن يتوقف عن ذلك...

ـ لا عليك يا سكاوت. تقول معلمتنا أن الآنسة كارولاين تطرح أسلوباً جديداً في التعليم. وقد تعلمته في الكلية. وسرعان ما سيطبق هذا الأسلوب على كل الصفوف. وهذا الأسلوب لا يضطرك إلى تعلم الكثير من خلال الكتب. لو أردت مثلاً أن تعرفي شيئاً ما عن البقر فعليك أن تذهبي وتحلبي بقرة، أترين ما أعني؟

ـ أجل يا جم، ولكني لا أريد دراسة البقر، أنا...

ـ طبعاً يجب ذلك. عليك أن تعرفي شيئاً عن البقر، إنها جزء كبير من حياة مقاطعة مايكوم.

وقد حاولت إرضاء نفسي بأن سألت جم إن كان قد فقد عقله.

ـ إني أحاول فقط أن أحكي لك عن الأسلوب الجديد في تعليم الصف الأول يا عنيدة. إنه يسمى «نظام ديوي العشري».

وبما أنه لم يسبق لي أن شككت بأقوال جم، فلم أر سبباً يدعوني للبدء بالشك الآن. كان «نظام ديوي العشري» يعتمد جزئياً على قيام الآنسة كارولاين بالتلويح ببطاقات أمامنا مطبوع عليها كلمات مثل: «الـ»، «قطة»، «فأر»، «رجل» و«أنت». ولم يكن متوقعاً منا أن نبدي أي تعليق، وقد كان على الصف أن يتلقى تلك الرؤى الانطباعية صامتاً. شعرت بالملل، فبدأت بكتابة رسالة إلى ديل. وقد أمسكت بي الآنسة كارولاين وأنا أكتب وطلبت مني أن أطلب من أبي التوقف عن تعليمي. ثم قالت: «وفوق ذلك، فنحن لا نمارس الكتابة في الصف الأول، بل نتعلم كتابة الحروف الاستهلالية (الكبيرة). لن تتعلمي الكتابة حتى تصلي إلى الصف الثالث».

كانت كالبورنيا هي الملومة في ذلك. فقد كان ذلك يجعلني أمتنع عن جعلها تصاب بالجنون في الأيام المطيرة، كما أعتقد. كانت توكل إليّ مهمة الكتابة عن طريق خربشة الأحرف الأبجدية على أعلى اللوح، ثم تقوم بنسخ فصل من الكتاب المقدس تحتها. وإذا ما قمتُ بنسخ ما خطّته يدها على نحو مرضٍ، كانت تكافئني بشطيرة مفتوحة من الخبز والزبدة والسكر. لم يكن هناك أي مجال لروح العاطفة: فقد كنت نادراً ما أرضيها وكانت نادراً ما تكافئني.

قالت الآنسة كارولاين وهي تقاطع تفكيري في ضغينتي الجديدة على كالبورنيا: «كل من يذهب إلى بيته لطعام الغداء فليرفع يده».

رفع أطفال البلدة أيديهم، فتفحصتنا.

ـ كل من جلب معه غداءه فليضعه على منضدته.

برزت دلاء دبس السكر من أماكن خفية، ورقص السقف بنور

معدني. مشت الآنسة كارولاين بين صفوف المناضد تحدق في أوعية الغداء وتلحسها بأصبعها بفضول لترى ما فيها. كانت تومئ برأسها إذا ما أعجبتها المحتويات، أو تقطب جبينها قليلاً إذا لم تعجبها. ثم توقفت عند «وولتر كانينغهام». سألته: «أين طعامك؟»

كان وجه وولتر كانينغهام يقول لكل شخص في الصف الأول إنه يعاني من ديدان الانكليستوما. كما كان عدم احتذائه ينبئنا كيف أصيب بها. كان الناس يصابون بهذه الديدان إذا مشوا حفاة في فناء محاذ لمخزن حبوب أو مراغة للخنازير. ولو كان وولتر يملك حذاء لكان سيحتذيه في أول يوم من أيام المدرسة ثم يرميه حتى منتصف الشتاء. كان يرتدي بالفعل قميصاً نظيفاً و«أفرولاً» مرتّقاً بعناية.

سألته الآنسة كارولاين.

ـ هل نسيت أن تجلب معك غداءك هذا الصباح؟.

نظر وولتر أمامه مباشرة. ورأيت عضلة تقفز في فكه النحيل.

سألته الآنسة كارولاين مرة أخرى:

ـ هل نسيته هذا الصباح؟

فاختلج فك وولتر مرة أخرى.

وأخيراً همهم قائلاً:

ـ أجل.

عادت الآنسة كارولاين إلى مكتبها وفتحت حافظة نقودها. ثم قالت له: «إليك هذا الربع، اذهب وكُلْ في البلدة اليوم. وغداً ستعيده إلي».

هز وولتر رأسه ثم قال متشدقاً بلطف:

ـ لا. شكراً سيدتي.

تسلل نفاد الصبر إلى صوت الآنسة كارولاين:

ـ هيا يا وولتر، تعال وخذه.

هز وولتر رأسه مرة أخرى.

وحين هز وولتر رأسه للمرة الثالثة همس أحدهم:

ـ اذهبي يا سكاوت وقولي لها.

استدرتُ فرأيت معظم التلاميذ من سكان المدينة وجميع ركاب الباص ينظرون إلي. كان قد سبق لي أن تحاورت مرتين مع الآنسة كارولاين اليوم، وكانوا ينظرون إلي على أساس الثقة البريئة بأن الألفة تخلق التفاهم.

وقفت على نحو مهذب نيابة عن وولتر وقلت:

ـ آ... آنسة كارولاين؟

ـ ما القصة يا جان لويز؟

ـ آنسة كارولاين، إنه من عائلة كانينغهام.

ظننت أني أوضحت الأمر بما فيه الكفاية. فقد كان جلياً بالنسبة للبقية منا: كان وولتر كانينغهام جالساً هناك ورأسه مدلى على كتفه. فهو لم ينس غداءه، فلم يكن هناك غداء يجلبه معه، لا اليوم ولا غداً على الأرجح. كما أنه لم يسبق له طول حياته أن رأى ثلاثة أرباع دولار مرة واحدة.

حاولت مرة أخرى:

ـ وولتر من عائلة كانينغهام يا آنسة كارولاين.

ـ عفواً يا جان لويز؟

ـ حسناً يا سيدتي، ستتعرفين على سكان المديرية كلهم فيما بعد. إن أفراد عائلة كانينغهام لا يقبلون أن يأخذوا شيئاً لا يستطيعون

رده: لا سلاّت الكنيسة ولا العملة. إنهم لا يأخذون أبداً أي شيء من أي شخص، بل يعيشون على ما لديهم. ليس لديهم الكثير ولكنهم يعيشون عليه.

كنت قد اكتسبت معرفتي الخاصة بقبيلة كانينغهام ـ وكانت مقتصرة على تلك العشيرة منهم فحسب ـ من أحداث العام الماضي. كان والد وولتر أحد زبائن أتيكوس، وبعد حوار كئيب جرى في غرفة جلوسنا في إحدى الليالي ودار حول «االملك الموقوف»، وقبل أن يغادر السيد كانينغهام قال: «سيد فينتش، لا أعرف متى سأستطيع أن أدفع لك».

قال أتيكوس: «فليكن ذلك آخر ما يقلق بالك».

وحين سألت جم ما معنى كلمة «ملك موقوف»، شرحها لي جم على أنها الحالة التي يكون فيها ذيل المرء منحشراً في شق. سألت أتيكوس إن كان السيد كانينغهام سيدفع لنا على الإطلاق.

أجاب أتيكوس: «ليس نقوداً، ولكن قبل نهاية العام سيكون قد دفع لي. ولكن انتبهي وراقبي».

وقد راقبنا. وفي صباح أحد الأيام وجدنا جم وأنا حملاً من حطب المدفأة في الفناء الخلفي. وفيما بعد ظهر كيس من الجوز على درجنا الخلفي. ومع عيد الميلاد وصلنا قفص من نبات حشيشة الباطور والبهشية. وفي الربيع حين وجدنا كيساً من الخيش مليئاً بالأجزاء الخضراء من نبات الكرنب، قال تيكوس إن السيد كانينغهام قد دفع لنا ما عليه وزيادة.

سألته:

ـ لماذا يدفع لك بهذه الطريقة؟

ـ لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنه بها أن يدفع لي. ليس لديه نقود.

ـ هل نحن فقراء يا أتيكوس؟

أومأ أتيكوس برأسه وقال:

ـ نحن كذلك بالفعل.

تغضن أنف جم وسأل:

ـ هل نحن فقراء شأن آل كانينغهام؟

ـ ليس بالضبط. فآل كانينغهام أشخاص ريفيون، مزارعون، وقد كانت الأزمة الاقتصادية أشد ما تكون عليهم.

قال أتيكوس إن المهنيين فقراء لأن المزارعين كانوا فقراء. وبما أن مقاطعة مايكوم منطقة زراعية فإن القطع النقدية من فئة الخمسة سنتات والعشرة سنتات أصبحت صعبة الوصول إلى أطباء الصحة والأسنان والمحامين. كان «الملك الموقوف» جزءاً فقط من متاعب السيد كانينغهام. أما الآكرات[1] التي لم تكن موقوفة فقد ارتهنت كلها، والنقود القليلة التي قبضت ذهبت كفائدة. كان بإمكان السيد كانينغهام الحصول على وظيفة من «الوكالة العمومية للعمال» WPA لو أبقى فمه مغلقاً، ولكنه لو أهمل أرضه من ناحية أخرى فستتعرض للهلاك، وكان يفضل أن يجوع على أن يخسر أرضه وأن يفقد حريته في انتخاب من يشاء. قال أتيكوس إن السيد كانينغهام ينتمي إلى نوع عنيد من الرجال.

ولما لم يكن بحوزة آل كانينغهام نقود يدفعونها إلى المحامي، فقد كانوا يدفعون له بكل بساطة مما يملكونه. قال أتيكوس: «هل تعرفان أن الدكتور رينولدز يعمل بالطريقة نفسها؟ إنه يتقاضى مثلاً بوشلا[2] من البطاطا لقاء أتعاب التوليد. يا آنسة سكاوت

(1) الأكر يعادل 4000م2 تقريباً. (المترجم).

(2) بوشل: مكيال مقداره 8 غالونات. (المترجم).

إذا أعرتني اهتمامك أستطيع أن أشرح لك ما تعنيه كلمة «الملك الموقوف». إن تعريفات جم دقيقة جداً أحياناً».

لو قدرت أن أشرح هذه الأمور للآنسة كارولاين، لكنت استطعت أن أوفر على نفسي بعض الحرج، وعلى الآنسة كارولاين العار اللاحق، ولكني ما كنت قادرة على شرح الأمور بالمهارة التي يتمتع بها أتيكوس، ولذا قلت: «أنت تُكرهينه على مالا يحب يا آنسة كارولاين. ليس بحوزة وولتر ربع دولار في البيت ليدفعه لك غداً، كما أنك لست في حاجة إلى حطب للمدفأة».

وقفت الآنسة كارولاين ساكنة لا تتحرك ثم أمسكت بي من ياقتي ودفعتني نحو مكتبها. قالت: «يا جان لويز، لقد نلت منك اليوم ما فيه الكفاية. أنت لا تحسنين التصرف في كل ما تفعلينه يا عزيزتي. ابسطي كفك».

ظننت أنها ستبصق فيه، وكان ذلك هو السبب الوحيد الذي يدفع أي امرئ في مايكوم ليبسط كفه: كانت تلك طريقة قديمة للتصديق على العقود الشفوية. ولما كنت أتساءل في نفسي عن الصفقة التي كنت قد عقدتها مع المعلمة، فقد استدرت نحو الصف عساني أحصل على جواب، ونظر إليّ الصف بحيرة. أمسكت الآنسة كارولاين بمسطرتها وضربتني بها نصف دزينة من الضربات الخفيفة السريعة ثم طلبت مني أن أقف عند الزاوية. وأخيراً هدر الصف بعاصفة من الضحك حين أدرك التلاميذ أخيراً أن الآنسة كارولاين قد ضربتني.

وحين هددت كارولاين الصف بمصير مشابه، انفجر الصف الأول مرة أخرى، ولكنه جمد كله فجأة حين سقط عليهم ظل «الآنسة بلاونت». لقد ظهرت الآنسة بلاونت، وهي من سكان مايكوم

ولم تضطلع بعد على «نظام ديوي العشري»، عند الباب ويداها على وركيها وقالت: «إذا سمعت صوتاً آخر من هذه الغرفة فسأحرق كل من فيها. يا آنسة كارولاين، إن الصف السادس غير قادر على التركيز على موضوع الأهرامات بسبب هذا الصخب كله».

لكن إقامتي في الزاوية كانت قصيرة، أنقذ الجرس الآنسة كارولاين، فراحت تراقب التلاميذ وهم يخرجون كل بدوره من أجل الغداء. وبما أنني كنت آخر الخارجين، فقد رأيتها تجلس منهكة في كرسيها وتدفن رأسها بين ذراعيها. لو كان سلوكها أكثر وداً تجاهي، لكنت قد شعرت بالأسف عليها. فقد كانت شخصاً صغيراً وجميلاً.

* * *

الفصل الثالث

حين أمسكت بوولتر كانينغهام في باحة المدرسة شعرت ببعض السعادة، ولكن وبينما كنت أمرغ أنفه في التراب، جاء جم وطلب مني أن أتوقف عما كنت أفعله.

قال:

ـ أنت أضخم حجماً منه.

ـ إنه في مثل سنك، تقريباً، وقد دفعني إلى أن أخطئ في تصرفي.

ـ دعيه وحاله يا سكاوت. قولي لي لماذا تفعلين به ما تفعلينه؟

ـ لم يكن معه طعام للغداء.

ثم شرحت لجم تورطي في مشاكل وولتر الغذائية.

كان وولتر قد نهض الآن ووقف بهدوء يصغي إلى جم وإليّ. كانت قبضتاه نصف مضمومتين وكأنه يتوقع منا أن ننقضّ كلانا عليه. ضربت الأرض بقدمي حتى يهرب، ولكن جم مدّ يده وأوقفني.

ثم فحص وولتر بنوع من التأمل. سأله: «هل أبوك هو السيد وولتر كانينغهام من «أولد ساروم»؟» فأومأ وولتر برأسه.

كانت هيئة وولتر توحي بأنه قد تربّى على علف السمك: فقد كانت عيناه ـ ولهما زرقة عيني ديل هاريس ـ مؤطرتين بلون أحمر ودامعتين. وكان وجهه شاحباً لا لون فيه عدا أرنبة أنفه التي كانت ذات لون زهري مخضل. كان يعبث بأصابعه بحمّالات «أوفرولـه» وينقر على الخطافات المعدنية الصغيرة بعصبية.

ابتسم له جم فجأة وقال: «تعال معنا لتشاركنا طعام الغداء في البيت يا وولتر. سيسرنا ذلك».

أشرق وجه وولتر ثم أظلم فجأة.

قال جم: «أبونا صديق لأبيك. وسكاوت هذه مجنونة، وهي لن تتشاجر معك بعد الآن».

قلت: «لست واثقة من هذا تماماً». فقد أغضبني جم إذ منح وولتر عهداً باسمي دون استشارتي، ولكن دقائق استراحة الغداء الثمينة كانت تضيع تدريجياً، فقلت: «حسناً يا وولتر، لن أهاجمك بعد اليوم. ألا تحب الفاصولياء؟ إن «كال» طباخة ماهرة».

وقف وولتر في مكانه وهو يعض على شفته. فكان أن تخلّينا عن عرضنا، ومضينا في طريقنا، وكنا على وشك الوصول إلى منزل آل رادلي حين صاح وولتر: «هاي، أنا قادم».

حين لحق بنا وولتر، تحدث إليه جم بلطف. قال بودّ وهو يشير إلى منزل آل رادلي: «يعيش هنا شبح. هل سبق لك أن سمعت عنه يا وولتر؟»

قال وولتر: «أعتقد أني سمعت عنه. لقد كدت أموت في أول عام جئت فيه إلى المدرسة حين أكلت من تلك الجوزات، ويقول الناس إنه قد سمّمها ووضعها عل الطرف الآخر من الحاجز في فناء المدرسة».

بدأ جم أقل خوفاً الآن من بو ردالي حيث كنا نسير ـ وولتر وأنا ـ إلى جانبه. بل إن جم راح يتفاخر بالفعل قائلاً لوولتر: «لقد مضيت مرة حتى وصلت إلى المنزل».

فقلت للغيوم التي في الأعالي: «إن من مضى مرة حتى وصل إلى المنزل لا يجب أن يجري في كل مرة يمر فيه من جانبه».

ـ ومن هو ذاك الذي يجري يا آنسة يا بائسة؟

ـ أنت الذي يجري، حين لا يكون معك أحد.

وحين وصلنا إلى الدرج الأمامي كان وولتر قد نسي أنه من عائلة كانينغهام. جرى جم إلى المطبخ وطلب من كالبورنيا أن تضع طبقاً إضافياً فقد كان معنا ضيف. وجّه أتيكوس تحية إلى وولتر وبدأ معه نقاشاً حول المحاصيل لم أستطع لا أنا ولا جم أن نتابعه.

قال وولتر: «إن السبب في أني لا أستطيع النجاح من الصف الأول يا سيد فينتش هو أني مضطر في كل ربيع للبقاء مع أبي لأساعده في الحقل، ولكن هناك في البيت شخص آخر أصبح في حجم مناسب للعمل في الحقل».

سألته: «هل دفعتم له بوشلاً من البطاطا لقاء ذلك؟» ولكن أتيكوس حذرني بإيماءة من رأسه.

وبينما كان وولتر يكوم الطعام في طبقه، راح يتحدث مع أتيكوس حيث الند للند، مما أثار استغرابنا جم وأنا. كان أتيكوس يبسط بعض المشاكل الزراعية حين قاطعه وولتر ليسأله إن كان لدينا في البيت بعض من دبس السكر. استدعى أتيكوس كالبورنيا التي عادت تحمل وعاء الشراب ثم وقفت تنتظر وولتر حتى يأخذ منه كما يشاء. صب وولتر الشراب على الخضار واللحم بسخاء. وكان سيصبه ربما في كأس الحليب لولا أني سألته عما كان يفعله باستغراب شديد.

حين أعاد وولتر الوعاء إلى مكانه رنّ الطبق الفضي، ثم رأيته يضع يديه في حجره بسرعة. ثم أطرق برأسه.

أومأ أتيكوس برأسه تجاهي محذّراً مرة أخرى. فاحتججت قائلة: «ولكنه أغرق غداءه في الشراب، لقد صبّه كله فوق..».

عند ذاك طلبت مني كالبورنيا أن آتي إلى المطبخ.

كان غضبها شديداً، وحين كانت كالبورنيا تغضب، كانت تخطئ في النحو. حين تكون هادئة، يكون نحو كالبورنيا جيداً بمستوى جودة نحو أي شخص آخر في مايكوم. قال أتيكوس مرة إن كالبورنيا قد تلقت من التعليم أكثر مما تلقاه معظم بني جنسها من الملونين.

حين كانت تنظر إلي نظرتها الشرزاء، كانت التجاعيد الدقيقة حول عينيها تزداد عمقاً. قالت لي هامسة بعنف: «هناك أشخاص لا يأكلون كما نأكل، ولكن ليس عليك أن تعارضيهم على المائدة إذا فعلوا ذلك. هذا الصبي رفيقكم، ولو أراد أن يأكل غطاء المائدة فعليك أن تسمحي له بذلك، أتسمعين؟».

ـ هذا ليس رفيقاً يا كال، إنه مجرد شخص من آل كانينغهام...

ـ أغلقي فمك. لا يهم من يكون. كل من يدوس بقدمه أرض هذا المنزل رفيق لكم، ولا أريد منك أن تبدي الملاحظات حول أسلوبه كما فعلت الآن بكل ذلك الصوت المرتفع القوي. قد تكونون أفضل من آل كانينغهام ولكن الطريقة التي تخجلينه بها شيء سيء جداً. إذا كنت لا تحسنين التصرف على المائدة، فالأفضل لك أن تجلسي هنا وتتناولي طعامك في المطبخ.

أرسلتني كالبورنيا عبر الباب المتأرجح إلى غرفة الطعام بضربة موجعة. استعدت طبقي وعدت إلى المطبخ لأنهي غدائي فيه، ممتنة على أية حال لأني أُنقذت من مواجهتهم مرة أخرى. قلت لكالبورنيا إن عليها أن تنتظر فحسب، وأني سأنتقم منها: في يوم ما حين تغفل عينها عني سأذهب وأغرق نفسي في «دوامة باركر» وعندها ستشعر بالأسف. وفوق ذلك، فقد كان قد سبق لها وأوقعتني في مشكلة اليوم: فقد علمتني الكتابة، وكانت تلك غلطة منها. قالت: «كفى احتجاجاً».

عاد جم ومعه وولتر إلى المدرسة قبلي: كان التخلف عنهما لإخبار أتيكوس بأعمال الظلم التي ارتكبتها كالبورنيا بحقي يستحق عدواً سريعاً مروراً بمنزل آل رادلي. أنهيت كلامي الموجه إلى أتيكوس قائلة: «إنها تحب جم أكثر مني، على أية حال»، ثم اقترحتُ عليه أن يطلب منها الرحيل فوراً.

كان صوت أتيكوس قاسياً حين رد عليّ قائلاً: «هل سبق ولاحظت أن جم لا يزعجها بقدر نصف إزعاجك لها؟ ليست لديّ أية نية في التخلص منها، الآن أو أبداً. لا يمكننا أن نستمر يوماً واحداً دون «كال». هل سبق وفكرت في ذلك؟ عليك أن تفكري بما تفعله كال من أجلك، وهو كثير، ثم عليك أن تطيعيها، هل تسمعين ما أقول»؟

عدت إلى المدرسة حاقدة على كالبورنيا على نحو متواصل وغير قادرة على التفكير في أي شيء آخر، إلى أن سمعت صرخة فجائية بدّدت غيظي. نظرت لأرى الآنسة كارولاين تقف في منتصف الغرفة، والفزع الكامل يطفح من وجهها. من الواضح أنها كانت قد استعادت رباطة جأشها إلى حد استئناف ممارسة التعليم بعد الظهر.

صرخت قائلة: «إنه حيّ».

هب التلاميذ الذكور دفعة واحدة لمساعدتها. يا إلهي، كنت أظنها خائفة من فأر. قال «ليتل تشاك ليتل»، الذي كان صبره على جميع المخلوقات الحية شيئاً أشبه بالظاهرة: «أين ذهب يا آنسة كارولاين؟ قولي لي أين ذهب بسرعة. يا «دي. سي». وهنا استدار نحو صبي كان خلفه واستأنف قائلاً: «يا «دي. سي» أغلق الباب وسنمسك به أسرعي يا سيدتي وقولي أين ذهب؟».

أشارت الآنسة كارولاين بإصبع راجفة ليس إلى الأرض، لا إلى إحدى المناضد، بل إلى تلميذ ضخم مجهول. قطب «ليتل تشاك ليتل» وقال بلطف: «أتعنينه هو يا سيدتي؟ أجل يا سيدتي، هو حي. هل أخافك بعض الشيء؟».

قالت الآنسة كارولاين بيأس: «كنت أمر بالقرب منه حين زحف خارجاً من شعره... أجل، زحف خارجاً من شعره..»..

ابتسم «ليتل تشاك» ابتسامة عريضة، ثم قال: «ليس هناك داع للخوف من قملة يا سيدتي. ألم يسبق لك أن رأيت قملة؟ هيا لا تخافي، بل عودي إلى مكتبك وعلّمينا المزيد».

كان «ليتل تشاك» واحداً آخر من السكان الذين لا يعرفون من أين ستأتي وجبتهم القادمة، ولكنه كان «جنتلمان» بالفطرة. وضع يده تحت مرفقيها وقاد الآنسة كارولاين إلى مقدمة الغرفة وقال: «هيا، لا تحزني يا سيدتي، لا داعي للخوف من قملة. سأذهب وأجلب لك بعض الماء البارد».

لم يبد مضيف القملة أي اهتمام على الإطلاق في الهرج الذي أحدثه، بل مدّ يده باحثاً في فروة رأسه فوق جبينه، ثم عين موقع ضيفه وسحقه بين إبهامه وسبابته.

راحت الآنسة كارولاين تراقب العملية بافتنان مروّع. جلب «ليتل تشاك» الماء في كأس ورقيّة، وشربته هي بامتنان. وأخيراً وجدت صوتها فقالت بهدوء: «ما اسمك يا بنيّ؟».

رمش الصبي بعينيه وقال: «من؟ أنا؟» فأومأت الآنسة كارولاين برأسها.

قال: «بوريس يوويل».

دققت الآنسة كارولاين في دفتر الدوام، ثم قالت: «لدي هنا «يوويل»، ولكن ليس لدي الاسم الأول... هل لك أن تهجئ اسمك الأول؟».

قال: «لا أعرف. إنهم يسمونني «بوريس» في البيت».

قالت الآنسة كارولاين: «حسناً يا بوريس. أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نعذرك بقية هذا اليوم. أريد منك أن تذهب إلى البيت وتغسل شعرك».

ثم أخرجت من مكتبها كتاباً سميكاً، وقلّبت بعض صفحاته وقرأت فيه للحظة، ثم قالت: «هناك علاج منزليّ جيد لذاك الـ... يا «بوريس»، أريد منك أن تذهب إلى البيت وتغسل شعرك بصابون القمل. وبعد أن تفعل ذلك دلّك فروة رأسك بالكيروسين».

ـ لماذا يا آنستي؟

ـ لتتخلص من... الـ... قمل. أترى معي يا بوريس أن الأطفال الآخرين قد يصابون بالعدوى، وأنت لا تريد ذلك، هه، ما رأيك؟

نهض الصبي. وكان أوسخ مخلوق بشري سبق لي أن رأيته في حياتي. كان عنقه ذا لون رمادي غامق، وظاهر يديه بلون الصدأ، أما أظافر يديه فكانت سوداء وكان ما يحيط بها أسود أيضاً وحتى عمق كبير. حدق الصبي في الآنسة كارولاين من بقعة نظيفة بحجم الكف كانت على وجهه. لم يكن قد لاحظ أحد وجوده على الأرجح، لأن الآنسة كارولاين وأنا قد ألهينا الصف طوال فترة الصباح تقريباً.

قالت الآنسة كارولاين: «يا بوريس، أرجو أن تستحم قبل عودتك صباح الغد».

ضحك الصبي بوقاحة ثم قال: «لا يمكنك طردي يا آنستي. فأنا كنت على وشك الرحيل، فقد داومت الفترة المتوجبّة علي لهذا العام».

بدت الآنسة كارولاين محتارة، ثم قالت: «ما الذي تعنيه؟»

لم يجبها الصبي، بل شخر باحتقار.

أجابها أحد أعضاء الصف من الأكبر سناً: «أنه واحد من عائلة يوويل يا سيدتي»، وتساءلت في نفسي إن كان هذا التفسير سيلاقي الفشل نفسه الذي لاقته محاولتي. استأنف الصبي قائلاً: «المدرسة كلها مليئة بهم. إنهم يأتون في اليوم الأول من كل عام ثم يرحلون. إن السيدة المسؤولة عن ضبط التغيّب تجبرهم على الحضور إلى هنا لأنها

تهددّهم بالمأمور، ولكنها قد تخلّت عن محاولة إبقائهم. وهي تعتقد أنّها قد طبقت القانون طالما أنها تضع أسماءهم على السجل وتحضرهم إلى هنا في اليوم الأول. ومن المفترض أن تضعي إشارة التغيب عند أسمائهم بقية العام..»..

سألت الآنسة كارولاين:

ـ وماذا عن أبويهم؟

ـ ليس لديهم أم، وأبوهم من النوع المشاكس.

شعر «بوريس يوويل» بالغرور لهذا الوصف. فقال بصراحة: «أنا أحضر إلى المدرسة أول يوم من كل عام في الصف الأول منذ ثلاثة سنوات. وأعتقد أني لو كنت ذكياً هذا العام فسوف يرفّعونني إلى الصف الثاني..»..

قالت الآنسة كارولاين: «عد إلى مكانك يا بوريس من فضلك»، وفي اللحظة التي قالت فيها هذه الجملة أدركت أنها ارتكبت خطأ جسيماً. تحول تنازل الصبي إلى الغضب فجأة فقال: «هيا وحاولي يا آنستي».

نهض «ليتل تشاك ليتل» واقفاً وقال: «دعيه يرحل يا سيدتي إنه شخص خسيس، خسيس جداً. ومن المحتمل أن يحاول شيئاً ما، وهناك بعض الأطفال الصغار هنا».

كان ضئيل الحجم جداً، ولكن «بوريس يوويل» استدار نحوه، فامتدت يد «ليتل تشك» إلى جيبه. قال: «انتبه، قد أقتلك بلمح البصر. والآن اذهب إلى بيتك».

بدأ بوريس خائفاً من طفل له نصف طوله، وقد استغلت الآنسه كارولاين تردده فقالت: «يا بوريس اذهب إلى البيت. وإذا لم تفعل فسأستدعي مدير المدرسة، وسوف أعلمه بما حدث على أية حال».

شخر الصبي ثم مشى بترهل وببطء حتى الباب.

ولما أصبح خارج الغرفة وعلى مسافة مأمونة، استدار وصاح: «قولي للمدير عليكِ اللعنة. لن تقدر معلمة مومس ذات أنف سيّال أن تجعلني أفعل أي شيء. لا تستطيعين جعلي أذهب إلى أي مكان يا آنسة. تذكري ذلك. لا تستطيعين جعلي أذهب إلى أي مكان».

ثم انتظر حتى تأكد من أنها قد أجهشت بالبكاء، وأسرع خارجاً من المبنى.

وسرعان ما كنا قد تحلقنا من حول مكتبها، محاولين كل بطريقته أن نخفف عنها: لقد كان شخصاً خسيساً بالفعل... تحت الحزام... أنت غير مطلوب منك أن تعلّمي أشخاصاً كهؤلاء... إنهم لا يتصرفون كما يتصرف أهالي مايكوم، يا آنسة كارولاين، وهذا أمر أكيد. والآن هيا لا تغضبي يا سيدتي. يا آنسة كارولاين لماذا لا تقرئين لنا حكاية؟ إن قصة تلك الهرة في الصباح كانت جميلة فعلاً.

ابتسمت الآنسة كارولاين، ثم تمخطت بمنديل وقالت: «شكراً يا أحبائي». وبعدها طلبت منا العودة إلى مناضدنا، وفتحت كتاباً وحيّرت الصف الأول بحكايةٍ طويلة عن ضفدعة كانت تعيش في قصر فخم.

حين مررت بالقرب من منزل آل رادلي للمرة الرابعة في ذلك اليوم - منها مرتان بأقصى سرعتي في الجري - زادت كآبتي حتى ساوت كآبة ذلك المنزل. فإذا كانت بقية أيام العام الدراسي مشحونة بالدراما كما هو اليوم الأول، فستكون مسلية إلى حد ما، ولكن إمكانية إنفاق تسعة أشهر ممسكة عن القراءة والكتابة جعلتني أفكر في الهرب.

في فترة العصر كانتِ معظم خططي للسفر قد أصبحت كاملة: وحين جاء موعد سباقي مع جم على طول الرصيف للقاء أتيكوس العائد من العمل لم أسابق جم هذه المرة. كنّا قد اعتدنا على الجري

للقاء أتيكوس لحظة أن نراه من بعيد يمر عند زاوية مكتب البريد. ويبدو أن أتيكوس كان قد نسي سقطتي في استراحة الغداء، وكان لديه الكثير من الأسئلة حول المدرسة. ولكن إجاباتي كانت موجزة جداً ولم يحاول هو أن يضغط علي للحصول على أجوبة شافية.

ربما أحست كالبورنيا أن يومي كان كئيباً: فقد تركتني أراقبها وهي تحضر العشاء. قالت: «أغلقي عينيك وافتحي فمك فعندي مفاجأة لك».

لم تكن كالبورنيا تصنع الخبز الهشّ المحمّص إلا نادراً، فهي تقول إنها لا وقت لديها لذلك، ولكن مع وجودنا كلينا في المدرسة اليوم، فقد كان من السهل عليها ذلك. كانت تعرف أني أحب الخبز الهش المحمّص.

قالت: «لقد افتقدتك اليوم. وشعرت بالوحدة حوالي الساعة الثانية إلى درجة أني اضطررت إلى فتح الراديو».

ـ لماذا؟ جم وأنا لا نكون في البيت أبداً إلاّ إذا هطل المطر.

ـ أعرف ذلك، ولكن هناك أحد كما باستمرار على مسافة قريبة بحيث يسمعني إذا ناديت. ولا أعرف كم من النهار قد مرّ وأنا أناديكم.

ثم نهضت من على كرسي المطبخ واستأنفت قائلة:

ـ حسناً، لدي الآن كما أعتقد وقت كاف لتحميص ما يملأ مقلاة من الخبز الهش المحمص. هيا انصرفي الآن ودعيني أحضر مائدة العشاء.

انحنت كالبورنيا وقبلتْني. انصرفت وأنا أتساءل في نفسي عما يكون قد حصل لها. لقد أرادت أن تصالحني، هذا كل ما في الأمر. لقد كانت قاسية عليّ دائماً، كما أنها لاحظت أخيراً عاقبة أساليبها النكدة، وهي آسفة ولكنها أعند من أن تقر بذلك. كنت منهكة من حماقات اليوم.

بعد العشاء، جلس أتيكوس مع الصحيفة وصاح قائلاً: «يا سكاوت هل أنت جاهزة للقراءة». لقد حمّلني الله هذا اليوم أكثر مما أستطيع احتماله، ولذا ذهبت إلى الرواق الأمامي، فتبعني أتيكوس:

ـ ما الأمر يا سكاوت؟

قلت لأتيكوس إني لست على ما يرام، وإني لا أفكر بالذهاب إلى المدرسة إذا كان يوافق على ذلك.

جلس أتيكوس في الأرجوحة وصالب ساقيه. تجوّلت أصابعه حتى ساعة جيبه، وقال إن تلك هي الطريقة الوحيدة التي تمكنه من التفكير. كان ينتظر في صمت ودود، ورغبت في أن أدعم موقفي، فقلت:

ـ أنت لم تذهب إلى المدرسة أبداً ومع ذلك فهذا لم يضرّ بك، ولذا سأبقى في البيت أنا أيضاً. بإمكانك أن تعلّمني كما علّمك جدّي أنت والعم جاك.

ـ لا، لا أستطيع، عليّ أن أعمل لأعيش. وفوق ذلك، سيضعونني في السجن إذا أبقيتك في البيت. ستأخذين جرعة من المغنيسيا هذه الليلة وغداً إلى المدرسة.

ـ أشعر أني بخير، فعلاً.

ـ ظننت ذلك. والآن قولي ما الأمر؟

وشيئاً فشيئاً حكيت له عن المحن التي عانيت منها ذلك اليوم، ثم قلت:

ـ كما قالت لي إن ما علمتني إياه خطأ في خطأ كله، ولذا لن نستطيع أن نقرأ بعد اليوم، أبداً. أرجوك لا تجبرني على العودة إلى المدرسة، أرجوك يا سيدي.

نهض أتيكوس ثم مشى حتى نهاية الـرواق. وحـين أنهـى فحـصه لنبات «الحلوة» المتسلق عاد إلي وقال:

ـ أولاً، إذا كنـت تـستطيعين تعلّـم حيلـة صـغيرة يـا سـكاوت، فسيمكنك أن تتعايشي على أفضل نحو مع أنواع البشر كافة. لا يمكنك أن تفهمي شخصاً ما بالفعل حتى تنظري إلى الأمور بمنظاره هو...

ـ يا سيدي؟

ـ وحتى تلبسي جلده وتتجولي به.

ثم قال أتيكوس إني تعلمت أشياء كـثيرة اليـوم، كمـا أن الآنـسة كارولاين قد تعلمت أموراً عديدة هـي أيـضاً. لقـد تعلمـت ألاّ تـسلم شيئاً لفرد من عائلة كانينغهام، هـذه واحـدة، ولكـن لـو أننـا، وولتـر وأنا، نظرنا إلى الأمور مـن وجهـة نظرهـا هـي، لكنّـا لاحظنـا أن مـا ارتكبته هي كان خطأ بريئاً من جانبها. لم يكن علينا أن نتوقـع منـها أن تلمّ بميزات مايكوم كلها في يوم واحد، ولا يمكننا تحميلها المسؤولية حين تكون هي جاهلة ببواطن الأمور.

قلت:

ـ لم أستطع أن أفعل سوى مـا فعلتـه، ومـع ذلـك فقـد حملـتْني المسؤولية. اسمع يا أتيكوس، ليس عليّ أن أذهب إلى المدرسة.

ثم جاءتني فكرة مفاجئة فانفجرت قائلة:

ـ بوريس يوويل، هل تذكره؟ إنه يـذهب إلى المدرسـة في اليـوم الأول فحسب. والسيدة المسؤولة عن ضبط التغيب تعتقد أنهـا نفـذت القانون طالما أنها تسجل اسمه في دفتر الدوام...

ـ لا يمكنك فعل ذلك يا سكاوت. من الأفـضل أحيانـاً أن يلـوي المرء القانون بعض الشيء في حالات خاصة. وفي حالتك أنـت يبقـى القانون صارماً غير قابل لليّ. إذن عليك أن تذهبي إلى المدرسة.

ـ لا أفهم لماذا علي أن أذهب بينما لا يذهب هو.

ـ إذن استمعي إلي.

قال أتيكوس إن عائلة يوويل كنت عاراً على مديرية مايكوم منذ ثلاثة أجيال. فلم يقم أي منهم بعمل يوم واحد شريف، على ما يذكر. ثم قال إنه في أحد أعياد الميلاد القادمة، وحين سيذهب ليرمي بشجرة الميلاد بعيداً، سيأخذني معه ويريني أين وكيف يعيشون. قال إنهم أشخاص ولكنهم يعيشون كحيوانات. ثم قال:

ـ يمكنهم أن يذهبوا إلى المدرسة متى أرادوا، وذلك حين يكون لديهم الرغبة في التعليم. هناك أساليب لإجبارهم على الدوام في المدرسة بالقوة، ولكنه من الحمق إرغام أشخاص كعائلة يوويل على العيش في بيئة جديدة...

ـ إذا لم أذهب إلى المدرسة غداً، فهل سترغمني على ذلك؟

قال أتيكوس بلهجة جافة:

ـ لنترك الأمر عند هذا الحد. أنت يا آنسة سكاوت فينتش من عامة الناس. عليك أن تطيعي القانون.

ثم قال إن أفراد عائلة يوويل أعضاء مجتمع استثنائي مؤلف من هؤلاء اليوويل أنفسهم. وضمن ظروف بعينها، فإن عامة الناس قد منحوهم عن حكمة بعض المزايا عن طريق غض النظر عن ممارسات بعينها. فهم غير مضطرين للذهاب إلى المدرسة، هذه واحدة، كما سمح لبوب يوويل، وهو ولد بوريس، بالصيد ونصب الأفخاخ خارج الموسم وهذه واحدة أخرى.

قلت له: «هذا ليس بالأمر الجيد يا أتيكوس». كان الصيد خارج الموسم في مديرية مايكوم جنحة في عرف القانون، وجناية في عرف السكان.

قال أبي:

ـ هذا ضد القانون، حسناً، وهو بالتأكيد أمر سيء، ولكن حين ينفق رجل شيكاته التي يتلقاها كمعونة تمنح للفقراء على الويسكي الرديء، فإن أطفاله سيبكون بسبب آلام الجوع. ولا أعرف أي مالك أراض في هذه الناحية يضنّ على أولئك الأطفال بأية طريدة قد يصطادها أبوهم.

ـ ولكن ليس على السيد يوويل أن يفعل ذلك...

ـ طبعاً، ولكنه لن يغيّر أساليبه. هل ستتخلّين الآن عن استهجانك لأطفاله؟

همست قائلة أن لا يا سيدي ولكني حاولت أن أقف وقفة أخيرة:

ـ ولكني لو تابعت الذهاب إلى المدرسة، فلن نستطيع ممارسة القراءة بعد الآن...

ـ وهل هذا يزعجك فعلاً؟

ـ نعم يا سيدي.

حين نظر إليّ أتيكوس من فوق، رأيت ذلك التعبير على وجهه الذي يجعلني دائماً أتوقع شيئاً ما. ثم سألني:

ـ هل تعرفين ما هي التسوية؟

ـ أن نلوي القانون؟

ـ كلا، هي عبارة عن اتفاقية يتم الوصول إليها بالتنازل المشترك من الجانبين. والطريقة التي تعمل بها كما يلي: إذا تنازلت أمام ضرورة الذهاب إلى المدرسة، فسوف نستمر في كل ليلة بالقراءة كما كنا نفعل دائماً. هل توافقين على هذه الصفقة؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ سنعتبر الصفقة قد أُبرمت دون الشكليات المعتادة.

هذا ما قاله لي أتيكوس حين رآني أحضر نفسي لأبصق على يدي.

حين فتحت الباب المنخلي الأمامي قال أتيكوس:

ـ يا سكاوت، من الأفضل ألا تذكري لأحد في المدرسة شيئاً عن صفقتنا.

ـ ولم لا؟

ـ أخشى أن تلاقي نشاطاتنا عدم الموافقة من قبل السلطات الأكثر علماً.

كنا جم وأنا، معتادين على مفردات والدنا القانونية من النوع الذي يقال في الوصايا الأخيرة، وكانت لنا حرية مقاطعة أتيكوس طلباً للترجمة حين يكون الكلام أصعب من أن نفهمه.

ـ ماذا يا سيدي؟

ـ أنا لم أذهب إلى المدرسة أبداً، ولكن لديّ شعور بأنك لو قلت للآنسة كارولاين إننا نقرأ كل ليلة، فسوف تلاحقني قضائياً، وأنا لا أريدها أن تفعل ذلك.

في ذلك المساء جعلنا أتيكوس في حالة استثارة مستمرة حين راح يقرأ بجدية مقالة حول رجل جلس فوق سارية علم دون سبب معروف، ولكنه كان سبباً كافياً لجم كي يقضي يوم السبت التالي في الكوخ الذي فوق الشجرة. جلس جم هناك بعد أن تناول إفطاره وظل هناك حتى غروب الشمس، وكان سيبقى طوال الليل لو لم يقطع أتيكوس خطوط تموينه. وقد أنفقت معظم نهاري وأنا أصعد وأهبط متسلقة الشجرة، وأنا أوصل إليه رسائله، وأجلب له الكتب والطعام والماء، وكنت أحمل له البطانيات لأجل الليل حين قال أتيكوس أني لو أهملت جم فسوف يهبط بنفسه. كان أتيكوس على حق.

* * *

الفصل الرابع

لم تكن بقية أيام المدرسة أكثر يمناً من الأيام الأولى. فقد كانت بالفعل «مشروعاً» لا نهاية له تطور ببطء متحولاً إلى «وحدة» أنفقت فيها أميال من ورق البناء وأقلام الشمع من قبل ولاية ألاباما التي كانت تبذل جهوداً حسنة النية وإنما عقيمة لتعليمي «ديناميكية الجماعة». كان ما سماه جم بـ«نظام ديوي العشري» قد عُممّ على المدرسة كلها في نهاية سنتي الأولى فيها، لذا لم أستطع مقارنته بتقنيات التعليم الأخرى. كان كل ما أستطيعه هو النظر إلى ما حولي: وكنت أرى أتيكوس وعمي اللذين درسا في البيت، يعرفان كل شيء: على الأقل كان الذي لا يعرفه أحدهما يعرفه الآخر. وفوق ذلك، لم أستطع سوى أن ألحظ أن والدي كان قد خدم لسنوات في برلمان الولاية وانتُخب في كل مرة دون معارضة، وهو البريء من التعديلات التي ظن أساتذتي أنها جوهرية لتنمية «المواطنية الجيدة». كان جم الذي تعلم وفق منهج «ديوي» ومنهج «دانس»، النصف بالنصف، يبدو لي ممتاز الأداء أكان وحده أم ضمن مجموعة، ولكن جم كان مثالاً سيئاً: فلم يكن هناك نظام تعليمي صُمم للإنسان يمكن أن يمنعه من الولوغ في الكتب. أما بالنسبة إلي، فلم أكن أعرف إلا ما كنت ألملمه من مجلة «تايم» وقراءة كل ما يقع بين يديّ في البيت، ولكن وبينما كنت أتقدم ببطء وفق طاحونة تعذيب النظام المدرسي لمديرية مايكوم، لم أكن أستطيع مغالبة تلقي الانطباع بأني كنت أمارس الخداع نوعاً ما. لم أكن أعرف نوع الخداع، ولكني لم أصدق أن ما ترمي إليه الولاية هو اثنتا عشرة سنة من الملل المستمر.

ومع مرور السنة الأولى، وبما أني كنت أنصرف في المدرسة قبل جم بنصف ساعة، حيث كان عليه البقاء حتى الساعة الثالثة، كنت أجري مارة بمنزل آل رادلي، ودون أن أتوقف حتى أصل إلى أمان رواقنا الأمامي. وفي عصر أحد الأيام، وبينما كنت أجري لفت نظري شيء ما وبطريقة جعلتني آخذ نفساً عميقاً، ونظرة طويلة، ثم أعود أدراجي.

كان هناك سنديانتان حيّتان على طرف المرج المحيط بمنزل آل رادلي، وكانت جذورهما تصل حتى جانب الطريق فتجعله كثير المطبات. وقد لفت نظري شيء ما في إحدى الشجرتين.

كان هناك ورق مفضّض محشور في ثقب عقدة فوق مستوى عينّي مباشرة، وكان يغمزني في شمس ذلك العصر. وقفت على رؤوس أصابع قدميّ، ونظرت حولي بسرعة مرة أخرى، ثم مددت يدي إلى الثقب وسحبت قطعتين من العلكة ناقصتين غلافهما الخارجي.

كان الدافع الأول هو أن أدس إحداهما في فمي بأسرع ما يمكن، ولكني تذكرت أين كانتا. جريت إلى البيت ولما صرت فوق رواقنا الأمامي تفحصت غنيمتي. بدت العلكة طازجة. شممتها وكانت رائحتها طيبة. لعقتها وانتظرت برهة، ولما لم أمت دسستها في فمي: إنها علكة «ريغلي» ذات النعناع المضاعف.

حين جاء جم إلى البيت سألني عن مصدر ما كان يحشو فمي. فقلت له إني وجدتها.

ـ لا تأكلي الأشياء التي تجدينها.

ـ لم تكن على الأرض. كانت على شجرة.

زمجر جم، فقلت له:

ـ حسناً كانت هناك محشورة في تلك الشجرة، التي نمرّ بها لدى عودتنا من المدرسة.

ـ ابصقيها فوراً.

بصقتها. كانت نكهتها قد بدأت تذهب، على أية حال.

ـ ها أنذا أعلكها طوال فترة العصر ولم أمت بعد، ولست مريضة حتى..

ضرب جم الأرض بقدمه:

ـ ألا تعرفين أنه ليس من المفترض حتى أن تلمسي الشجرات التي هناك؟ ستُقتلين لو فعلت ذلك.

ـ أنت لمست المنزل مرة.

ـ كان ذلك أمراً مختلفاً. اذهبي وتمضمضي فوراً، ألا تسمعينني؟

ـ لن أفعل ذلك فإنه سيزيل النكهة من فمي.

ـ إذا لم تصغي إلى ما أقول فسأذهب وأشي بك إلى كالبورنيا.

فعلت ما طلبه مني جم مفضلة ذلك على شجار مع كالبورنيا. ولسبب ما، فإن سنتي الأولى في المدرسة قد جعلت تغييراً كبيراً يطرأ على علاقتنا: فقد تحوّل استبدادها وظلمها وتدخلها في شؤوني إلى همهمات مستنكرة. ومن ناحيتي، فقد كنت شديدة الحرص على ألا أثير غضبها.

كان الصيف في طريقه إلينا، وكنا، جم وأنا، ننتظره بفارغ الصبر، فقد كان الصيف أفضل الفصول عندنا: كان يعني النوم على الرواق الخلفي المغطّى بشريط منخلي ضمن أسرة صغيرة، أو محاولة النوم في كوخ الشجرة. كان الصيف يعني المأكولات الطيبة، وكان

ألفاً من الألوان في الطبيعة المسفوعة، ولكن الصيف كان أوّلاً وقبل كل شيء: «ديل».

صرفتنا الإدارة باكراً في آخر يوم في المدرسة، ومشينا جم وأنا إلى البيت معاً.

قلت له:

ـ أعتقد أن صاحبنا القديم ديل سيعود غداً.

ـ ربما بعد غد، ففي الميسيسبي تعطل المدارس بعدنا بيوم.

ولدى وصولنا إلى السنديانتين الحيّتين قرب منزل آل رادلي، رفعت أصبعي لأشير للمرة المائة إلى ثقب العقدة حيث وجدت مرة العلكة، وأنا أحاول أن أقنع جم أني وجدتها هناك، ولكني وجدت نفسي أشير إلى قطعة أخرى من الورق المفضّض.

ـ إني أراها يا سكاوت، إني أراها...

نظر جم فيما حوله ثم مد يده ودس في جيبه بحذر شديد اللفافة الصغيرة اللامعة. جرينا إلى البيت، وعند الرواق الأمامي فتحنا علبة صغيرة مرقعة بورق مفضّض تم تجميعه من الورق الذي تلف به العلكة. كان ذلك النوع من العلب الذي توضع فيه خواتم الزواج، إذ كانت مخملية ذات لون أرجواني ولها ماسكة دقيقة. فتح جم الماسكة الدقيقة، فوجدنا في العلبة قطعتين نقديتين مصقولتين من فئة السنت الواحدة فوق الأخرى. فحصهما جم، ثم قال:

ـ إنهما من النوع المنحوت عليه رأس هندي، التاريخ 1906 والأخرى 1900 يا سكاوت هذان قديمان فعلاً.

ـ 1900، إذن...

ـ اصمتي للحظة. أنا أفكر.

ـ ألا تعتقد يا جم أن هذا مخبأ شخص ما؟

ـ لا، لا يمر أحد من هذا المكان، ما لم يكن شخصاً كبيراً في السن...

ـ الأشخاص الكبار ليست لهم مخابئ. أتعتقد أنه بإمكاننا الاحتفاظ بهما؟

ـ لا أعرف ما الذي سنفعله يا سكاوت. لمن سنعيدهما؟ أعرف أنه لا يمرّ أحد من هناك وهذه حقيقة.. فسيسيل يذهب من الشارع الخلفي ويدور حول البلدة كلها حتى يصل إلى البيت.

كان «سيسيل جاكوبس»، الذي كان يعيش في نهاية شارعنا إلى القرب من مكتب البريد، يمشي مسافة تعادل ميلاً كاملاً في كل يوم مدرسي حتى يتجنب منزل آل رادلي، ومنزل السيدة العجوز زوجة هنري لافييت دوبوز. السيدة دوبوز كانت تسكن في منزل يبعد عنا بنائين فقط: وكان الحيّ مجمعاً على أنها أخسّ امرأة عجوز عاشت على هذه الأرض. وما كان جم ليرضى أن يمرّ إلى القرب من منزلها دون أن يكون أتيكوس إلى جانبه.

ـ ما الذي سنفعله يا جم؟

إن الذي يجد شيئاً يحتفظ به ما لم يعرف مالكه. كان قطف زهرة كاميليا أحياناً، أو رضاعة بعض الحليب من ثدي بقرة الآنسة مودي أتكينسون في يوم صيفي، أو قطف بعض العنب من كرمة أحد الجيران، كان ذلك كله جزءاً من ثقافتنا الأخلاقية، أما النقود فكانت أمراً مختلفاً.

قال جم:

ـ سأقول لك ماذا سنفعل. سنحتفظ بالنقود حتى تبدأ المدرسة، ثم ندور ونسأل كل شخص إن كان البنسان له. ربما كانا لطفل من

ركاب الباص، وربما كان قد انهمك في الانصراف من المدرسة اليوم ونسيهما. أعرف أنهما لشخص ما. ألا ترين كيف تم صقلهما؟ لقد ادخرهما شخص ما.

- نعم، ولكن لماذا سيضع شخص ما علكة هناك؟ أنت تعرف أن العلكة لا تدوم طويلاً.

- لا أعرف يا سكاوت. ولكن هذين البنسين مهمان لشخص ما...

- وكيف يكون ذلك يا جم؟

- حسناً. إنهما من النوع المنحوت عليه رأس هندي... هذا يعني أنهما جاءا من الهنود. وهذان سحريان، ويجعلان حظك سعيداً. طبعاً لا يجلبان لك دجاجاً مقلياً حين ترغبين به ولا تجدينه، ولكنهما يجلبان طول العمر والصحة الجيدة، والنجاح في امتحانات الأسابيع الستة... لهذين البنسين قيمة كبيرة لدى شخص ما. سأضعهما في صندوقي. وقبل أن يذهب جم إلى غرفته، نظر لفترة طويلة إلى منزل آل رادلي. وبدا وكأنه يفكر من جديد.

بعد يومين وصل «ديل» متألقاً بالمجد: كان قد ركب القطار وحده من ميريديان إلى «مفترق مايكوم» (كان ذلك لقباً للمجاملة، فقد كان مفترق مايكوم الحقيقي في مديرية «أبوت») حيث استقبلته الآنسة راشيل في تاكسي مايكوم الوحيدة. وكان قد تناول غداءه في مقصورة الطعام ورأى توأمين ملتصقين ينزلان من القطار في «باي سانت لويس» وتمسّك بقصته رغم التهديدات. كان قد نبذ عنه بنطاله الشورت الأزرق الكريه المزرّر إلى قميصه وارتدى الآن بنطال شورت حقيقياً ذا حزام. بدا الآن أسمن قليلاً، ولكن ليس أطول، وقال أنه رأى أباه. كان أبو «ديل» ذاك أطول من أبينا، وكانت له لحية سوداء (مدبّبة)، وكان رئيس شركة خط حديد «إل أند إن».

قال ديل متثائباً:

ـ ساعدت المهندس لفترة خلال الرحلة.

ـ فعلت ذلك في أذن خنزير يا ديل. هيا اسكت. والآن ماذا سنلعب؟

ـ تمثيلية «توم وسام وديك». هيا نذهب إلى الفناء الأمامي.

كان ديل يريد أداء تمثيلية أولاد «عائلة روفر» لأنه كانت هناك ثلاثة أدوار محترمة في التمثيلية.

قلت:

ـ لقد مللت من أولئك.

كنت فعلاً متعبة من لعب دور «توم روفر» الذي يفقد ذاكرته فجأة في منتصف التمثيلية ثم يخرج منها حتى النهاية، حيث يعود وهو في ألاسكا.

قلت له:

ـ اخترع لنا واحدة يا جم.

ـ تعبت من الاختراع.

كانت تلك أول أيام حريتنا، وكنا متعبين. وكنت أتساءل في نفسي عما سيجلبه لنا الصيف.

سرنا إلى الفناء الأمامي، حيث وقف ديل وراح ينظر إلى الشارع نحو واجهة منزل آل رادلي الكئيبة. قال: «أشم... رائحة الموت. وأنا أعني ذلك». قال ذلك حين طلبت منه أن يخرس.

ـ هل تعني أنكَ تستطيع أن تشم رائحة الموت حين يكون شخص ما قيد الاحتضار؟

ـ لا، أعني أني أستطيع أن أشم شخصاً ما وأعرف إن كان سيموت. لقد علمتني إحدى السيدات العجائز الطريقة.

مال ديل ثم شمني وقال:

ـ يا جان ـ لويز ـ فينتش، ستموتين خلال ثلاثة أيام.

ـ يا ديل إذا لم تسكت فسوف أضربك حتى تلتوي ساقاك. وأعني ذلك. والآن...

زمجر جم قائلاً:

ـ هيا اسكتا، تتصرفان وكأنكما تؤمنان بـ«الأبخرة الحارة».

ـ أنت تتصرف وكأنك لا تؤمن بها.

سأل ديل:

ـ ما هو «البخار الحار»؟

سأل جم ديل:

ـ ألم يسبق لك أن سرت في طريق منعزل في الليل ومررت بمكان حار؟ إن «البخار الحار» هو روح لا تستطيع الصعود إلى السماء، فتتخبّط في الطرقات المنعزلة، وإذا ما اصطدمت بها، فإنك ستصبح مثلها يوم تموت، وسوف تتجول في الليل وتمتص أنفاس الناس...

ـ وكيف يمكنك تجنّب الاصطدام بها؟

ـ لا يمكنك ذلك. فأحياناً تتمدد عبر الطريق كلها، ولكن لو حدث واصطدمت بأحدها فقل: «أيها الملاك اللامع، يا حياة في الموت، ابتعد عن طريقي. لا تمتص أنفاسي». وهذا لا يجعلها تلتف عليك.

قلت:

ـ لا تصدق كلمة مما يقوله يا ديل، وكالبورنيا تقول إن ذلك مجرد لغو زنجي فارغ.

نظر إلي جم عابساً، ولكنه عاد فقال:

ـ حسناً، ألن نلعب أم ماذا؟

قلت:

ـ هيا نتدحرج جالسين ضمن العجلة.

تنهد جم وقال:

ـ تعرفان أني أكبر من ذلك.

ـ بإمكانك أن تدفعنا.

هرعت نحو الفناء الخلفي وأخذت عجلة سيارة عتيقة من تحت المنزل. رميت بها في الفناء الأمامي وقلت:

ـ أنا الأولى.

قال ديل إنه يجب أن يكون الأول، فهو قد وصل للتو.

تدخل جم وفرض رأيه. سأكون أنا الأولى ولكنه سيمنح ديل وقتاً إضافياً، وهكذا حشرت نفسي داخل العجلة.

وحتى حدث ما حدث، لم أكن قد أدركت أن جم انزعج من تكذيبي لصحة ما قاله حول «الأبخرة الحارة» وأنه كان ينتظر بفارغ الصبر فرصة مكافأتي على ذلك. وقد فعل ذلك بأن دفع بالعجلة على طول الرصيف بكل ما في جسمه من قوة. وما أن فعل حتى انصهرت الأرض والسماء والبيوت متحولة إلى باليت[1] مجنون، وخفقت

(1) خشبة الرسام التي يمزج عليها ألوانه (المترجم).

أذناي وشعرت بالاختناق. لم أستطع أن أمد يديّ لأوقف العجلة فقد كانتا محشورتين بين صدري وركبتيّ. ولم أكن آمل في أن يستطيع جم أن يسبق العجلة فيوقفها وأنا فيها، أو أن أتوقف بسبب نتوء ما في الرصيف. وسمعته ورائي يطارد ويصرخ.

توقفت العجلة على حصوة، ثم سارت عبر الطريق واصطدمت بحاجز ورمتني كفلّينة على الرصيف. تمددت فوق الإسمنت دائخة أشعر بالغثيان وهززت رأسي حتى سكن وصفعت أذني حتى صمتتا، وعندها سمعت صوت جم:

ـ سكاوت، هيا، تعالي من هنا.

رفعت رأسي وحدقت في درجات منزل آل رادلي التي كانت أمامي مباشرة. تجمدت في مكاني.

كان جم يصرخ:

ـ هيا يا سكاوت، لا تبقي هنا. انهضي، ألا تستطيعين؟

نهضت على قدمي مرتجفة بينما شعرت بالدفء من جديد.

صرخ جم:

ـ اجلبي العجلة، اجلبيها معك. أليس فيك عقل؟

وحين استطعت قيادة سفينتي، جريت عائدة إليهم بأسرع ما استطاعت ساقاي المرتجفتين حملي.

صرخ جم:

ـ لماذا لم تجلبيها؟

فصرخت فيه:

ـ لماذا لا تجلبها أنت؟

صمت جم فقلت:

ـ هيا، إنها ليست بعيدة جداً من البوابة. ألا تذكر أنك لمست المنزل مرة؟

نظر إلي جم بجنون، ولم يستطع التراجع فجرى على امتداد الرصيف وداس في بركة من الماء عند البوابة، ثم اندفع وأحضر العجلة.

عبس جم منتصراً:

ـ هل ترين. لا شيء في ذلك. أقسم يا سكاوت أنك تتصرفين كفتاة إلى حد كبير أحياناً، وهذا مميت.

كان ما حدث أكثر مما عرفه، ولكني قررت ألا أخبره.

ظهرت كالبورنيا في الباب الأمامي وصاحت:

ـ حان وقت الليمونادة. هيا ادخلوا واحتموا جميعاً من تلك الشمس الحارة قبل أن تُقْلَوا أحياء. كانت الليمونادة في منتصف الصباح من طقوس الصيف. وضعت كالبورنيا إبريقاً وثلاث كؤوس على الرواق، ثم عادت إلى عملها. لم أكن أنزعج كثيراً إن كان جم غاضباً مني، إذ كانت الليمونادة تعيد ما تعكر من مزاجه إلى صفائه.

عب جم كأسه الجرعة الثانية ثم ضرب على صدره وقال:

ـ أعرف ماذا سنلعب. سنلعب شيئاً جديداً، شيئاً مختلفاً.

سأله ديل:

ـ وماذا هو؟

ـ بو رادلي.

كان رأس جم شفافاً في بعض الأحيان: لقد اخترع هذه الفكرة حتى يجعلني أفهم أنه ليس خائفاً من آل رادلي بأي شكل من الأشكال، وحتى يباين ما بين بطولته الجريئة وجُبني.

سأل ديل:

ـ بو رادلي، كيف؟

ـ يا سكاوت، ستكونين السيدة رادلي...

ـ أرفض ذلك. لا أعتقد...

قال ديل:

ـ ما القصة؟ هل لازلت خائفة؟ قلت:

ـ يمكنه الخروج ليلاً حين نكون كلنا نائمين...

قال جم بصوت أشبه بالفحيح:

ـ يا سكاوت، كيف يمكنه أن يعرف ما الذي نفعله؟ وفوق ذلك، لا أظن أنه لا يزال هناك. لقد مات منذ سنوات فحنّطوه ووضعوه في المدخنة.

قال ديل:

ـ يا جم، يمكننا أن نلعب أنت وأنا، وسكاوت ستراقب إن كانت خائفة.

كنت واثقة تماماً من أن بو رادلي كان في داخل المنزل، ولكنني لم أكن أستطيع إثبات ذلك، وشعرت أنه من الأفضل لي أن أبقي فمي مغلقاً، أو أني سأُتهم بالإيمان بـ«الأبخرة الحارة»، وهي ظاهرة كنت محصّنة ضدها في النهار.

حدد جم أدوارنا: أنا سألعب السيدة رادلي، وكل ما عليّ فعله هو أن أكنس الرواق. ديل هو السيد رادلي العجوز: كان سيمشي على طول الرصيف ذهاباً وإياباً ويسعل حين يتحدث جم إليه. وجم كان سيلعب دور «بو» بالطبع: كان سيذهب إلى أسفل الدرج الأمامي ويصرخ ويعوي من وقت إلى آخر.

ومع تقدم فصل الصيف تطورت لعبتنا. فقد صقلناها وأكملناها، وأضفنا إليها حواراً وعقدة حتى تحولت إلى تمثيلية صغيرة كنا نغيّر فيها كل يوم.

ديل كان وغداً حقيقاً: فقد كان باستطاعته أداء أي دور، وأن يبدو طويلاً إذا كان الدور يتطلب ذلك. وكان خسيساً إلى حد كبير: أما أسوأ أداء له فكانت الأدوار القوطية. وكنت ألعب بتردد أدوار السيدات المتنوعات اللواتي يدخلن نصوص التمثيليات. ولا أعتقد أنها كانت أكثر متعة من دور طرزان. وكنت أؤدي أدواري في ذلك الصيف وشيء أكثر من مجرد قلق غامض يحزّ في نفسي، رغم تأكيدات جم بأن بو رادلي كان قد مات، وأنه لا شيء سيصيبني، مع وجوده ووجود كالبورنيا هناك في النهار ووجود أتيكوس في الليل.

كان جم قد وُلد بطلاً.

كانت تلك التمثيلية دراما صغيرة وكئيبة، محبوكة من قطع ونتف من الإشاعات وأساطير الحيّ: السيدة رادلي كانت جميلة حتى تزوجت السيد رادلي وخسرت كل أموالها. كما فقدت معظم أسنانها وشعرها وسبابتها اليمنى (هذه مساهمة من ديل. فقد أكل «بو» إصبعها في إحدى الليالي حين لم يستطع أن يجد أي قطط أو سناجب يأكلها). وكانت تجلس في غرفة الجلوس وتبكي معظم الوقت، بينما يقوم «بو» بتمزيق كل أثاث المنزل ببطء.

كان ثلاثتنا هم الأولاد الذين تورطوا في المشاكل. وكنت أحياناً «قاضي الإشهاد» كنوع من التغيير. أخذ جم ديل وحشره تحت الدرج، وراح يلكزه بعصا المكنسة. وكان جم يعود للظهور وفق الحاجة بأشكال مختلفة: المأمور أو أحد سكان البلدة المختلفين، أو الآنسة ستيفاني كروفورد، التي كان لديها ما تقوله عن آل رادلي أكثر مما لدى البلدة كلها.

وحين جاء وقت مشهد «بو» العظيم، كان جم يتسلل إلى داخل المنزل ويسرق المقصّ من درج آلة الخياطة حين تكون كالبورنيا قد أدارت ظهرها، ثم يجلس في الأرجوحة ويأخذ بقص الجرائد. أمّا ديل فيتمشى ويسعل باتجاه جم، ويمثل جم أنه يطعن ديل في فخذه. ومن حيث كنت أقف بدا الأمر وكأنه حقيقي.

وحين كان السيد ناثان رادلي يمرّ بنا في مشواره اليومي إلى البلدة، كنا نقف ثابتين صامتين حتى يغيب عن أنظارنا، ثم نتساءل ما الذي كان سيفعله بنا لو كان يشك فيما كنا نفعله. وكانت نشاطاتنا تتوقف كلما ظهر أحد الجيران، وقد رأيت مرة الآنسة مودي أتكينسون تحدق فينا عبر الشارع، وملاقط شعرها تشكل سياجاً ينتصب في الهواء.

في إحدى المرات كنا منهمكين جداً في تمثيل الفصل الخامس والعشرين، الكتاب الثاني من تمثيلية «عائلة من رجل واحد»، فلم نر أتيكوس الذي كان يقف على الرصيف ينظر إلينا، وقد راح يضرب على ركبته بمجلة ملفوفة كانت في يده. بدت الشمس وكأنها تقول إن الساعة هي الثانية.

سألنا:

ـ ما الذي تلعبونه جميعاً؟

قال جم:

ـ لا شيء.

وفهمت من محاولة جم التملص أن لعبتنا كانت سراً، ولذا بقيت صامتة.

ـ ما الذي تفعله بذلك المقص إذن؟ لماذا تعمل تمزيقاً بتلك الجريدة؟ إذا كانت جريدة اليوم فسأدبغ جلدك.

ـ لا شيء.

قال أتيكوس:

ـ لا شيء ماذا؟

ـ لا شيء سيدي.

ـ أعطني ذلك المقص. هذا ليس للعب. هل لهـذا أيـة علاقـة يـا ترى بآل رادلي؟

قال جم وقد احمر وجهه:

ـ لا يا سيدي.

قال أتيكوس بفظاظة:

ـ آمل ذلك.

ثم دخل البيت.

ـ يا جـ.. م...

ـ اخرسي. لقد ذهب إلى غرفة الجلوس ويستطيع أن يـسمعنا مـن هناك.

وبعد أن ذهبنا إلى الفناء وأحسسنا بالأمان، سأل ديل جم إن كان بإمكاننا أن نمثّل بعد الآن.

ـ لا أعرف. أتيكوس لم يقل إننا لا نستطيع...

قلت:

ـ يا جم، أعتقد أن أتيكوس يعرف على أية حال.

ـ كلا، لا يعرف. ولو كان يعرف لقال لنا ذلك.

لم أكن واثقة إلى هذا الحد، ولكـن جـم قـال لي إني فتـاة، وإن الفتيات يتخيّلن الأمور دائماً، ولهذا فـإن النـاس يكرهـونهن إلى هـذا الحد، ولو أني بدأت أتصرف كفتاة، فعلـيّ أن أذهـب وأجـد شخـصاً آخر ألعب معه.

قلت:

ـ حسناً، استمرا في اللعب وستعرفان.

كان وصول أتيكوس هو الـسبب الثـاني في رغـبتي التخلـي عـن اللعب. وكان السبب الأول يعود إلى ذلك اليوم الـذي تـدحرجت فيـه ضمن العجلة إلى داخل الفناء الأمامي لمنزل آل رادلي. فخـلال هـزّي لرأسي حتى يهدأ ومحاولتي تخفيـف الغثيـان الـذي أصـابني وصـراخ جم، سمعت صوتاً آخر، وكان صوتاً خفيضاً إلى درجة أني مـا كنـت لأقدر على سماعه من الرصيف. كان شخص ما يضحك في المنزل.



الفصل الخامس

استطاع نقّي أن يفحم جم أخيراً، كما كنت أعرف مسبقاً، وقد أبطأنا اللعب لفترة، مما جعلني أشعر بالراحة. ولكنه كان لا يزال يصر على أية حال على أن أتيكوس لم يقل إنه ممنوع علينا الاستمرار، ولذا كنا نستطيع الاستمرار، ولو حدث أن قال أتيكوس إننا لا نستطيع، فإنه قد فكر في التحايل على الأمر: سيغير أسماء الشخصيات بحيث لا يمكن أن نُتهم بتمثيل أي شيء.

كان ديل قلباً وقالباً مع خطة العمل هذه، وهاهو قد تحول إلى محنة حقيقية، فهو يتبع جم في كل شيء. كان قد سبق له وطلب مني أن أتزوجه في بداية الصيف، ثم نسي الموضوع بسرعة. فهو قد سيّجني ووضع علامته عليّ على أني من أملاكه، وقال إني الفتاة الوحيدة التي سيحبّها مهما عاش، ثم أهملني. وقد ضربته مرتين ولكن ذلك لم يجد معه، بل أصبح أكثر تعلقاً بجم. كانا يمضيان أياماً بحالها وحدهما في كوخ الشجرة يتآمران ويخططان، ولا يستدعيانني إلا إذا كانا في حاجة إلى طرف ثالث. ولكني بقيت بعيدة عن خططهما الأكثر طيشاً لفترة، وقضيت معظم فترات غروب أيام الصيف المتبقية ـ تحت طائلة عقوبة مناداتي بالفتاة ـ مع الآنسة مودي أتكينسون على رواقها الأمامي.

كنا، جم وأنا، نتمتع دائماً بحرية اللعب في فناء الآنسة مودي إذا ابتعدنا اللّهم عن شجرات الأزاليا، ولكن صلتنا بها لم تكن محددة على نحو واضح. وبالنسبة لي كانت هي مجرد سيدة أخرى في الحيّ ـ

وذلك حتى طردني جم وديل من خططهما ـ ولكنها كانت على أية حال ذات حضور عذب نسبياً.

كانت معاهدتنا الضمنية مع الآنسة مودي تنصّ على أننا نستطيع اللعب في مرجها، ونأكل من عنبها، هذا إذا لم نقفز على التعريشة، وأن نستكشف المرج الخلفي الواسع، وهي شروط كريمة إلى حد كبير بحيث لم نكن نتحدث إليها إلا نادراً، حريصين على الاحتفاظ بالتوازن الدقيق لعلاقتنا، ولكن جم وديل جعلاني أتقرب منها على نحو أوثق بسبب سلوكهما معي.

كانت الآنسة مودي تكره منزلها: كان الوقت الذي تمضيه داخل البيت يعتبر وقتاً ضائعاً. كانت أرملة، سيدة متقلبة المزاج تعمل في أحواض زهورها مرتدية قبعة عتيقة من القش و«أوفرولاً» رجالياً، ولكنها كانت تخرج إلى رواقها الأمامي بعد حمام الساعة الخامسة، وتهيمن على الشارع بجمال متسم بالأبهة.

كانت تحب كل ما ينمو في أرض الرب، وحتى الأعشاب الضارة، ولكن هناك استثناء وحيد. فلو وجدت عشبة واحدة من أعشاب الجوز في فنائها، لكان الأمر أشبه بـ«معركة المارن الثانية»[1]: فقد كانت تنقض عليها بوعاء من القصدير وترميها بنفحات من مادة سامة كانت تقول إنها قوية إلى حد أنها ستقتلنا إذا لم نبتعد عنها.

سألتها مرة بعد أن راقبتها وهي تقوم بحملة مطولة ضد عشبة لم يبلغ ارتفاعها ثلاث بوصات:

---

(1) جرت هذه المعركة في تموز/ يوليو من عام 1918 (خلال الحرب العالمية الأولى) حين قام الألمان بشن آخر هجوم ضخم على الحلفاء، ولكنهم صدوا من قبل هؤلاء. (المترجم)

ـ لماذا لا تقلعينها؟

ـ أقلعها يا طفلتي، أقلعها؟

ثم التقطت النبتة الرخوة وضغطت على سويقتها، فخرجت منها بذور دقيقة مجهرية.

قالت:

ـ يا إلهي، إن سويقة واحدة من عشبة الجوز تستطيع تخريب فناء بأكمله. انظري هنا. حين تكتمل هذه فإنها تجف وتذرو الرياح هذه البذور عبر مديرية مايكوم كلها. وكان وجهها حين ذاك يجعل الأمر يبدو وكأنه أشبه بوباء من «العهد القديم».

كانت لغتها بيّنة إذا ما أخذنا في الاعتبار كونها من سكان مديرية مايكوم. وكانت تنادينا كلنا بأسمائنا الكاملة، وحين كانت تبتسم كانت تكشف عن شعبين دقيقين ذهبيين مثبتين بنابي فكها العلوي. وحين أبديت إعجابي بهما وتمنيت أن يكون لي مثلهما في يوم من الأيام قالت: «انظري إليّ». ثم وبحركة من لسانها دفعت الجسر إلى الأمام، وهي علامة من علامات الود التي دعّمت صداقتنا.

كان كرم الآنسة مودي يمتد ليشمل جم وديل كلما توقفا عن ألعابهما: وقد حصدنا خيرات موهبة كانت الآنسة مودي تبقيها مخفية عنا حتى ذلك الحين. فقد كانت تصنع أفضل كعك في الحيّ. وحين أدخلناها في عالم أسرارنا، فقد أضحت تصنع كعكة كبيرة وثلاث كعكات صغيرات في كل مرة تخبز فيها، ثم تنادي عبر الشارع صائحة: «جم فينتش، سكاوت فينتش، تشارلز بيكر هاريس، تعالوا إلى هنا». وقد كان إسراعنا في الردّ يلاقي دائماً جزاء طيباً.

في الصيف، يكون شفق الغروب طويلاً وهادئاً. وكنا نجلس غالباً، الآنسة مودي وأنا، بهدوء على رواقها، ونراقب السماء ولونها يتدرج

من الأصفر إلى الوردي خلال انحدار الشمس إلى مبيتها، وتحليق طيور الخطّاف وهي تجتاح الجوار ثم تختفي وراء سقف المدرسة.

قلت في إحدى الأمسيات:

ـ آنسة مودي، هل تعتقدين أن بو رادلي ما يزال حياً؟

قالت:

ـ اسمه آرثر وهو لا يزال حياً.

كانت تتأرجح في كرسيها الكبير المصنوع من خشب السنديان واستأنفت قائلة:

ـ هل تشمين رائحة نبات الميموزا الذي في حديقتي؟ إنها أشبه بأنفاس الملائكة هذا المساء.

ـ نعم يا سيدتي. وكيف تعرفين؟

ـ أعرف ماذا يا طفلتي؟

ـ أن بـ... السيد آرثر لازال حياً؟

ـ يا له من سؤال كئيب. وأعتقد أنه موضوع كئيب. أعرف أنه حي يا جان لويز لأني لم أر جثمانه يُحمل خارج المنزل بعد.

ـ ربما مات، وحشروه في المدخنة.

ـ من أين خطرت لك هذه الفكرة؟

ـ هذا ما قاله جم.

ـ صه. إنه يصبح أكثر شبهاً بجاك فينتش كل يوم.

كانت الآنسة مودي على معرفة بالعم جاك فينتش، شقيق أتيكوس، منذ الطفولة. كانا في العمر نفسه تقريباً، وقد نشآ معاً في «فينتشز لاندينغ». فالآنسة مودي هي ابنة أحد المّلاك المجاورين، الدكتور فرانك بوفورد. وكانت مهنة الدكتور بوفورد هي الطب ولكنه

كان مولعاً بكل ما ينبت في الأرض، ولذا ظل فقيراً. وقد قصر العم جاك فينتش ولعه على النبش على أصص الزهور التي توضع على النوافذ في بلدة «ناشفيل» وبقي غنياً. كنا نرى العم جاك كل عيد ميلاد، وفي كل عيد ميلاد كان يصرخ عبر الشارع منادياً الآنسة مودي طالباً منها الزواج. وكانت الآنسة مودي ترد عليه صارخة: «ارفع صوتك أكثر، حتى يسمعوك في مكتب البريد، فأنا لم أسمعك بعد». وكنا، جم وأنا، نظن أن هذه طريقة غريبة في طلب يد سيدة للزواج، ولكن العم جاك كان غريب الأطوار على أية حال. قال إنه يحاول إزعاج الآنسة مودي، وإن محاولاته باءت بالفشل منذ أربعين عاماً وحتى الآن، وإنه آخر شخص في العالم قد تفكر الآنسة مودي بالزواج منه، ولكنه أول شخص تفكر فيه عندما تريد إغاظة شخص ما، وكان أفضل دفاع لها هي التهكم المليء بالحيوية، وكنا نفهمه كله بوضوح.

قالت الآنسة مودي:

ـ آرثر رادلي لا يغادر المنزل، هذا كل ما في الأمر. أما كنت تبقين في البيت إذا كنت لا ترغبين في الخروج؟

ـ نعم يا سيدتي، ولكني أريد الخروج، فلماذا لا يرغب هو في ذلك؟

ضاقت عينا الآنسة مودي وقالت:

ـ أنت تعرفين تلك القصة بقدر ما أعرفها.

ـ لم أسمع بعد عن السبب على أية حال. لم يخبرني أحد بالسبب.

أعادت الآنسة مودي جسرها بلسانها وقالت:

ـ كنت تعرفين أن السيد رادلي من أتباع الكنيسة البروتستانتية المعمدانية ومن مذهب غسل الأقدام...

ـ وأنت كذلك، هه؟

ـ لست مؤمنة إلى ذلك الحد، أنا مجرد معمدانية.

ـ ألا تؤمنين بغسل الأقدام؟

ـ نؤمن بذلك. ولكن في البيت وفي مغطس الحمام.

ـ ولكننا لا نستطيع ممارسة «المناولة» معكم أنتم يا...

من الواضح أن الآنسة مودي وقد قررت أنه من الأسهل عليها تعريف المعمدانية الأصلية من تعريف المناولة السرية، فقالت:

ـ يؤمن غاسلو الأقدام بأن أي شيء يجلب المتعة هو خطيئة. هل تعرفين أن بعضهم خرج من الغابات في أحد أيام السبت ومرّ بهذا المكان وقال لي إني سأذهب وزهوري إلى الجحيم؟.

ـ وزهورك أيضاً؟

ـ نعم يا آنستي. هذه ستحترق داخلي. إنهم يعتقدون أني أنفق من الوقت أكثر مما هو لازم خارج البيت ولا أنق وقتاً كافياً داخل البيت لأقرأ في الكتاب المقدس.

تزعزعت ثقتي في التعاليم الوعظية وأنا أتخيل الآنسة مودي تُشوى إلى الأبد في عدد مختلف من الجحيمات البروتستانتية. حقاً كان لها لسان قارص في فمها، ولم تكن تتجول في الجوار تفعل الخير، كما كانت تفعل الآنسة ستيفاني كروفورد؛ ولكن بينما لم يكن هناك شخص له ذرة من عقل يثق بالآنسة ستيفاني، فقد كنا جم وأنا نثق إلى حد كبير بالآنسة مودي. فهي لم يسبق لها أن وشت بنا، كما كانت تلعب معنا لعبة القط والفأر، هذا إلى جانب أنها لم تكن مهتمة أبداً بحياتنا الخاصة. كانت صديقة لنا. كيف يمكن لهذا المخلوق العاقل إلى هذا الحد أن يعيش مهدّداً بخطر التعذيب الأبدي؟ هذا أمر لا يمكن فهمه.

ـ ليس هذا عادلاً يا آنسة مودي. فأنت أفضل سيدة أعرفها.

ابتسمت الآنسة مودي وقالت:

ـ شكراً يا آنستي. المشكلة هي أن «غاسلي الأقدام» يعتقدون أن النساء خطيئة تعريفاً. إنهم يفسّرون الكتاب المقدس على نحو حرفيّ كما تعرفين.

ـ ألهذا يبقى السيد آرثر في البيت؟ ألكي يبتعد عن النساء؟

ـ لا أعرف.

ـ لا أفهم ذلك. يبدو لي أنه لو كان السيد آرثر تواقاً إلى السماء، لكان سيخرج إلى الرواق على الأقل. يقول أتيكوس إن الأشخاص المحبين لله من أمثالك...

توقفت الآنسة مودي عن التأرجح في كرسيها، وأصبح صوتها قاسياً حين قالت:

ـ أنت أصغر من أن تفهمي المسألة، ولكن الكتاب المقدس يكون أحياناً في يد شخص ما أسوأ من زجاجة ويسكي في يد... أبيك مثلاً.

صدمت. قلت:

ـ أتيكوس لا يشرب الويسكي. لم يسبق له أن شرب نقطة واحدة في حياته... كلا، بل شرب مرة. قال لي أنه شرب منه مرة ولم يعجبه.

ضحكت الآنسة مودي وقالت:

ـ لم أكن أعني والدك، ما عنيته هو لو أن والدك شرب حتى الثمالة فلن يكون قاسياً قساوة بعض الأشخاص وهو في أحسن أحوالهم. هناك نوع من الأشخاص يهتمون كثيراً بالعالم الآخر إلى حد أنهم لم يتعلموا كيف يعيشون في هذا العالم، وبإمكانك أن تنظري عبر الشارع وتري النتيجة.

ـ هل تعتقدين أن كل ما يقال حول «بـ»... السيد آرثر صحيح؟

ـ وماذا يقال؟

وحكيت لها ما سمعته.

قالت الآنسة مودي بتجهم:

ـ ثلاثة أرباع هذا من اختراع الملوّنين وربعه الرابع من اختراع ستيفاني كروفورد. لقد حكت لي ستيفاني كروفورد أنها استيقظت مرة في منتصف الليل ووجدته ينظر من النافذة إليها. وسألتها عما فعلته، هل ابتعدت لتوسع له مكاناً إلى القرب منها؟ وقد أخرسها سؤالي.

وكنت واثقة أن السؤال قد أخرسها. كان صوت الآنسة مودي كافياً لإخراس أي شخص.

قالت:

ـ لا يا طفلتي. ذاك المنزل منزل حزين. أتذكر آرثر رادلي وهو صبي بعد. كان يتحدث بلطف إليّ دائماً، ومهما قال الناس عنه إلا أنه كان يخاطبني بألطف ما يستطيع.

ـ هل تعتقدين أنه مجنون؟

هزت الآنسة مودي رأسها وقالت:

ـ إذا لم يكن مجنوناً فقد أصبح الآن حتماً كذلك. إن ما يحدث للناس أمر لا نعرفه حقاً. إن ما يحدث في البيوت وراء الأبواب المغلقة، والأسرار...

ـ إن أتيكوس لا يفعل شيئاً لجم ولي داخل المنزل ممّا قد لا يفعله في الفناء.

قلت ذلك إذ شعرت أنه من واجبي الدفاع عن أبي.

ـ عجباً يا طفلتي، لم أكن أعني والدك إطلاقاً، ولكني طالما ذكرته الآن فسأقول التالي: أتيكوس فينتش هو نفسه أكان في المنزل أم في الشارع العام. ما رأيك ببعض الكعك الطازج تأخذينه إلى البيت. وقد أحببته كثيراً.

* * *

حين استيقظت في صباح اليوم التالي وجدت جم وديل في الفناء الخلفي وقد انغمسا في الحديث. وحين انضممت إليهما طَلَبا كالعادة أن أنصرف عنهما.

ـ لن أنصرف. هذا الفناء فنائي بقدر ما هو فناؤك يا جم فينتش. ولي الحق في اللعب، كما لك بالضبط.

تشاوروا لفترة قصيرة ثم قال لي ديل محذّراً:

ـ إذا بقيت معنا فعليك أن تفعلي ما نطلبه منك.

قلت:

ـ حسناً، ها أنت تتكبر فجأة.

استأنف ديل:

ـ إذا لم تقولي إنك ستفعلين ما نأمرك به فلن نقول لك شيئاً.

ـ تبدو وكأن طولك قد زاد عشر بوصات خلال الليل الفائت. حسناً، ما الأمر؟.

قال جم بهدوء:

ـ سنرسل رسالة إلى بو رادلي.

ـ ولكن كيف؟

كنت أحاول مغالبة الرعب الفوري الذي ثار في كل بدني. كان ممكناً للآنسة مودي أن تتحدّث كما تشاء ـ فقد كانت كهلة وتشعر بالأمان وهي جالسة على رواقها. أما بالنسبة إلينا نحن فقد كان أمراً مختلفاً.

كان جم سيقوم بوضع الرسالة في نهاية قصبة صيد ويقحمها بين مصاريع النافذة. وإذا ما جاء أحد سيقرع ديل الجرس منبهاً.

رفع ديل يده اليمنى فرأيت يحمل جرس أمي الفضّي المخصص لنداء الغداء.

قال جم:

- سأذهب إلى جانب المنزل. لقد نظرنا البارحة عبر الشارع فلاحظنا وجود مصراع غير محكم. وأعتقد أنه بإمكاني أن ألصق الرسالة بحافة النافذة على الأقل.

- يا جم...

- أنت الآن متورطة معنا ولا يمكنك الخروج، وعليك أن تبقي معنا يا آنسة بائسة.

- حسناً، حسناً، لا أريد أن أراقب. يا جم هناك شخص ما...

- بل ستقومين بالمراقبة عند نهاية المرج، وسيراقب ديل مقدمة المنزل وحتى نهاية الشارع، وإذا ما جاء أي شخص فسوف يقرع الجرس. هل هذا واضح؟.

- حسناً إذن، ما الذي كتبته له؟

قال ديل:

- إننا نطلب منه بلطف أن يخرج في بعض الأحيان وأن يحكي لنا ما الذي يفعله داخل المنزل، وقلنا له إننا لن نؤذيه بل سنشتري له بعض الآيس كريم.

- لقد جننتما حتماً، سيقتلنا.

قال ديل:

- هذه فكرتي. أعتقد أنه لو خرج وجلس معنا لفترة فقد يشعر بتحسّن.

ـ وكيف تعلمان أنه لا يشعر بأنه على ما يرام؟

ـ حسناً، وكيف ستشعرين أنت لو أنك حُبست مئة عام ولا شيء تأكلينه سوى القطط؟ أعتقد أن له لحية تصل إلى هنا...

ـ كلحية أبيك؟

ـ ليست له لحية، إنه...

توقف ديل عن الكلام وكأنه يحاول أن يتذكر.

قلت:

ـ ها ها، لقد أمسكت بك. قلت قبل أن تنزل من القطار أن لوالدك لحية سوداء.

ـ إذا كان هذا لا يهمك كثيراً فقد حلق لحيته في الصيف الماضي. أجل، ولديّ رسالة تثبت ذلك: لقد أرسل لي دولارين أيضاً.

ـ هيّا استمر بهذا الكلام.... أعتقد أنه أرسل لك بذلة شرطي من الفرسان أيضاً. وتلك لم تصل أبداً، أليس كذلك؟ هيا استمر في قص تلك الأكاذيب علي يا بني..

كان بإمكان ديل هاريس أن يحكي أكبر الكذبات التي سبق لي وسمعتها. ومن بين أمور أخرى فقد ركب طيارة البريد سبع عشرة مرة، وكان في «نوفا سكوتيا» ورأى فيها فيلاً، وكان جده هو «العميد جو ويلر» وقد ترك له سيفه.

قال جم:

ـ اصمتا الآن.

ثم تسلل إلى تحت المنزل وأخرج قصبة طويلة من البامبو.

ـ هل تعتقدان أنها طويلة إلى حد يكفي لتصل إلى النافذة من على الرصيف؟

قلت:

- إن الشجاع الذي استطاع أن يلمس المنزل لا يجب عليه أن يستعمل قصبة صيد. لماذا لا تذهب وتدق على الباب الأمامي؟

قال جم:

- هذا أمر مختلف، كم مرة سأقول لك ذلك؟

أخرج ديل قطعة من الورق من جيبه وأعطاها إلى جم. ثم مشينا ثلاثتنا بحذر نحو المنزل العتيق. بقي ديل عند عمود النور على الزاوية الأمامية للمرج، ومشينا جم وأنا على الرصيف موازيين لجانب المنزل. تجاوزت جم ووقفت حيث أستطيع أن أرى المنعطف.

قلت:

- الطريق فارغ. لا أرى أحداً.

نظر جم عبر الرصيف نحو ديل الذي أومأ له برأسه.

ألصق جم الرسالة في آخر قصبة الصيد ثم مد القصبة عبر الفناء ودفعها نحو النافذة التي اختارها. كانت القصبة أقصر ببضعة بوصات من المطلوب، وانحنى جم بجسده أكثر ما يستطيع. راقبته وهو يقوم بحركات الطعن لمدة طويلة بحيث تخليت عن موقعي وعدت إليه.

همهم:

- لا أستطيع أن أوصلها بالقصبة، وإذا ما وصلت القصبة لا أستطيع أن أجعل الرسالة تلتصق بالنافذة. عودي إلى الشارع يا سكاوت.

عدت وحدقت عبر المنعطف ونحو الطريق الخالي. وكنت أحياناً أنظر إلى جم الذي كان يحاول بصبر أن يضع الرسالة على حافة النافذة. كانت تسقط على الأرض فيقوم جم بوخزها برأس القصبة ورفعها إلى النافذة، حتى ظننت أنه لون أتيح لبو رادلي أن يستلم الرسالة، لما كان سيستطيع قراءتها. كنت أنظر على امتداد الشارع حين سمعت صوت الجرس.

رفعت كتفّي في هلع، واستدرت متوقعة مواجهة بو رادلي ومخالبه الدامية، ولكني رأيت بدلاً عن ذلك ديل وهو يقرع الجرس بكل قوته في وجه أتيكوس.

بدا جم قبيحاً إلى حد أني لم أجرؤ على أن أقول له: كم كان منظره قبيحاً. مشى على نحو مجهد وهو يجرّ القصبة من خلفه على الرصيف.

قال أتيكوس:

ـ توقف عن قرع الجرس.

أمسك ديل بلسان الجرس. وخلال الصمت الذي تلا، تمنيت لو يقرعه مرة أخرى. دفع أتيكوس بقبعته إلى مؤخرة رأسه ووضع يديه على وركيه وقال:

ـ يا جم، ما الذي تفعلونه؟

ـ لا شيء، يا سيدي.

ـ لا أريد مثل هذا الكلام. هيا صارحني.

ـ كنت... كنا نحاول إعطاء شيء ما إلى السيد رادلي.

ـ ما الذي تحاولون إعطاءه إياه؟

ـ مجرد رسالة.

ـ أرني إياها.

أبرز جم قطعة متسخة من الورق. أخذها أتيكوس وحاول قراءتها ثم قال:

ـ لماذا تريدون من السيد رادلي أن يخرج؟

قال ديل:

ـ اعتقدنا أنه قد يستمتع معنا...

ثم توقف عن الكلام حين نظر إليه أتيكوس.

قال لجم:

ـ يا بني، سأقول لك شيئاً وأقول مرة واحدة: توقف عن تعذيب ذلك الرجل. وهذا ينطبق عليكما أنتما الآخران.

إن ما يفعله السيد رادلي أمر يخصه هو. ولو أراد الخروج لفعل. وإذا ما أراد البقاء داخل منزله فله الحق في البقاء هناك دون أي تدخّل من الأطفال الفضوليين ـ وكان هذا مصطلحاً لطيفاً لوصفنا. ماذا نقول لو أن أتيكوس دخل علينا فجأة دون أن يطرق الباب حين نكون في غرفنا ليلاً؟ إن ما نفعله بالسيد رادلي لأمر مشابه. قد يبدو ما يفعله السيد رادلي غريباً بالنسبة إلينا، ولكنه لا يبدو غريباً بالنسبة إليه. وزيادة على ذلك، ألم يتفق أن فكرنا في أن الطريقة الحضارية للاتصال بكائن آخر هي الباب الأمامي بدلاً من أن تكون نافذة جانبية؟ وأخيراً فإن علينا الابتعاد عن المنزل حتى تتم دعوتنا إليه، وعلينا ألاّ نلعب لعبة بلهاء كالتي رآنا نلعبها الآن، أو أن نسخر من أي شخص في هذا الشارع أو في هذه البلدة...

قال جم:

ـ لم نكن نسخر منه. ولا كنا نضحك عليه، كنا نحاول أن...

ـ إذن هذا ما كنتم تفعلونه، أليس كذلك؟

ـ نضحك عليه؟

قال أتيكوس:

ـ لا، بل تعرضون سيرة حياته من أجل تثقيف الجوار.

بدا جم منفعلاً:

ـ لم أقل إننا كنا نفعل ذلك، لم أقل ذلك.

ابتسم أتيكوس بطريقة جامدة وقال:

ـ لقد سبق وقلت ذلك. توقفوا عن هذا الهراء الآن، كل واحد منكم.

فغر جم فاه ناظراً إليه.

ـ أتريد أن تصبح محامياً؟ أليس كذلك؟

كان فم أبينا حازماً على نحو مريب، وبدا كأنه يحاول أن يجعله مستقيماً في خط واحد.

قرر جم أنه لا فائدة من المراوغة وصمت. وحين دخل أتيكوس إلى المنزل ليحضر ملفاً كان قد نسي أن يأخذه معه لدى ذهابه إلى العمل صباحاً، أدرك جم أخيراً أنه قد خدع بواسطة أقدم حيل المحامين المعروفة. وقد انتظر على مسافة بعيدة من الدرج الأمامي، وراقب أتيكوس وهو يغادر المنزل على مسافة بعيدة من الدرج الأمامي، وراقب أتيكوس وهو يغادر المنزل ويمشي باتجاه البلدة. وحين أصبح أتيكوس بعيداً عن مرمى الصوت صاح جم خلفه: «كنت أظن أني سأصبح محامياً، ولكني لم أعد واثقاً إلى ذلك الحد الآن».

* * *

الفصل السادس

قال أبونا حين سأله جم إن كان يسمح لنا بالذهاب إلى بركة سمك الآنسة راشيل للبقاء مع ديل حيث كانت تلك آخر ليلة له في مايكوم:

ـ أجل يمكنكما الذهاب، ودّعوه عني وقولوا له إننا سنلتقي في الصيف القادم.

قفزنا عبر الجدار الواطئ الذي كان يفصل ما بين فناء الآنسة راشيل والممر المؤدي إلى بيتنا. صفّر جم مطلقاً صوتاً شبيهاً بصوت الحجل وأجابه ديل من الظلام.

قال جم:

ـ انظري هناك.

ـ ولا نسمة واحدة.

أشار إلى الشرق. كان قمر هائل يشرق من خلف شجرات جوز الآنسة مودي.

قال:

ـ هذا يجعل الطقس يبدو أكثر حرارة.

سأل ديل وهو لا ينظر إلى الأعلى:

ـ هل هناك صليب فيه الليلة؟

كان يصنع لفافة تبغ من جريدة وخيط.

قال جم:

ـ لا، السيدة فحسب، لا تشعل تلك يا ديل وإلا فإنك ستنتشر الرائحة الكريهة في هذا الجانب كله من البلدة.

في مايكوم كانوا يرون سيدة في القمر. وكانت تجلس إلى منضدة زينة وتسرح شعرها.

قلت:

ـ سنفتقدك يا ولد. وأعتقد أنه من الأفضل أن نراقب «السيد آفري».

كان السيد آفري يسكن مقابل منزل السيدة هنري لافاييت دوبوز وبالإضافة إلى أنه كان يضع قطعة نقود في صحن التبرعات في الكنيسة يوم الأحد ثم يأخذ قطعة أصغر منها، فإن السيد آفري كان يجلس على الرواق كل ليلة حتى التاسعة ويعطس. وفي إحدى الأمسيات أتيحت لنا فرصة مشاهدة أحد عروضه والذي بدا أنه كان آخر عروضه حتماً، حيث أنه لم يمارس ذلك العرض مرة أخرى طول فترة مراقبتنا له. كنا جم وأنا نغادر درج الآنسة راشيل الأمامي في إحدى الليالي حين أوقفنا ديل قائلاً: «يا إلهي، انظروا هناك» وأشار إلى شيء ما عبر الشارع. في البداية لم نشاهد شيئاً عدا رواق أمامي مغطى بأشجار «الكودزو»، ولكننا بعد تحديق أشد اكتشفنا قوساً من الماء يهبط من الأوراق ويتناثر في الدائرة الصفراء لنور الشارع، بطول عشرة أقدام من المنبع إلى الأرض كما بدا لنا. قال جم إن السيد آفري قد أخطأ الحساب ولكن ديل قال أنه يشرب دون شك غالوناً كل يوم، وكانت المسابقة التي تلت ذلك لتحديد المسافات النسبية والقدرات الخاصة بكل فرد قد جعلتني أشعر ثانية أني خارج اللعبة حيث لم تكن لي موهبة في هذا المجال.

تمطّى ديل ثم تثاءب وقال بلا مبالاة:

ـ أعرف ما الذي سنفعله. هيا نذهب ونتمشى.

بدا الأمر سخيفاً بالنسبة لي. قلت:

ـ ليس هناك في مايكوم من يذهب ليتمشّى. أين سنذهب يا ديل؟

لوى ديل رأسه باتجاه الجنوب.

وافق جم. ولكنني احتججت فقال لي بعذوبة:

ـ ليس عليك أن ترافقينا يا ملاكي.

ـ ليس عليك الذهاب. تذكّر...

لم يكن جم من النوع الذي يستسلم للهزائم السابقة: فقد بدا أن الرسالة الوحيدة التي وصلته من أتيكوس هي أن لأتيكوس نفاذ بصيرة في فن التحقيق. قال:

ـ يا سكاوت، لن نفعل شيئاً، سنذهب إلى القرب من عمود النور ونعود.

مشينا بصمت على طول الرصيف ونحن نصغي إلى الأراجيح المنصوبة على الرواقات وهي تئن تحت ثقل سكان الحيّ، وإلى همهمات الليل الخافتة التي تصدر عن الناس الراشدين من سكان شارعنا. وكنا نسمع صوت الآنسة ستيفاني كروفورد وهي تضحك بين الحين والآخر.

قال ديل:

ـ حسناً؟

قال جم:

ـ أوكي. لِم لا تذهبين إلى البيت يا سكاوت؟

ـ ما الذي ستفعلانه؟

كان ديل وجم سيذهبان ببساطة ويسترقان النظر من النافذة ذات المصراع غير المحكم ليريا إن كان ممكناً لهما مشاهدة بو رادلي، وإذا لم أكن راغبة في الذهاب معهما فإني أستطيع الاتجاه نحو البيت مباشرة وأن أبقي فمي الكبير المتشدق مغلقاً، وهذا كل ما في الأمر.

ـ ولكن لماذا بحق الإله انتظرتما حتى هذه الليلة؟

لأنه لم يكن هناك من يراهما في الليل، ولأن أتيكوس سيكون منهمكاً في قراءة أحد الكتب بحيث لن يسمع «ملكوت الله» قادماً، ولأنهما لو قُتلا الآن فستفوتهما المدرسة وليس العطلة، وأن الرؤية داخل منزل معتم خلال الليل أسهل منها خلال النهار، أفهمت يا ترى؟

ـ يا جم، من فضلك...

ـ سكاوت، أقول لك للمرة الأخيرة، أغلقي فمّك أو اذهبي إلى البيت: أصرح أمام الرب بأنك تصبحين فتاة أكثر فأكثر كل يوم.

بعد أن سمعت هذا الكلام لم يعد أمامي من خيار آخر سوى الانضمام إليهما. وظننّا أنه من الأفضل الزحف من تحت حاجز الأسلاك الشائكة في مؤخرة مرج منزل آل رادلي، فهناك ستكون فرصة اكتشافنا أقل. كان الحاجز يحيط بحديقة كبيرة ومرحاض خارجي خشبي ضيّق.

رفع جم السلك السفلي وأشار إلى ديل ليزحف من تحته وقد تبعته ورفعت السلك حتى يمر جم. ولكن الحيّز كان ضيقاً بالنسبة لجم. همس: «لا تحدثا أي صوت. ولا تدخلا ضمن صف من الكرنب مهما يكون من أمر، فذاك من شأنه إيقاظ الموتى».

ومع هذا الخاطر في ذهني، كنت أسير بسرعة خطوة في الدقيقة. وقد تحركت على نحو أسرع حين رأيت جم وقد أصبح بعيداً وراح يقوم بإشارات في نور القمر. وصلنا إلى البوابة لتي تفصل الحديقة عن الفناء الخلفي. لمس جم البوابة فصرّت.

همس ديل:

ـ ابصق عليها.

همهمت:

ـ لقد أوقعنا في الشرك يا جم. لن نستطيع الخلاص بسهولة من هنا.

ـ صه! ابصقي عليها يا سكاوت.

بصقنا حتى جفّت حلوقنا، ثم فتح جم البوابة ببطء. رفعها وأراحها على الحاجز. وهكذا أصبحنا في الفناء الخلفي.

كانت مؤخرة منزل آل رادلي أكثر كآبة من مقدمته: رواق متداع على امتداد عرض المنزل وبابان ونافذتان مظلمتان بين البابين. وبدلاً عن وجود صف من الأعمدة كان هناك لوح من الخشب بعرض بوصتين بأربع بوصات يدعم أحد نهايات السقف، كما كانت هناك مدفأة عتيقة من طراز فرانكلين ملقاة في زاوية الرواق، وفوقها مرآة لها مشاجب للقبعات كان نور القمر ينعكس فيها على نحو مخيف.

قال جم بصوت خافت وهو يرفع قدمه:

ـ آخ.

ـ ماذا حدث؟

ـ جبناء!

لقد ثبت لنا أننا كنا مضطرين إلى المراوغة للتملص مما هو غير مرئي ومن كل الاتجاهات، وذلك حين تلفظ ديل الذي كان يسبقنا هامساً بكلمة «يا الله». زحفنا نحو جانب المنزل ثم نحو النافذة ذات المصراع غير المحكم. كانت حافة النافذة أعلى من جم بعدة بوصات.

ـ هل أساعدك على التسلق. انظر على أية حال.

أمسك جم برسغه الأيسر ورسغي الأيمن، وأمسكت برسغي الأيسر ورسغ جم الأيمن وجثمنا وجلس ديل على السرج الذي صنعناه. ثم رفعناه حتى أمسك بحافة النافذة.

همس جم:

- أسرع، لا نستطيع أن نتحمل أكثر من ذلك.

أمسك ديل بكتفي وأنزلناه إلى الأرض.

- ماذا رأيت؟

- لا شيء. ستائر. ولكن هناك ضوء ضئيل خافت في مكان ما على أية حال.

همس جم:

- هيا نهرب من هنا. هيا نعود إلى الخلف مرة أخرى. صه.

هكذا حذرني حين أردت الاحتجاج.

- لنحاول من النافذة الخلفية.

قلت:

- كلا يا ديل.

توقف ديل وترك جم يسبقنا. وحين وضع جم قدمه على الدرجة السفلى، صرّت الدرجة. وقف جامداً ثم حاول أن يجرّب ثقله بالتدريج. كانت الدرجة صامتة. تجاوز جم درجتين ثم وضع قدمه على الرواق ورمى بنفسه عليه ثم راح يتأرجح لبرهة طويلة. استعاد وزنه وسقط على ركبتيه. زحف حتى النافذة، رفع رأسه ونظر إلى الداخل.

ثم رأيت الخيال. كان خيال رجل يرتدي قبعة. في البداية ظننت أنه كان شجرة، ولكن لم تكن هناك ريح تهب، كما أن جذوع الأشجار لا تمشي. كان الرواق الخلفي يستحم في نور القمر، ثم تحرك الخيال الهش كالخبز المحمص، عبر الرواق نحو جم.

كان ديل الثاني الذي رأى الخيال، فوضع يديه على وجهه.

وحين مرّ الخيال بجم رآه جم، فوضع ذراعيه حول رأسه وتجمّد في مكانه.

توقف الخيال على مسافة قدم خلف جم. تحركت ذراعه خارجة من جنبه ثم سقطت وهدأت. ثم استدار وعاد عابراً بجم ومشى على امتداد الرواق وبعيداً نحو جانب المنزل عائداً من حيث جاء.

قفز جم من الرواق وأسرع نحونا. فتح البوابة ومرّرني أنا وجم عبرها ثم دفعنا بين صفين من الكرنب المُهَسْهِس. وفي منتصف الطريق بين الكرنب تعثرت وحين تعثرت سمعنا صوت بندقية يحطم صمت الجوار.

غاص ديل وجم إلى جانبي. جاءني صوت جم كالنشيج: «اهربي باتجاه باحة المدرسة. أسرعي يا سكاوت».

أمسك جم بالسلك السفلي، وتدحرجنا ديل وأنا عبره وكنا قد وصلنا إلى منتصف الطريق أمام شجرة السنديان الوحيدة في باحة المدرسة حين شعرنا أن جم لم يكن معنا. عدنا بسرعة إلى الخلف فوجدناه يتصارع مع السلك وهو يرفس بنطاله محاولاً للتخلص منه حتى ينجو بجلده. ثم ركض نحو السنديانة في سرواله الداخلي.

وبعد أن اختبأنا خلفها وأحسسنا بالأمان، شعرنا بالخدر، ولكن ذهن جم كان يسابق الريح. قال:

ـ علينا الذهاب إلى البيت. سيفتقدوننا.

عدونا عبر باحة المدرسة، وزحفنا من تحت الحاجز إلى «مرعى الغزال» خلف منزلنا، وتسلقنا حاجزنا الخلفي وكنا قد وصلنا إلى الدرج الخلفي قبل أن يسمح لنا جم بالتوقف للراحة.

وبما أننا لم نكن قد عرقنا كثيراً، فقد مشينا ثلاثتنا بقدر ما نستطيع من اللامبالاة نحو الفناء الأمامي. نظرنا باتجاه الشارع فشاهدنا حلقة من الجيران متجمعة عند البوابة الأمامية لمنزل آل رادلي.

قال جم:

ـ من الأفضل أن نذهب إلى هناك. سيعتقدون أنه من الغريب عدم ظهورنا في المكان.

كان السيد ناثان رادلي يقف داخل بوابته وقد حمل عبر ذراعه بندقية صيد بعد أن كسرها كمن يهيئها ليحشوها مرة أخرى. كان أتيكوس واقفاً إلى القرب من الآنسة مودي والآنسة ستيفاني كروفورد. أما الآنسة راشيل والسيد آفري فكانا على مقربة. ولم يلحظنا أي منهم ونحن نقترب.

توقفنا بالقرب من الآنسة مودي التي نظرت فيما حولها وقالت:

ـ أين كنتم جميعكم؟ ألم تسمعوا الجلبة؟

سأل جم:

ـ ماذا حدث؟

ـ أطلق السيد رادلي النار على زنجي ضمن بستان الملفوف في فنائه.

ـ وهل أصابه؟

قالت الآنسة ستيفاني:

ـ لا، بل أطلق النار في الهواء. وقد أخافه حتى شحب لونه على أية حال. وهو يقول إنه لو رأى أي منكم زنجياً أبيض اللون فذاك هو الشخص نفسه. وهو يقول أيضاً إن السبطانة الأخرى تنتظر الصوت التالي الذي سيسمعه في فناء داره، وأنه في المرة التالية لن يهدف نحو الأعلى، أكن الهدف كلباً أو زنجياً أو حتى جم فينتش؟

سأل جم:

ـ ما الذي تعنينه يا سيدتي؟

تحدث أتيكوس فقال:

ـ أين بنطالك؟

ـ بنطالي يا سيدي؟

ـ أجل بنطالك.

لم يكن هناك من مفرّ، فقد كان جم واقفاً في سرواله الداخلي أمام الله والجميع. تنهّدت.

ـ يا سيد فينتش؟

وفي الوهج القادم من عمود النور استطعت أن أرى ديل يبيض إحدى كذباته: كانت عيناه قد اتسعتا، وكان وجهه الملائكي الممتلئ قد أصبح أكثر استدارة.

سأل أتيكوس:

ـ ما الخبر يا ديل؟

قال ديل بلهجة غامضة:

ـ لقد كسبته منه.

ـ كسبته؟ كيف؟

حك ديل مؤخرة رأسه. ثم تقدمت يده إلى الأمام وعبرت جبينه.

ـ كنا نلعب «بوكر التشليح» عند بركة السمك هناك.

شعرنا جم وأنا بالارتياح. كما بدا الجيران مقتنعين: إلاّ أنّهم تيبّسوا جميعاً. ولكن ما هو «بوكر التشليح»؟

لم يكن هناك مجال لمعرفة ذلك: فالآنسة راشيل اندلعت كصفارة سيارة الإطفاء قائلة: «يا للمسيح. ديل هاريس. أتمارس لعب القمار عند بركة سمكي؟ سأُشَلِّحُكَ «بوكرياً» يا سيدي».

أنقذ أتيكوس ديل من خسارة عضو من أعضائه في الحال. قال:

ـ دقيقة واحدة يا آنسة راشيل. لم أسمع من قبل أنهم يمارسون ذلك. هل كنتم تلعبون الورق جميعكم؟

دعم جيم أكذوبة ديل فقال بعينين مغمضتين:

ـ لا يا سيدي. كنا نلعب بأعواد الكبريت.

أعجبت بأخي. كانت الأعواد خطيرة أما الأوراق فهي مميتة.

قال أتيكوس:

ـ يا جم ويا سكاوت، لا أريد أن أسمع عن البوكر بأي شكل من أشكاله من الآن فصاعداً. اذهب إلى بيت ديل وأحضر بنطالك يا جم. حلّوا القضية بينكما.

قال جم ونحن نسير فوق الرصيف.

ـ لا تقلق يا ديل. لن تمسّك هي بسوء. سيتحدث إليها ويقنعها بذلك. كانت تلك سرعة بديهة منك يا بني. اصغ... ألا تسمع؟

توقفنا، وسمعنا صوت أتيكوس يقول: «... ليس أمراً خطيراً.. كلهم يمرون بهذه المرحلة يا آنسة راشيل..»..

أحس ديل بالراحة ولكننا جم وأنا لم نشعر بها. كانت هناك مشكلة إظهار البنطال في الصباح.

قال ديل ونحن نقترب من درج منزل الآنسة راشيل:

ـ سأعطيك بنطالاً من بناطيلي.

قال جم إنها صغيرة عليه، ولكنه يشكره على أية حال. ودّعنا ديل، ودخل المنزل. وقد تذكر على ما يبدو أنه كان خطيبي، فقد عاد فجأة وهو يجري وقبّلني بسرعة أمام جم. ثم صاح قائلاً:

ـ ستكتبان إلي، هل تسمعان؟

* * *

حتى لو كانت بنطال جم معه، لما كنا سننام كثيراً على أية حال. فقد كان كل صوت من أصوات الليل أسمعه وأنا في سريري آتياً من الرواق الخلفي يتضخم ثلاثة أضعاف، كما كان كل وقع قدم خفيف على الحصى يوحي بأن بو رادلي قد جاء لينتقم. كان كل زنجي يمر وهو يضحك في الليل هو نفسه بو رادلي الذي هرب من منزله وجاء يعاقبنا. كانت الحشرات التي تصطدم بمنخل الشباك هي أصابع بو رادلي المجنونة وهي تحاول تحطيم الشريط المنخلي. وكانت أشجار الأزدرخت شريرة ومتأرجحة وحية. وقد ترددت بين النوم واليقظة حتى سمعت صوت جم يهمهم:

ـ نامي يا صغيرة يا ذات العيون الثلاث؟

ـ هل أنت مجنون؟

ـ صه. إن نور غرفة أتيكوس ما يزال مضاء.

وفي ضوء القمر الشاحب رأيت جم يهبط من سريره إلى الأرض. قال:

ـ سأذهب لأجلب بنطالي.

جلست في سريري وقلت:

ـ لا يمكنك ذلك. ولن أدعك تفعل ذلك.

كان يكافح ليضع عليه قميصه. قال:

ـ عليّ أن أفعل ذلك.

ـ افعل وسأوقظ أتيكوس.

ـ افعلي ذلك وسأقتلك.

جذبته إلى القرب مني على السرير وحاولت إقناعه بالمنطق. قلت:

ـ سيجد السيد ناثان البنطال في الصباح يا جم. وهو يعرف أنك فقدت بنطالك. وحين يريه لأتيكوس ستكون النتيجة سيئة جداً، وهذا كل ما في الأمر. عد إلى سريرك.

ـ هذا ما أعرفه، ولهذا السبب سأذهب لإحضاره.

بدأت أشعر بالغثيان. كنت خائفة من فكرة عودته إلى هناك وحيداً، وتذكرت الآنسة ستيفاني: كان السيد ناثان قد جهز السبطانة الأخرى للصوت التالي الذي سيسمعه، أكان مصدره زنجياً أو كلباً... وكان جم يعرف ذلك أكثر مني.

شعرت باليأس:

ـ يا جم، لا يستحق الأمر كل هذه المخاطرة. إن الضرب يؤذي ولكنه لا يدوم. أما البندقية فإنها ستطير رأسك. أرجوك...

تنهدّ بصبر.

ـ إنني... حسناً يا سكاوت، الأمر وما فيه هو أن أتيكوس لم يضربني أبداً. وأريد أن يبقى الأمر كذلك.

كانت تلك مجرد فكرة. يبدو أن أتيكوس كان يهددنا كل يوم.

ـ تعني أنه لم يقبض عليك مرة واحدة بالجرم المشهود؟

ـ ربما كان الأمر كذلك، ولكني أريد أن يستمر الأمر على هذا المنوال يا سكاوت، ما كان يجب أن نفعل ما فعلناه الليلة.

أفترض أنه في تلك اللحظة بدأنا جم وأنا في الافتراق كرفيقين. أحياناً لم أكن أفهمه، ولكن فترات حيرتي كانت قصيرة الأمد. أما هذا فكان أكثر مما أستطيع احتماله. رجوته قائلة:

ـ أرجوك، ألا تستطيع التفكير بالموضوع دقيقة واحدة...؟ تصور نفسك وحيداً في ذلك المكان...

ـ اخرسي.

ـ الأمر هنا لا يشبه مسألة مخاصمة والدي لك أو شيئاً من هذا القبيل... سأوقظه يا جم، أقسم أني...

أمسك جم بقبّة بيجامتي وشدّها بقوة.

قلت بصوت مختنق:

ـ إذن، سأذهب معك.

ـ لن تذهبي معي، فأنت ستحدثين ضجيجاً.

لم يكن هناك من فائدة ترجى. فتحت الباب الخارجي وأمسكت به بينما زحف هو نازلاً الدرجات. كانت الساعة تقارب الثانية على ما أعتقد، والقمر يغرب والظلال الشبكية تخبو متحولة إلى عدم ضبابي. كان ذيل قميص جم الأبيض يتأرجح ويتذبذب كشبح صغير يرقص مبتعداً لينجو من الصباح المقترب. وكان هناك نسيم عذب يحرك ويبرّد العرق المتحدّر على جانبي جسدي.

ذهب من الطريق الخلفي، عبر «مرعى الغزال»، ثم خلال باحة المدرسة وحول الحاجز. لقد ظننت أن ذاك هو الطريق الذي سار فيه.

كان هذا الطريق يستغرق فترة أطول، ولذا لم يكن قد حان موعد القلق بعد. انتظرت حتى حان وقت الشعور بالقلق ورحت أنتظر سماع

صوت بندقية السيد رادلي. ثم ظننت أني سمعت صوت الحاجز الخلفي يصرّ. وكان ذلك مجرد تحقيق رغبة[1].

ثم سمعت صوت سعال أتيكوس. أمسكت بأنفاسي. أحياناً حين كنا نقوم برحلتنا في منتصف الليل إلى الحمام، كنا نجده يقرأ. وكان يقول إنه غالباً ما يستيقظ خلال الليل ويأتي ليطمئن علينا، ثم يطالع ثانية حتى ينام. انتظرت لأرى نوره يضاء وقد أجهدت عيني بانتظار رؤية النور يغمر البهو. ولكن النور بقي دون إضاءة فتنفست الصعداء مرة أخرى.

كانت زواحف الليل قد عادت إلى أوكارها، ولكن ثمار الأزدرخت الناضجة كانت تسقط على السقف كلما تحركت الريح، وكانت الظلمة كئيبة مع نباح الكلاب البعيدة.

وهاهو الآن يعود إليّ. كان قميصه الأبيض يتأرجح عند الحاجز الخلفي ثم يصبح أكبر فأكبر وببطء. صعد الدرجات الخلفية، أوصد الباب من خلفه ثم جلس على سرير. وبدون أية كلمة، أراني بنطاله بين يديه. ثم تمدد على سريره، وسمعت سريره يهتز لفترة قصيرة. سرعان ما هدأ سريره، ولم أعد أسمعه يهتزّ.

* * *

(1) اعتقاد المرء بصحة شيء ما رغبته في أن يكون الشيء صحيحاً (المترجم).

الفصل السابع

بقي جم مزاجياً وصامتاً لفترة أسبوع. وقد عملت بنصيحة أتيكوس حين قال لي مرة أن علي أن أدخل في جلد جم وأن أتجوّل به: وفكرت في أني لو كنت ذهبت وحيدة إلى منزل آل رادلي في الساعة الثانية صباحاً، لكانت جنازتي تقام في عصر اليوم التالي. ولذا تركت جم لشأنه وحاولت ألا أزعجه.

بدأت المدرسة. وكان الصف الثاني سيئاً كالأول، بل وأسوأ: كانوا لا يزالون يرفعون البطاقات أمامنا ولا يدعوننا نقرأ أو نكتب. وكان تقدم الآنسة كارولاين في الصف المجاور أمراً يمكن تقييمه من خلال الضحكات التي نسمعها. وعلى كل حال، فإن الطاقم المعتاد قد رسب في الصف مرة أخرى، وهم يساعدون الآن في حفظ النظام. والشيء الوحيد الجيد في الصف الثاني هو أنني كنت سأبقى في المدرسة حتى يخرج جم، وكنا نمشي عادة معاً إلى البيت في الساعة الثالثة.

وفي أحد الأيام وبينما كنا نعبر باحة المدرسة باتجاه البيت، قال جم فجأة:

ـ هناك شيء لم أقله لك.

وبما أن هذه كانت أول جملة كاملة له منذ أيام عديدة فقد شجعته قائلة:

ـ بشأن ماذا؟

ـ بشأن تلك الليلة.

ـ لم تحك لي أي شيء عن تلك الليلة.

طرد جم كلماتي بيده وكأنه يهش الذباب عن وجهه. صمت لبرهة ثم قال:

ـ حين عدت لأحضر بنطالي ـ وكان بنطالي كتلة متشابكة حين حاولت الخروج منه بحيث لم أستطع الفكاك منه بسهولة ـ حين عدت لأحضره...

وهنا تنفس جم بعمق.

ـ حين عدت كان بنطالي مطوياً وموضوعاً فوق الحاجز... وكأنه ينتظرني.

ـ فوق...

ـ وشيء ما آخر.

هنا أصبح صوت جم خفيضاً.

ـ هناك شيء سأريه لك عندما نصل إلى البيت. لقد تمت خياطة ما تمزق من البنطال. لم تكن تلك خياطة جيدة كخياطة السيدات، بل كالخياطة التي أحاولها أنا. الأمر كله غريب. يبدو وكأن...

ـ.... كأن شخصاً ما كان يتوقع أنك ستعود لاستعادته.

ارتجف جم ثم قال:

ـ كأن شخصاً ما كان يقرأ أفكاري... كأن شخصاً ما استطاع أن يعرف ما كنت سأفعله. لا يمكن لأي شخص أن يعرف ما سأفعله إلا إذا كان يعرفني، أليس كذلك يا سكاوت؟

كان سؤال جم أشبه باستغاثة. ولكني طمأنته قائلة:

ـ لا يمكن لأحد أن يعرف ما ستفعله إلا إذا كان يعيش في المنزل ذاته معك، وحتى أنا لا أستطيع أحياناً أن أعرف ما ستفعله.

كنا نمرّ بشجرتنا. وقد شاهدنا في ثقب العقدة كرة من خيوط رمادية.

قلت:

ـ لا تأخذها يا جم. هذا مخبأ شخص ما.

ـ لا أظن ذلك يا سكاوت.

ـ أجل إنه كذلك. إن شخصاً كوولتر كانينغهام يأتي إلى هنا كل يوم في خلال فترة استراحة الغداء ويخبئ أشياءه هنا... وها نحن نأتي ونأخذها. اسمع، فلنتركها وننتظر يومين، وإذا بقيت في مكانها، عندها سنأخذها، ما رأيك؟

ـ حسناً، قد تكونين على حق. لا بد أنه مخبأ طفل ما. إنه يخبئ هذه الأشياء خوفاً عليها ممّن هم أكبر منه. أنت تعرفين أننا لا نجد هذه الأشياء إلا حين نكون في المدرسة.

ـ ولكننا لا نمرّ من هنا في الصيف.

ذهبنا إلى البيت. وفي صباح اليوم التالي كانت الكرة في مكانها. وحين وجدناها لا تزال هناك في اليوم الثالث، دسها جم في جيبه. ومنذ ذلك الحين أخذنا نعتبر كل ما نجده في ثقب العقدة ملكاً لنا.

* * *

كان الصف الثاني كئيباً، ولكن جم أكّد لي أن المدرسة تتحسّن كلما كبر التلميذ، وأنه كان يشعر في البداية بمثل ما أشعر أنا الآن، وأن المرء لا يتعلم شيئاً ذا قيمة قبل الوصول إلى الصف السادس. لقد بدا أن الصف السادس كان يعجبه منذ البداية: فقد شاهدته يمر بـ«فترة مصرية» موجزة حيّرتني: إذ حاول كثيراً أن يمشي وقد مد ذراعاً إلى الأمام وآخر إلى الخلف، واضعاً إحدى قدميه وراء الأخرى. وقد صرح لي أن المصريين القدماء كانوا يمشون بتلك الطريقة. وقلت له إنهم لو كانوا يمشون كذلك فعلاً، فلا أعرف كيف أمكنهم أن ينجزوا

أي شيء، ولكن جم قال إنهم أنجزوا أكثر مما أنجز الأمريكان، وأنهم اخترعوا ورق التواليت والتحنيط. وتساءل: أين كنا نحن الآن لولاهم؟ قال لي أتيكوس إن علي إلغاء النعوت وعندها سأحصل على الحقائق.

الفصول في ألاباما الجنوبية غير محددة تماماً، فالصيف ينجرف نحو الخريف والخريف لا يتبعه الشتاء أحياناً على الإطلاق، بل يتحول إلى ربيع يدوم أياماً وينصهر لاحقاً متحولاً إلى الصيف من جديد. كان آخر خريف طويلاً، ولم يكن بارداً إلى حد ارتداء الجاكيت. كنا جم وأنا نسير في طريقنا المعتاد في عصر أحد أيام تشرين الأول (أكتوبر) اللطيفة حين أوقفنا ثقب العقدة مرة أخرى. كان فيه هذه المرة شيء أبيض.

ترك لي جم شرف الحصول عليه: جذبته فوجدت تمثالين صغيرين منحوتين من قطعتي صابون. كان أحدهما يمثل صبياً والآخر قد ألبس فستاناً غير متقن.

وقبل أن أتذكر أنه ليس هناك ما يسمى «جالب النحس» فقد زعقت وألقيتهما أرضاً.

التقطهما جم ثم صاح: «ما حكايتك». ثم مسح التمثالين ونظفهما من التراب الأحمر، وقال: «إنهما جيدان. لم يسبق لي أن رأيت تمثالين بهذه الجودة».

ثم أراني إياهما. كانا تمثالين صغيرين كاملين لطفلين. كان الصبي يرتدي بنطالاً قصيراً، وكانت هناك كتلة من الشعر الصابوني قد سقطت فوق جبينه. نظرت إلى جم. كانت هناك خصلة من الشعر الكستنائي مدلاة تهبط من مفرق شعره ولم أكن قد لاحظتها سابقاً.

حوّل جم نظره من الدمية التي تمثل بنتاً صغيرة إليّ أنا. كان شعر الدمية مقصوصاً باستقامة فوق الجبين وكذلك كان شعري.

قال:

ـ هذان نحن.

ـ ومن تظن أنه صنعهما؟

ـ مَن مِن الجيران يمارس الحفر بالسكين؟

ـ السيد آفري.

ـ ليس السيد آفري. أعني من ينحت تماثيل بالسكين؟

كان السيد آفري يمارس النحت بالسكين فينحت مرة في كل أسبوع قطعة من الحطب، وهو يشحذ الحطبة حتى تتحول إلى نكاشة أسنان ثم يلوكها.

قلت:

ـ هناك حبيب الآنسة ستيفاني كروفورد العجوز.

ـ إنه نحّات، ولكنه يعيش في الريف. متى كان سيهتم بنا على أية حال؟

ـ ربما يجلس على الرواق وينظر إلينا بدلاً عن النظر إلى الآنسة ستيفاني. ولو كنت مكانه لفعلت ذلك.

حدّق فيّ طويلاً إلى حد أني سألته ما الحكاية؟ ولكنه لم يجبني سوى بـ«لا شيء يا سكاوت». وحين مضينا إلى البيت وضع جم الدميتين في صندوقه.

بعد أقل من أسبوعين وجدنا رزمة كاملة من العلكة، وقد تمتعنا بها، فقد كانت حقيقة أن كل شيء في منزل آل رادلي كان سُمّاً قد غابت عن ذاكرة جم.

في الأسبوع الثالي وجدنا في ثقب العقدة ميدالية بهت بريقها. وقد أراها جم لأتيكوس الذي قال إنها ميدالية كانت تمنح قديماً في

مسابقات التهجئة، وإنه قبل أن نولد كانت مدارس مقاطعة مايكوم تقيم مسابقات في التهجئة وتمنح ميداليات للرابحين. قال أتيكوس إن شخصاً ما لا بد أن يكون قد أضاعها. هل سألنا الجيران يا ترى؟ رفسني جم رفسة قوية أشبه برفسة الحجل حين حاولت أن أذكر المكان الذي وجدناها فيه. سأل جم أتيكوس إن كان يتذكر شخصاً ممن سبق لهم وفازوا بمثلها، وقال أتيكوس إنه لا يتذكر أحداً.

وقد ظهرت أكبر جوائزنا بعد أربعة أيام. وكانت تلك عبارة عن ساعة جيب عاطلة عن العمل ولها سلسلة وموسى من الألمنيوم.

ـ هل تعتقد أنها من الذهب الأبيض يا جم؟

ـ لا أعرف. سأريها لأتيكوس.

قال أتيكوس إنها ربما تساوي عشرة دولارات، بما فيها السلسلة والموسى لو كانت جديدة. ثم سأل:

ـ هل أجريت مقايضة مع أحد التلاميذ في المدرسة؟

ـ لا يا سيدي.

وأخرج جم ساعة جده التي كان يسمح له أتيكوس بحملها مرة في الأسبوع إذا أظهر حرصاً كافياً عليها. وفي الأيام التي كان يحمل فيها الساعة، كان جم «يمشي على البيض».

قال جم:

ـ أتيكوس، إذا وافقت فإني أفضل أن أحمل هذه الساعة. ربما سأستطيع أن أصلحها.

حين لم يعد هناك شعور بالجدة يرافق جم حين يحمل ساعة جده، وأصبح حملها مهمة ثقيلة طوال النهار، لم يعد جم يشعر بضرورة التأكد من الوقت كل خمس دقائق.

وهاهو قد بذل جهده، ولم يتبق لديه سوى نابض واحد وقطعتان دقيقتان، ولكن الساعة لم تدر. تنهد قائلاً:

ـ لن تدور أبداً. سكاوت؟

ـ نعم؟

ـ ألا تعتقدين أن علينا أن نكتب رسالة إلى ذاك الذي يترك لنا كل هذه الأشياء؟

ـ سيكون ذلك جميلاً فعلاً يا جم، ويمكننا أن نشكره... ما القصة يا جم؟

كان جم يمسك بأذنيه ويهز برأسه من جانب آخر. قال:

ـ لا أفهم، لا أستطيع أن أفهم، لا أعرف لماذا يا سكاوت...

ثم نظر باتجاه غرفة الجلوس وقال:

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن أقول لأتيكوس.... لا، أعتقد أن عليّ ألا أفعل ذلك.

ـ سأقول له بالنيابة عنك.

ـ لا، لا تفعلي يا سكاوت. سكاوت؟

ـ نعـ... م؟

كان على وشك أن يقول لي شيئاً طوال ذلك المساء. كان وجهه يشرق وينحني هو باتجاهي ثم يغير رأيه. وقد غيره الآن مرة أخرى.

ـ حسناً، لا شيء.

ـ هيا نكتب رسالة.

ودفعت بدفتر وقلم رصاص باتجاهه وتحت أنفه.

ـ حسناً. «سيدي العزيز»....

ـ وكيف تعرف أنه رجل؟ أراهن أنها الآنسة مودي، بل إني أراهن على ذلك منذ زمن بعيد.

حسناً، ولكن الآنسة مودي لا تستطيع أن تمضغ العلكة.

ثم ابتسم جم واستأنف قائلاً:

ـ أنت تعرفين أنها تستطيع أن تتحدث على نحو لطيف أحياناً. وقد عرضت عليها مرة بعض العلكة ورفضت شاكرة قائلة إن العلكة تلتصق بسقف حلقها وتجعلها لا تستطيع الكلام. ألا يبدو هذا لطيفاً؟

ـ أجل، يمكنها أن تقول أشياء لطيفة أحياناً. وعلى كل حال فإنها لا يمكن أن تمتلك ساعة ذات سلسلة.

قال جم:

ـ سيدي العزيز. نقدر كثيراً... كلا... نقدر كثيراً كل ما وضعته في الشجرة من أجلنا. المخلص جداً: جيريمي أتيكوس فينتش.

ـ لن يعرف من أنت إذا وقّعت بهذه الطريقة يا جم.

محا جم اسمه وكتب «جم فينتش». ثم وقعت أنا «جان لويز فينتش (سكاوت)» تحت اسمه. وضع جم الرسالة في ظرف.

في صباح اليوم التالي وفي طريقنا إلى المدرسة سبقني جم راكضاً وتوقف عند الشجرة. كان جم يواجهني حين نظر فرأيت وجهه يشحب بشدة.

ـ يا سكاوت.

عدوت نحوه.

كان أحدهم قد سد ثقب العقدة بالاسمنت.

ـ لا تبكي يا سكاوت، هيا، سكاوت... لا تبكي... هيا، لا تحزني.

هكذا كان جم يهمهم طوال الطريق إلى المدرسة.

حين عدنا إلى البيت لتناول الغداء التهم جم طعامه بسرعة، ثم ركض نحو الرواق وانتظر عند الدرج. تبعته. قال:

ـ لم يمرّ بعد.

في اليوم التالي كرر جم مراقبته فعرفت مرماه.

قال جم:

ـ نهارك سعيد يا سيد ناثان.

ـ صباح الخير يا جم وسكاوت.

هكذا قال لنا السيد رادلي لدى مروره بالقرب من منزلنا.

قال جم:

ـ يا سيد رادلي.

استدار إليه السيد رادلي.

ـ يا سيد رادلي، هل أنت الذي ملأ ذلك الثقب في تلك الشجرة هناك بالإسمنت؟

ـ أجل. لقد ملأته.

ـ ولماذا يا سيدي؟..

ـ الشجرة تحتضر. والعادة تقضي أن تملأ ثقوبها بالاسمنت إن كانت مريضة. كان عليك أن تكون ملّماً بذلك يا جم.

لم يقل جم شيئاً آخر حتى عصر اليوم التالي. وحين مررنا بشجرتنا ربت وهو مستغرق في التفكير على الإسمنت، وتوقف وغرق في تفكير عميق. كان يبدو عليه وكأنه يحاول أن يكون سيئ المزاج، ولذا آثرت الابتعاد عنه قليلاً.

وكالعادة ذهبنا للقاء أتيكوس وهو عائد من عمله ذلك المساء. وحين وصلنا إلى درج منزلنا، قال جم:

ـ أتيكوس، انظر إلى تلك الشجرة هناك يا سيدي من فضلك.

ـ أية شجرة يا بني؟.

ـ تلك التي على زاوية محيط منزل آل رادلي والتي هي في طريق عودتنا من المدرسة.

ـ أجل؟

ـ هل تعتقد أنها تحتضر؟

ـ كلا يا بني، لا أظن ذلك، أنظر إلى الأوراق، إنها خضراء كلها ومكتملة، ولا ترى فيها أية بقع بنية اللون في أي مكان...

ـ إنها ليست مريضة حتى؟

ـ تلك الشجرة في صحة جيدة بقدر ما أنت في صحة جيدة يا جم. ولكن لماذا؟

ـ قال السيد ناثان رادلي إنها تحتضر.

ـ ربما يكون الأمر كذلك. أنا على ثقة من أن السيد رادلي يعرف أشجاره أكثر مما نعرفها نحن.

تركنا أتيكوس عند الرواق. استند جم إلى أحد الأعمدة وراح يحك كتفيه عليه.

ـ هل أنت مصاب بحكة يا جم؟

لم يجب على سؤالي على الرغم من أني طرحته بألطف طريقة ممكنة.

ـ إذن هيا يا بنا ندخل يا جم.

ـ فيما بعد.

ولكنه ظل واقفاً هناك حتى حـل الظـلام، وقـد انتظرتـه. وحـين دخل إلى البيت لاحظت أنه كان يبكـي قبـل دخولـه فقـد كـان وجهـه متسخاً كما يحدث بعد البكاء، ولكني فكرت في أنـه مـن الغريـب ألا أكون قد سمعته وهو يبكي.

* * *

الفصل الثامن

لأسباب استعصى فهمها على أحنك أنبياء مقاطعة مايكوم، تحول خريف ذلك العام إلى شتاء. فقد مرّ علينا أسبوعان لم يعرف الإقليم أبرد منهما منذ عام 1885 كما قال أتيكوس. قال السيد آفري أنه قد كُتب على «حجر رشيد» أنه حين يعصي الأولاد آباءهم ويدخنون اللفافات ويتشاجرون فيما بينهم، فإن الفصول تتغير: ورزحنا، جم وأنا، تحت وزر المساهمة في تقلبات الطبيعة، وفي جلب التعاسة إلى جيراننا والقلق لأنفسنا.

ماتت السيدة رادلي العجوز في ذلك الشتاء، ولكن موتها مرّ دون ضجة تذكر، فقد كان الجيران نادراً ما يرونها، إلا حين كانت تخرج لتسقي شجيراتها من نوع الكنا. وقد قررنا جم وأنا أن «بو» قد نال منها أخيراً، ولكن حين عاد أتيكوس من منزل آل رادلي قال إنها ماتت ميتة طبيعية وهذا مما خيّب آمالنا.

همس جم:

ـ اسأليه.

ـ اسأله أنت، فأنت الأكبر.

ـ ولذا يجب عليك أنت أن تسأليه.

قلت:

ـ يا أتيكوس، هل رأيت السيد آرثر؟

نظر إليّ أتيكوس بصرامة من وراء صحيفته وقال:

ـ لم أره.

منعني جم من الاسترسال في طرح الأسئلة. قال إن أتيكوس لا يزال حساساً بالنسبة لموضوع علاقتنا مع آل رادلي ولن يكون الإلحاح عليه مثمراً. كان جم يعتقد بأن أتيكوس قد أحس بأن نشاطاتنا في تلك الليلة من الصيف الماضي لم تكن مقتصرة على «بوكر التشليح» فحسب. لم يكن لدى جم أي أساس صلب لهذه الفكرة، ولكنه قال إنها مجرّد خاطرة.

في صباح ليوم التالي استيقظت ونظرت من النافذة فكدت أموت من الرعب. وقد جلبت صرخاتي أتيكوس من الحمام وقد حلق نصف وجهه فقط.

ـ إنها نهاية العالم يا أتيكوس. افعل شيئاً ما. أرجوك.

ثم جررته نحو النافذة وأشرت إلى ما كنت أراه.

قال:

ـ لا، ليست هذه نهاية العالم. إن الثلج يهطل.

سأله جم إن كان الثلج سيستمر فترة طويلة في الهطول. لم يكن قد سبق لجم أن رأى الثلج أيضاً، ولكنه كان يعرف ما هو الثلج. قال أتيكوس إنه لم يكن يعرف عن الثلج أكثر مما يعرف جم. واستأنف قائلاً:

ـ إذا كان مائياً بهذا الشكل فسيتحول إلى مطر.

قرع جرس الهاتف وغادر أتيكوس مائدة الإفطار ليردّ عليه. ثم قال لدى عودته:

ـ كانت تلك «يولا ماي» وقد قالت: «بما أن الثلج لم يهطل في مقاطعة مايكوم منذ عام 1885، فلن تفتح المدرسة أبوابها اليوم».

كانت «يولا ماي» هي عاملة المقسم الهاتفي الرئيسية في مايكوم. وقد كان يوكل إليها إصدار الإعلانات العامة ودعوات الزفاف وإطلاق صفارة إنذار الحريق وإعطاء تعليمات الإسعاف الأولي حين يكون الدكتور رينولدز بعيداً عن المنال.

وحين طلب منا أتيكوس أخيراً أن نتخلى عن الفوضى وأمرنا أن ننظر إلى أطباقنا بدلاً من النوافذ، سأله جم:

- كيف تصنع تمثال «رجل الثلج»؟

- لا أعرف إطلاقاً. ولا أريدكما أن تشعرا بخيبة الأمل، ولكنني أشك في أنه لن يكون هناك ثلج كاف لصنع حتى كرة من الثلج.

دخلت كالبورنيا وقالت أن الثلج قد بدأ يلتصق بالأرض. وحين عدونا إلى الفناء الخلفي وجدناه مغطى بطبقة هشة من الثلج الطريّ.

قال جم:

- يجب ألا نمشي فوقه. انظري، كل خطوة تمشينها تضيّع جزءاً منه.

نظرت إلى الوراء حيث آثار خطواتي الطرية. قال جم إننا لو انتظرنا حتى يهطل المزيد من الثلج فسوف نستطيع أن نكشطه كله لنصنع رجل ثلج. مددت لساني فالتقطت رقاقة كبيرة منه. وقد أحرقت لساني.

- إنها حارة يا جم.

- لا، ليست حارة، وإنما هي باردة جداً إلى حد أنها تحرق. هيا لا تأكليها يا سكاوت. أنت تضيّعينها دون جدوى. اتركيها تنزل.

- ولكني أريد أن أمشي فيه.

- أعرف الحل، سنذهب لنمشي في فناء الآنسة مودي.

قفز جم على قدم واحدة عبر الفناء الأمامي. وقد تتبعت آثاره. وحين وصلنا إلى الممر الجانبي أمام منزل الآنسة مودي، بادرنا السيد آفري بالكلام. كان له وجه زهري اللون وكرش كبيرة تتدلى من تحت حزامه.

قال:

ـ هل ترون ما فعلتم؟ لم يسبق أن أثلجت في مايكوم منذ «معركة أبوماتوكس»[1]. إن الأطفال الشريرين من أمثالكما هم السبب في تغيير الفصول.

وقد تساءلت في نفسي إن كان السيد آفري يعرف كم كنا ننتظر بعين الأمل أن يعيد استعراضه ولكن دون جدوى، وفكرت في أنه لو كانت هذه هي مكافأتنا على كل ذلك الانتظار فلا شك أننا ارتكبنا خطيئة ما. ولم أتساءل عن المصدر الذي كان السيد آفري يحصل منه على إحصائياته المتعلقة بالمناخ: فقد كانت مصادره هي «حجر رشيد» بالذات.

ـ يا جم فينتش، أنت يا جم فينتش.

ـ الآنسة مودي تناديك يا جم.

ـ ابقوا جميعاً في وسط الفناء. هناك نبتة ذات أزهار مدفونة تحت الثلج بالقرب من الرواق. لا تدوسوا عليها.

صاح جم:

ـ سمعاً وطاعة يا سيدتي. إنه جميل، أليس كذلك يا آنسة يامودي؟

ـ وما الجمال فيه؟ لو حلَّ الجليد الليلة فسيقتل كل أشجاري من الأزاليا.

كانت قبعة الآنسة مودي الشمسية القديمة تلمع بحبات الثلج البلورية. كانت تنحني فوق بعض الشجيرات الصغيرة وتلفها بأكياس من الخيش. وسألها جم عن سبب قيامها بذلك.

---

(1) آخر معركة في الحرب الأهلية الأمريكية وقد جلبت النصر للشماليين على الجنوبيين. (المترجم)

قالت:

ـ حتى تبقى دافئة.

ـ كيف يمكن للأزهار أن تبقى دافئة؟ ليس لها دورة دموية.

ـ لا أستطيع الإجابة على هذا السؤال يا جم فينتش. كل ما أعرفه هو أنه إذا حل الجليد الليلة فستتجمد هذه النباتات، ولذا علي أن أغطيها. هل هذا واضح؟

ـ نعم يا سيدتي. يا آنسة مودي؟

ـ ماذا يا سيدي؟

ـ هل يمكننا سكاوت وأنا أن نقترض بعضاً من ثلجك؟

ـ يا للسماء، خذاه كله. هناك سلة دراق عتيقة تحت المنزل، ضعا الثلج فيها.

وفجأة ضاقت عينا الآنسة مودي فقالت:

ـ يا جم فينتش، ما الذي ستفعله بثلجي؟

قال جم:

ـ سترين.

ثم نقلنا أكبر مقدار من الثلج استطعنا نقله من نفاء الآنسة مودي إلى فنائنا، وكانت تلك عملية موحلة.

سألت:

ـ ما الذي سنفعله يا جم؟

قال:

ـ سترين. والآن اجلبي السلّة واحملي كل الثلج الذي تستطيعين حمله من الفناء الخلفي إلى الأمامي. وعليك أن تمشي فوق آثار خطواتك على أية حال.

ـ هل سيكون لنا طفل ثلج؟

ـ لا، بل رجل ثلج حقيقي. وعلينا أن نعمل بجد.

ركض جم نحو الفناء الخلفي وعاد بمعزقة الحديقة وشرع يحفر بسرعة خلف كومة الحطب، ويضع الديدان التي يجدها جانباً. ثم دخل البيت وعاد يحمل سلة الغسيل وملأها بالتراب وحملها إلى الفناء الأمامي.

وحين أصبح لدينا خمس سلال من التراب وسلتان من الثلج، قال جم إننا جاهزان للبدء بالعمل.

سألته:

ـ ألا تعتقد أن هذا نوع من «الخبيصة»؟

ـ إنها تبدو مثل «الخبيصة» الآن، ولكن الأمر لن يكون كذلك بعد حين.

غرف جم ملء ذراعيه من التراب وراح يكدس فوقها أكداساً أخرى ويرتبها حتى أتم بناء جذع التمثال.

قلت له:

ـ يا جم، لم يسبق لي أن سمعت برجل ثلج زنجي.

ـ لن يكون أسود بعد قليل.

جلب جم بعض قضبان من شجرة الدراق من الفناء الخلفي ثم ضفرها ولواها على شكل عظام ثم ليغطيها بالتراب.

قلت:

ـ يبدو وكأنه الآنسة ستيفاني كروفورد ويداها على ردفيها: بدينة في المنتصف وذراعاها صغيران.

ـ سأجعلهما أكبر.

رش جم الماء على الرجل الطيني وأضاف المزيد من التراب. حدّق باستغراق في التمثال لبرهة ثم جعل له كرشاً كبيرة متدلية تحت خصره. نظر إلي جم وعيناه تومضان وقال:

ـ إن للسيد آفري شكلاً أشبه برجل الثلج، أليس كذلك؟

غرف جم بعض الثلج وبدأ يلصقه فوق التمثال. وقد سمح لي بتغطية الظهر فحسب، تاركاً الأجزاء البارزة لنفسه. وتدريجياً تحول السيد آفري إلى اللون الأبيض.

وقد نجح جم في جعل السيد آفري يبدو غاضباً عن طريق استعمال قطع من الحطب للعيون والأنف والفم والأزرار. كما أن عوداً من حطب المدفأة أكمل الصورة. عاد جم خطوة نحو الخلف وراح ينظر إلى مخلوقه.

قلت:

ـ إنه جميل يا جم، ويبدو وكأنه يود التحدث إليك.

قال بخجل:

ـ أجل، إنه جميل، أليس كذلك؟

توقف هطول الثلج بعد الظهر، ثم هبطت درجة الحرارة، ومع حلول الليل صدقت أسوأ تنبؤات السيد آفري: فقد جعلت كالبورنيا كل مدفأة في البيت تئزّ بالنار، ولكننا رغم ذلك لم ندفأ. وحين عاد أتيكوس إلى البيت في ذلك المساء قال إننا يجب أن نتوقع الأسوأ. وسأل كالبورنيا إن كانت ترغب في البقاء معنا تلك الليلة. رفعت كالبورنيا نظرها نحو السقف العالي والنوافذ الكبيرة وقالت إنها تظنّ أنها ستكون أدفأ في بيتها. وقد أوصلها أتيكوس بالسيارة إلى هناك.

وقبل أن أذهب للنوم وضع أتيكوس المزيد من الفحم في مدفأة غرفتي. قال إن درجة الحرارة سجلت (16) درجة (فهرنهايت)، وأنها أبرد ليلة يتذكرها، وأن رجل ثلجنا لا بد أن يكون قد تجمّد وأصبح صلباً.

بعد دقائق، كما بدا لي، أيقظني شخص ما راح يهزني. كان معطف أتيكوس قد مدّد فوقي.

ـ هل آن للصباح أن يعود؟

ـ انهضي يا طفلتي.

كان أتيكوس يحمل لي روب الحمام ومعطفي. قال:

ـ البسي الروب أوّلاً.

كان جم واقفاً إلى القرب من أتيكوس، مترنّحاً من النعاس، أشعث الشعر. كان مرتدياً معطفه مغلقاً عند العنق وكانت يده الأخرى محشورة في جيبه. كان يبدو وقد اكتسب وزناً إضافياً على نحو غريب.

قال أتيكوس:

ـ أسرعي يا حبيبتي. هاهو حذاؤك وجاربك.

وقد ارتديت حذائي وجاربيّ بكل غباء.

ـ هل هو الصباح؟

ـ لا، إن الساعة تجاوزت الواحدة بقليل. أسرعي الآن.

أخيراً توصلت إلى أن شيئاً ما على غير ما يرام.

ـ ما المسألة؟

الآن لم يعد ضرورياً أن يحكي لي. فكما تعرف الطيور أين تذهب حين يهطل المطر، كنت أدرك دائماً أن شيئاً ما قد حدث في شارعنا حين يكون قد حدث. كانت هناك أصوات ناعمة حريرية وأصوات عدْوٍ مكتومة ملأتني برعب يشوبه العجز.

ـ منزل من؟

قال أتيكوس بلطف:

ـ منزل الآنسة مودي يا حبيبتي.

عند الباب الأمامي رأينا النار تخرج من نوافذ غرفة المائدة في منزل الآنسة مودي. وحتى يتأكد ما رأيناه، فقد سمعنا صوت صفارة سيارة الإطفاء وهي تعول إلى أقصى حد وتتوقف هناك وهي لا تزال تزعق.

أنّ جم قائلاً:

ـ لقد احترق المنزل، أليس كذلك؟

قال أتيكوس:

ـ أتوقع ذلك. والآن اصغيا إليّ كلاكما. اهبطا وقفا أمام منزل آل رادلي. لا تقفا في طريق الناس، هل سمعتما؟ أتريان في أي اتجاه تهب الريح؟

قال جم:

ـ يا أتيكوس، ألا تعتقد أن علينا أن نبدأ بنقل الأثاث إلى الخارج.

ـ ليس بعد يا بني. افعلا الآن ما أقوله لكما. اركضا الآن. اعتن بسكاوت، هل تسمع يا جم؟ لا تدعها تبتعد عن ناظريك.

وبدفعة منه جعلنا أتيكوس نتوجه نحو البوابة الأمامية لمنزل آل رادلي. ووقفنا نراقب الشارع يمتلئ بالرجال والسيارات بينما راحت النار تلتهم بصمت منزل الآنسة مودي.

همهم جم:

ـ لماذا لا يسرعون؟ لماذا لا يسرعون...؟

وقد رأينا السبب في ذلك. كانت سيارة الإطفاء العجوز، التي قتلها البرد، تُدفع من قبل جمهرة من الرجال. وحين أوصل الرجال خرطومها إلى أحد الصنابير انفجر الخرطوم واندفع الماء يرّن على الرصيف.

ـ يا للرب يا جم...

لفّني جم بذراعه وقال:

ـ صه يا سكاوت. لم يحن وقت القلق بعد. سأقول لك متى يحين.

كان رجال مايكوم بكل درجات اللباس والعري، يخرجون أثاث الآنسة مودي نحو فناء يقع على الرصيف المواجه. ورأيت أتيكوس يحمل كرسي الآنسة مودي الهزاز الثقيل المصنوع من خشب السنديان، ورأيت أنه تصرف معقول منه أن يقوم بإنقاذ ما كانت تعتبره أثمن ما لديها. كان يدفع بفراش من النافذة إلى الشارع ثم يرمي بالأثاث حتى يصيح الرجال: «اهبط من هناك يا «ديك». السلالم تحترق. اخرج من هناك يا سيد آفري».

بدأ السيد آفري بالهبوط من النافذة.

قال جم لاهثاً:

ـ سكاوت، لقد علق... يا إلهي...

كان السيد آفري منحشراً بشدة في النافذة.

دفنت وجهي تحت ذراع جم ولم أنظر مرة أخرى حتى صاح جم:

ـ لقد نجا يا سكاوت. إنه بخير.

نظرت لأرى السيد آفري يعبر رواق الطابق العلوي. كان قد لفّ ساقيه حول الدرابزون وراح ينزلق عبر عمود حين زلّ فجأة. سقط ثم صرخ ووقع على شجيرات الآنسة مودي.

وفجأة لاحظت أن الرجال أخذوا يتراجعون عن منزل الآنسة مودي ويتجهون على طول الشارع نحونا. لم يعودوا يحملون الآن الأثاث. كانت النار قد أتت على الطابق الثاني ووصلت إلى السقف: وكانت إطارات النوافذ سوداء على خلفية برتقالية متقدة.

ـ يا جم إنه يبدو كيقطينة..

ـ انظري يا سكاوت.

كان الدخان يتصاعد ملتفاً بمنزلنا ومنزل الآنسة راشيل كالضباب المتصاعدة من ضفة نهر، وكان الرجال يجرون الخراطيم باتجاههما. وخلفنا كنت عربة إطفاء بلدة «أبوتسفيل» تزعق وهي تلتف حول المنعطف وتتوقف عند منزلنا.

قلت:

ـ ذاك الكتاب...

قال جم:

ـ ماذا؟

ـ كتاب «تووم سويفت» ليس لي، إنه يخص «ديل»...

ـ لا تقلقي يا سكاوت. لم يحن وقت القلق بعد.

ثم أشار بيده قائلاً:

ـ انظري هناك.

بين مجموعة من الجيران وقف أتيكوس ويداه في جيبي معطفه. كان يبدو كمن يراقب مباراة كرة قدم وإلى القرب منه وقفت الآنسة مودي.

قال جم:

ـ ألا ترين، إنه ليس قلقاً بعد.

ـ لماذا لا يقف على سطح أحد المنازل؟

ـ إنه عجوز على ذلك، ربما يخشى أن يدق عنقه.

ـ هل تظن أن علينا أن نجعله يخرج حاجياتنا من المنزل.؟

ـ علينا ألا نزعجه، سيعرف كيف يتصرف حين يحين الوقت المناسب.

بدأت عربة مطافئ «أبو تسفيل» بضخ الماء على منزلنا، وكان هناك رجل يقف على السطح راح يشير إلى الأماكن التي كانت تحتاج إلى الماء أكثر من غيرها. راقبت تمثالنا الثلجي المخنث تماماً وهو يسودّ ثم يتداعى، كما استقرت قبعة الآنسة مودي الشمسية فوق الكومة. لم أستطع أن أرى مقص النباتات. في حرارة النار ما بين منزلنا ومنزل الآنسة راشيل ومنزل الآنسة مودي، كان الرجال قد رموا بمعاطفهم وأرواب الحمام. كانوا يعملون الآن مرتدين بيجاماتهم وقمصان نومهم قد حشرت في سراويلهم، ولكني أدركت أنني كنت أكاد أتجمد ببطء حيث كنت أقف. حاول جم أن يدفئني، ولكن ذراعه لم تكن كافية. تحررّت منها وأمسكت بكتفيّ، ثم رحت أرقص قليلاً فشعرت بوجود قدميّ.

ظهرت عربة إطفاء أخرى وتوقفت أمام منزل الآنسة ستيفاني كروفورد. لم يكن هناك صنبور لتشغيل خرطوم إضافي، وحاول الرجال أن يبللّوا منزلها بالمطافئ اليدوية.

خفف سقف منزل الآنسة مودي المصنوع من الصفيح من حدة اللهب. ثم تهاوى المنزل وهو يزمجر وتدفقت النار من كل مكان وراح الرجال يهاجمونها بالبطانيات من على أسطح المنازل المجاورة، ويدوسون على الشرارات وقطع الخشب المحترقة.

كان الفجر قد حل حين بدأ الرجال بالمغادرة، فرداً فرداً في البداية ثم في مجموعات، ثم دفعوا عربة مطافئ مايكوم عائدين بها

إلى البلدة، كما رحلت عربة مطافئ أبوتسفيل، وبقيت العربة الثالثة. وقد عرفنا في اليوم التالي أنها وصلت من بلدة «كلارك فيري» التي تبعد ستين ميلاً عن بلدتنا.

مشينا جم وأنا عبر الشارع ببطء كمن يزحف زحفاً. كانت الآنسة مودي تحدق في الحفرة السوداء المدخنة في فنائها، وهزّ أتيكوس رأسه ليقول لنا أنها لا تريد أن تتكلم. قادنا إلى المنزل، وهو يمسك بأكتافنا لنعبر الشارع المثلج. قال إن الآنسة مودي ستمكث مع الآنسة ستيفاني في الوقت الحاضر.

سألنا قائلاً:

ـ هل يريد أحد منكم بعض الشوكولاته الساخنة؟

وحين أشعل أتيكوس النار في موقد المطبخ ارتجفت من البرد.

وبينما كنا نحتسي الشراب الدافئ لاحظت أن أتيكوس كان ينظر إليّ. أولاً بفضول ثم بتجهّم.

قال:

ـ أعتقد أني قلت لك ولجم أن تبقيا في مكانكما لا تبرحانه.

ـ لقد بقينا في مكاننا...

ـ بطانية من هذه إذن؟

ـ بطانية؟

ـ نعم يا آنستي، بطانية، وهي ليست لنا.

نظرت فوجدت نفسي ممسكة ببطانية صوفية بنية اللون كنت أضعها حول كتفي كما تفعل نساء الهنود الحمر.

ـ أتيكوس، لا أعرف يا سيدي... إني...

استدرت نحو جم أبحث عن سؤال، ولكن جم كان أكثر حيرة مني. قال إنه لم يكن يعرف كيف جاءت البطانية، فقد فعلنا ما طلبه منا أتيكوس، ووقفنا عند بوابة منزل آل رادلي بعيداً عن الجميع. ولم نتحرك بوصة واحدة من مكاننا. ثم توقف جم عن الحديث ليستأنف قائلاً وهو يهذي:

ـ السيد ناثان كان عند النار، لقد رأيته، لقد رأيته، كان يجرّ تلك الفرشة... أتيكوس، أقسم لك...

ـ حسناً يا بني. يبدو وكأن مايكوم كلها كانت هناك هذه الليلة بطريقة ما أو بأخرى. يا جم، هناك بعض ورق اللّف في حجرة المؤونة كما أعتقد. اذهب وأحضره وسوف....

ـ أتيكوس، لا يا سيدي.

بدا جم وكأنه فقد عقله. ثم بدأ يصب أسرارنا ذات اليمين وذات الشمال دون أن يأخذ بعين الاعتبار سلامتي أو حتى سلامته، ودون أن يحذف أي شيء، لا ثقب العقدة في الشجرة ولا البنطال ولا أي شيء آخر.

ـ لقد وضع السيد ناثان الإسمنت في تلك الشجرة حتى لا نعود نجد شيئاً فيها، وأقسم بالله أنه لم يؤذنا أبداً، كما أنه لم يقربنا بسوء أبداً، كان يستطيع أن يذبحني من الوريد إلى الوريد في تلك الليلة لو شاء، ولكنه حاول أن يصلح بنطالي بدلاً عن ذلك.. لم يؤذنا أبداً يا أتيكوس...

قال أتيكوس:

ـ لا عليك يا بني.

ولكنه قالها بلطف شديد وإلى حد أني شعرت بالراحة إلى حد كبير. كان من الواضح أنه لم يتابع أية كلمة مما قاله جم، فقد كان كل ما قاله:

ـ أنت على حق. الأفضل أن نحتفظ بذلك وبالبطانية لأنفسنا. ربما ستستطيع سكاوت أن تشكره في يوم من الأيام على تغطيته إياها من البرد.

سألت:

ـ أشكر من؟

ـ بو رادلي. كنت مشغولة جداً بالتفرج على النار بحيث لم تلاحظيه حين وضع البطانية فوق كتفيه.

شعرت باضطراب شديد في أحشائي وكدت أتقيأ حين أمسك جم بالبطانية واقترب مني ببطء.

ـ لقد تسلل خارجاً من منزله ـ ثم استدار ـ وتسلل وفعل هكذا.

قال أتيكوس بلهجة جافة:

ـ لا تجعل هذا يلهمك بالمزيد من المجد يا جيريمي.

قطب جم جبينه وقال:

ـ لن أفعل له شيئاً بعد الآن.

ولكني لاحظت شرارة المغامرة الجديدة تغادر عينيه. ثم استأنف قائلاً:

ـ فكري يا سكاوت لو أنك استدرت في تلك اللحظة لكنت شاهدته.

أيقظتنا كالبورنيا عند الظهر. كان أتيكوس قد قال إنه لا ضرورة لذهابنا إلى المدرسة في ذلك اليوم فلن يدخل رؤوسنا شيء بعد ليلة دون نوم. قالت لنا كالبورنيا إن علينا أن نحاول تنظيف الفناء الأمامي.

كانت القبعة الشمسية للآنسة مودي معلّقة في طبقة رقيقة من الجليد وكأنها فراشة في كهرمان، وكان علينا أن نحفر التراب بحثاً عن مقص نباتاتها. وقد وجدنا الآنسة مودي في فناء منزلها الخلفي، تحدق في شجرات الأزاليا المجمدة المتفحمة.

قال جم:

ـ نود أن نعيد لك أغراضك يا آنسة مودي. نحن آسفان جداً.

نظرت الآنسة مودي فيما حولها ورأينا ظل ابتسامتها العجوز فوق وجهها.

ـ كنت دائماً أودّ لو كان لي منزل أصغر يا جم، فذاك يتيح لي فناء أوسع. سيكون هناك مجال أكبر لشجرات الأزاليا الآن.

سألتها مندهشة:

ـ ألست حزينة يا آنسة مودي؟

كان أتيكوس قد قال لنا إن منزلها هو كل ما تملكه تقريباً.

ـ حزينة يا طفلتي؟ عجباً. لقد كنت أكره حظيرة البقر تلك. لقد فكرت أنا نفسي في إحراقه مئات المرات، لولا خوفي من أن يحبسوني.

ـ ولكن...

ـ لا تقلقي عليّ يا جان لويز فينتش. هناك وسائل يمكن للمرء أن ينجز بواسطتها أموراً ما كان يعرف سابقاً كيف يتصرف حيالها. حسناً، سأبني لنفسي منزلاً صغيراً وأؤجر غرفة أو غرفتين منه، ثم سيكون لدي أجمل فناء في ألاباما. إن نباتات البيلينغراث هذه ستبدو سقيمة بالمقارنة مع ما سأفعله حين أبدأ من جديد.

نظرنا، جم وأنا، كل إلى الآخر. ثم سألها هو:

ـ وكيف بدأ الحريق يا آنسة مودي؟

ـ لا أعرف يا جم. ربما من أنبوب مدخنة المطبخ. لقد تركت النار مشتعلة هناك في الليلة الماضية حتى لا تتجمد نباتاتي الموضوعة ضمن الأصص. لقد سمعت أنه كانت لديك صحبة غير متوقعة في الليلة الماضية يا آنسة جان لويز.

ـ وممن سمعت ذلك؟

ـ أتيكوس حكى لي وهو في طريقه إلى البلدة هذا الصباح. هل أقول لك الحقيقة، كنت أتمنى لو كنت معك. ولو كنت معك لكنت قد انتبهت والتفت إلى الخلف.

لقد حيرتني الآنسة مودي. فرغم أن معظم ممتلكاتها كانت قد احترقت وهاهو فناؤها المحبوب وقد تحول إلى خراب، إلا أنها لا تزال تبدو حيوية وتبدي اهتماماً ودياً بشؤوننا جم وأنا.

لا شك أنها لاحظت حيرتي، فقالت:

ـ إن الشيء الوحيد الذي أقلقني الليلة الماضية كان الخطر والفوضى اللذان سببهما الحريق. كان يمكن لهذا الحي أن يحترق بكامله. أما السيد آفري فسيبقى في الفراش مدة أسبوع كامل: لقد تحول إلى حطام. إن سنّه لا تسمح له بالقيام بتلك الأفعال وقد حذرته. وحالما أفرغ وتكون ستيفاني كروفورد منشغلة عني، فسوف أخبز له كعكة خاصة. إن ستيفاني تلك لازالت تحاول منذ ثلاثين عاماً الحصول على الوصفة التي أستعملها، وإذا كانت تظن أني سأعطيها تلك الوصفة لمجرد أني سأسكن في منزلها فلا شك أنها على خطأ.

وقد فكرت في أن الآنسة مودي لو تراجعت وأعطتها الوصفة، فإن الآنسة ستيفاني لن تستطيع تطبيقها على أية حال. لقد أتاحت لي الآنسة مودي المجال لمشاهدتها وهي تحضرّها ذات مرة. وكان من بين ما تتطلبه فنجاناً كبيراً واحداً من السكر.

كان النهار هادئاً. وكان الطقس بارداً وصافياً إلى حد أننا كنا نسمع صوت ساعة دار المحكمة وهي تدق وتقعقع وتتوتر قبل أن تدق معلنة تمام الساعة. كان لأنف الآنسة مودي لون لم يسبق لي أن رأيتُه من قبل، وقد سألتُها فقالت:

ـ أنا في الخارج هنا منذ الساعة السادسة. لا بد أنني قد تجمدت.

ثم رفعت يديها. كانت هناك شبكة من الخطوط الصغيرة تتقاطع وتتشابك في راحتيها، وكانت ذات لون بنّي من التراب والدم الممتزجين.

قال جم:

ـ لقد أتلفت يديك. لماذا لا تستخدمين رجلاً ملوناً؟ أو ربما سكاوت وأنا؟ يمكننا مساعدتك.

ولم تكن في صوته أية رنة تدل على التضحية حين قال العبارة الأخيرة.

قالت الآنسة مودي:

ـ شكراً يا سيدي، ولكن لديك عمل هناك.

ثم أشارت إلى فنائنا.

سألت:

ـ هل تعنين التمثال المخنث؟ يمكننا تسويته في لحظة.

حدّقت فيّ الآنسة مودي وشفتاها تتحركان بصمت. وفجأة رفعت يديها إلى رأسها وشهقت. وحين غادرناها كانت لا تزال تضحك ضحكات خافتة.

قال جم إنه لا يعرف ما حلّ بها. إلا أن الآنسة مودي هي الآنسة مودي.

* * *

الفصل التاسع

ـ عليك أن تسحب كلامك الآن يا ولد.

هذا الأمر الذي أصدرتُه إلى «سيسيل جاكوبس» كان بداية لفترة حساسة عشناها جم وأنا. كانت قبضتاي مطبقتين وكنت على استعداد للكم. وكان أتيكوس قد هدّد بأنه سيلي جلدي إذا سمع بأني تشاجرت مع أي شخص بعد الآن: قال إني أصبحت أكبر سناً وجسماً من أن أتورط في مثل تلك الأمور الطفولية. وأنني ما أن أتعلم الإحجام عن الشجار حتى يكون كل من حولي في حالة أفضل. ولكني كنت قد نسيت ذلك كله.

لقد جعلني سيسيل جاكوبس أنسى ذلك، فقد كان قد أعلن في باحة المدرسة في اليوم السابق أن والد سكاوت فينتش يدافع عن الزنوج. ولقد أنكرت ذلك ولكني حكيت لجم وسألته:

ـ ماذا يعني بذلك؟

ـ لا شيء. اسألي أتيكوس فيخبرك بالجواب.

وقد سألت أتيكوس ذلك المساء بالذات:

ـ هل تدافع عن الزنوج يا أتيكوس؟

ـ طبعاً. ولا تقولي «زنجي» يا سكاوت، هذه لفظة غير مهذبة.

ـ ولكن الجميع في المدرسة يستعملونها.

ـ من الآن فصاعداً سيكون هؤلاء الجميع قد نقصوا واحداً....

ـ حسناً. إذا أردتني ألا أكبر وأنا أتعلم مثل هذه الألفاظ فلماذا ترسلني إلى المدرسة؟.

نظر إلي أبي برقّة والضحكة في عينيه. ورغم الحل الوسط الذي توصلنا إليه، إلاّ أن حملتي للتهرّب من المدرسة استمرت على نحو أو آخر منذ أول جرعة مدرسية تلقيتها في اليوم الأول من الدراسة: كانت بداية شهر أيلول (سبتمبر) الماضي قد شهدت مني إغماءات ودوخة وشكاوي هضمية خفيفة. ثم تماديت إلى درجة أني دفعت خمسة سنتات حتى أحك رأسي برأس ابن طباخة الآنسة راشيل الذي كان مصاباً بالقوباء الحلقية ولكن العدوى لم تصبني.

ولكني كنت أفكر بمسألة أخرى.

ـ هل يدافع المحامون كافة عن الـ... السود يا أتيكوس؟

ـ طبعاً يا سكاوت.

ـ إذن لماذا قال سيسيل إنك تدافع عن الزنوج؟ لقد جعل الأمر يبدو وكأنك ترتكب شيئاً سرّياً وإنما جيد التنظيم.

تنهد أتيكوس ثم قال:

ـ أنا وبكل بساطة أدافع الآن عن رجل أسود اسمه توم روبنسون. وهذا يعيش في تلك المستوطنة الصغيرة الواقعة وراء مقلب نفايات البلدة. كما أنه عضو في الكنيسة التي تنتمي إليها كالبورنيا، وكال تعرف عائلته جيداً. وهي تقول إنها عائلة ذات سمعة نظيفة. يا سكاوت، لستِ في السن الذي يؤهلك لفهم بعض الأمور، ولكن كان هناك بعض الحديث في البلدة مفاده أنه ليس علي أن أبذل جهداً كبيراً في الدفاع عن هذا الرجل. هذه قضية غريبة، وهي لن تعرض على المحكمة قبل الدورة الصيفية، فقد كان جون تايلور (يعني القاضي) كريماً إلى حد أنه منحنا تأجيلاً...

ـ إذا كان عليك ألا تدافع عنه، فلماذا تفعل ذلك؟

ـ لأسباب عدة. والسبب الرئيسي هو أنني إذا لم أستطع الدفاع عنه فلن أستطيع أن أمشي مرفوع الرأس في البلدة، ولن أكون قادراً على تمثيل بلدتي في برلمان الولاية، كما أنني لن أستطيع حتى أن آمرك أو آمر جم بالقيام بأي شيء بعد الآن.

ـ هل تعني أنك إذا لم تدافع عن ذلك الرجل فإنه لن يكون علينا جم وأنا أن نطيعك بعد ذلك؟

ـ هذا صحيح تقريباً.

ـ لماذا؟

ـ لأنني لن أستطيع أن أطلب الطاعة منكما بعد ذلك. يا سكاوت، بسبب طبيعة عمل المحامي فإنه سيصادف خلال حياته قضية واحدة على الأقل تؤثر عليه شخصياً. وهذه قضيتي على ما أظن. قد تسمعين بعض الكلام القبيح حول هذا في المدرسة، ولكن بإمكانك أن تفعلي شيئاً واحداً من أجلي إذا أردت: ما عليك سوى أن ترفعي رأسك عالياً وألا ترفعي قبضتك. مهما قال لك الناس عليك ألا تسمحي لهم بأن يخرجوك عن طورك. حاولي القتال برأسك كنوع من التغيير... ورأسك رأس جيد وإن كان يرفض التعلّم.

ـ أتيكوس، هل سنكسبها؟

ـ كلا يا عزيزتي.

ـ إذن لماذا...

ـ إن خسارتنا المعلنة منذ مائة عام قبل شروعنا في القضية ليست سبباً في عدم محاولتنا الكسب.

قلت له:

ـ تبدو الآن وكأنك ابن العم «آيك فينتش».

كان ابن العم آيك فينتش هو الوحيد ممن تبقى على قيد الحياة من المحاربين القدماء من الجيش الكونفدرالي[1]. كانت له لحية من طراز «الجنرال هود[2]» وكان فخوراً بها على نحو مغال فيه. كنا نزوره مرة على الأقل كل عام، أتيكوس وجم وأنا. وكنت مضطرة إلى تقبيله. وكان ذلك أمراً رهيباً بالنسبة لي. وكنا جم وأنا نصغي باحترام إلى أتيكوس وابن العم آيك وهمها يستعيدان أحداث الحرب. كان ابن العم آيك يقول:

ـ أقول لك يا أتيكوس إن «تسوية ميزوري[3]» هي التي وجّهت إلينا الضربة القاضية، ولكن لو اضطررت إلى خوض التجربة مرة أخرى لسرتُ في إثر كل خطوة خطوتُها في السابق، وزيادة عليه كنا سنمحوهم هذه المرة... في عام (1864) حين بعث «ستونوول جاكسون[4]» من جديد... اعذروني أيها الشباب. في تلك الأيام كان ذلك «النور الأزرق العتيق» في السماء، فليرحم الله جبينه المقدس...

قال أتيكوس:

ـ تعالي يا سكاوت.

---

(1) تعني هنا الجيش الجنوبي الذي حارب ضد الجيش الشمالي في الحرب الأهلية الأمريكية (المترجم).

(2) الجنرال جون بل هود (1831 ـ 1873) وهو من قادة الجيش الجنوبي الكونفدرالي (المترجم).

(3) تسوية ميزوري: (1820 ـ 1821) وهي الإجراءات التي أقرها الكونغرس الأمريكي لوضع حد لسلسلة من الأزمات المتعلقة بالتوسع في الرق إلى مناطق جديدة (المترجم).

(4) جاكسون (1824 ـ 1863) جنرال كونفدرالي حقق عدة انتصارات على الشماليين وأصيب بجرح مميت في معركة «تشانسلرزفيل» (المترجم).

تسللت إلى حجره ودفنت رأسي تحت ذقنه. طوقني بذراعيه وراح يهزني بلطف. قال:

ـ هذه المرة الأمر مختلف، فنحن لا نقاتل اليانكي، بل نقاتل أصدقاءنا. ولكن ضعي في ذهنك أنه مهما أصبحت الأمور مريرة فإن هؤلاء لازالوا أصدقاءنا وأن هذا لا يزال وطننا.

وقد واجهت سيسيل جاكوبس وهذه الفكرة في رأسي في باحة المدرسة في اليوم التالي، قلت:

ـ عليك أن تحسب كلامك يا ولد وإلاّ؟

صاح قائلاً:

ـ عليك أن تجبريني على ذلك. إن أهلي يقولون إن أباك عار على بلدتنا وإن ذلك الزنجي يجب أن يشنق معلقاً من خزان الماء.

سددت قبضتي تجاهه ثم تذكرت ما قاله لي أتيكوس فأرخيت قبضتي وابتعدت وأنا أسمع «سكاوت جبانة» ترن في أذني. كانت تلك أول مرة تراجعت فيها عن «خناقة».

لو كنت تصارعت مع سيسيل كان ذلك سيعني أني خذلت أتيكوس. نادراً ما كان أتيكوس يطلب من جم ومني أن نفعل شيئاً من أجله، ولذا كنت مستعدة لقبول أن أسمع كلمة «جبانة» لأجل خاطره. وقد شعرت بنبل عظيم لأنني تذكرت ذلك في الوقت المناسب وبقيت نبيلة لثلاثة أسابيع.

ثم جاءت أعياد الميلاد وحلت الكارثة.

كنا جم وأنا ننظر إلى أعياد الميلاد بمشاعر مختلطة. فقد كان الجانب الطيب منها هو شجرة الميلاد وقدوم العم جاك فينتش. في عشية الميلاد كنا نذهب عادة للقاء العم جاك عند مفترق مايكوم، وكان يقضي أسبوعاً كاملاً معنا.

أما الجانب الآخر من العملة فكان يكشف الأسارير العنيدة لكل من العمة ألكسندرا وفرانسيس.

أعتقد أنه كان عليّ أن أضيف إلى القائمة العم جيمي وهو زوج العمة ألكسندرا، ولكن بما أنه لم يسبق له أن خاطبني مرة طوال حياتي إلا ليقول لي مرة «انزلي عن السور»، فإني لا أرى سبباً يدعوني إلى الانتباه إلى وجوده. وكذلك كان الحال مع العمة ألكسندرا بالنسبة لزوجها. فمنذ فترة طويلة من الزمن، وفي موجة ودّ فجائية، خلّفت العمة ألكسندرا والعم جيمي ابناً أسمياه هنري، وقد هجر البيت أول ما بلغ السنّ المناسب لذلك، وتزوج وأنجب فرانسيس. وكان هنري وزوجته يتركان فرانسيس عند جدّيه في كل عيد ميلاد حتى يتفرغا لمسراتهما الخاصة.

ما كان يمكن لأية كمية من الآهات أن تقنع أتيكوس بأن يتركنا نقضي يوم عيد الميلاد في البيت. لقد ذهبنا إلى «فينتشيز لاندينغ» في كل عيد ميلاد أتذكره. على كل حال كانت مهارة عمتي في الطبخ تعوض نوعاً ما عن إجباري على قضاء عطلة دينية مع فرانسيس هانكون. كان يكبرني بعام واحد، وكنت أتجنبه لسبب مبدئي: فقد كان يحب كل ما أكرهه ويكره كل الألعاب البريئة التي أحب.

كانت العمة ألكسندرا هي أخت أتيكوس، ولكن حين حكى لي جم عن الأطفال الذين يُستبدلون سراً بغيرهم فقد تأكدت من أنها لا بد أن تكون قد استُبدلت عند ولادتها، وأن جدّيّ قد حصلا ربما على طفلة من عائلة كروفورد بدلاً من طفلتهما الحقيقية. لو كنت أؤمن بتلك الأفكار السرية المتعلقة بالجبال والتي يبدو وكأنها تستحوذ على المحامين والقضاة، لكنت شبّهت العمة ألكسندرا بجبل أفرست: فعبر طفولتي كلها كان بارداً وبعيداً.

حين قفز العم جاك من القطار يوم عيد الميلاد، كان علينا انتظار الحمّال ليسلّمه رزمتين طويلتين. كنا جم وأنا نجد تقبيل جاك لخد أتيكوس أمراً مضحكاً، فقد كانا الشخصين الوحيدين اللذين حدث أن رأيناهما يقبل واحدهما الآخر. كان العم جاك يصافح جم ويؤرجحني عالياً، ولكن ليس عالياً بما فيه الكفاية: فقد كان أقصر من أتيكوس ولا يصل طوله إلى أكثر من كتفي أبينا هذا. وكان أصغر الأبناء سناً وأصغر من العمة ألكسندرا. كان يشبهها كثيراً ولكنه ما كان مقطباً على الدوام، وما كنا نحترس من أنفه وذقنه الحادتين.

كان واحداً من قلة من رجال العلم ممّن لم يرهبوني أبداً، وربما كان ذلك أنه لم يكن يتصرف كطبيب. فكلما كان يقدم لنا جم وأنا، خدمة طبية صغيرة ما، كإزالة شظية صغيرة من القدم، فإنه يحكي لنا بالضبط ما سيفعله، ويعطينا تقديراً عن مدى الألم الذي سنعنيه، ويشرح استعمال أية أداة سيستعملها. في أحد أعياد الميلاد رحت أتوارى في الزوايا أمرّض شظية صغيرة ملتوية دخلت في قدمي، وما سمحت لأحد أن يقترب مني. وحين أمسك بي العم جاك أخيراً راح يضحكني بحكاية واعظ كان يكره الذهاب إلى الكنيسة كثيراً، وإلى حد أنه كان يقف عند باب بيته في «الروب دوشامبر»، يدخن نارجيلته ويلقي مواعظ طولها خمس دقائق إلى أي عابر سبيل كان يرغب في الراحة الروحية. وقد قاطعتُ العم جاك لأطلب منه أن يخبرني عندما يريد سحب الشظية من قدمي، ولكنه رفع أمامي شظية دامية ممسوكة بملقط وقال إنه انتزعها بينما كنت أضحك، كان ذلك هو ما يعرف بالنسبية.

سألته وأنا أشير إلى الرزمتين النحيلتين الطويلتين اللتين أعطاهما إياه الحمّال:

ـ ما الذي في تلك الرزمتين؟

ـ لا شيء يهمك.

قال جم:

- كيف هي «روز آلماير»؟

كانت «روز آلماير» هي قطة العم جاك. وكانت أنثى جميلة صفراء اللون يقول العم جاك إنها واحدة من قلة من النساء اللواتي استطاع احتمالهن على نحو دائم. أدخل يده في جيب معطفه وأخرج بعض الصور الفوتوغرافية. وقد أعجبنا بها.

قلت:

- لقد أصبحتْ سمينة.

- أعتقد ذلك، فهي تأكل بقايا كل الأصابع والآذان في المستشفى.

قلت:

- هذه قصة «ملعونة».

- ماذا؟

قال أتيكوس:

- لا تهتم بها يا جاك. إنها تحاول اختبارك. تقول «كال» إنها أصبحت تسبّ بطلاقة منذ أسبوع.

رفع العم جاك حاجبيه ولم يقل شيئاً. كنت أتلمس طريقي محاولة تطبيق هذه النظرية الغامضة - دون أخذ بالاعتبار للجاذبية الكامنة في مثل تلك الكلمات - التي تفيد أنه لو اكتشف أتيكوس أنني قد تعلمت هذه الكلمات في المدرسة فهو سيمنعني من الذهاب إليها.

ولكن حدث عند العشاء وحين طلبت منه قائلة: «مرّر لي طبق لحم الخنزير المقدد «الملعون» يا عم جاك» أن أشار إلي وقال: «سأراك فيما بعد أيتها السيدة الصغيرة».

وحين انتهى العشاء، ذهب العم جاك إلى غرفة الجلوس وجلس هناك. ثم ضرب على فخذيه كأنه يشير لي أن أذهب وأجلس على حضنه. كنت أحب رائحته: كانت أشبه بزجاجة كحول وبشيء حلو على نحو لطيف. دفع بخصلة جبيني بعيداً عن عيني ونظر إلي. قال:

ـ أنت تشبهين أتيكوس أكثر مما تشبهين أمك. كما أن بنطالك أصبح ضيقاً عليك.

ـ أعتقد أنه مناسب تماماً.

ـ تحبين الآن الكلمات من نوع «ملعون» و«يا للجحيم». أليس كذلك؟

قلت إني أظن ذلك.

قال العم جاك:

ـ حسناً أنا لا أحب ذلك، ما لم يكن هناك استفزاز شديد للمرء حتى يقول مثل هذه الكلمات. سأبقى هنا أسبوعاً، وأنا لا أريد أن أسمع أية كلمات من هذا النوع بينما أنا هنا. يا سكاوت، ستتعرضين للمشاكل إذا تابعت قول مثل هذه الكلمات. تريدين أن تكبري وتصبحي سيدة محترمة، أليس كذلك؟

قلت له إنني لا أرغب في ذلك على نحو خاص جداً.

ـ طبعاً ترغبين في ذلك. والآن هيا نذهب إلى الشجرة.

وقد علمنا تزيين شجرة الميلاد حتى حان وقت النوم، وفي تلك الليلة حلمت بالرزمتين الطويلتين اللتين جلبهما العم جاك لجم ولي. وفي صباح اليوم التالي اندفعنا نحوهما لنكتشف أنهما من أتيكوس الذي كتب للعم جاك ليحضرهما معه من أجلنا وكانتا ما طلبناه بالذات.

قال أتيكوس حين صوب أتيكوس ببندقيته إلى صورة معلقة على الجدار:

ـ لا تصوباهما في البيت.

قال العم جاك:

ـ عليك أن تعلمهما التصويب.

قال أتيكوس:

ـ هذا من شأنك. ما حدث هو أنني انحنيت أمام المحتوم.

ولم يفلح أتيكوس في جعلنا نترك الشجرة إلا حين استعمل صوته الذي يرافع به في المحكمة. وقد وافق على أن نأخذ بندقيتينا اللتين تعملان على ضغط الهواء إلى فينتشز لاندينغ. (كان قد سبق لي وبدأت أفكر في تصويب بندقيتي نحو فرانسيس)، وقال إننا إذا ارتكبنا خطأ واحداً فسوف يأخذ منا البندقيتين ولن يعيدهما إلينا بعد ذلك أبداً.

كانت فينتشز لاندينغ تتألف من ثلاثمئة وست وستين درجة تهبط نازلة من جرف عال وتنتهي إلى محطة للسفن على النهر. وإلى مسافة أبعد باتجاه النهر، كانت محطة قديمة لتحميل القطن حيث كان الزنوج من عبيد آل فينتش يحمّلون البالات والمحصول ويفرغون قوالب الثلج والدقيق والسكّر ومعدات الزراعة والملابس النسائية. كانت هناك طريق ذات مجريين تنطلق من حافة النهر ثم تختفي بين الأشجار الكثيفة. في نهاية الطريق كان منزل أبيض من طابقين له رواق يلف بالطابق العلوي والسفلي. في الأيام الغابرة، كان جدنا سايمون فينتش قد بناه ليرضي زوجته النقّاقة، ولكن مع تلك الرواقات فإن كل شبه مع المنازل العادية لذلك العصر قد تلاشى. أما التفاصيل الداخلية لمنزل آل فينتش فتدل على سذاجة سايمون والثقة المطلقة التي وضعها في نسله.

في الطابق العلوي كان هناك ست غرف للنوم، أربع لبناته الثماني والخامسة لابنه الوحيد ويلكوم فينتش، والسادسة للزائرين من الأقرباء. هذا بسيط، ولكن غرف نوم البنات لا يمكن الوصول إليها إلا عبر سلم واحد بعينه، بينما غرفة نوم الابن والغرفة الأخرى ما كان ممكناً الصعود إليهما إلا عن طريق سلم آخر. وكان سلم غرف نوم البنات يبدأ من غرفة نوم الأبوين التي كانت في الطابق السفلي، ولذا كان سايمون يعرف التحركات الليلية لبناته ومواعيدها أيضاً.

هناك مطبخ منفصل عن بقية المنزل ويتصل به عن طريق ممر ضيّق خشبي. وفي الفناء الخلفي جرس صدئ معلّق على عمود كان يستعمل لاستدعاء العمال من الحقل أو كإشارة في حالة الخطر. وكان هناك «ممشى أرملة[1]». ولكن لم تكن هناك أية أرامل تتمشى فيه. ولكن سايمون كان يراقب منه ناظر المزرعة والزوارق النهرية ويحدق في كيفية معيشة الملاّك المجاورين.

وكانت تدور حول المنزل الأسطورة المعتادة المتعلقة باليانكي[2]: حيث يقال إن إحدى نساء آل فينتش، وكانت مخطوبة حديثاً، قد ارتدت كامل جهاز عرسها لإنقاذه من لصوص الغزاة المتواجدين في الجوار، وقد علقت في الباب لكثرة (ما ارتدته من ملابس) ولكنها نضحت بالماء حتى أمكن إنقاذها. حين وصلنا إلى فينتشز لاندينغ، قبّلت العمة ألكسندرا العم جاك وقبّل فرانسيس العم جاك، كما صافح العم جيمي بصمت العم جاك وجم، وأعطيت أنا إلى فرانسيس هداياه فأعطانا هدية بدوره. أحس جم بعمره فانجذب نحو الراشدين تاركاً إياي لأسلّي ابن عمي. كان فرانسيس في الثامنة ولكنه كان يسرّح شعره إلى الخلف.

---

(1) مرقب تستخدمه زوجات البحارة محاط بدرابزون فوق سطح بيت ساحلي (المترجم).

(2) تعني خلال الحرب الأهلية الأمريكية (المترجم).

سألت فرانسيس بأدب:

ـ ما الهدية التي حصلت عليها في عيد الميلاد؟

ـ ما طلبتُه بالضبط.

كان فرانسيس قد طلب بنطالاً من النوع الذي يصل إلى الركبة. وحقيبة كتب من الجلد الأحمر، وخمسة قمصان وربطة عنق فراشة ليست مربوطة.

كذبت قائلة:

ـ هذا جميل.

ثم استأنفت:

ـ لقد حصلنا جم وأنا على بندقيتين تعملان بضغط الهواء كما حصل جم على مجموعة أدوات كيميائية...

ـ تعنين أنها على شكل لعبة أطفال.

ـ لا، إنها مجموعة حقيقية. وقال إنه سيصنع لي حبراً غير مرئي وسأكتب رسالة إلى «ديل» به.

وسأل فرانسيس عن الجدوى من ذلك.

قلت:

ـ ألا تستطيع أن تتصور وجهه حين يستلم رسالة مني ولا شيء مكتوب فيها؟ هذا سيجعله يجنّ.

كان التحدث إلى فرانسيس يمنحني الإحساس بالغرق ببطء إلى أسفل المحيط. كان أكثر الأطفال الذين سبق وقابلتهم إثارة للملل في نفسي. وبما أنه كان يعيش في مدينة «موبيل» فإنه لم يكن يستطيع أن يشي بي إلى إدارة المدرسة، ولكنه كان يستطيع أن ينقل كل شيء يعرفه إلى العمة ألكسندرا. وقد فعل ذلك، وهذه قامت بالتالي بإخبار

أتيكوس بكل شيء سمعته، وكان أتيكوس بدوره إما أن ينسى ذلك أو يعاقبني، أي حسب مزاجه. ولكن المرة الوحيدة التي سمعتُ بها أتيكوس يتكلم بحدّة مع أي شخص كان، جرت حين سمعته يقول للعمة ألكسندرا:

ـ يا أختي، إني أبذل ما بوسعي لتربيتهما.

وكانت هذه الملاحظة تتعلق بارتدائي الأوفرول.

كانت العمة ألكسندرا متعصّبة فيما يتعلق بموضوع الملابس التي أرتديها. فما كان هناك أمل لديّ بالتحول إلى سيدة محترمة إذا ارتديت بنطالاً: وحين قلت إن الثوب لا يترك لي حرية القيام بأي شيء، قالت إنه لم يكن من المفترض أن أفعل أشياء تتطلب ارتداء بنطال. كانت رؤيا العمة ألكسندرا بالنسبة لسلوكي تتضمن اللعب بمدافئ صغيرة وأطقم الشاي الصغيرة وارتداء قلادة من اللؤلؤ كانت قد أهدتني إياها حين ولدت. وزيادة عليه، كان علي أن أكون الشمس المنيرة في حياة والدي المترعة بظلمة الوحدة. وقد اقترحت عليها بأنه بإمكاني أن أكون شمساً مضيئة في بنطال أيضاً، ولكن عمتي قالت إن على المرء أن يتصرف بما يتناسب مع ذلك اللقب، وأني ولدت طيبة ولكني أتراجع نحو الأسوأ كل عام. كانت تجرح مشاعري وتجعلني أشد على أسناني غيظاً وبشكل مستمر. ولكني حين سألت أتيكوس عن الموضوع قال إن في العائلة شموساً كافية وأنه يمكنني الاستمرار في التصرف كما كنت أفعل حيث أنه غير متضايق من أي شيء.

وحين أزف موعد وجبة غداء عيد الميلاد، جلست إلى المنضدة الصغيرة في غرفة الطعام، أما جم وفرانسيس فقد جلسا مع الكبار إلى منضدة الطعام. لقد واظبت عمتي على عزلي بعد فترة طويلة من انتقال جم وفرانسيس إلى المنضدة الكبيرة. وغالباً ما كنت أتساءل عما

كانت تظن أني فاعلة؟ هل كانت تظن أني سأقف لأرمي شيئاً ما؟ في بعض الأحيان كنت أفكر في سؤالها بالسماح لي بالجلوس إلى منضدة الكبار مع البقية مرة واحدة وسأثبت لها كم أنا متحضّرة. وعلى أية حال فإني أتناول الطعام كل يوم في البيت مع الكبار دون أية حوادث مؤسفة. وحين رجوت أتيكوس ليتوسط لي في الموضوع. قال إنه ليست له دالّة على أخته في هذا الموضوع فنحن ضيوف، والمفروض أن نجلس حيث تريدنا هي أن نجلس. كما قال إن العمة ألكسندرا لا تفهم كثيراً في تربية البنات لأنها لم ترزق ببنات.

ولكن طبخها الجيّد كان يعوّض عن كل شيء: ثلاثة أنواع من اللحم، خضار صيفية من رفوف حجرة حفظ الطعام، مخلل الدراق، نوعان من الكعك وطعام الآلهة، كل هذا كان يشكل غداء عيد الميلاد المتواضع. بعد ذلك ذهب الكبار إلى غرفة الجلوس وجلسوا في حالة من الدّوار. استلقى جم على الأرض وأردت الذهاب إلى الفناء الخلفي، فقال لي أتيكوس بلهجة حالمة:

ـ ارتدي معطفك.

ولكني لم أسمعه بسبب تلك اللهجة. وجلس فرانسيس إلى القرب مني على الدرج الخلفي. فقلت له:

ـ كانت تلك أروع وجبة حتى الآن.

ـ جدتي طباخة ماهرة. ستعلمني الطبخ.

ضحكت وأنا أتصور جم في مريلة الطبخ وقلت:

ـ الصبيان لا يطبخون.

ـ ولكن جدتي تقول إن على الرجال جميعاً أن يتعلموا الطبخ، وإن على الرجال أن يكونوا حريصين على زوجاتهم ورعايتهنّ حين لا يكنّ في حالة صحية جيدة.

قلت:

ـ لا أريد أن يرعاني «ديل». أفضل أن أرعاه أنا.

ـ «ديل»؟

ـ أجل. لا تقل لأحد شيئاً عن هذا الموضوع، ولكننا سنتزوج حالما نبلغ السن المناسب، ولقد طلب يدي في الصيف الماضي.

صفّر فرانسيس متعجباً.

قلت:

ـ وما عيبه؟ لا يوجد فيه أي عيب.

ـ هل تعنين ذلك القزم الصغير الذي قالت جدتي إنه يقضي الصيفية عادة مع الآنسة راشيل؟.

ـ هو بالضبط من أعنيه.

ـ أعرف عنه كل شيء.

ـ وماذا تعرف عنه؟

ـ تقول جدتي إنه لا بيت له يؤويه...

ـ له بيت فهو يعيش في بلدة «ميريديان».

ـ إنه ينتقل من منزل أحد الأقرباء إلى منزل آخر طوال الوقت، والآنسة راشيل تستضيفه كل صيف.

ـ يا فرانسيس، ليست الأمور كذلك.

ابتسم فرانسيس.

ـ تكونين شديدة الغباء أحياناً يا جان لويز. وأظن أنك لا تعرفين ذلك على أية حال.

ـ ماذا تعني؟

ـ إذا سمح لك العم أتيكوس بالتجول مع الكلاب الشاردة، فذاك شأنه، كما تقول جدتي، ولذا فإن الخطأ ليس خطأك. أظن أنك لا علاقة لك بكون العم أتيكوس «محباً للزنوج» زيادة على ذلك، ولكني هنا لأخبرك أن ذلك ممّا يخزي بقية أفراد العائلة...

ـ فرانسيس، ما الذي تعنيه بحق الجحيم؟

ـ ما قلته بالضبط. تقول جدتي إنه ليس من الحكمة في شيء أن يتركك والدك دون تربية، ولكنه بعد أن أصبح من «محبي الزنوج» فلن نستطيع أن نسير في شوارع مايكوم بعد الآن. إنه يدمر العائلة، هذا ما يفعله.

نهض فرانسيس وعبر الممر الضيق بسرعة باتجاه المطبخ العتيق. ومن مسافة يستطيع فيها الآن أن يكون في مأمن مني صاح:

ـ إنه لا شيء سوى «محب للزنوج».

زمجرت:

ـ إنه ليس كذلك. لا أعرف ما الذي تتحدث عنه، ولكن من الأفضل لك أن تتوقف في هذه اللحظة بالذات.

قفزت الدرج وعبرت الممر الضيق بسرعة. وكان من السهل أخذ فرانسيس من خناقه. أمرته أن يتراجع عما قاله وبسرعة.

تملّص فرانسيس من قبضتي وأسرع نحو المطبخ. ثم صاح:

ـ محب للزنوج.

من الأفضل ألا يتعجل المرء الأمور لدى تعقب الطريدة. لا تقل شيئاً وبكل تأكيد فإنّ فضولها سيثار وستظهر من مخبئها. ظهر فرانسيس عند باب المطبخ وسأل بتردّد:

ـ هل لازلت في حالة جنون يا جان لويز؟

ـ لا.

خرج فرانسيس باتجاه الممر الضيق.

ـ عليك أن تتراجع عما قلته يا فرانسيس.

تسرّعت في الحركة، فاندفع فرانسيس عائداً إلى المطبخ وتراجعت أنا نحو الدرج. كان بإمكاني الانتظار بصبر. كنت قد جلست هناك مدة خمس دقائق حين سمعت صوت العمة ألكسندرا:

ـ أين فرانسيس؟

ـ إنه هناك في المطبخ.

ـ إنه يعرف أنه من المفروض ألا يلعب هناك.

جاء فرانسيس إلى الباب وصاح:

ـ يا جدتي، إنها تحاصرني هنا ولا تريد أن تخلي سبيلي.

ـ ما هذا كله يا جان لويز؟

نظرت إلى العمة ألكسندرا وقلت لها:

ـ لست أحاصره هناك يا عمتي. ليس ذلك صحيحاً.

صاح فرانسيس:

ـ بل الأمر كذلك. إنها لا تدعني أخرج.

ـ هل كنتما تتشاجران؟

صاح فرانسيس:

ـ لقد جن جنون جان لويز عليّ يا جدتي.

ـ أخرج يا فرانسيس من هناك. يا جان لويز إذا سمعت كلمة أخرى منك فسأشكوك لأبيك. هل سمعتك تقولين «يا للجحيم» قبل قليل؟

ـ كلا.

ـ ظننت أني سمعتك تقولين ذاك. الأفضل ألا أسمع ذلك مرة أخرى.

كانت العمة ألكسندرا من النوع الذي يسترق السمع من وراء الأبواب. ولحظة أن ابتعدت خرج فرانسيس مرفوع الرأس مبتسماً وقال:

ـ إياك أن تغافليني.

قفز نحو الفناء وأبقى على مسافة بيني وبينه، وراح يرفس الحشيش ويستدير نحوي بين الحين والآخر ليبتسم لي. ظهر جم عند الرواق ونظر إلينا ووضع يديه في جيوبه وتمشّى ببطء حول الفناء. تلفظ بكلمة تحدٍّ. سألته من ترى يعتقد نفسه؟ هل كان يظن أنه العم جاك؟ قال فرانسيس إنه يعتقد أني أُمرت بأن أجلس في مكاني وأن أتركه وشأنه.

قلت:

ـ لست أزعجك.

نظر إليّ فرانسيس بحذر، واستنتج أني قد هدأت بما فيه الكفاية ثم دندن: «محب الزنوج...»..

في هذه المرة لكمتُه على أسنانه الأمامية لكمة مزقت سُلاميتي حتى العظم، وبعد أن ضعفت يسراي بسبب ذلك رحت أضربه بيمناي ولكن ليس لفترة طويلة. فقد كان العم جاك قد وصل وثبّت ذراعيّ إلى جانبي وقال: «كفى».

اعتنت العمة ألكسندرا بفرانسيس، فراحت تمسح دموعه بمنديلها وتربت على شعره وعلى خده. كان أتيكوس وجم والعم جيمي قد سبق لهم ووصلوا إلى الرواق الخلفي حين بدأ فرانسيس بالصياح.

قال العم جاك:

ـ من بدأ الشجار؟

أشرنا فرانسيس وأنا كل إلى الآخر. صاح هو:

ـ يا جدتي، لقد نادتني بالسيدة العاهرة ثم هجمت عليّ.

سألني العم جاك:

ـ أهذا صحيح يا سكاوت؟

ـ أعتقد ذلك.

حين كان العم جاك ينظر إلي باستهجان كانت ملامحه أشبه بملامح العمة ألكسندرا. قال:

ـ تعلمين أني حذرتك من أنك ستورطين نفسك في المتاعب إذا استعملت مثل تلك الكلمات، أليس كذلك؟

ـ أجل يا سيدي ولكن...

ـ حسناً، أنت متورطة في المتاعب الآن. ابقي في مكانك.

كنت مترددة ما بين البقاء في مكاني أو الركض، وقد توانيت بسبب هذا التردد عن الانطلاق فما كان من العم جاك إلا وأمسك بي عندما قررت الهروب. وجدت نفسي فجأة أنظر إلى نملة صغيرة تتصارع مع كسرة خبز في العشب.

ـ لن أتكلم معك مرة أخرى طالما أنا على ثيد الحياة. أكرهك وأحتقرك وآمل أن تموت غداً.

هذه العبارات بدا أنها شجّعت العم جاك بدلاً عن أن يكون لها أي تأثير آخر. ركضت نحو أتيكوس ألتمس العزاء فقال إني تخطيت حدودي وإن الوقت قد حان للعودة إلى البيت. صعدت إلى المقعد الخلفي للسيارة دون أن أودع أحداً ولدى الوصول إلى البيت أسرعت نحو غرفتي وأغلقت الباب خلفي بعنف. حاول جم أن يقول شيئاً ملطِّفاً، ولكنني لم أترك له الفرصة.

وحين أجريت مسحاً للأضرار لاحظت وجود سبع أو ثماني علامات حمراء فقط، وكنت أفكر في «النسبية» حين قرع أحدهم على الباب. سألت من الطارق فأجاب أنه العم جاك.

ـ ابتعد من هنا.

حذر العم جاك من أنه سيضربني مرة أخرى إذا تكلمت بذلك الأسلوب. ولذا خرست. وحين دخل الغرفة تراجعت نحو إحدى الزوايا وأدرت له ظهري. قال:

ـ سكاوت، هل لازلت تكرهينني؟

ـ استأنف حديثك يا سيدي.

ـ ما كنت أظنك ستتحاملين علي. لقد خاب ظني في... لقد تخطيت حدودك وأنت تعرفين ذلك.

ـ ليس هذا صحيحاً.

ـ يا حبيبتي، لا يمكنك أن تتركي لنفسك حرية مناداة الناس بتلك الأسماء...

ـ لست عادلاً، لست عادلاً.

ارتفع حاجبا العم جاك وقال:

ـ لست عادلاً؟ ماذا تعنين بذلك؟

ـ أنت لطيف حقاً يا عم جاك، وأظن أني أحبك حتى بعد ما فعلته بي، ولكنك لا تفهم الأطفال كثيراً.

وضع العم جاك يديه فوق ردفيه ونظر إلي من علٍ وقال:

ـ ولماذا لا أفهم الأطفال يا آنسة جان لويز؟ إن سلوكاً كسلوكك لا يتطلب سوى قليل من الفهم. لقد كان سلوكاً جموحاً فوضوياً وبذيئاً...

ـ يجب أن تعطيني الفرصة لأشـرح لـك مـا حـدث. لا أعـني أن أكون وقحة معك، ولكني أحاول أن أشرح لك ما حدث.

جلس العم جاك على السرير. عقد حاجبيه وحدّق إلي من تحـت حاجبيه المعقودين. قال:

ـ هيا.

أخذت نفساً عميقاً وقلت:

ـ حسناً، أولاً أنت لم تعطني الفرصة لأطلعك على وجهة نظـري في الموضوع، بل هاجمتني فوراً. حين أتشاجر مع جـم فـإن أتيكـوس لا يصغي إلى وجهة نظر جم فحسب بـل يـسمع وجهـة نظـري أيـضاً. وثانياً لقد قلت لي ألا أستعمل كلمات كتلـك إلا في حالـة الاسـتفزاز الشديد، وقد استفزّني فرانسيس إلى حد جعلني مستعدة لقتله....

حكّ العم جاك رأسه وقال:

ـ ما هي وجهة نظرك يا سكاوت؟

ـ لقد أطلق فرانسيس على أتيكوس لقباً مـا، ومـا كنـت مـستعدة لتحمّل ذلك.

ـ وما هو اللقب الذي أطلقه؟

ـ «محب الزنوج». لا أعرف كثيراً مـا يعنيـه هـذا اللقـب، ولكـن الطريقة التي نطق بها ذلك اللقب... آخ. ما كان ممكناً أن أجلس هنـاك وأدعه يقول شيئاً يتعلق بأتيكوس ولو كلفني ذلك ما كلفني.

ـ هل لقّب أتيكوس بذاك اللقب؟

ـ أجل يا سيدي. لقد فعل بل وقال ما هو أكثر من ذلـك. قـال إن أتيكـوس سـيدمّر سمعـة العائلـة وأنـه لا يعطينـا جـم وأنـا حقّنـا مـن التربية...

ومن النظرة التي كانت على وجه العم جاك، ظننت أني وقعت في ورطة مرة أخرى. وحين قال: «سنرى ما سنفعله في هذا الأمر» عرفت أن فرانسيس قد وقع في ورطة. واستأنف العم جاك قائلاً:

ـ أفكر بالذهاب إلى هناك الليلة.

ـ أرجوك يا سيدي فلتنسَ هذا الموضوع. أرجوك.

ـ ليست لدي النية في نسيانه. يجب أن تعرف ألكسندرا ما حدث. والفكرة هي... انتظري حتى أمسك بذاك الصبي...

ـ يا عم جاك، أرجو أن تعدني بشيء ما، أرجوك يا سيدي. عدني بأنك لن تقول لأتيكوس شيئاً حول هذا الموضوع. لقد طلب مني ألا أدع أي شيء ـ أسمعه ويتعلق به ـ يدفعني إلى الجنون، وأفضل أن يظن أننا كنا بالأحرى نتشاجر حول موضوع آخر. أرجوك عدني...

ـ ولكني لا أريد أن يفلت فرانسيس دون عقاب بعد أن بدرت منه مثل هذه الأقوال...

ـ لم يفلت. هل تظن أنك تستطيع أن تضمّد لي يدي؟ إنها لا تزال تنزف بعض الشيء.

ـ طبعاً يا طفلتي. لا أعرف يداً أخرى يسرني تضميدها أكثر من يدك هذه. هيا تفضلي معي.

حملني العم جاك بشهامة إلى غرفة الحمام. وبينما كان يطّهر ويضمّد أصابعي، راح يسليني بحكاية عن رجل عجوز مضحك قصير النظر كانت لديه قطة اسمها «هودج»، وكان يعدّ كل الشقوق على الرصيف حين كان يذهب إلى البلدة. ثم قال:

ـ ها قد انتهينا الآن. سيكون على إصبعك الخاص بخاتم الزواج ندبة لا تليق بسيدة محترمة أبداً.

ـ شكراً يا سيدي. يا عم جاك؟

ـ سيدتي؟

ـ ما هي العاهرة؟

اندفع العم جاك ليحكي قصة طويلة أخرى حول رئيس وزراء عجوز كان يجلس في مقعده في «مجلس العموم» ويروح ينفخ الريشات في الهواء ويحاول أن يبقيها هناك بينما الرجال من حوله يفقدون رؤوسهم. أظن أنه كان يحاول الإجابة على سؤالي، ولكن هذا لم يكن ذا معنى على أية حال.

فيما بعد، وحين كان من المفترض أن أكون نائمة في فراشي. نزلت إلى البهو لأشرب الماء فسمعت أتيكوس والعم جاك يتحدثان في غرفة الجلوس:

ـ لن أتزوج أبداً يا أتيكوس.

ـ لماذا؟

ـ قد أرزق بأطفال.

ـ هناك الكثير ممّا عليك تعلّمه يا جاك.

ـ أعرف ذلك. لقد أعطتني ابنتك أول درس لي عصر هذا اليوم: قالت إني لا أفهم في معاملة الأطفال كثيراً وشرحت لي السبب، وكانت على حق تماماً. لقد قالت لي يا أتيكوس كيف كان يتوجب علي معاملتها: يا إلهي، أنا آسف جداً لأني قسوت عليها.

ضحك أتيكوس.

ـ إنها تستحق ذلك، لذا لا تشعر بالندم.

انتظرت متوترة منتظرة أن يحكي العم جاك لأتيكوس عن وجهة نظري في القضية. ولكنه لم يفعل. بل همهم ببساطة قائلاً: «إن استعمالها

للكلمات البذيئة لا يترك شيئاً للمخيلة. ولكنها لا تعرف معنى نصف ما تقوله من كلمات، وقد سألتني عن معنى كلمة عاهرة...

ـ وهل قلت لها؟

ـ لا، حكيت لها عن اللورد ملبورن[1].

ـ يا جاك، حين يسألك طفل عن شيء ما، فأجبه، بحق الله. ولكن لا تحاول أن تجعل الأمر يبدو وكأنه إخراج مسرحي. الأطفال هم الأطفال، ولكنهم يستطيعون أن يميزوا التهرب أسرع مما يستطيع الكبار، والتهرّب يشوّشهم. كلا.

هنا راح والدي يفكر ثم استأنف قائلاً:

ـ لقد أعطيت الجواب الصحيح عصر اليوم، ولكن الأسباب كانت خاطئة. إن اللغة البذيئة مرحلة يمرّ بها كل الأطفال، وهي تموت مع الوقت، حين يدركون أنهم لا يجذبون اهتمام الآخرين بها. أما حدة الطباع فشيء آخر. إن على سكاوت أن تتعلم كيف تمسك أعصابها، وعليها أن تتعلم ذلك بسرعة، فما ينتظرها في الشهور القادمة كثير. وعلى أية حال فإنها تسير نحو الأفضل. إن جم أصبح يتصرف على نحو أشبه بالكبار، وهي تقلده قليلاً الآن. وكل ما تحتاج إليه هو بعض المساعدة أحياناً.

ـ أتيكوس، أنت لم تضربها مرة واحدة.

ـ أقرّ بذلك. حتى الآن استطعت أن أدبر أموري بالتهديدات. يا جاك إنها تهابني بقدر ما تستطيع. إنها لم تصل بعد إلى المثال الذي أريدها أن تكون عليه ولكنها تحاول على أية حال.

---

(1) (1779 ـ 1848) سياسي إنكليزي ورئيس للوزراء (1835 ـ 1841) وقد علّم الملكة فيكتوريا الشابة فن السياسة. (المترجم).

قال العم جاك:

ـ ليس هذا هو الجواب.

ـ لا، الجواب هو أنها تعرف أني أعرف أنها تحاول. هذا هو الفرق. أما ما يقلقني فهو أنها وجم سيضطران إلى أن يستوعبا بعض الأمور البشعة على نحو أسرع مما يجب. لست قلقاً بالنسبة لجم وقدرته على ضبط أعصابه، ولكن سكاوت لازالت مستعدة لمهاجمة شخص ما على الفور إذا ما أحست أن كبرياءها في خطر...

انتظرت أن يخلّ العم جاك بوعده. ولكنه لم يفعل حتى الآن.

ـ أتيكوس، هل سيكون الأمر سيئاً إلى حد كبير؟ ليست لديك فرصة كبيرة لمناقشته.

ـ لا يمكن أن تكون الأمور أسوأ مما هي عليه يا جاك. إن الدليل الوحيد الذي بين يدينا هي شهادة ذاك الرجل الأسود مقابل شهادة أسرة يوويل. وهذا الدليل سيختصر إلى «هل فعلتَ؟» «كلا لم أفعل». وليس متوقعاً من هيئة المحلفين أن تصدق كلام توم روبنسون وتكذب كلام أسرة يوويل... هل تعرف أسرة يوويل هذه؟

قال العم جاك إنه يعرفها ويتذكرها. ثم وصف أفرادها لأتيكوس، ولكن أتيكوس قال له:

ـ أنت تتحدث عن الجيل السابق، وعلى أية حال فإن الجيل الحالي يشبه ذاك.

ـ ما الذي ستفعله إذن؟

ـ قبل أن أنتهي سأحاول إحراج المحلّفين قليلاً، وأظن على أية حال أن هناك فرصة أمامنا للاستئناف. لا أستطيع أن أعرف ما سيحدث في هذه المرحلة من القضية. أنت تعرف أني كنت آمل أن

أعيش حياتي دون الاضطرار للمرافعة في قضية كهذه، ولكن جون تايلور أشار إلي وقال: «أنت لها».

ـ أي أنه أراد أن ينجو من هذه الورطة، أليس كذلك؟

ـ صحيح. ولكن هل تعتقد أنني كنت أستطيع مواجهة ولديّ إذا لم أفعل ذلك؟ أنت تعرف ما سيحدث كما أعرفه أنا، يا جاك، وآمل وأدعو إلى الله أن أستطيع الخروج بجم وسكاوت من هذه المحنة دون مرارة، ودون أن يصابا ـ وهذا أهم شيء ـ بداء مايكوم المعتاد: لماذا يصاب أناس عقلاء بالجنون المطلق حين يحدث أي شيء يتعلق بزنجي؟ هذا أمر لا أدّعي فهمه. آمل فقط أن جم وسكاوت سيأتيان إليّ أنا بحثاً عن الأجوبة بدلاً من الإصغاء إلى رأي البلدة. آمل أن يثقا بي بما فيه الكفاية... جان لويز؟

قفزت فروة رأسي من مكانها، ألصقت رأسي بالزاوية: «نعم يا سيدي؟».

ـ هيا إلى الفراش.

أسرعت إلى غرفتي وذهبت إلى سريري. لقد أثبت العم جاك أنه أمير حقيقي حيث لم يخذلني. ولكني لم أستطع أن أعرف كيف استطاع أتيكوس أن يعرف أني كنت أسترّق السمع إليهما، ولم أدرك إلا بعد مرور سنوات كثيرة أنه أرادني أن أسمع كل كلمة قالها.

* * *

الفصل العَاشر

كان أتيكوس ضعيفاً: في الخمسين من عمره تقريباً. وحين سألناه جم وأنا لماذا هو عجوز إلى هذا الحد، قال إنه انطلق متأخراً، وقد شعرنا بأن هذا ينعكس على قدراته ورجولته. لقد كان أكبر سناً بكثير من آباء زملائنا في المدرسة ممن هم في أعمارنا، ولم يكن هناك من شيء نستطيع جم أو أنا أن نقوله فيما يتعلق به حين كان زملاء الصف يقولن: «أبي..»..

كن جم مولعاً بكرة القدم إلى حد الجنون. ولم يكن أتيكوس يتعب أبداً من لعب كرة القدم معه، ولكن حين كان جم يريد أن يمسك به ليخلصه الكرة كان أتيكوس يقول: «أنا عجوز على مثل هذا يا بنيّ».

لم يكن أبونا يمارس عملاً مهماً. كان يعمل في مكتب وليس في دكان أو صيدلية. لم يكن أتيكوس سائق عربة النفايات الخاصة بالإقليم، ولم يكن مأمور البلدة، ولم يكن مزارعاً ولا يعمل في مرآب، أي لم يكن يمارس عملاً يمكنه أن يثير أعجاب أي شخص.

زيادة على ذلك، كان يضع نظارات طبية. كان لا يرى تقريباً بعينه اليسرى، ويقول عادة أن العيون اليسرى هي اللعنة القبلية المنزلة على عائلة فينتش. وكلما أراد أن يرى شيئاً ما على نحو جيد، كان يدير رأسه وينظر بعينه اليمنى.

لم يكن يمارس تلك الأعمال التي كان يمارسها آباء زملاء الصف: لم يكن يذهب للصيد أبدً ولا يلعب البوكر أو يصيد السمك أو يشرب الخمر أو يدخن بل كان يجلس في غرفة الجلوس ويقرأ.

وبهذه الصفات كان يمكن أن يبقى مغموراً ولكن حدث العكس: ففي ذلك العام ضجت المدرسة بالحديث حول دفاعه عن توم روبنسون، ولم يكن ذلك الحديث من باب المديح أبداً. وبعد شجاري مع سيسيل جاكوبس حيث ألزمت نفسي بسياسة الجبن، سرت إشاعة في المدرسة بأن سكاوت فينتش لن تعاود القتال مع أي شخص مرة أخرى، فأبوها لا يسمح لها بذلك. ولم يكن ذلك صحيحاً تماماً: لم أكن لأقاتل علانية دفاعاً عن أتيكوس، ولكن العائلة كانت أرضاً خصوصية. كنت مستعدة لمقاتلة أي شخص من العائلة ابتداء من ابن عم من الدرجة الثالثة فصاعداً وبالأسنان والأظافر. وكان فرانسيس هانكوك على سبيل المثال يعرف ذلك.

حين أهدانا أتيكوس بندقتي ضغط الهواء رفض تعليمنا التصويب. لقد علمنا العم جاك المبادئ. قال إن أتيكوس لم يكن مهتماً بالبنادق. وقال أتيكوس لجم في أحد الأيام: «أفضل ن تصوب إلى علب التنك في الفناء الخلفي، ولكني أعرف أنك ستطارد الطيور. حسناً، بإمكانك اصطياد الطيور من نوع أبي زريق بقدر ما تريد، هذا إذا استطعت إصابتها، ولكن تذكر أن قتل العصفور الساخر خطيئة».

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي سمعت بها أتيكوس يتحدث عن الخطيئة إذا ما فعل المرء شيئاً ما، وقد سألت الآنسة مودي عن الموضوع قالت:

ـ والدك على حق، فالعصافير الساخرة لا تفعل شيئاً سوى أنها تعز لنا الموسيقى لنستمتع بها. إنها لا تأكل حدائق الناس، ولا تعشعش في إهرارات الذرة، ولا تفعل شيئاً سوى أنها تُغنّي حتى تُفتي قلوبها من أجلنا. لذا فإن قتل العصفور الساخر خطيئة.

ـ يا آنسة مودي، حيّنا هذا عجوز أليس كذلك؟

ـ إنه أقدم من البلدة؟

ـ لا، أعني أن الناس في حيّنا عجائز كلهم. جم وأنا الطفلان الوحيدان هنا. السيدة دوبوز تقترب من المائة سنة والآنسة راشيل عجوز وأنت وأتيكوس أيضاً.

قالت الآنسة مودي بحدة:

ـ لا أعتقد أن المرء في سن الخمسين يعتبر عجوزاً جداً، فأنا لا أقاد في عربة بعد؟ وكذلك أبوك. ولكن عليّ أن أقول إن العناية الإلهية كانت كريمة إذ أحرقت لي ذلك الضريح الضخم العتيق الذي كنت أعيش فيه، فقد أصبحت أكبر سناً من أن أستطيع الاعتناء به. ربما تكونين على حق يا جان لويز، هذا الحي حي مستقر فعلاً. أنت لم تعاشري صغار السن كثيراً، أليس كذلك.؟

ـ بلى يا سيدتي في المدرسة.

ـ أعني الشباب. أنت محظوظة كما تعلمين، فأنت وجم تستفيدان من كون أبيكما في هذه السن. لو كان أبوكما في الثلاثين من العمر لوجدتما الحياة مختلفة تماماً.

ـ طبعاً. لا يمكن لأتيكوس أن يفعل أي شيء...

ـ قد تدهشين، ولكن لازال فيه الكثير من الحياة.

ـ ما الذي يستطيع أن يفعله؟

ـ يستطيع أن يجعل وصية شخص ما محكمة إلى حد أنه لا يسمح لأي امرئ أن يتدخل فيها.

ـ حسناً، هيا قولي شيئاً آخر...

ـ هل تعرفين أنه أفضل لاعب داما في هذه البلدة؟ حسناً. عندما كنا في فينتشز لاندينغ وكنا صغاراً بعد، كان أتيكوس فينتش يستطيع أن يهزم كل اللاعبين على كلتي ضفتي النهر.

ـ يا للرب الطيب يا آنسة مودي. جم وأنا نغلبه دائماً.

ـ لقد حان الوقت كي تكتشفي أنه يفعل ذلك عمداً. هل تعرفين أنه يستطيع العزف على الهارب اليهودي؟

هذه الإنجازات المتواضعة جعلتني أكثر خجلاً به.

قالت:

ـ حسناً...

ـ ماذا تعنين يا آنسة مودي؟

ـ حسناً... لا شيء. لا شيء: ولكن يجب أن تكوني فخورة به بعد كل هذا الذي حكيته لك عنه. لا يمكن لأي كان أن يعزف على الهارب اليهودي. والآن هيا ابتعدي عن طريق النجّارين. الأفضل أن تذهبي إلى بيتك، سأعمل في شجرات الأزاليا بعد قليل، ولن أستطيع مراقبتك وأخشى أن يسقط لوح خشبي فوقك.

ذهبت إلى الفناء الخلفي فوجدت جم يطلق بندقيته على علبة من الصفيح وقد بدا لي أنه من الغباء بمكان فعل ذلك وحولنا كل طيور أبي زريق تلك. عدت إلى الفناء الأمامي ورحت أعمل مدة ساعتين في إقامة متراس معقد عند جانب الرواق، وقد أقمته من عجلة وصندوق برتقال وسبت الغسيل وكراسي الرواق وعلم أمريكي صغير أعطاني إياه جم بعد أن وجده في علبة «بوشار». وحين عاد أتيكوس لأجل وجبة الغداء وجدني منبطحة أصوب بندقيتي عبر الشارع.

ـ ما الذي تصوبين إليه؟

ـ أصوب نحو مؤخرة الآنسة مودي.

التفت أتيكوس فشاهد هدفي الكبير وقد انحنى فوق شجيراته. دفع بقبعته إلى مؤخرة رأسه وعبر الشارع. صاح: «يا آنسة مودي. أظن أنه من الأفضل أن أحذّرك. أنت في خطر محدق».

نصبت الآنسة مودي قامتها ونظرت باتجاهي، وقالت: «أنت يا أتيكوس شيطان قادم من الجحيم».

حين عاد أتيكوس طلب مني أن ألغي المتراس ثم قال:

ـ لا تدعيني أمسك بك توجهين البندقية تجاه أي شخص بعد الآن.

لقد تمنيت لو كان أبي شيطاناً قادماً من الجحيم. وقد سألت كالبورنيا حول موضوع قدرات أبي، فقالت:

ـ ماذا؟ السيد فينتش؟ إنه يستطيع القيام بأمور جليلة كثيرة.

ـ مثل ماذا؟

حكّت كالبورنيا رأسها وقالت:

ـ حسناً، لا أعرف بالضبط.

وقد أكد جم هذا الموضوع حين سأل أتيكوس إن كان سيلعب مع فريق «الميثوديين»، وقال أتيكوس إن عنقه سينكسر لو لعب كرة القدم، فقد أصبح عجوزاً على مثل تلك الألعاب. كان «الميثوديون» يحاولون أن يسددوا رهناً عقارياً مفروضاً على كنيستهم، وقد تحدّوا فريق «المعمدانيين» ليعلبوا ضدهم مباراة في كرة القدم. كان والد كل طفل في البلدة سيشترك في المباراة كما يبدو، عدا أتيكوس. قال جم إنه لا يريد أن يذهب حتى، ولكنه لم يكن يستطيع مقاومة إغراء كرة القدم بأي شكل من الأشكال، وقد وقف يتفرج بكآبة عند خطّ التماس ومعه أتيكوس وأنا، بينما والد سيسيل جاكوبس يحقق أهدافاً لفريق «المعمدانيين».

في أحد أيام السبت قررنا جم وأنا أن نذهب للاستكشاف مصطحبين بندقيتينا لنرى إن كنا نستطيع أن نجد أرنباً أو سنجاباً. وكنا قد ابتعدنا مسافة خمسمائة متر وراء منزل آل رادلي حين لاحظت أن جم كان يحدق بعنين نصف مغمضتين باتجاه شيء ما بعيد على امتداد الشارع. كان قد أمال برأسه إلى جانب واحد وراح ينظر من زاويتي عينيه.

ـ ما الذي تنظر إليه؟

ـ ذلك الكلب العجوز هناك.

ـ إنه «تيم جونسون» العجوز، أليس كذلك؟

ـ أجل.

كان تيم جونسون يخصّ السيد هاري جونسون الذي كان يسوق باص بلدة موبيل، ويعيش في الطرف الجنوبي من البلدة. وكان «تيم» هذا كلب صيد كبديّ اللون، وهو الحيوان المدلّل لمايكوم كلها.

ـ ما الذي يفعله؟

ـ لا أعرف يا سكاوت. الأفضل أن نذهب إلى البيت.

ـ جم، إنه شهر شباط (فبراير).

ـ لا أعرف. سأذهب لأحكي لكال.

عدونا نحو المنزل وأسرعت نحو المطبخ.

قال جم:

ـ يا كال، هل يمكنك أن تأتي إلى الرصيف لدقيقة واحدة؟

ـ لم يا جم؟ لا أستطيع القدوم إلى الرصيف كل مرة تريدني بها أن أفعل ذلك.

ـ هناك شيء ما غير طبيعي في ذلك الكلب العجوز هناك.

تنهدت كالبورنيا وقالت:

ـ لا أستطيع أن أضمّد ساق أي كلب الآن. هناك بعض الشاش في الحمام، اذهب وأحضره وضمّد له ساقه بنفسك.

هز جم رأسه وقال:

ـ إنه مريض يا كال. هناك شيء ما غير طبيعي فيه.

ـ ما الذي يفعله؟ هل كان يحاول الإمساك بذيله؟

ـ لا، بل هو يفعل هكذا.

ابتلع جم شفتيه كما تفعل السمكة الذهبية، وأحنى كتفيه ولوى جذعه.

ـ إنه يفعل هكذا، ولكنه لا يبدو وكأنه يقصد ذلك.

قالت كالبورنيا وقد تحجر صوتها الآن:

ـ هل تقصّ علي حكاية يا جم فينتش؟

ـ كلا يا كال، وأقسم على ذلك.

ـ هل كان يعدو؟

ـ كلا، كان يمشي ببطء شديد، وإلى حد أنك لا تشعرين بأنه يتقدم. إنه يتجه إلى هنا.

غسلت كالبورنيا يديها وتبعت جم إلى الفناء.

قالت:

ـ لا أرى أي كلب.

ثم لحقت بنا إلى ما وراء منزل آل رادلي ونظرت إلى حيث كان جم يشير. لم يكن تيم جونسون إلا مجرد نقطة بعيدة، ولكنه أصبح أقرب إلينا الآن. كان يمشي على نحو شاذ، وكأن طرفيه اليمينيين أقصر من طرفيه اليساريين. وقد ذكرني بسيارة عالقة في حفرة من الرمال.

قال جم:

ـ إنه غير متوازن.

حدقت كالبورنيا، ثم أمسكت بنا من الأكتاف وركضت بنا إلى البيت. أغلقت الباب الخشبي خلفنا، وذهبت إلى الهاتف وصاحت: أعطني مكتب السيد فينتش. يا سيد فينتش. هذه «كال» نتكلم. أقسم بالله أن هناك كلباً مسعوراً في الشارع، وهو يسير باتجاهنا، أجل يا

سيدي، إنه آت يا سيد فينتش. أعلن أنه قادم، إنه تيم جونسون العجوز، نعم يا سيدي... نعم يا سيدي... نعم...

أعادت السماعة إلى مكانها وهزت رأسها حين حاولنا أنا نسألها عما قاله أتيكوس. ثم قرعت جرس الهاتف وقالت:

ـ يا آنسة يولا ماي... يا سيدتي، لقد انتهيت من التحدث مع السيد فينتش، أرجو أن تقطعي اتصالي معه، وأصغي إلي يا آنسة يولا ماي، هل تستطيعين أن تهتفي إلى الآنسة راشيل والآنسة ستيفاني كروفورد وكل من لديه هاتف في هذا الحي وتقولي لهم أن هناك كلباً مسعوراً قادماً بهذا الاتجاه؟ أرجوك يا سيدتي.

أصغت كالبورنيا ثم قالت:

ـ أعرف أنه شهر شباط (فبراير) يا آنسة يولاماي، ولكني أعرف أيضاً الكلب المسعور حين أراه. أرجوك أن تسرعي يا سيدتي؟

سألت كالبورنيا جم:

ـ هل لدى آل رادلي هاتف؟

نظر جم في الدليل وقال:

ـ لا، ولكنهم لم يخرجوا من منزلهم على أية حال يا كال.

ـ لا يهمني. سأقول لهم.

هرعتْ نحو الرواق الأمامي وأنا وجم على أعقابها. ولكنها صاحت:

ـ أنتما ابقيا في المنزل.

كان الحي قد تلقى رسالة كالبورنيا. لقد رأينا كل باب خشبي داخل حدود مرآى نظرنا وقد أغلق بشدة. ولم نر أي أثر لتيم جونسون. راقبنا كالبورنيا تركض نحو منزل آل رادلي وهي ترفع تنورتها ومريلتها فوق ركبتيها. ذهبت إلى الدرج الأمامي وقرعت على الباب. لم تحصل على جواب فصاحت:

ـ يا سيد ناثان، يا سيد آرثر، هناك كلب مسعور قادم بهذا الاتجاه. كلب مسعور قادم.

قلت:

ـ كان من المفروض أن تذهب نحو الجهة الخلفية.

هزّ جم رأسه وقال:

ـ لا فرق الآن.

قرعت كالبورنيا الباب بشدة ولكن عبثاً. لم يردّ على تحذيرها أحد، ولم يبد أن أحداً قد سمعه.

وحين ركضت مسرعة إلى الرواق الخلفي، رأينا سيارة فورد سوداء تتوقف عند الرصيف، ويخرج منها أتيكوس والسيد «هك تيت».

كان السيد «هك تيت» هو مأمور مقاطعة مايكوم. كان طويلاً بطول أتيكوس، ولكن أنحف منه. وكان أنفه طويلاً ويرتدي جزمة ذات ثقوب معدنية لامعة، وبنطالاً ضيقاً من الأسفل ومعطفاً من القماش ذي المربعات. أما حزامه فكان فيه صف من الرصاص. وكان يحمل بندقية ثقيلة. وحين وصلا هو وأتيكوس إلى الرواق، فتح جم الباب.

قال أتيكوس:

ـ ابقِ في الداخل يا بني. أين هو يا كال؟

قالت كالبورنيا وهي تشير إلى الشارع:

ـ لا بد أن يكون قد وصل إلى هنا الآن.

سأل السيد تيت:

ـ لم يكن يعدو، أليس كذلك؟

ـ لا، ليس هو في مرحلة الاختلاج بعد يا سيد هك.

ـ هل نلحق به يا هك؟

هكذا سأله أتيكوس فأجابه هك:

ـ الأفضل أن ننتظر يا سيد فينتش. إنها تمشي عادة بصورة مستقيمة، ولكن لا شيء أكيد، فقد يتبع المنحنى، وآمل أن يفعل ذلك أو أنه سيذهب مباشرة إلى الفناء الخلفي لآل رادلي. لننتظر لحظة.

قال أتيكوس:

ـ لا أعتقد أنه قد يدخل فناء آل رادلي؟ فالحاجز سيوقفه. ربما سيتبع الطريق...

كنت أظن أن الكلاب المسعورة تزيد أفواهها، وتعدو وتقفز وتهاجم الناس لتنهش حلوقهم، وكنت أظن أن ذلك يحدث لها في شهر آب (أغسطس). ولو أن تيم جونسون تصرف هكذا لكنت أقل خوفاً.

لا شيء يخيف أكثر من شارع مهجور في حالة الانتظار. كانت الأشجار ساكنة، والعصافير الساخرة صامتة، والنجارون الذين يعملون في إعادة بناء منزل الآنسة مودي قد اختفوا. سمعت السيد تيت ينشق ثم يمسح أنفه. ثم رأيته ينقل بندقيته واضعاً إياها على ذراعه المعقوفة. رأيت وجه الآنسة ستيفاني كروفورد وقد أطّرته نافذة بابها الزجاجية. ظهرت الآنسة مودي ووقفت إلى جانبها. وضع أتيكوس قدمه على رافدة أحد الكراسي ومسح يده ببطء على جانب فخذه.

قال بصوت خفيض:

ـ هاهو.

أصبح تيم جونسون تحت مرمى الأبصار، وكان يمشي كالدائخ ضمن الحافة الداخلية للمنعطف الموازي لمنزل آل رادلي.

همس جم:

ـ انظري إليه. يقول السيد هك إنها تسير بخط مستقيم. ولكن هذا لا يستطيع حتى أن يسير في الشارع.

قلت:

ـ إنه يبدو مريضاً أكثر من أي شيء آخر.

ـ إذا ما جاء شيء أمامه الآن فسيهجم عليه فوراً.

وضع السيد تيت يده على جبينه وانحنى نحو الأمام. ثم قال:

ـ إنه مسعور فعلاً يا سيد فينتش.

كان تيم جونسون يتقدم بطيئاً كالحلزون، ولكنه لم يكن يعبث أو يتشمّ النباتات: بدا وكأنه مصمم على السير في طريق واحد تحثّه قوة غير مرئية كانت تدفعه ببطء نحونا. استطعنا أن نراه وهو يرتجف كحصان ينفض عن جسمه الذباب، وفكه ينفتح وينغلق. كان جسده مائلاً إلى جانب، ولكنه كان ينجذب تدريجياً نحونا.

قال جم:

ـ إنه يبحث عن مكان يموت فيه.

التفت إلينا السيد تيت وقال:

ـ إنه بعيد عن الموت يا جم، فالمرض لازال في أوله.

وصل تيم جونسون إلى الشارع الجانبي الذي يمر أمام منزل آل رادلي، وما تبقى من عقله المسكين جعله يتوقف فيبدو وكأنه يفكر في أي طريق يسلك. خطا بعض الخطوات المترددة ثم توقف أمام باب منزل آل رادلي. حاول أن يستدير ليعود ولكنه وجد صعوبة في ذلك.

قال أتيكوس:

ـ إنه ضمن المدى المجدي يا هك. الأفضل أن تناله الآن قبل أن يذهب إلى الشارع الجانبي، والله وحده يعرف من قد يكون عند المنعطف. ادخلي يا كال.

فتحت كالبورنيا باب الشريط المنخلي، ثم أوصدته بالمزلاج خلفها، بعد ذلك رفعت المزلاج وتمسكت به. حاولت أن تسد الطريق أمامنا، جم وأنا، بجسدها، ولكننا كنا ننظر من تحت ذراعيها.

قال السيد تيت وهو يسلم البندقية إلى أتيكوس:

ـ عليك به يا سيد فينتش.

وكدنا يغشى علينا، جم وأنا.

قال أتيكوس:

ـ لا تضع الوقت يا هك. هيّا.

ـ يا سيد فينتش هذا عمل يتطلب الإصابة في المقتل من الرصاصة الأولى.

هز أتيكوس رأسه بقوة وقال:

ـ لا تقف يا هك دون أن تفعل شيئاً. لن ينتظرك النهار بطوله...

ـ بحق الله يا سيد فينتش، انظر أين هو. إذا أخطأته فسوف تدخل الرصاصة منزل آل رادلي. لا أستطيع التصويب إلى هذا الحد من الدقة وأنت تعرف ذلك.

ـ لم أطلق رصاصة منذ ثلاثين عاماً...

رمى السيد تيت البندقية إلى أتيكوس وقال:

ـ سأحس براحة عظيمة إذا فعلتَ ذلك الآن.

وكمن يرى من خلال الضباب رحنا جم وأنا نراقب أبانا وهو يتناول البندقية ويمشي نحو منتصف الشارع. مشى بسرعة، ولكني ظننت أنه كان يتحرك كما الغطاس تحت الماء: كان الزمان قد أصبح بطيئاً إلى حدّ يبعث على الغثيان.

حين رفع أتيكوس نظارتيه همهمت كالبورنيا:

ـ فلتساعده أيها المسيح الجميل!

ثم رفعت يديها إلى خديها.

دفع أتيكوس نظارتيه إلى جبينه فعاودتا الهبوط. رماهما في الشارع. وخلال الصمت سمعتهما يتحطمان. فرك أتيكوس عينيه وذقنه، ورأيناه يرمش بقوة.

أمام منزل آل رادلي اتخذ تيم جونسون قراره أخيراً. لقد استدار أخيراً وراح يسير في اتجاهه السابق نحو شارعنا. خطا خطوتين نحو الأمام ثم توقف ورفع رأسه. رأينا جسمه يتصلب.

وبحركات سريعة جداً بدت وكأنها تجري كلها في وقت متزامن، جذبت يد أتيكوس مطرقة البندقية ذات الرأس المدور، ثم رفعها إلى كتفه.

سمعنا صوت البندقية يفرقع. قفز تيم جونسون، تخبط ثم انهار على الرصيف في كومة بنية بيضاء. لم يعرف ما أصابه.

قفز السيد تيت هابطاً من الرواق وركض نحو منزل آل رادلي. توقف أمام الكلب ثم انحنى والتفت ونقر على جبينه فوق عينيه اليسرى. قال:

ـ لقد انحرفت قليلاً إلى اليمين.

قال أتيكوس:

ـ كنت هكذا دائماً. لو كان الأمر بيدي لكنت استعملت بنقدية رش.

انحنى إلى الأرض والتقط نظارتيه، ثم طحن العدستين المكسورتين تحت كعبه وذهب إلى حيث كان السيد تيت ووقف ينظر إلى تيم جونسون.

فتحت الأبواب واحداً إثر الآخر، وعاد الحي إلى الحياة ببطء من جديد. هبطت الآنسة مودي الدرج مع الآنسة ستيفاني كروفورد.

تجمد جم في مكانه. قرصته حتى يتحرك، ولكن حين رآنا أتيكوس قادمين، صاح:

ـ ابقيا حيث أنتما.

وحين عاد السيد تيت وتيكوس إلى الفناء كان السيد تيت يبتسم. قال:

ـ سأطلب من «زيبو» أن ينقله من هنا. لم تنس الكثير بعد يا سيد فينتش. يقولون إن المهارة في التصويب لا تغادر المرء نهائياً.

كان أتيكوس صامتاً.

قال جم:

ـ أتيكوس؟

ـ نعم؟

ـ لا شيء.

ـ لقد رأيتك يا أيها «الفينتشي» ذو الطلقة الأولى القاتلة.

استدار أتيكوس ليواجه الآنسة مودي. نظر كل منهما إلى الآخر دون أن يقولا شيئاً، ثم ركب أتيكوس مع المأمور في سيارته، قال لجم:

ـ تعال إلى هنا. لا تقترب من ذلك الكلب، هل تفهم؟ لا تقترب منه، إنه خطر ميتاً بقدر ما هو خطر وهو حيّ.

ـ نعم يا سيدي. أتيكوس؟

ـ ماذا يا بني.

ـ لا شيء.

هنا قال السيد تيت وهو يبتسم لجم:

ـ ما حكايتك يا ولد، ألا يمكنك أن تنطق؟ ألم تكن تعرف أن والدك هو...؟

قال أتيكوس:

ـ صمتاً يا هك. لنعد إلى البلدة.

حين ابتعدا بالسيارة، ذهبنا جم وأنا إلى درج الآنسة ستيفاني الأمامي وجلسنا ننتظر وصول «زيبو» مع شاحنة القمامة.

جلس جم في حالة من الارتباك الخدر، وقالت الآنسة ستيفاني:

ـ أخ، أخ، أخ. من كان سيفكر في كلب مسعور في شباط؟ ربما لم يكن مسعوراً، ربما كان مجنوناً فحسب. أكره أن أرى وجه هاري جونسون حين سيصل من بلدة موبيل ويجد أن أتيكوس فينتش قد قتل كلبه. ولكنه كان مليئاً بالبراغيث التي جاءته من مكان ما....

كانت الآنسة مودي والآنسة ستيفاني ستعزفان لحناً آخر لو كان تيم جونسون ما يزال قادماً على امتداد ذلك الشارع، وكانتا ستكتشفان الحقيقة على أية حال خلال وقت قصير، فرأسه كان سيرسل إلى مدينة مونتغومري.

أصبح جم فجأة من الناطقين المبهمين:

ـ هل ترينه يا سكاوت؟ هل ترينه واقفاً هناك؟... وفجأة يسترخي كله وتبدو البندقية جزءاً منه... وقد فعل ذلك بسرعة هائلة كأنه الـ.... أنا أضطر إلى التصويب عشر دقائق قبل أن أستطيع إصابة شيء ما...

ابتسمت الآنسة مودي على نحو شرير، ثم قالت:

ـ حسناً يا آنسة جان لويز، هل لازلت حتى الآن تظنين أن والدك لا يستطيع شيئاً؟ هل لازلت تخجلين به؟

قلت بخنوع:

ـ لا.

ـ لقد نسيت أن أقول ذلك اليوم إنه إلى جانب عزفه على الهارب اليهودي، فإن أتيكوس فينتش كان أمهر رام في مقاطعة مايكوم في زمانه.

ردد جم:

ـ أمهر رام...

ـ نعم هذا ما قلته يا جم فينتش. وأظن أنك ستغيّر من لهجتك الآن. أما كنتما تعلمان أن لقبه كان «ذو الطلقة الواحدة العجوز» حين كان فتياً؟ عجباً، حين كنا في فينتشز لاندينغ، وكان لا يزال في مقتبل العمر، كان من عادته أن يتذمر لو أطلق خمس عشرة رصاصة وأصاب بها أربع عشرة حمامة، قائلاً إنه يبدّد ذخيرته دون جدوى.

همهم جم:

ـ لم يذكر ذلك أبداً.

ـ لم يذكر ذلك أبداً، أليس كذلك؟

ـ لا، يا سيدتي.

قلت:

ـ أتساءل لماذا لا يذهب للصيد الآن؟

قالت الآنسة مودي:

ـ ربما أستطيع أن أخبرك أنا. إن أباك أولاً وقبل كل شيء شخص متمدّن في أعماقه. إن المهارة في الرمي هبة من الله، إنها موهبة... طبعاً عليك أن تتمرن حتى تجعلها كاملة، ولكن الرمي يختلف عن عزف البيانو أو ما شابهه. أعتقد أنه تخلى عن بندقيته حين أدرك أن الله وهبه ميزة غير عادلة يتميز بها عن معظم الأحياء. وأعتقد أنه قرر ألا يرمي ثانية إلا إذا اضطر إلى ذلك وقد اضطر إلى ذلك اليوم.

قلت:

ـ يبدو وكأنه فخور بها.

ـ الناس ذوو العقول الصحيحة لا يفتخرون بمواهبهم أبداً.

شاهدنا «زيبو» قادماً بشاحنته. تناول مذارة من مؤخرة الشاحنة ورفع تيم جونسون بها بحذر شديد. قذف بالكلب إلى الشاحنة ثم صب شيئاً ما من وعاء كان يحمله على البقعة التي سقط فيها تيم وما حولها. ثم صاح:

ـ لا تقتربا من هنا لفترة.

حين عدنا إلى البيت قلت لجم إنه صار لدينا حقاً شيء ما نتحدث عنه في المدرسة يوم الاثنين. استدار جم ليقول بحدة:

ـ لا تذكري كلمة واحدة حول ما حدث يا سكاوت.

ـ ماذا؟ سأفعل ذلك بالتأكيد. ليس والد كل تلميذ أمهر رام في مقاطعة مايكوم.

قال جم:

ـ أعتقد أنه لو أرادنا أن نعرف هذا الموضوع لحكى لنا عنه بنفسه. لو كان فخوراً بذلك لحكى لنا عنه.

ـ ربما نسي ذلك.

ـ كلا يا سكاوت، هذا شيء لن تفهميه. لقد أصبح أتيكوس عجوزاً فعلاً، ولكني لا أكترث إن كان ليس قادراً على فعل أي شيء، ولا أكترث إن كان لا يقدر على فعل شيء مبارك.

التقط جم حجراً ورمى به مبتهجاً نحو المرآب ثم ركض خلفه وصاح:

ـ أتيكوس جنتلمان. مثلي تماماً.

* * *

الفصل الحادي عَشَر

حين كنا ما نزال صغيرين بعد، كنا جم وأنا نقصر نشاطاتنا على الجانب الغربي من الحي، ولكن بعد أن كاد العام الثاني لي في المدرسة أن ينتهي وأصبح تعذيب بو رادلي من الأمور الماضية، راح الجانب التجاري من مايكوم يجذبنا نحو الشارع الذي يمر بأملاك السيدة هنري لافاييت دوبوز. كان مستحيلاً الذهاب إلى البلدة دون المرور بمنزلها، إلا إذا أردنا أن نمشي ميلاً كاملاً زيادة. لم تكن المواجهات الصغيرة السابقة معها قد تركت لدي أية رغبة في المزيد منها، ولكن جم قال إن على المرء أن يكبر أحياناً.

كانت السيدة دوبوز تعيش وحيدةً لا يؤنس وحدتها إلا فتاة زنجية تعتني بها باستمرار، وذلك في المنزل الذي يلينا بمنزلين وكان له درج أمامي شاهق وردهة قصيرة. كانت مسنة جداً، وتقضي سحابة يومها في الفراش والبقية في كرسي ذي عجلات. وكان يشاع عنها أنها تحتفظ بمسدس قديم من طراز GSA[1] مخبأ تحت شالاتها ودثاراتها العديدة.

كنا نكرهها جم وأنا. وإذا ما كانت جالسة في الرواق لدى مرورنا، كانت تقذفنا بنظراتها الغاضبة، وتعرّضنا إلى تحقيق لا هوادة فيه حول سلوكنا، وتعطينا تنبؤاً سوداوياً عما سنؤول إليه حين نكبر، وهو لا شيء دائماً. لقد تخلينا منذ فترة طويلة عن فكرة المرور من على الرصيف المقابل لمنزلها إذا كان هذا يجعلها ترفع صوتها حتى يسمعها الحي كله.

---

(1) تعني مما كان يستعمله الجيش الكونفدرالي (الجنوبي) في الحرب الأهلية الأمريكية. (المترجم).

لم يكن في وسعنا أن نفعل ما يسرها، إذا قلت بكل إشراق أستطيعه: «مرحباً يا سيدة دوبوز»، كنت سأتلقى كإجابة: «لا تقولي لي مرحباً أيتها الفتاة القبيحة. يجب أن تقولي مساء الخير يا سيدة دوبوز»..

كان شريرة. سمعتْ ذات مرة أنّ جم ينادي أبانا باسمه «أتيكوس»، وكان رد فعلها من النوع الذي يصيب بالسكتة القلبية. فإلى جانب كوننا أكثر البلهاء الذين مروا بطريق منزلها وقاحة وصفاقة، فقد قالت لنا أيضاً إنه من المؤسف أن أبانا لم يتزوج مجدداً بعد موت أمّنا. لم تكن هناك سيدة أجمل من أمنا، كما كانت تقول، وإنها لطريقة مؤسفة تلك التي ترك فيها أتيكوس ولديها دون أن يربّيهما التربية الصحيحة. لم أكن أتذكر أمّنا، ولكن جم كان يتذكرها، وكان يحكي لي عنها أحياناً، وقد شحب لونه حين رمتنا السيدة دوبوز برسالتها تلك.

لقد استنتج جم، الذي نجا حتى الآن من بو رادلي وكلب مسعور وأهوال أخرى، أنه من الجبن التوقف عند درج منزل الآنسة راشيل الأمامي والانتظار، كما قرر أن علينا أن نركض حتى زاوية مكتب البريد كل مساء لمقابلة أتيكوس وهو عائد من عمله. وفي أمسيات عديدة لا تحصى كان أتيكوس يجد جم وقد ثار غضبه بسبب شيء ما قالته السيدة دوبوز خلال مرورنا.

كان أتيكوس يقول:

ـ لا عليك يا بني، إنها سيدة عجوز ومريضة. عليك أن ترفع رأسك عالياً وأن تكون «جنتلماناً». وبغض النظر عما تقوله لك، فإن واجبك هو ألا تدعها تثير غضبك.

كان جم يقول إنها ليست مريضة على ما يبدو، حيث أنها كانت تصيح بكل ذلك الصوت العالي. وحين كنا نمر ثلاثتنا بالقرب من منزلها، كان أتيكوس يرفع قبعته ويلوح بها بفروسية باتجاهها ويقول: «مساء الخير يا سيدة دوبوز. تبدين كصورة هذا المساء».

لم أسمع أتيكوس يقول كصورة ماذا. كان يحكي لها أخبار المحكمة، ويقول إنه يأمل من كل قلبه أن يكون يومها طيباً في الغد. ثم يعيد قبعته إلى رأسه ويرفعني لأركب على كتفيه في حضورها ثم نتجه إلى البيت في نور الشفق. وقد كنت أفكر في أوقات كهذه بأن أبي، الذي كان يكره البنادق ولم يخض أية حرب، كان أشجع رجل عاش حتى الآن.

في اليوم التالي على احتفال جم بميلاده الثاني عشر كانت النقود التي في جيوبه تكاد تحرقها, وهكذا اتجهنا نحو البلدة مع العصر. وكان جم يظن أن معه من المال ما يكفي لشراء قاطرة بخارية صغيرة وعصا موسيقية لي.

منذ زمن طويل كنت قد وضعت نصب عيني شراء تلك العصا: كانت معروضة في محلات «في. إي. إلمور»، ومزينة بالترّترة والأشرطة المعدنية وثمنها سبعة عشر سنتاً. وكان طموحي الذي يأكلني حينها هو أن أكبر وأقود فرقة مدرسة مقاطعة مايكوم الثانوية وأروح أقذف بتلك العصا الطويلة وأدوّرها. وبعد أن كنت قد طوّرت موهبتي بحيث أصبحت أستطيع أن أقذف بعصا ثم أعود لألتقطها مرة أخرى خلال هبوطها، فقد سبّب ذلك في أني جعل كالبورنيا ترفض إدخالي إلى المنزل في كل مرة تراني فيها أحمل عصا في يدي. وظننتُ أني أستطيع تفادي هذا العيب بعصا موسيقية حقيقية، كما اعتقدت أن جم كان كريماً إذ سيشتري لي واحدة.

كانت السيدة دوبوز متمركزة في رواقها حين مررنا، صاحت:

ـ أين تذهبان أنتما الاثنان في مثل هذا الوقت؟ ستلعبان الهوكي على ما أفترض. سأتصل بمدير المدرسة وأقول له.

ثم وضعت يديها فوق عجلات كرسيها واستدارت بزاوية مقدارها 90 درجة.

قال جم:

ـ إنه يوم السبت يا سيدة دوبوز:

قالت بلهجة غمضة:

ـ لا فرق أكان اليوم هو السبت أم غيره. وأتساءل إن كان أبوكما يعرف أين أنتما.

ـ سيدة دوبوز، إننا نذهب إلى البلدة وحدنا منذ كنا بهذا الطول.

وهنا وضع جم يده على ارتفاع حوالي قدمين من الرصيف وكفه نحو الأسفل.

صاحت:

ـ لا تكذبا عليّ. يا جيريمي فينتش، لقد أعلمتني مودي أتكينسون أنك كسرت عريشة العنب هذا الصباح. وهي ستحكي لأبيك وثم ستتمنى لو أنك لم تولد أبداً. وإذا لم يرسلك أبوك إلى المدرسة الإصلاحية للأحداث قبل حلول الأسبوع القادم فليس اسمي دوبوز.

وقد قام جم، الذي لم يقترب من عريشة الآنسة مودي منذ الصيف الماضي، والذي كان يعرف أن الآنسة مودي لن تشتكيه لأبيه لو فعل ذلك، قام بإنكار ذلك إنكاراً شاملاً.

زعقت السيدة دوبوز:

ـ لا تعارضني. وأنت...

وهنا أشارت بأصبع مصاب بالتهاب المفاصل باتجاهي:

ـ ما الذي تفعلينه في ذلك الأوفرول؟ يجب أن تكوني مرتدية ثوباً وسترة قصيرة. ستنتهين إلى نادلة حين تكبرين، هذا إن لم يغير أحدهم من عاداتك منذ الآن... تصوروا فتاة من عائلة فينتش تعمل نادلة في «مقهى أوكي».... هاه.

أصبتُ برعب شديد. كان «مقهى أوكي» مكاناً كئيباً في الجانب الشمالي من ساحة البلدة. أمسكت بيد جم ولكنه نفض يده من يدي ثم همس:

ـ هيا بنا يا سكاوت. لا تهتمي بها. ارفعي رأسك عالياً وكوني «جنتلماناً».

ولكن السيدة دوبوز تابعت تقول:

ـ ليس هناك فتاة من عائلة فينتش تعمل نادلة فحسب بل ثمة فرد آخر من تلك العائلة يدافع عن الزنوج في المحكمة.

تصلب جم. لقد أصابت منه السيدة دوبوز مقتلاً هذه المرة، وقد أدركت ذلك.

ـ أجل، أجل، ما الذي أصاب هذا العالم حتى نرى واحداً من عائلة فينتش يعارض المبادئ التي تربى عليها؟ سأقول لكما ماذا؟

وضعت يدها على فمها وحين رفعتها جرت وراءها خيطاً فضياً طويلاً من الريق.

ـ أبوكما ليس أفضل من الزنوج والحثالة الذين يدافع عنهم.

أصبح لون وجه جم قرمزياً. جذبتُه من كمّه، وقد تبعتنا خلال متابعتنا السير على الرصيف خطبة فيليبية لاذعة حول الانحطاط الأخلاقي لعائلتنا، وكانت المقدمة المنطقية لها أن نصف آل فينتش في مشفى المجانين على أية حال، ولكن لو كانت أمنا على قيد الحياة لما كنا سنصل إلى مثل هذه الحال.

لم أكن أعرف ما هو الشيء الذي أزعج جم أكثر من غيره، ولكني ارتبت في أن يكون ذلك هو تقييم السيدة دوبوز للصحة العقلية للعائلة. لقد تعوّدت تقريباً على سماع الشتائم توجه إلى أتيكوس. ولكن كانت هذه أول شتائم أسمعها من شخص راشد. وباستثناء

ملاحظاتها حول أتيكوس هذه المرة، فإن هجوم السيدة دوبوز كان مجرد عمل روتيني. كان في الجو شيء من الصيف: في الظل كان الطقس بارداً، ولكن الشمس كانت دافئة، وهذا يعني أن الأوقات الطيبة كانت آتية: العطلة المدرسية وقدوم ديل.

اشترى جم قاطرته البخارية وذهبنا إلى محلات إلمور لشراء العصا الموسيقية من أجلي. لم يشعر جم بأي متعة لفوزه بما كان يتمنّى شراءه، فقد دفعه في جيبه وسار بصمت إلى جانبي باتجاه البيت. وفي الطريق إلى البيت كدت أصيب السيد «لينك ديس» الذي قال «انتبهي يا سكاوت» وذلك حين كنت أقذف بالعصا في الهواء وأخطأت، وحين اقتربنا من منزل السيدة دوبوز كانت عصاي قد اتسخت بسبب سقوطها في الطين مرات عديدة.

لم تكن هي جالسة على رواقها.

في السنوات التي تلت، كنت أتساءل أحياناً عن السبب الذي جعل جم يرتكب ما ارتكبه ذلك اليوم، وما الذي جعله يخالف مواثيق «كن جنتلماناً يا بني» ومرحلة الاستقامة المرافقة بالخجل التي كان قد دخلها مؤخراً. ربما كان جم قد تحمل من الإزعاج بسبب دفاع أتيكوس عن الزنوج بقدر ما تحملت أنا، وكنت قد سلّمت بقدرته على المحافظة على أعصابه، فقد كان هادئ الطباع أصلاً وغير عصبي. في ذلك الحين فكرت على أية حال أن التفسير الوحيد لما ارتكبه كان أنه قد فقد عقله وجنّ لعدة دقائق.

إن ما فعله جم كان أمراً يمكن لي أن أفعله بكل بساطة لو لم أكن خاضعة لحظر من أتيكوس كان يتضمن، كما افترضت، الشجار مع السيدات العجائز الرهيبات. كنا قد اقتربنا من بوابة منزلها حين انتزع جم عصاي الموسيقية من يدي وركض وهو يضرب بها الدرج بجنون

أثناء صعوده حتى وصل إلى فناء السيدة دوبوز الأمامي، ناسياً كل ما قاله أتيكوس وأنها كانت تخبئ مسدساً تحت شالاتها، وأنه لو أخطأته السيدة دوبوز فإن خادمتها «جيسي» قد لا تخطئه.

ولم يهدأ حتى كان قد قطع رؤوس كل شجرة كاميليا كانت لدى السيدة دوبوز، وحتى امتلأت الأرض بالبراعم والأوراق الخضراء. ثم لوى عصاي على ركبته وكسرها إلى جزئين ورماها أرضاً.

في ذلك الحين كنت أزعق. شد جم شعري وقال إنه لا يهتم بما فعل وأنه مستعد لإعادة الكرة إذا أتيحت له الفرصة، وأني إذا لم أخرس فسوف ينتف كل شعر رأسي. ولم أسكت فرفسني. فقدت توازني وسقطت على وجهي. رفعني جم بخشونة ولكنه بدا كأنه آسف. ولم يكن هناك ما يقال.

لم نذهب للقاء أتيكوس لدى عودته إلى البيت في ذلك المساء. توارينا في المطبخ حتى رمتنا كالبورنيا خارجاً. وبطريقة سحرية ما، بدا أن كالبورنيا عرفت كل ما جرى. لم تكن هي ذلك المصدر الجيد للعزاء ولكنها أعطت جم كعكة محلاة فقسمها إلى نصفين وشاركني بها. ولكن مذاقها كان كالقطن.

ذهبنا إلى غرفة الجلوس. أخذت مجلة لكرة القدم ووجدت صورة لـ «ديكسي هاول» وأريتها لجم وقلت: «إنه يشبهك»، وكان ذلك ألطف شيء كان يمكن أن أفكّر في قوله له. ولكن ذلك لم يكن عزاء له. جلس قرب النافذة، وتقوقع ضمن كرسي هزاز، وراح ينتظر. خبا ضوء النهار.

بعد حقبتين جيولوجيتين، سمعنا صوت احتكاك نعل حذاء أتيكوس بالدرج الأمامي. أغلق الباب المنخلي بقوة، مرت فترة صمت ـ أتيكوس الآن عند مشجب القبعات في القاعة ـ ثم سمعناه ينادي: «يا جم». وكان صوته أشبه بريح شتائية.

أدار أتيكوس مفتاح نور السقف في غرفة الجلوس فوجدنا هناك، متجمدين ساكنين. كان يحمل عصاي الموسيقية بإحدى يديه، وشراباتها الصفراء القذرة تتدلى على السجادة. مدّ يده الأخرى وكانت تحتوي على براعم زهور الكاميليا السمينة.

قال:

ـ جم. هل أنت المسؤول عن هذا؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ ولماذا فعلت ذلك؟

قال جم بصوت خفيض:

ـ قالت إنك تدافع عن الزنوج والحثالة.

ـ هل فعلت هذا لأنها قالت ذاك؟

تحركت شفتا جم ولكن «نعم يا سيدي» التي قالها لم تكن مسموعة.

ـ يا بني، لا شك عندي بأنك كنت منزعجاً من زملائك بسبب تعليقاتهم حول دفاعي عن الزنوج كما تقول، ولكن أن تفعل شيئاً كهذا لسيدة عجوز مريضة لأمر لا يمكن عذره. إني أنصحك بشدة أن تذهب لتتحدث مع السيدة دوبوز، ثم عد إلى البيت مباشرة بعد ذلك.

لم يتحرك جم.

ـ قلت لك اذهب.

تبعت جم إلى خارج غرفة الجلوس.

قال لي أتيكوس:

ـ عودي إلى هنا.

عدت.

تناول أتيكوس صحيفة «موبيل برس» وجلس في الكرسي الهزاز الذي غادره جم قبل قليل. وأقسم بحياتي أني لم أفهم كيف استطاع أن يجلس هناك بكل برود ويقرأ في الصحيفة بينما قد يتعرض ابنه الوحيد إلى القتل بمسدس من تذكارات الجيش الكونفدرالي. طبعاً كان جم يعاديني أحياناً حتى لأكاد أقتله، ولكن حين تصل الأمور إلى حدّها، فقد كان جم هو كل ما أملك. لم يبد على أتيكوس أنه يدرك ذلك، أو أنه يدركه ولا يكترث.

كرهته لذلك، ولكنك حين تكون واقعاً في ورطة، فإنك تشعر بالتعب بسهولة: سرعان ما كنت أختبئ في حضنه وكانت ذراعاه تطوقانني.

قال:

ـ أصبحت كبيرة على الهزهَزَة.

ـ أنت لا تكترث بما قد يحدث له. لقد أرسلته إلى هناك حتى يقتل بالرصاص بينما كان كل ما فعله هو الوقوف موقف الدفاع عنك.

دفع أتيكوس برأسي تحت ذقنه وقال:

ـ لم يحن الوقت للقلق بعد، ولم يخطر لي أن يفقد جم رأسه بسبب هذه المشكلة، بل كنت أظن أني سألاقي منك مصاعب أكثر.

قلت إني لا أرى السبب في أن نحافظ على رباطة جأشنا، وأني لا أعرف أحداً في المدرسة يضطر إلى المحافظة على رباطة جأشه فيما يتعلق بأي شيء.

ـ يا سكاوت، حين يأتي الصيف سيكون عليك المحافظة على رباطة جأشك فيما يتعلق بأشياء أسوأ بكثير... في هذا ظلم لك ولجم، أعرف ذلك، ولكن علينا أحياناً أن نبذل قصارى جهدنا رغم المصاعب، وأن نتصرف على نحو مناسب حين يجب أن

نواجه شيئاً ما. حسناً، كل ما يمكنني قوله هو إنكما حين ستكبران أنت وجم، فربما ستتذكران هذا كله ببعض العطف وببعض الشعور بأني لم أتخلّ عنكما. إن هذه القضية، قضية توم روبنسون أمام المحكمة، شيء يتعلق بجوهر ضمير الإنسان. يا سكاوت، ما كنت سأستطيع الذهاب إلى الكنيسة والصلاة لله إن لم أحاول مساعدة ذلك الإنسان.

ـ أتيكوس، لا بد أنك على خطأ.

ـ لماذا؟

ـ حسناً، يبدو أن معظم الناس يعتقدون أنهم على صواب وأنك على خطأ...

ـ إن لهم الحق وكل الحق في أن يظنوا ذلك، وهم مخولون بالاحترام الكامل بسبب آرائهم، ولكن قبل أن أستطيع معايشة الناس الآخرين، علي أن أستطيع معايشة نفسي. إن الشيء الوحيد الذي لا يلتزم برأي الأغلبية هو ضمير الإنسان.

حين عاد جم وجدني لا أزال في حضن أتيكوس. قال أتيكوس: «ماذا يا بني؟». أوقفني على قدمي وقمت باستكشاف سرّي لجم. بدا كاملاً وصحيحاً، ولكن كانت هناك نظرة غريبة في وجهه. ربما كانت قد أعطته جرعة من الكالوميل[1].

ـ لقد نظّفت الفناء وقلت لها إني آسف، ولكني لست كذلك، وإني سأعمل في حديقتها كل يوم سبت وأحاول أن أجعل زهورها تعود للنمو من جديد.

(1) ذرور يستعمل مسهلاً للمعدة. (المترجم).

قال أتيكوس:

ـ لا معنى لقولك إنك آسف إن لم تكن كذلك، يا جم. إنها عجوز ومريضة. لا يمكنك تحميلها مسؤولية ما تقوله أو تفعله. طبعاً أفضل لو أنها قالت ما قالته لي وليس لأي منكما، ولكن لا يمكننا أن نتوقع أن نحصل دائماً على ما نريده.

بدا جم مفتوناً بزهرة مرسومة على السجادة. قال:

ـ يا أتيكوس، إنها تريدني أن أذهب لأقرأ لها.

ـ تقرأ لها؟

ـ نعم يا سيدي. تريدني أن أذهب عصر كل يوم بعد المدرسة وفي أيام العطلة أيضاً وأقرأ لها بصوت عال لمدة ساعتين. هل علي أن أفعل ذلك يا أتيكوس؟

ـ بالتأكيد.

ـ ولكنها تريدني أن أفعل ذلك مدة شهر كامل.

ـ إذن فستفعله لمدة شهر كامل.

زرع جم أصبع قدمه الكبير بلطف في منتصف الزهرة وضغطها. وأخيراً قال: «يا أتيكوس لا بأس عى الرصيف، ولكن هناك في داخل منزلها المعتم المخيف، الذي فيه ظلال وأشياء على السقف..». ابتسم تيكوس بكآبة وقال:

ـ لا بد أن هذا يوائم مخيلتك. تصور فحسب أنك ضمن منزل آل رادلي.

* * *

في يوم الاثنين الذي تلى تسلقنا جم وأنا الدرج الأمامي الشاهق المؤدي إلى منزل السيدة دوبوز ومشينا بهدوء فوق أرض الممرّ المكشوف. ثم قرع جم المسلّح برواية «ايفانهو»[1] والمترع بالمعرفة السامية، الباب الثاني إلى اليسار.

صاح:

ـ سيدة دوبوز؟

فتحت جيسي الباب الخشبي ثم رفعت مزلاج الباب المنخلي.

قالت:

ـ أهذا أنت يا جم فينتش؟ أختك معك. لا أعرف...

قالت السيدة دوبوز:

ـ ادخليهما كليهما يا جيسي.

أدخلتنا جيسي ثم ذهبت إلى المطبخ.

حين عبرنا العتبة استقبلتنا رائحة قابضة للنفس، رائحة عرفتها في المنازل الكئيبة التي أبلاها المطر والتي تستعمل فيها مصابيح زيت الفحم، ومغارف الماء، والشراشف المنزلية غير المبيّضة. وكانت هذه الرائحة تجعلني دائماً في حالة من الخوف والتوقع والترقب.

في زاوية الغرفة كان سرير نحاسي، وفي السرير كانت السيدة دوبوز. تساءلت في نفسي إن كانت نشاطات جم هي التي جعلتها طريحة الفراش، وشعرت بالرثاء لها للحظة. كانت تقبع تحت كومة من اللحف، وتبدو ودودة.

---

(1) من روايات وولتر سكوت. (المترجم).

كانت هناك منضدة ذات سطح من المرمر بالقرب من سريرها، وعليها كأس وفيه ملعقة شاي، ومحقنة ذات أذن حمراء، وعلبة من القطن الماصّ، وساعة منبّه فولاذية تقف على ثلاث أرجل دقيقة.

ـ إذن لقد جلبت أختك الصغيرة الوسخة معك، أليس كذلك.

هكذا كانت تحيتها لنا.

قال جم بهدوء:

ـ أختي ليست وسخة ولست خائفاً منك.

قال ذلك رغم أني لاحظت أن ركبتيه كانتا ترتجفان.

توقعت منها تقريعاً مطوّلاً، ولكن كل ما قالته كان:

ـ يمكنك أن تبدأ بالقراءة يا جيريمي.

جلس جم في كرسي من القصب وفتح رواية «ايفانهو». وجذبت كرسياً آخر وجلست إلى القرب منه.

قالت السيدة دوبوز:

ـ اقتربا أكثر. تعالا إلى جانب السرير.

حركنا كرسيينا إلى الأمام. وكانت تلك أول مرة أكون فيها قريبة منها إلى ذلك الحد، وكان الشيء الذي أريده أكثر من غيره هو أن أعيد كرسيّي إلى الخلف.

كانت رهيبة. فقد كانت وجهها بلون غطاء الوسادة القذر، وزاويا فمها تلتمع بشيء رطب كان يتزحف كنهر جليدي نازلاً الأخاديد العميقة التي تحيط بذقنها. كما كانت بقع الشيخوخة الناجمة عن مرض الكبد تنتشر على خديها، ولعينيها الفاتحتي اللون بؤبؤان أسودان صغيران. يداها كانتا مليئتين بالعقد، والجلد الميت قد نما

فغطى أظافر يديها. كان طقم أسنانها السفلي غير موجود في فمها وكانت شفتها العليا ناتئة، وبين الحين والآخر كانت تشد شفتها السفلى إلى طقم أسنانها العلوي حاملة ذقنها معها. وكان هذا يجعل الشيء الرطب يتحرك على نحو أسرع.

لم أنظر أكثر مما اضطررت. أعاد جم فتح «ايفانهو» وبدأ بالقراءة. حاولت متابعة الأسطر معه، ولكنه كان يقرأ بسرعة لم أستطع مجاراتها. وحين كان جم يصل إلى كلمة لا يعرفها كان يتجاوزها، ولكن السيدة دوبوز كانت تصطاده وتطلب منه أن يهجئها. قرأ جم لمدة عشرين دقيقة على الأرجح، كنت خلالها أنظر إلى رف المدفأة الملطخ بالسخّام، وخارجاً عبر النافذة، إلى أي مكان أستطيع معه عدم النظر باتجاهها. وبينما راح يقرأ، لاحظت أن تصحيحات السيدة دوبوز راحت تصبح أقل وأكثر تباعداً، إلى حد أن جم ترك جملة بكاملها تتأرجح في الهواء. لم تكن هي تصغي إذن.

نظرت باتجاه السرير.

كان شيء ما قد حدث لها. كانت مضطجعة على ظهرها، واللّحف تصل حتى ذقنها. لم يكن مرئياً منها سوى رأسها وكتفيها. كان رأسها يتحرك ببطء من جانب إلى آخر. ومن حين إلى آخر كانت تفتح فمها إلى آخره حتى استطعت أن أرى لسانها يتحرك على نحو ضعيف. كانت خيوط الريق تتجمع على شفتيها وكانت تشفطها إلى الداخل ثم تفتح فمها ثانية. بدا فمها وكأنه كينونة خاصة بذاتها. كان يعمل على نحو مستقل ومنفصل عن بقية جسدها، خارجاً وداخلاً، وكأنه قوقعة في الجزر. أحياناً كان فمها يصدر صوتاً يوحي بأن هناك مادة لزجة قد وصلت إلى درجة الغليان.

جذبتُ جم من كمّه.

نظر إليّ ثم إلى السرير. تأرجح رأسها ذلك التأرجح المنتظم باتجاهنا، فقال جم: «سيدة دوبوز، هل أنت بخير؟» ولكنها لم تسمعه.

انطلقت ساعة المنبه ترنّ فتجمّدْنا رعْباً. بعد دقيقة وأعصابنا لازالت متوترة، كنّا جم وأنا نمشي على الرصيف باتجاه البيت. لم نركض، كانت جيسي قد صرفتنا: فقبل أن يرن جرس المنبه حتى آخره كانت قد وصلت إلى الغرفة وراحت تدفعنا نحو الخارج قائلة:

ـ هيا إلى البيت.

تردد جم عند الباب.

قالت جيسي:

ـ لقد حان موعد دوائها.

وبينما كان الباب ينغلق خلفنا رأيت جيسي تمشي بسرعة باتجاه سرير السيدة دوبوز.

كانت الساعة هي الثالثة وخمساً وأربعين دقيقة لدى وصولنا إلى البيت، ولذا لعبت مع جم بكرة القدم في الفناء الخلفي حتى حان موعد لقاء أتيكوس. كان أتيكوس يحمل قلمي رصاص صفراوي اللون لي ومجلة مختصة بكرة القدم لجم، وأعتقد أن تلك كانت مكافأة صامتة لنا عن أول جلسة لنا مع السيدة دوبوز. حكى له جم ما حدث.

سأل أتيكوس:

ـ هل أخافتكما؟

ـ كلا يا سيدي، ولكنها كريهة جداً. كما تنتابها نوبات أو ما شابه. كما أنها تبصق كثيراً.

ـ إنها لا تستطيع شيئاً حيال ذلك. حين يكون الناس مرضى فإنهم لا يبدون بشكل مقبول أحيناً.

قلت:

ـ لقد أخافتني.

نظر إلي أتيكوس من فوق نظارتيه وقال:

ـ لست مضطرة للذهاب مع جم كما تعلمين.

كان عصر اليوم التالي لدى السيدة دوبوز كاليوم الأول تماماً، وهكذا كان الذي تلاه، حتى توضح لي تدريجياً نموذج هو على الشكل التالي: يبدأ كل شيء على نحو اعتيادي: أي أن السيدة دوبوز كانت تطارد جم لفترة بمواضيعها المفضلة، بزهور الكاميليا الخاصة بها وبميول أبينا المتعلقة بحبه الزنوج، ثم تصمت تدريجياً، وبعدها تغيب عن الوعي. يرنّ جرس المنبه، وتصرفنا جيسي وتكون بقية النهار ملكنا.

قلت لأتيكوس في إحدى الأمسيات:

ـ أتيكوس، ما هو بالضبط «محب الزنوج»؟

أصبح وجه أتيكوس عابساً.

ـ هل دعاك أحد بهذا اللقب؟

ـ لا يا سيدي ولكن السيدة دوبوز تدعوك بهذا اللقب. إنها تبدأ جلسة عصر كل يوم بأن تدعوك بذاك اللقب. كما أن فرانسيس دعاني بهذا اللقب في عيد الميلاد الماضي، وكانت تلك هي المرة الأولى التي سمعته بها.

سألني أتيكوس:

ـ ألهذا هاجمته وضربته؟

ـ نعم يا سيدي...

ـ إذن لماذا تسألينني عن معناه؟

حاولت أن أشرح لأتيكوس أن ما جعلني أفقد صوابي لم يكن ما قاله فرانسيس بل الطريقة التي قال بها ما قاله.

ـ لقد قاله بالطريقة التي يقال فيها «قبيح الأنف» أو ما شابه.

قال أتيكوس:

ـ يا سكاوت، إن «محب الزنوج» إحدى تلك العبارات التي لا تعني شيئاً، مثلها مثل «قبيح الأنف». من الصعب تفسير ذلك، ولكن الأشخاص الجاهلين التافهين يستعملونها حين يظنون أن شخصاً ما يفضل الزنوج عن نفسه. وقد سقطت من الاستعمال لدى بعض الناس من أمثالنا، وذلك حين يريدون أن يلقبوا شخصاً ما بلقب وضيع قبيح.

ـ لست «محباً للزنوج» إذن، أليس كذلك؟

ـ بل أنا كذلك بكل تأكيد. أنا أفعل ما بوسعي لأحب كل الناس... أحياناً يكون ذلك صعباً. يا طفلتي لا أعتقد أنه من المهين للإنسان أن يلقب بلقب يعتقد من يطلقه أنه لقب مهين. إن ذلك يكشف لنا كم هو مسكين ذلك الشخص، والأمر لا يضيرك أبداً. لذا لا تدعي السيدة دوبوز تحطم معنوياتك. إن لديها من المتاعب ما يكفيها.

وفي عصر أحد الأيام بعد شهر من ذلك، كان جم يشق طريقه عبر مؤلفات السير وولتر «سكاوت»[1] كما كان جم يسميه، وكانت السيدة دوبوز تصحح له في كل مناسبة، حين طُرق الباب فجأة، فزعقت هي: «ادخل».

ودخل أتيكوس. مضى نحو السرير وتناول يد السيد دوبوز. قال:

ـ كنت قادماً من المكتب ولم أر الولدين، فقلت في نفسي ربما لا يزالان هنا.

---

(1) تعني المؤلف الشهير وواتر سكوت. (المترجم)

ابتسمت له السيدة دوبوز. ولم أصدق كيف يمكنها أن تجبر نفسها على محادثته حين بدا أنها تكرهه كل ذلك الكره. قالت: «أتعرف كم هي الساعة يا أتيكوس؟ إنها الخامسة وأربع عشرة دقيقة. الساعة سترن في الخامسة والنصف. أريدك أن تعرف ذلك».

لقد خطر لي فجأة أننا كنا نبقى كل يوم فترة أطول قليلاً من اليوم السابق لدى السيدة دوبوز، وإن الساعة كانت ترن متأخرة بضع دقائق كل يوم، وأنها كانت تدخل إحدى نوباتها لدى رنين الساعة. واليوم هاهي تعادي جم منذ ساعتين تقريباً دون أن يبدو عليها أنها ستصاب بنوبة، وأحسست بأني واقعة في الفخ دون أمل بالنجاة. كان صوت المنبّه هو الإشارة لتحريرنا، وإذا لم ينطلق رنينه في يوم من الأيام فما الذي سنفعله؟

قال أتيكوس:

ـ لدي إحساس بأن أيام قراءة جم قد أضحت معدودة.

ـ سيبقى لأسبوع آخر فحسب، وذلك حتى نتأكد...

نهض جم وقال:

ـ ولكن...

رفع أتيكوس يده فصمت جم. وفي الطريق إلى البيت قال جم إنه وعد بالقيام بذلك لمدة شهر، وأن الشهر قد انقضى وإنه لم يكن من العدل الاستمرار أطول من ذلك.

قال أتيكوس:

ـ أسبوع واحد آخر فحسب.

ـ لا.

ـ بل أجل.

وفي الأسبوع التالي وجدنا نفسينا من جديد في منزل السيدة دوبوز. كان المنبه قد توقف عن الرنين، إلا أن السيدة دوبوز كانت تصرفنا بعبارة: «هذا يكفي» وذلك في آخر العصر، بحيث أننا حين نعود إلى البيت نجد أتيكوس يقرأ في صحيفته. ورغم أن نوباتها قد اختفت، إلا أنها كانت في كل شيء آخر تلك السيدة دوبوز العجوز نفسها: فحين كان السير وولتر سكوت يسهب في وصف الخنادق والقلاع، كانت السيدة دوبوز تصاب بالملل فتبدأ بمهاجمتنا:

ـ يا جيريمي فينتش، لقد قلت لك إنك ستعيش لتندم على تحطيم أزهاري من نوع الكاميليا. وأنت نادم على ذلك الآن، أليس كذلك؟

وكان جم يقول إنه كذلك بالتأكد.

ـ ظننت أنك تستطيع أن تقتل أزهاري من نوع «الثلج على الجبل» أليس كذلك؟ حسناً، إن جيسي تقول إن رؤوسها بدأت تنمو من جديد. في المرة التالية يجب أن تعرف كيف تحطم تلك الأزهار بالطريقة المناسبة، أليس كذلك؟ يجب أن تقلعها من جذورها، أليس كذلك؟

كان جم يقول إنه سيفعل ذلك بالتأكيد.

ـ لا تهمهم حين تخاطبني يا ولد. ارفع رأسك وقل: «نعم يا سيدتي». لا أظن أنك تشعر بالرغبة في رفع رأسك وأبوك على ما هو عليه.

كانت ذقن جم ترتفع، وكان يحدق في السيدة دوبوز بوجه خال من الامتعاض. فخلال الأسابيع التي مرت استطاع أن يربيّ تعبيراً من الاهتمام اللطيف غير المنحاز كان يقدمه إليها جواباً على ابتكاراتها التي تجمّد الدم.

وأخيراً جاء اليوم الذي قالت فيه السيدة دوبوز في وقت العصر: «هذا يكفي. لقد انتهينا. يومكما طيب».

لقد انتهى الأمر إذن. تقافزنا على الرصيف في نشوة من الراحة المطلقة، ورحنا ننطّ ونزعق.

كان ذلك الربيع جميلاً: فالأيام أضحت أطول وراحت تمنحنا مزيداً من الوقت للعب. كان عقل جم مشغولاً معظمه بالإحصائيات الحيوية المتعلقة بكل لاعب لكرة قدم في الكليات الجامعية للأمة كلها. في كل ليلة كان أتيكوس يقرأ لنا الصفحات الرياضية من الصحيفة. قد يشارك منتخب ولاية ألاباما في مباريات بطولة «روز باول» مرة أخرى هذا العام، وذلك بناء على إمكانيات أعضاء المنتخب الذين ما كنا قادرين على لفظ اسم أي واحد منهم. كان أتيكوس منهمكاً مرة في قراءة إحدى مقالات «ويندي سيتون» الرياضية حين رن جرس الهاتف.

رد على الهاتف، ثم ذهب إلى مشجب القبعات في القاعة وقال: «سأذهب لأرى السيدة دوبوز قليلاً، وسأعود بعد فترة قصيرة».

ولكن أتيكوس ظل هناك إلى ما بعد موعد النوم. وحين عاد كان يحمل علبة سكاكر. جلس أتيكوس في غرفة الجلوس ووضع العلبة على الأرض بالقرب من كرسيه.

سأله جم.

ـ ما الذي كانت تريده؟

لم نكن قد رأينا السيدة دوبوز منذ شهر. ولم نعد نراها تجلس في الرواق لدى مرورنا بمنزلها.

قال أتيكوس:

ـ لقد ماتت يا بني. ماتت منذ دقائق قليلة.

قال جم:

ـ أوه... حسناً.

ـ ما قلته صحيح. إنه لأمر حسن، فهي لم تعد تعاني المزيد الآن. لقد كانت مريضة منذ فترة طويلة يا بني، ألم تعرف ما كانت تلك النوبات التي كانت تصيبها؟

هز جم رأسه.

ـ كانت السيدة دوبوز مدمنة على المورفين. كنت تتناوله كمسكن للآلام منذ سنوات طويلة. الطبيب هو الذي وصفه لها. كان يمكن أن تقضي بقية حياتها وهي تتناوله وأن تموت دون كل تلك الآلام، ولكنها كانت شديدة العناد....

قال جم:

ـ يا سيدي؟

قال أتيكوس:

ـ قبل مغامرتك الطائشة مباشرة كانت قد استدعتني لأحرر لها وصيتها. لقد قال لها الدكتور رينولدز إنه قد تبقى أمامها شهور قليلة قبل أن تموت. كانت أمورها المالية منتظمة تماماً ولكنها قالت: «هناك شيء واحد غير منتظم بعد».

شعر جم بالحيرة فقال:

ـ وما كان ذاك؟

ـ قالت إنها ستغادر هذا العالم وهي غير مدينة بالفضل لشيء أو لأحد. يا جم، حين تكون مريضاً كما كانت هي، فإنه من الصحيح أن تتناول أي شيء لتخفيف المرض، ولكن الأمر لم يكن صحيحاً بالنسبة لها. قالت إنها تنوي أن تخلّص نفسها من الإدمان على المورفين قبل أن تموت، وقد فعلت ذلك حقاً.

قال جم:

- أتعني أن نوباتها تلك كانت بسبب ذلك؟

- نعم، هذا صحيح. حين كنت تقرأ لها أشك في أنها كانت تسمع كلمة واحدة أغلب الوقت. كان ذهنها وجسدها متركزين بالكامل على ساعة المنبّه. ولو لم تقع بين أيديها بسبب غلطتك لكنت قد أرسلتك لتقرأ لها على أية حال. ربما كان ذلك بالنسبة لها نوعاً من صرف الانتباه. وكان هناك سبب آخر.

سأله جم:

- هل ماتت حرة من الإدمان؟

- حرة كهواء الجبل. وكانت واعية حتى آخر لحظة تقريباً. واعية...

وهنا ابتسم أتيكوس واستأنف قائلاً:

- ومشاكسة. كانت لا تزال تعارض تصرفاتي من كل قلبها، وقالت إني قد أقضي بقية عمري وأنا أدفع لك الكفالات لتخرج من السجن. وقد طلبت من جيسي أن تهيئ لك هذه العلبة.

التقط أتيكوس علبة السكاكر وسلمها إلى جم.

فتح جم العلبة. وكان في داخلها ومحاطة بلفائف من القطن الرطب، زهرة كاميليا كاملة بيضاء شمعية. كانت من نوع «الثلج فوق الجبل».

جحظت عينا جم، وزعق وهو يرميها أرضاً: «يا للشيطانة العجوز الجهنمية، يا للشيطانة العجوز الجهنمية. لماذا لا تتركني بحالي؟»

وخلال لحظة كان أتيكوس قد نهض ووقف قبالته. دفن جم رأسه في مقدمة قميص أتيكوس. قال له: «صه. أعتقد أن هذه هي

طريقتها كي تقول لك: كل شيء على ما يرام الآن يا جم، كل شيء على ما يرام. أنت تعرف أنها كانت سيدة عظيمة».

رفع جم رأسه ووجهه قد اكتسى لوناً قرمزياً وقال:

ـ سيّدة؟ بعد كل تلك الأشياء التي قالتها عنك تسميها سيدة؟

ـ أجل كانت سيدة عظيمة. كانت لها وجهات نظرها الخاصة بالأمور، وهي تختلف كثيراً عن وجهات نظري، ربما... يا بني، لقد قلت لك إنك لو لم تفقد عقلك وتفعل ما فعلته لكنت سأرسلك لتقرأ لها على أية حال. أردتك أن ترى فيها شيئاً معيناً: أردتك أن ترى ما هي الشجاعة الحقيقية، بدلاً عن أن تفكر في أن الشجاعة هي رجل في يده بندقية. إن الشجاعة تكون حين تعرف أنك خاسر حتى قبل أن تبدأ، ولكنك تبدأ على أية حال وتحاول أن تصل بقضيتك الخاسرة إلى آخرها مهما يكن من أمر. قد تكسب نادراً، ولكنك تكسب على كل حال. لقد كسبت السيدة دوبوز معركتها، كل كيلو غرام من الكيلوغرامات الأربعين التي كانت تشكل وزنها قد كسب تلك المعركة. ووفقاً لوجهة نظرها هي، فقد ماتت غير مدينة لشيء ولا لأحد. كانت أشجع شخص عرفته في حياتي.

حمل جم علبة السكاكر ورماها في النار. ثم التقط زهرة الكاميليا من على الأرض، وحين ذهبت إلى فراشي رأيته يداعب بأصابعه التويجات العريضة. كان أتيكوس يقرأ في صحيفته.

* * *

الفصل الثاني عَشَر

أصبح جم في الثانية عشرة. أصبح التعايش معه صعباً، وبات متقلب الطباع مزاجياً. أما شهيته فصارت مخيفة، وقد طلب مني مرات كثيرة أن أتوقف عن إزعاجه، حتى استشرتُ أتيكوس: «هل تعتقد أنه مصاب بالدودة الشريطية؟» قال أتيكوس أن لا، وإن كل ما في الأمر أن جم كان يكبر وأن عليّ أن أكون صبورة معه، وألا أزعجه إلاّ بأقل قدر ممكن.

هذا التغير في جم حصل خلال أسابيع فحسب. لم تكن السيدة دوبوز قد بردت عظامها في القبر بعد، وكان جم ممتناً جداً لاصطحابي له حين كان يذهب ليقرأ لها. وخلال ليلة وحدة، بدا وكأن جم قد تبنّى مجموعة غريبة من القيم وراح يحاول أن يفرضها عليّ فرضاً: وقد وصل الأمر في مرات عديدة إلى حد أنه كان يأمرني بما عليّ أن أفعله. وبعد مشادة كلامية واحدة صاح جم: «لقد حان الوقت لتصبحي فتاة وتتصرفي على النحو الصحيح». انفجرت في البكاء والتجأت إلى كالبورنيا.

قالت:

ـ لا تنقّي كثيراً فيما يتعلق بتصرفات السيد جم.

ـ السيد جم؟

ـ أجل، لقد جان الوقت لأدعوه السيد جم الآن.

ـ ليس كبيراً إلى هذا الحد بعد. كل ما يحتاج إليه هو شخص يؤدّبه، ولست كبيرة بما فيه الكفاية لأفعل ذلك.

ـ يا طفلتي، لا أستطيع أن أفعل شيئاً حيال ما يحدث للسيد جم من نموّ. إنه يحتاج كثيراً إلى أن يكون وحيداً الآن، وأن يتصرف كالصبيان، لذا عليك أن تأتي إلى هنا، إلى المطبخ حين تشعرين بالوحدة. سنجد أشياء كثيرة نفعلها هنا.

كانت بداية ذلك الصيف جيدة: أصبح باستطاعة جم أن يفعل ما يريد، وكالبورنيا حلت بالنسبة لي محل ديل، حتى يأتي ديل. وبدت هي سعيدة برؤيتي كلما ظهرت في المطبخ، وبمراقبتها بدأت أفكر بوجود بعض المهارة في كون الشخص امرأة.

ولكن جاء الصيف ولم يكن ديل هناك. استلمت رسالة وصورة منه. قالت الرسالة إنه قد أصبح له أب جديد وهو يرفق صورته مع الرسالة، وإنه مضطر إلى البقاء في مدينة مريديان لأنهما قد خطّطا لبناء زورق صيد. كان أبوه محامياً كأتيكوس، ولكنه أصغر سناً بكثير. كان للأب الجديد لديل وجه وسيم مما جعلني أشعر بالسعادة في أن ديل قد حظي به، ولكني شعرت بأني قد دمرت تماماً. فقد أنهى ديل رسالته قائلاً إنه سيحبني إلى الأبد وأن عليّ ألا أقلق، فهو سيأتي ليأخذني ويتزوجني حالما يحصل على ما يكفي من المال. إذن أرجوك أن تكتبي لي.

كان في حقيقة وجود خطيب دائم لي بعض التعويض عن غيابه: لم أفكر أبداً بغيابه، ولكن الصيف كان يعني ديل عند بركة السمك يدخّن مشكاك السمك، عينا ديل اللتان تشعان خططاً معقدة لجعل بو رادلي يخرج من منزله. كان الصيف هو السرعة التي كان ديل يمد رأسه ليقبلني بينما جم ينظر باتجاه آخر، والتشوّفات التي كان كل منا يشعر أن الآخر كان يشعر بها. معه، كانت الحياة روتيناً، وبدونه كانت الحياة أمراً لا يحتمل. بقيت بائسة مدة يومين.

وكأنما لم يكن ذلك كافياً، فقد انعقد برلمان الولاية في جلسة طارئة وغادرنا أتيكوس لمدة أسبوعين. كان الحاكم توّاقاً إلى تحريك عجلة الحكومة قليلاً، فقد كانت هناك اعتصامات في برمينغهام، والصفوف التي تنتظر الخبز أصبحت أطول، وأصبح سكان الأرياف أفقر. ولكن تلك كانت أموراً بعيدة من عالم جم وعالمي.

لقد دهشنا في صباح أحد الأيام حين شاهدنا رسماً كاريكاتيرياً في صحيفة «مونتغومري أدفرتايزر» فوق عنوان يقول: «فينتش مايكوم» وهو يظهر أتيكوس عاري القدمين ويرتدي سروالاً قصيراً، ومقيداً إلى مكتب: كان يكتب بعناية على لوح حجري بينما راحت بعض الفتيات الباديات السخف يهتفن «يو ـ هو» باتجاهه.

قال جم شارحاً:

ـ هذا إطراء. إنه ينفق وقته وهو يقوم بأشياء ما كان يمكن أن تتم لولا أن هناك من يقوم بها.

ـ هه؟

زيادة على الخصائص الجديدة التي نمت لدى جم مؤخراً، فقد اكتسب أيضاً سيماء من الحكمة من النوع المثير للجنون.

ـ أوه يا سكاوت، هذا أشبه بإعادة تنظيم أنظمة الضرائب للمديريات وما شابه. هذا النوع من الأمور جاف جداً لمعظم الناس.

ـ وكيف تعرف ذلك؟

ـ هيا دعيني وشأني. أنا أطالع الصحيفة.

حصل جم على أمنيته. غادرت المطبخ.

وبينا كانت تقشر البازلاء قالت كالبورنيا فجأة:

ـ ماذا سأفعل يوم الأحد من أجل حضوركما الصلاة؟

ـ لا شيء، على ما أظن. لقد ترك لنا أتيكوس ما نتبرع به.

ضاقت علينا كالبورنيا واستطعت أن أعرف ما الذي كان يدور في رأسها. قلت:

ـ يا كال، تعرفين أننا سنتصرف كما يليق. لم نفعل أي شيء مسيء في الكنيسة منذ أعوام.

من الواضح أن كالبورنيا قد تذكرت أحد أيام الأحد الماطرة حين كنا دون أب ودون معلمة. فقد قام الصف، الذي امتلك حريته، بربط الطفلة «يونيس آن سيمبسون» إلى كرسي ووضعها في غرفة الأتون. ثم نسيناها، وذهبنا إلى الطابق العلوي إلى الكنيسة، وكنا نصغي بهدوء إلى الموعظة حين صدرت ضجة مدوية من أنابيب مشعات التدفئة، وظلت الضجة مستمرة حتى ذهب شخص ما ليرى ما في الأمر وأحضر إلينا يونيس آن وهي تقول إنها لن ترغب بلعب دور «شدرخ[1]» بعد اليوم. قال جم فينتش إنها ما كانت لتحترق لو كان لديها ما يكفي من الإيمان، ولكن الجو كان حاراً هناك على أية حال.

احتججتُ قائلة:

ـ وزيادة عليه يا كال، فإن هذه ليست هي المرة الأولى التي يتركنا فيها أتيكوس وحدنا.

ـ نعم، ولكنه يتأكد أولاً من أن معلمتك ستكون هناك. ولم أسمعه يقول ذلك هذه المرة... أعتقد أنه نسي.

حكّت كالبورنيا رأسها. ثم ابتسمت فجأة وقالت:

ـ ما رأيك أن تأتي أنت والسيد جم إلى الكنيسة معي غداً؟

ـ حقاً؟

---

(1) شدرخ: وفقاً لما ورد في التوراة هو أحد الصالحين الثلاثة الذين رماهم بنوخذ نصر في الفرن. (المترجم).

ابتسمت كالبورنيا وقالت:

ـ ما رأيكما؟

إن كانت كالبورنيا قد سبق لها وحمّمتني بخشونة من قبل، فإن ذلك لا يمكن مقارنته مع مراقبتها لحمامي في ليلة السبت تلك. فقد جعلتني أفرك جسمي بالصابون مرتين، وأن أستعمل ماء جديداً لغسل الصابون عن جسمي كل مرة، كما حشرت لي رأسي في الحوض وغسلته بصابون الأوكتاجين والصابون القشتالي[1]. كانت قد أصبحت تترك جم يستحم وحده منذ سنوات ولكنها اقتحمت عليه حمامه هذه المرة وجعلته ينفجر غيظاً ويصيح: «ألا يمكن للمرء أن يستحم في هذا البيت دون أن تراه العائلة بأكملها؟».

في صباح اليوم التالي ابتدأت نشاطها في وقت أبكر من المعتاد وذلك كي «تتأكد من ملابسنا». وحين كانت كالبورنيا تنام في منزلنا ليلاً، كانت تستعمل سريراً من النوع الذي يطوى في المطبخ. في ذاك الصباح كان السرير مغطى بملابسنا الخاصة بيوم الأحد. كانت قد استعملت الكثير من النشاء على ثوبي إلى حد أنه انتصب كالخيمة حين جلست وأنا أرتديه. كما جعلتني أرتدي تنورة تحتانية ولفّت نطاقاً زهري اللون بشدة حول خصري. ثم لمّعت حذائي المصنوع من جلد لماع بقطعة من الكعك البارد حتى رأت وجهها فيه.

قال جم:

ـ يبدو الأمر وكأننا ذاهبان إلى «ثلاثاء المرفع»[2]. ما الحكاية يا كال؟

---

(1) صابون يصنع من زيت الزيتون. (المترجم).

(2) احتفال يعود إلى القرون الوسطى. ويقع هذا الثلاثاء قبل الصوم السابق على عيد الفصح. ولا زالت كثير من المدن الأوروبية والأمريكية تقيم كرنفالات تستمر أياماً بهذه المناسبة. (المترجم)

ـ لا أريد أن يقول أي شخص إني لا أعتني بولديّ جيداً. يا سيد جم. لا يمكنك إطلاقاً أن ترتدي ربطة العنق تلك مع تلك البذلة. إنها خضراء.

ـ ما الخطأ في ذلك؟

ـ البذلة زرقاء، ألا ترى ذلك؟

زمجرت أنا:

ـ ها ها، جم مصاب بعمى الألوان.

احمر وجهه غضباً، ولكن كالبورنيا قالت:

ـ هيا لا نريد مزاحاً. عليكما الذهاب إلى «كنيسة الشراء الأول» والابتسامات على وجهيكما.

تقع كنيسة الشراء الأول الأفريقية الميثودية الأسقفية في «الأحياء» خارج التخوم الجنوبية للبلدة، عبر طريق منشرة الخشب الترابي. كانت عبارة عن بناء قديم من ألواح خشب مقشورة الدهان، الكنيسة الوحيدة في مايكوم التي لها برج وجرس، وكانت تسمى «الشراء الأول» لأنه دفع ثمنها من الرواتب الأولى التي كسبها العبيد المحررّون. كان الزنوج يصلّون فيها أيام الآحاد ويلعب فيها البيض القمار بقية أيام الأسبوع.

كان فناء الكنيسة من الطين المشوي وكذلك المقبرة التي إلى القرب منه. وإذا ما مات شخص ما خلال فترة جفاف وانقطاع للمطر، كان الجثمان يغطى بقطع الثلج حتى يهطل المطر فتصبح الأرض طرية. بضع قبور في المقبرة كان لها شواهد متداعية، أما الحديث منها فكانت مؤطرة بزجاج ملون لامع وزجاجات الكوكاكولا المحطمة. أما مانعات الصواعق التي كانت تحرس بعض القبور فكانت تشير إلى الأموات غير المستقرين في نومتهم الأبدية. كما كانت هناك بقايا شموع محترقة عند رؤوس القبور الحديثة جداً. كانت تلك مقبرة مرحة.

رحبت بنا الرائحة الحلوة المرة الدافئة، رائحة الزنجي النظيف حين دخلنا فناء الكنيسة: كريم الشعر من صنف «قلوب الحب» الممزوج بالحلتيت والنشوق وكولونيا «هويت» والتبغ الممضوغ، والنعناع وبودرة الليلك.

وحين رأوا جم ورأوني مع كالبورنيا، تراجع الرجال نحو الخلف ورفعوا قبعاتهم، أما النساء فوضعن أيديهن على خصورهن وهي من علامات الاحترام التي تمارس في غير يوم الأحد من أيام الأسبوع. أفسحوا المجال حتى نمرّ نحو باب الكنيسة. مشت كالبورنيا بين جم وبيني، وهي ترد على التحيات الصادرة عن جيرانها المرتدين الملابس الزاهية الألوان.

قال صوت من خلفنا:

ـ ما الذي ترمين إليه يا آنسة كال؟

التفّت يدا كال حول أكتافنا فتوقفنا والتفتنا: كانت هناك امرأة زنجية طويلة القد تقف في طريقنا. كانت تقف على رجل واحدة وقد أسندت مرفقها الأيسر على منحنى ردفها وراحت تشير إلينا بكف مقلوبة. كان رأسها أشبه بالرصاصة ولها عينان لوزيتان وأنف مستقيم وفم يشبه القوس الهندي. بدت وكأن طولها يبلغ سبعة أقدام.

أحسست بيد كالبورنيا تحفر في كتفي. ثم خاطبت المرأة بلهجة لم أسمعها من قبل: «ما الذي تريدينه يا لولا؟» كانت تتحدث بهدوء وباحتقار.

ـ أريد أن أعرف لماذا تحضرين أولاداً بيضاً إلى كنيسة الزنوج.

ـ هذان ضيفاي.

هذا ما قالته كالبورنيا ولكني شعرت مرة أخرى أن صوتها كان غريباً: كانت تتحدث كبقيتهم الآن.

ـ حسناً، وأظن أنك ضيفة في منزل آل فينتش بقية أيام الأسبوع.

سرت همهمة بين الحضور. همست كالبورنيا في أذني: «لا تغتاظي». ولكن الزهور التي كانت في قبعتها راحت تهتز من شدة السخط.

حين اقتربت لولا قاطعة الممر باتجاهنا قالت كالبورنيا:

ـ توقفي عندك يا زنجية.

توقفت «لولا»، ولكنها قالت:

ـ لا يجب عليك إحضار الأولاد البيض إلى هنا... إن لهم كنيستهم ولنا كنيستنا. هذه كنيستنا، أليس كذلك يا آنسة كال؟

قالت كالبورنيا:

ـ ولكنه الرب نفسه، أليس كذلك؟

قال جم:

ـ لنذهب إلى البيت يا كال، فهم لا يريدوننا هنا...

وقد وافقتُه أنا أيضاً: فلم يكونوا يريدوننا في ذلك المكان. أحسست أكثر مما رأيت أنهم كانوا يطبقون علينا. بدوا وكأنهم يقتربون أكثر فأكثر، ولكني حين نظرت إلى كالبورنيا، رأيت نوعاً من الضحك في عينيها. وحين نظرت إلى الممر من جديد، كانت «لولا» قد اختفت. في مكانها رأيت جمهرة متماسكة من الناس الملونين.

خطا أحدهم خارج الجمهرة. كان ذاك هو «زيبو» عامل القمامة الذي قال: «مستر جم: يسعدنا كثيراً أن تكونوا بيننا. لا تهتموا بلولا، إنها مشاكسة لأن «الكاهن سايكس» قد هدّد بتطهيرها. إنها من مثيري الاضطراب من زمن بعيد، ولديها أفكار خيالية وأساليبها متعجرفة... يسرنا وجودكم معنا».

بعد هذا قادتنا كالبورنيا إلى باب الكنيسة حيث حيّانا الكاهن سايكس وقادنا إلى المقعد الأمامي.

«كانت كنيسة الشراء الأول» ذات سقف غير مجصص ودون طلاء من الداخل. وعلى امتداد جدرانها كانت هناك قناديل الكيروسين المعلقة على زوايا نحاسية. كانت المقاعد المصنوعة من خشب الصنوبر تستعمل للجلوس أثناء الصلاة. خلف المنبر المصنوع من السنديان كانت هناك لافتة من الحرير الزهري الذي بهت لونه من القدم وقد كتب عليها: «الله محبة»، وهي الزينة الوحيدة للكنيسة باستثناء صورة فوتوغرافية للوحة «هنت» المسماة: «نور العالم». لم يكن هناك أثر لبيانو أو أرغن أو كتب التراتيل وبروشورات الكنيسة: وهي الأمتعة الكهنوتية المألوفة التي نراها كل أحد. كانت الكنيسة كئيبة من الداخل، ذات برودة رطبة راحت تتلاشى مع قدوم أفراد الرعية وتجمعهم. وعند كل مقعد كانت هناك مروحة رخيصة من الورق المقوى تحمل دعاية لشركة تجارية وتقول: «أنت تسمي الشيء ونحن نبيعه لك».

أشارت كالبورنيا إلى جم وإليّ لنجلس في آخر الصف وجلست بيننا. بحثت في حقيبتها، وأخرجت منديلها ثم فكت العقدة القاسية التي تربط بها الفكة (الفراطة) في زاويته. أعطتني عشرة سنتات كما أعطت جم مثله. همس لها جم: «معنا سنتاتنا. احتفظي بالتي لك». ولكنها قالت: «أنتما ضيفاي». بدا على وجه جم بعض التردد حول مدى أخلاقية عدم دفع قطعة السنتات العشرة، ولكن كياسته الفطرية تغلبت فوضع قطعة السنتات العشرة في جيبه. وفعلت كذلك بقطعتي دون وخز ضمير.

همست:

- كال، أين كتاب التراتيل؟

- ليس لدينا منها.

- ولكن كيف...

أسكتتني. كان الكاهن سايكس يقف وراء المنبر يحدق في الرعية حتى تصمت، وهو شخص قصير ممتلئ القامة يرتدي بزة سوداء وربطة عنق سوداء وقميصاً أبيض وساعة ذهبية ذات سلسلة كانت تلتمع مع انعكاس الضوء عليها من النوافذ ذات الزجاج المصنفر.

قال:

ـ أيها الأخوة والأخوات، يسرنا على نحو خاص أن يكون لدينا ضيوف هذا الصباح. السيد والآنسة فينتش. كلكم تعرفون أباهما. وقبل أن أبدأ سأقرأ بعض الإعلانات.

قلب الكاهن سايكس بعض الأوراق واختار واحدة ومد ذراعه بها وقال:

ـ الجمعية التبشيرية ستجتمع في منزل الأخت «آنيت ريفز» يوم الثلاثاء القادم. أحضرن خياطتكن معكن.

قرأ ورقة أخرى:

ـ كلكم تعرفون مشكلة الأخ توم روبنسون. لقد كان عضواً مخلصاً من أعضاء «الشراء الأول» منذ أن كان صبياً. إن التبرعات التي ستجمع اليوم وفي أيام الآحاد الثلاثة القادمة ستعطى إلى «هيلين» زوجته لمساعدتها في تدبير شؤونها العائلية.

نخست جم هامسة:

ـ هذا هو المتهم الذي دافع عنه أتيكوس...

ـ صه.

التفتّ نحو كالبورنيا ولكنها أخرستني قبل أن أفتح فمي. وبعد أن خضعت ثبّتُّ انتباهي على الأب سايكس الذي بدا وكأنه ينتظرني حتى أهدأ ثم قال:

ـ هل يسمح المشرف الموسيقي فيقودنا في أول ترتيلة؟

نهض زيبو من مقعده وسار على امتداد الممشى الأوسط حتى توقف أمامنا وواجه الرعية. كان يحمل كتاب تراتيل مهترئاً. فتحه ثم قال: «سنغنيّ الترتيلة التي رقمها مئتان وثلاث وسبعون».

كان هذا أكثر مما أستطيع احتماله. قلت:

ـ كيف سنغني دون كتب تراتيل؟

ابتسمت كالبورنيا:

ـ صمتاً يا طفلتي. سترين خلال دقيقة.

تنحنح زيبو وقرأ بصوت أشبه بقعقعة المدافع البعيدة:

ـ«هناك أرض إلى ما وراء النهر».

وبصوت متناغم على نحو إعجازي، انطلقت مئة حنجرة تكرّر ما قاله زيبو. أما المقطع الأخير الذي انتهى بهمهمة ذات بحة، فقد تبعها صوت زيبو يقول:

«التي ندعوها الجميلة إلى الأبد».

ومن جديد علت الموسيقى حولنا: وكانت النغمة الأخيرة تغنّى بتمهلّ حتى يلاقيها زيبو بالبيت التالي:

«ولن نصل إلى ذلك الشاطئ إلا بقوة الإيمان».

ترددت الرعية، فقد كرر زيبو البيت باهتمام، وتم غناؤه. وعند انتهاء اللازمة أغلق زيبو الكتاب، وهي إشارة إلى الرعية كي تتابع دون مساعدته.

ومع النغمات المحتضرة لـ «التهليلة[1]» قال زيبو:

---

(1) أغنية زنجية شعبية تشتمل على إشارات إلى أيام سعيدة قادمة (Jubilee). (المترجم)

«في ذلك البعيد العذب إلى الأبد.

خلف النهر اللامع مباشرة».

وبيتاً بيتاً تبعته الأصوات ضمن تناغم بسيط حتى انتهت الترتيلة في همهمة حزينة.

نظرت إلى جم، الذي كان ينظر إلى زيبو شزراً. لم أكن أنا أصدق ذلك أيضاً، ولكنا سمعنا ما سمعناه معاً.

ثم دعا الكاهن سايكس إلى الرب طالباً منه أن يبارك المرضى والمساكين، وهو إجراء لا يختلف عما يحدث في كنيستنا سوى أن الكاهن سايكس لفت انتباه الرب إلى عدة حالات خاصة.

كانت موعظته شجباً صريحاً للخطيئة، ودعماً صارماً للشعار الذي كان على الجدار خلفه: وقد حذّر رعيته من شرور المشروبات المسكرة والقمار والنساء الغريبات. كان صانعو وبائعو المشروبات الكحولية المصنعة محلياً يسببون الكثير من المشاكل في «الأحياء، ولكن النساء كن أسوأ. ومن جديد، وكما كان يحدث غالباً في كنيستنا فقد جوبهت بمبدأ «لا طهارة النساء» والذي بدا أنه يشغل بال كل القساوسة.

كنا جم وأنا قد استمعنا كل أحد إلى هذه الموعظة نفسها التي نسمعها الآن باستثناء اختلاف واحد: فقد كان الأب سايكس يستعمل منبره على نحو أشد حرية للتعبير عن آرائه في السقطات الفردية: فهاهو «جيم هاردي» قد تخلف عن الكنيسة منذ خمسة آحاد وهو ليس مريضاً. أما «كونستانس جاكسون» فالأفضل لها أن تنتبه إلى تصرفاتها فهناك احتمال كبير في أن تتشاجر مع جيرانها، فقد نصبت حاجز البغضاء الوحيد في تاريخ «الأحياء».

أنهى الكاهن سايكس موعظته. وقف إلى القرب من منضدة أمام المنبر وطلب أن تتم تبرعات الصباح، وهو إجراء كان غريباً على جم وعليّ. وتقدمت الرعية، الواحد آثر الآخر، وراحوا يرمون بقطع الخمسة سنتات والعشرة سنتات في وعاء للقهوة أسود مطلي بالمينا. وتبعناهم جم وأنا وتلقينا كلمة «شكراً، شكراً» خافتة حين صلصلت العشرة سنتات خاصته وخاصتي.

ويا لحيرتنا، فقد أفرغ الكاهن سايكس الوعاء على الطاولة وقلّب النقود في يده. ثم رفع قامته وقال: «هذا لا يكفي. يجب أن نجمع عشرة دولارات»..

تحركت الرعية. «كلكم تعرفون لمن هذه التبرعات: لا يمكن لهيلين أن تترك أطفالها وتذهب إلى العمل وتوم في السجن. وإذا تبرع كل منكم بعشرة سنتات أخرى فسنحصل على العشرة دولارات»، ثم حرك الكاهن سايكس يده ونادى شخصاً في مؤخرة الكنيسة: يا «أليك»، أغلق الأبواب. لن يغادر أحد هذا المكان حتى نحصل على عشرة دولارات».

بحثت كالبورنيا في حقيبة يدها وأخرجت حافظة نقود جلدية مهترئة. همس جم: «كلا يا كال» وذلك حين ناولته ربع دولار لامع، واستأنف: «يمكننا أن نتبرع بنقودنا. أعطني عشرة سنتاتك يا سكاوت».

كانت الكنيسة قد بدأت تصبح فاسدة الهواء وخطر لي أن الكاهن سايكس قد صمم على جعل رعيته تدفع المبلغ المستحق من عرقها. طقطقت المراوح وبدأت الأقدام تتراقص من التعب وأصبح ماضغو التبغ في حالة معاناة.

أذهلني الكاهن سايكس بقوله:

ـ يا كارول ريتشاردسون، لم أرك عند المذبح هنا بعد.

تقدم رجل نحيل يرتدي بنطالاً خاكي اللون نحو المذبح ووضع قطعة نقود. وهمهمت الرعية استحساناً.

ثم قال الكاهن سايكس:

- أريد كل من ليس لديه أطفال أن يضحي ويقدم قطعة من عشرة سنتات أخرى، وعندها سنكون قد جمعنا المبلغ المطلوب.

ببطء وألم تمّ جمع الدولارات العشرة. فتح الباب، وقد أعاد لنا الحياة تيار الهواء الدافئ الذي دخل عبره. أنشد زيبو «على ضفاف الأردن العاصفة» وانتهت طقوس الكنيسة.

أردت البقاء والاستكشاف، ولكن كالبورنيا دفعتني أمامها عبر المذبح. وعند باب الكنيسة وبينما توقفت لتتحدث مع زيبو وعائلته، تحدثنا جم وأنا مع الكاهن سايكس. كنت أتفجّر أسئلة، ولكني قررت أن أنتظر حتى تجيبني كالبورنيا عنها.

قال الكاهن سايكس:

- يسعدنا أن تكونا معنا. هذه الكنيسة لا تملك صديقاً أفضل من أبيكما.

وهنا تفجر فضولي فسألت:

- لماذا كنتم جميعاً تتبرعون لصالح زوجة توم روبنسون؟

- ألم تسمعي بالسبب؟ إن لدى هيلين ثلاثة أطفال صغار ولا يمكنها الذهاب للعمل...

- لم لا تأخذهم معها يا حضرة الكاهن؟

هكذا سألته، فقد كان من عادة عمال الحقول الزنوج الذين لهم أطفال صغار أن يضعوا لأطفال في أي مكان ظليل بينما يعمل الآباء والأمهات: وعادة ما كان الأطفال الصغار يجلسون في الظل بين

صفين من شجيرات القطن، أما أولئك غير القادرين على الجلوس فكانوا يشدون إلى ظهور أمهاتهم بقماط كعادة الهنود الحمر أو يوضعون ضمن أكياس القطن الزائدة.

تردد الكاهن سايكس ثم قال:

ـ إذا كنت تريدين الحقيقة يا آنسة جان لويز، فهي أن هيلين تلاقي صعوبة في إيجاد عمل لها هذه الأيام... وحين يزف موعد القطاف فأعتقد أن السيد «لينك ديس» سيسمح لها بالعمل عنده.

ـ ولم لا يا حضرة الكاهن؟

وقبل أن يستطيع الإجابة أحسست بيد كالبورنيا على كتفي. ومن جراء ضغطها قلت:

ـ نشكرك للسماح لنا بالدخول للصلاة.

وكرر جم ما قلتُه ثم اتجهنا نحو البيت.

سألت:

ـ كال، أعرف أن توم روبنسون في السجن، وأنه فعل شيئاً رهيباً، ولكن لم لا يقبل الناس استخدام هيلين؟

كانت كالبورنيا في ثوبها الأزرق الداكن الرقيق النسيج وقبعتها الكبيرة الأشبه بحوض الاستحمام، تمشي بين جم وبيني. قالت:

ـ بسبب ما يقال أن توم قد فعله. إن الناس لا يرغبون في التعامل مع أي فرد من أفراد عائلته.

ـ ولكن ماذا فعل بالضبط يا كال؟

تنهدت كالبورنيا:

ـ لقد اتّهمه السيد بوب يوويل الأب بأنه اغتصب ابنته وبالتالي فقد قُبض عليه وسُجن.

ـ السيد يوويل؟

هنا بدأت ذاكرتي بالتحرك.

ـ هل له علاقة بأولئك الأولاد من عائلة يوويل الذين يأتون إلى المدرسة في أول يوم ثم يذهبون إلى البيت؟ عجباً، لقد قال أتيكوس إنهم مجرد حثالة... وأنا لم أسمع أتيكوس يتحدث عن أي أناس بالطريقة التي تحدث بها عن عائلة يوويل. لقد قال...

ـ حسناً، هم هؤلاء أنفسهم.

ـ إذن، ما دام كل شخص في مايكوم يعرف من هم هؤلاء اليوويل، فسيسرّه أن يستخدم هيلين... ما هو الاغتصاب يا كال؟

ـ إنه شيء عليك أن تسألي السيد فينتش عنه. وهو يستطيع شرحه أفضل مني. هل أنتما جائعان؟ لقد أطال الكاهن موعظته هذا الصباح، إنه لا يكون متعباً إلى هذا الحد في العادة.

قال جم:

ـ إنه يشبه واعظنا تماماً، ولكن لم ينشدون التراتيل بهذه الطريقة؟

ـ هل تعني «الترداد»؟

ـ وهل هذا ما تسمى به هذه الطريقة؟

ـ أجل إنها تسمى «الترداد»، وإنهم ينشدون بهذه الطريقة منذ زمن بعيد، منذ ذلك الوقت الذي أستطيع تذكره.

قال جم إن الرعية تستطيع أن تجمع تبرعات عام بكامله لتشتري بعض كتب التراتيل.

ضحكت كالبورنيا:

ـ لا ينفع، فهم لا يستطيعون القراءة.

سألت:

ـ لا يستطيعون القراءة؟ كل أولئك الناس؟

ـ أجل. لا يستطيع القراءة سوى أربعة أشخاص من رعية كنيسة «الشراء الأول».. وأنا واحدة منهم.

سأل جم:

ـ في أي مدرسة كنت يا كال؟

ـ لم أذهب إلى أية مدرسة. والآن لنذكر من علمني يا ترى أول الحروف؟ إنها خالة الآنسة مودي أتكينسون، الآنسة بوفورد العجوز...

ـ هل أنت عجوز إلى هذا الحد؟

ـ أنا أكبر سناً من السيد فينتش حتى.

وهنا ضحكت كالبورنيا ثم قالت:

ـ لا أعرف كم هو سني على أية حال. لقد حاولنا مرة، السيد فينتش وأنا أن نعود بذاكرتنا لنحدّد كم هو عمري بالضبط، وقد لاحظنا أنني أستطيع أن أتذكر بضع سنوات فقط أكثر مما يستطيع هو، ولذا فأنا لست أكبر منه بكثير، خاصة وأن الرجال لا يستطيعون على أية حال أن يتذكروا جيداً كما تتذكر النساء.

ـ ومتى كان يوم ميلادك؟

ـ إني أحتفل به يوم عيد ميلاد المسيح، فمن الأسهل تذكّره بهذه الطريقة... على كل حال لا أعرف متى كان ميلادي بالضبط.

احتج جم:

ـ ولكنك لا تبدين يا كال في سن قريبة حتى من سن أتيكوس.

ـ الناس الملونون لا تبدو عليهم السن بسرعة.

ـ ربما لأنهم لا يستطيعون القراءة. هل أنت من علّم زيبو القراءة؟

ـ نعم يا مستر جم. لم تكن هناك مدرسة حتى حين كان هو صبياً. ولقد جعلته يتعلم على أية حال.

كان زيبو هو أكبر أبناء كالبورنيا. ولو أني كنت قد فكرّت في ذلك لعرفت أن كالبورنيا كانت متقدمة في السن، حيث كان لزيبو أولاد تجاوزوا مرحلة الطفولة... ولكني لم أفكر في الأمر في حينه.

سألتها:

ـ هل علمته من كتاب صف الأول كما علمتنا؟

ـ لا، جعلته يحفظ صفحة من الكتاب المقدس كل يوم، وكان هناك كتاب علمتني منه الآنسة بوفورد... وأراهن على أنكما لا تعرفان من أين حصلت عليه.

لم نكن نعرف.

قالت كالبورنيا:

ـ لقد أعطاني إياه جدكما لأبيكما.

قال جم:

ـ وهل كنت في اللاندينغ أنت أيضاً؟ لم يسبق لك أن ذكرت ذلك أمامنا.

ـ طبعاً يا سيد جم. لقد تربيت هناك بين منزل آل بوفورد واللاندينغ. كما قضيت كل أيامي أعمل في خدمة آل فينتش أو آل بوفورد، ولقد انتقلت إلى مايكوم حين تزوج أبوكما وأمكما.

سألتها:

ـ ماذا كان عنوان الكتاب يا كال؟

ـ إنه «تعليقات» لبلاكستون.

صعق جم:

ـ هل تعنين أنك علمت زيبو من ذاك الكتاب؟

ـ نعم يا سيدي يا سيد جم.

وهنا وضعت كالبورنيا أصابعها على فمها في حركة خجلة وقالت:

ـ كانا الكتابين الوحيدين اللذين كنت أملكهما. كان جدك يقول إن السيد بلاكستون يكتب بلغة إنكليزية جيدة....

قال جم:

ـ لهذا إذن لا تتكلمين كبقيتهم.

ـ بقية من؟

ـ بقية الناس الملونين يا كال. ولكنك تكلمت مثلهم في الكنيسة...

لم يكن قد خطر لي أبداً أن تكون كالبورنيا تمارس حياة مزدوجة هكذا بكل بساطة. وفكرة أن لها وجوداً منفصلاً خارجاً عن منزلنا كانت فكرة جديدة، هذا إذا لم نذكر شيئاً عن تضلّعها بلغتين.

سألتها:

ـ يا كال، لماذا تتحدثين بلغة الزنوج مع أمثالك حين تعلمين أنها غير صحيحة؟

ـ أنا أولاً سوداء...

قال جم:

ـ هذا لا يعني أن عليك أن تتكلمي بذلك الأسلوب حين تعرفين الأسلوب الصحيح.

أمالت كالبورنيا قبعتها وحكت رأسها، ثم ضغطت قبعتها حتى غطت أذنيها وقالت:

ـ من الصعب الجواب. ولكن افترض أنك وسكاوت رحتما تتكلمان لغة الملونين في البيت هنا: ألن يكون ذلك غير مناسب؟ والآن ماذا إذا تحدثت أنا بلغة البيض في كنيستي؟ ومع جيراني؟ سيظنون أني أتصنّع إلى أقصى حد.

قلت:

ـ ولكنك تعرفين اللغة الصحيحة يا كال.

ـ ليس من الضروري أن يكشف المرء كل ما يعرفه. ليس ذلك مما يليق بالسيدات المحترمات. وثانياً: لا يحب الناس أن يكون إلى القرب منهم شخصاً يعرف أكثر مما يعرفون. إن ذلك ليغضبهم. ولن تستطيعوا أن تغيروا الناس بالتحدث بلغة صحيحة، إن عليهم أن يتعلموها هم أنفسهم وحين لا يريدون التعلم فلا شيء يمكن فعله إلاّ الصمت أو التحدث بلغتهم.

ـ كال، هل يمكن أن آتي لأراك أحياناً؟

نظرت إلي وقالت:

ـ ترينني يا حبيبتي؟ أنت ترينني كل يوم.

قلت:

ـ أعني أزورك في بيتك. ربما بعد ساعات العمل؟ يمكن لأتيكوس أن يذهب ليحضرني.

ـ يمكن ذلك متى رغبت، سيسرنا حضورك.

كنا على الرصيف بالقرب من منزل آل رادلي.

قال جم:

ـ انظري إلى الرواق هناك.

نظرت إلى منزل آل رادلي، وأنا أتوقع رؤية ساكنه الشبحي يأخذ حمام شمس في الأرجوحة. كانت الأرجوحة فارغة.

قال جم:

ـ أعني رواقنا نحن.

نظرت عبر الشارع. وهناك رأيت العمة ألكسندرا: مفتونة ومستقيمة وعنيدة كعادتها، جالسة في الكرسي الهزّاز وكأنها كانت تجلس هناك كل يوم من أيام حياتها.

* * *

الفصل الثالث عشر

كان أول شيء قالته العمة ألكسندرا هو: «ضعي حقيبتي في غرفة النوم الأمامية يا كالبورنيا»، وكان ثاني شيء قالته: «يا جان لويز. توقفي عن حك رأسك».

حملت كالبورنيا حقيبة العمة الثقيلة وفتحت الباب. قال لها جم: «أنا آخذها» وأخذها منها. سمعت الحقيبة وهي تضرب أرض الغرفة بقوة. كان للصوت ديمومة كئيبة.

سألتها:

ـ هل جئت في زيارة؟

كانت زيارات العمة نادرة، كما كانت تسافر في ترف وتمتلك سيارة بويك فخمة خضراء وسائقاً أسود اللون، وكلاهما محفوظان في حالة من النظافة غير صحيّة، ولكني لم أر أيّاً منهما اليوم.

سألتني:

ـ ألم يقل لكما أبوكما؟

هززنا جم وأنا رأسينا.

ـ ربما نسي ذلك. هو لم يرجع بعد، أليس كذلك؟

قال جم:

ـ لا، إنه لا يرجع عادة إلا في أواخر فترة العصر.

ـ حسناً، لقد قررنا، أبوكما وأنا، أنه قد حان الوقت لقدومي للبقاء معكما فترة من الزمن.

وكان عبارة «فترة من الزمن» في مايكوم تعني أية فترة من ثلاثة أيام وحتى ثلاثين سنة. تبادلنا النظرات جم وأنا.

قالت موجهة كلامها إليّ:

ـ جم يكبر الآن وأنت أيضاً. وقد قررنا أنه من الأفضل لكما أن يكون في حياتكما لمسة أنثوية ما. ولن تمرّ سنوات كثيرة يا جان لويز، إلا وتصبحين مهتمة بالملابس والشبان...

كان يمكنني أن أجيب بعدة أجوبة على هذا: فكالبورنيا أنثى مثلاً، وستمر سنوات كثيرة قبل أن أبدأ بالاهتمام بالشبان، ولن أهتم أبداً بالملابس... ولكني بقيت صامتة.

سأل جم:

ـ وماذا عن العم جيمي؟ هل سيأتي هو أيضاً؟

ـ لا، سيبقى في اللاندينغ. لا بدّ من إدارة المكان.

ولحظة أن قلت لها «ألن تفتقديه؟» أدركت أن ذلك لم يكن سؤالاً لبقاً. فقد كان وجود العم جيمي أو غيابه سواء، فهو لا ينطق أبداً. وتجاهلت العمة ألكسندرا سؤالي.

لم أستطع التفكير في أي شيء آخر أقوله لها. وفي الحقيقة لم أستطع أبداً أن أفكر في قول أي شيء لها، وجلست أفكر في الحوارات المؤلمة الماضية التي جرت بيننا: كيف حالك يا جان لويز؟ في أحسن حال، شكراً يا سيدتي، وكيف حالك أنت؟ في أحسن حال، شكراً، ما الذي تفعلينه؟ لا شيء. لا تفعلين شيئاً؟ لا، لا بد أن لك أصدقاء؟ نعم يا سيدتي. إذن ما الذي تفعلينه مع أصدقائك؟ لا شيء.

كان واضحاً أن عمتي تعتقدني غبية إلى أبعد حد، لأني سمعتها تقول مرة لأتيكوس إني بليدة.

كان هناك حكاية وراء ذلك كله، ولكني لم أرغب في انتزاعها منها في ذلك الحين: اليوم هو الأحد وكانت العمة ألكسندرا سريعة الغضب على نحو إيجابي في يوم الرب. وأعتقد أن السبب هو المشدّ (الكورسيه) الذي ترتديه يوم الأحد. لم تكن بدينة وإنما ممتلئة، وكانت تختار ألبسة وقائية تجعل صدرها ينشدّ إلى ارتفاعات تثير الدوار، وتضيّق من خصرها وتوسّع من مؤخرتها، وتنجح في أن توحي بأنه كان للعمة ألكسندرا مرة جسم أشبه بالساعة الرملية. من أية زاوية كان جسمها هائلاً.

مرّت بقية فترة ما قبل المساء ضمن تلك الكآبة اللطيفة التي تهبط حين يظهر الأقرباء، ولكن هذه الكآبة تلاشت حين سمعنا سيارة قادمة. كان ذلك هو أتيكوس الذي عد من مونتغومري. وهاهو جم، ناسياً وقاره، يركض معي للقائه. أمسك جم بحقيبة يده وحقيبة ملابسه، وقفزت أنا إلى ذراعيه، وأحسست بقبلته الجافة الغامضة وقلت: «هل جلبت لي كتاباً؟ هل تعلم أن عمتنا هنا؟».

أجاب أتيكوس على كلا السؤالين بنعم. ثم قال: «ما رأيك لو تأتي عمتك لتعيش معنا؟».

قلت إني أرغب في ذلك كثيراً، وكانت تلك كذبة، ولكن على المرء أن يكذب ضمن ظروف معينة وفي كل الأوقات، وذلك حين لا يكون للمرء حيلة تجاهها.

قال أتيكوس:

ـ لقد شعرنا أن الوقت قد حان وأصبحتما في حاجة أيها الطفلان إلى... حسناً الأمر هكذا يا سكاوت: إن عمتك تقدم لي معروفاً وكلكم كذلك. لا أستطيع البقاء طوال النهار معكم، وسيكون هذا الصيف صيفاً حاراً.

قلت له: «نعم يا سيدي» دون أن أفقه كلمة مما قاله. كانت تسيطر عليّ فكرة أن ظهور العمة ألكسندرا ودخولها المشهد لم يكن من فعل أتيكوس بل من فعلها هي. كان لعمتنا أسلوب تصرح به عما «هو أفضل ما يكون للعائلة» وأعتقد أن قدومها للعيش معنا يدخل ضمن هذا المعيار.

رحبّت بها مايكوم. قامت الآنسة مودي أتكينسون بخبز كعكة أتخمتني، كما قامت الآنسة ستيفاني كروفورد بزيارات طويلة للعمة ألكسندرا، وهي زيارات كانت تقتصر بمجملها على هزّ الآنسة ستيفاني لرأسها وقولها: «هاهه، هاهه». كما دعت الآنسة راشيل، التي تعيش في المنزل المجاور مباشرة، عمتي إلى القهوة في العصريّات، حتى السيد ناثان رادلي وصل به الأمر إلى حد الاقتراب من الفناء الأمامي لمنزلنا وأن يقول إنه سعيد برؤيتها.

وحين استقرت في منزلنا وعادت الحياة إلى مجاريها، بدت العمة ألكسندرا وكأنها كانت تعيش معنا دائماً في المنزل، كان للمأكولات الخفية التي راحت تقدمها في حفلات الجمعية التبشيرية أثرٌ في اكتسابها المزيد من الشهرة كمضيفة. (لم تكن تسمح لكالبورنيا بصنع المآكل اللذيذة المطلوبة لتغذية أفراد الجمعية خلال استماعهم إلى تقارير طويلة عن المسيحيين الطفيليين). كما أنها انضمت إلى نادي مايكوم للكتاب وأصبحت سكرتيرة له. وبالنسبة لكل الأطراف الحاضرة والمساهمة في حياة «المقاطعة»، كانت العمة ألكسندرا واحدة ممن يمثلن آخر من تبقى من سلالتها: فقد كان لديها زورق نهري وسلوك السيدات الراقيات. هات أي نقاش حول الدين والأخلاق وستجدها تدافع عنهما. لقد ولدت في حالة «المفعولية»، كما كانت من مروّجي الإشاعات ومن النوع الذي لا يشفى من هذه

العلة. وحين كانت العمة ألكسندرا تذهب إلى المدرسة، لم تكن تجد الشك بالنفس في الكتب المدرسية، ولذا لم تعرف معناه. لم تعرف في حياتها الملل، وإذا ما مُنحت أقل فرصة فإنها مستعدة لممارسة حقوقها الملَكية: مستعدة للتدبير والنصيحة والتحذير والوعيد.

لم تكن تترك فرصة واحدة تفوتها دون أن تشير إلى عيوب المجموعات القبلية الأخرى بالمقارنة مع مجدنا الأعظم، وهي عادة بعثت التسلية في نفس جم أكثر مما أغاظته: «الأفضل لعمتي أن تنتبه إلى الطريقة التي تتحدث بها: فإن معظم سكان مايكوم أقرباء لنا على أية حال».

قالت عمتي حين أرادت التوكيد على المغزى الأخلاقي لانتحار الشاب «سام مريوذر»، إن انتحاره يعود إلى النزعة السوداوية للعائلة. وإذا ما ضحكت فتاة في السادسة عشرة خلال تلاوة الأناشيد في الكنيسة كانت عمتي تقول: «هذا يظهر لكم أن كل نساء عائلة بنفيلد طائشات». لقد بدا وكأن الجميع في مايكوم يعانون من لوثة ما: لوثة سكر أو لوثة قمار أو لوثة بخل أو لوثة تثير الضحك.

ومرة حين أكدت لنا عمتنا أن ميل الآنسة ستيفاني كروفورد إلى التدخل في شؤون الآخرين كان وراثياً، قال أتيكوس: «يا أختي، حين تتوقفين عن التفكير في ذلك، فإن جيلنا هو عملياً أول جيل من آل فينتش لا يتزوج من أولاد وبنات الأعمام. هل ستقولين إن لآل فينتش لوثة غشيان المحارم؟».

أجابت عمتنا بلا، وقالت إن ذلك هو السبب في أن لنا أيادي وأقداماً صغيرة الحجم.

لم أفهم أبداً سبب انشغالها بالوراثة. ومن مكان ما تلقيت انطباعاً بأن «الناس الأكابر» يتمتعون بحصافة الرأي. ولكن كان للعمة

ألكسندرا رأي، عبرت عنه على نحو غير مباشر، يفيد بأنه كلما بقيت العائلة في بقعة واحدة من الأرض، كانت أسمى وأرفع منزلة.

قال جم: «هذا يجعل آل يوويل من الأكابر أيضاً». فقد كانت هذه القبيلة التي يشكل بوريس يوويل وإخوته جزءاً منها، تعيش في المكان نفسه خلف مقلب قمامة مايكوم، وتتكسب من أحوال الضمان الاجتماعي للمديرية منذ ثلاثة أجيال.

كان لنظرية العمة ألكسندرا قيمة ما على كل حال. فمايكوم كانت بلدة عتيقة. وكانت تبعد عن فينتشز لاندينغ مسافة عشرين ميلاً إلى الشرق، وهي تعتبر بلدة داخلية (غير ساحلية) وهذا محرج بالنسبة لبلدة عتيقة مثلها. كان من المفروض أن تكون مايكوم أقرب إلى النهر لولا ذكاء وبراعة شخص من آل سينكفيلد افتتح نزلاً في فجر التاريخ حيث يلتقي طريقان، وكان ذلك هو النزل الوحيد في المنطقة. وقام سينكفيلد هذا ـ وهو غير وطني ـ بتوريد الذخيرة إلى الهنود والمستوطنين في آن معاً، دون أن يعرف أو يكترث بأن يعرف إن كان هو يعيش في جزء من «مقاطعة ألاباما» أو مقاطعة قبائل «كريك» الهندية طالما كانت تجارته رائجة. وكانت التجارة ممتازة جداً حين أوفد الحاكم «ويليام وايات بيب»، الذي كان يهدف إلى توطيد الأمن المحلي في المقاطعة المنشأة حديثاً، أوفد اثنين من المسّاحين ليحددا أين يقع وبدقة مركز الدائرة من المقاطعة ويؤسسا هناك مركزها الحكومي. وقد قام المسّاحان، اللذان حلاّ ضيفين على سينكفيلد، بإعلامه بأنه موجود ضمن الحدود الإقليمية لمقاطعة مايكوم، وبيّنا له البقعة المحتملة التي سيتم تأسيس المركز الحكومي فيها. ولو لم يقم سينكفيلد بمناورة جريئة للمحافظة على ممتلكاته لكانت بلدة مايكوم قد أقيمت في وسط مستنقع ونستون، وهو مكان خال تماماً من أي تشويق. وبدلاً من ذلك، فقد نمت مايكوم وانتشرت من محورها

الذي كان «نزل سينكفيلد»، لأن سينكفيلد استطاع ذات مساء أن يجعل المسّاحين يثملان إلى درجة قصر النظر، وبالتالي دفعهما إلى إحضار خرائطهما ورسومهما، وبعد قفزة هنا وإضافة هناك، استطاع تعديل موقع مركز المقاطعة بحيث يوافق رغباته. وقد أعادهما في اليوم التالي مسلحين برسومهما وبخمسة كوارتات[1] من الويسكي في أعدلة سرجيهما: كوارتان لكل منهما وواحد للحاكم.

ولأن السبب الأساسي في وجودها كان الحكومة، فإن مايكوم قد أُنقذت من القذارة والفوضى التي كانت تميّز معظم بلدات ولاية ألاباما المشابهة لها في الحجم. في البداية كانت أبنيتها متينة، وكانت دار المحكمة فخمة وضخمة، وشوارعها عريضة تدل على حسن الذوق. وكانت نسبة عدد المهنيين إلى سكانها عالية: فقد كان المرء يجد فيها طبيب أسنان وورشة إصلاح للعربات، وطبيباً ومصرفاً وكنيسة واسطبلاً. ولكن الحكمة المطلقة الكامنة وراء مناورة سينكفيلد أمر مفتوح للنقاش. فقد وضع البلدة الشابة بعيداً جداً عن النوع الوحيد من وسائل النقل العام المتوفر في تلك الأيام، ألا وهو التنقل بالزوارق النهرية: وكان على المرء الآتي من الطرف الشمالي من المديرية أن يمضي يومين من السفر حتى يصل إلى مايكوم ويشتري البضائع من المخازن. ونتيجة لذلك ظل حجم البلدة ثابتاً لمدة مائة عام، جزيرة في بحر مرقّع من حقول القطن والغابات.

ورغم أن مايكوم أُغفلت خلال «الحرب بين الولايات» (الحرب الأهلية الأمريكية) إلا أن قانون «إعادة البناء[2]» والخراب الاقتصادي

---

(1) الكوارت يساوي ربع غالون. (المترجم).

(2) Reconstruction: برنامج إصلاحي بدأ به الرئيس الأمريكي لينكولن خلال الحرب الأهلية. (المترجم)

أجبر البلدة على النمو. وقد نمت باتجاه الداخل. نادراً ما كان أشخاص جدد يستقرون فيها، فقد كانت العائلات تتزوج من العائلات نفسها حتى لقد أصبح سكان البلدة يبدون متشابهين إلى حد ما. أحياناً، كان أحدهم يعود من بلدة مونتغومري أو موبيل مع زوجة غريبة، ولكن ذلك ما كان يسبب سوى موجة صغيرة ضمن التيار الهادئ للتشابه العائلي. لقد بقيت الأمور كما هي تقريباً خلال سنوات طفولتي.

كان نظام الطوائف الاجتماعية موجوداً بالفعل في مايكوم: فالسكان الأكبر سناً، أي الجيل الحالي من الناس الذين عاشوا جنباً إلى جنب لسنوات وسنوات، كانت تصرفات كل منهم من النوع الذي يمكن التنبؤ به من قبل الآخرين: إذ كانوا يسلّمون بمواقف وفروق شخصية وحتى بإيماءات ما على أنها تتكرر في كل جيل وتُصقل مع مرور الزمن. وهكذا فإن الأقوال المأثورة من نوع: «ليس هناك فرد من آل كروفورد غير فضولي» و«بين كل ثلاثة من آل مريووتر واحد سوداوي المزاج» و«الحقيقة ليست في آل ديلافيلد» و«كل آل بوفورد يمشون هكذا». جميع هذه الأقوال المأثورة كانت بكل بساطة دليلاً إلى لحياة اليومية: لا تأخذ شيكاً من واحد من آل ديلافيلد دون أن تتصل بالمصرف على نحو سري؛ إن كتف الآنسة مودي أتكينسون يميل إلى الانحناء لأنها كانت من آل بوفورد بالأصل، وإذا ما كانت السيدة غريس مريوذر ترتشف «الجن» من زجاجات دواء خاص بوجع المفاصل فذلك ليس بالأمر غير العادي: فقد كانت أمها تفعل الشيء نفسه.

تلاءمت العمة ألكسندرا مع عالم مايكوم كما الكفّ مع القفّاز، ولكن ليس مع عالمنا جم وأنا. وغالباً ما كنت أتساءل كيف يمكن لها أن تكون أختاً لأتيكوس والعم جاك وإلى حد أني استعدت حكايات نصف منسية كان جم قد لفقّها منذ زمن طويل عن الأطفال الذين يُستبدلون بغيرهم عند الولادة وعن نبات اليبروح السحري.

تلك كانت تأملات مجردة في الشهر الأول من إقامتها معنا، حيث كان لديها القليل لتقوله لجم أو لي، وحيث كنا نراها عند الوجبات وفي الليل قبل الذهاب إلى الفراش. كان الوقت صيفاً وكنا نقضي الوقت خارج المنزل. طبعاً كنت أحياناً وفي فترة بعد الظهر أركض إلى البيت لأطفئ ظمئي، فأجد غرفة الجلوس وقد غزتها سيدات مايكوم المرتشفات الهامسات المروّحات بالمراوح، وكانت عمتي تناديني قائلة: «يا جان لويز، تعالي وتحدثي إلى هؤلاء السيدات».

حين كنت أظهر عند المدخل، تبدو عمتي وكأنها ندمت على طلبها، فعادة ما أكون ملطخة بالوحل أو معفرة بالتراب.

قالت لي عصر ذات يوم بعد أن أمسكت بي في القاعة:

ـ تعالي تحدثي إلى ابنة خالتك «ليلي».

ـ من؟

ـ ابنة خالتك «ليلي بروك».

ـ أهي ابنة خالتنا؟ لم أكن أعرف ذلك.

ابتسمت العمة ألكسندرا بطريقة نقلت إلى ابنة الخالة ليلي نوعاً من الاعتذار اللطيف ونوعاً من الاستنكار الشديد لي. وحين غادرت ابنة الخالة ليلي بروك البيت عرفت أني تورّطت في المتاعب.

من المحزن أن يكون أبي قد نسي أن يحدثني عن عائلة فينتش ما فيه الكفاية، أو أن يغرس أي اعتزاز في نفوس أولاده. قامت العمة باستدعاء جم الذي كان يجلس باحتراس على الكنبة إلى جانبي. غادرت هي الغرفة ثم عادت تحمل كتاباً ذا غلاف أرجواني وقد طبع عليه بأحرف ذهبية «تأمّلات جوشوا س. سانت كلير».

قالت العمة ألكسندرا:

ـ لقد كتب ابن عمكما هذا الكتاب. لقد كان ذا شخصية جميلة.

تفحّص جم الكتاب الصغير الحجم وقال:

ـ هل هذا هو ابن العم «جوشوا» الذي سجن فترة طويلة؟

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ حسناً، لقد قال أتيكوس إنه جن خلال فترة وجوده في الجامعة. كما قال إنه حاول أن يطلق النار على رئيس الولايات المتحدة وإن ابن العم جوشوا هذا قال عن الرئيس إنه لا شيء سوى مفتش للمجاري، وحاول أن يقتله بمسدس قديم من النوع الذي له زند مصوّن. ولكن المسدس انفجر في يده هو. كما قال أتيكوس إن ذلك كلف العائلة خمسمائة دولار لتخليصه من السجن...

كانت العمة ألكسندرا تقف متيبّسة كطائر اللقلق. قالت:

ـ هذا يكفي. سنرى في هذا الأمر لاحقاً.

وقبل وقت النوم كنت في غرفة جم أحاول أن أستعير كتاباً، حين قرع أتيكوس على الباب ودخل. جلس على حافة سرير جم ونظر إلينا بهدوء ثم ابتسم. تنحنح محاولاً أن يقول شيئاً ما كمقدمة لأشياء أخرى وبصوت نابع من الحلق، وظننت أنه أصبح عجوزاً آخر الأمر، ولكن مظهره لم يكن قد اختلف:

ـ لا أعرف كيف سأقول ما عليّ أن أقوله.

قال جم:

ـ حسناً قل ما تريد. هل ارتكبنا خطأ ما؟

كان أبونا يتململ بعصبية فعلاً. قال:

ـ لا، ولكني أريد أن أشرح لكم أن... عمتكما ألكسندرا قد طلبت مني... يا بني، أنت تعرف أنك من آل فينتش، أليس كذلك؟

ـ هذا ما قيل لي.

قال ذلك جم وهو ينظر نظرة جانبية. كان صوته قد بدأ يرتفع دون أن يستطيع السيطرة عليه. واستأنف:

ـ يا أتيكوس، ما القصة؟

وضع أتيكوس ساقاً فوق ساق ثم طوى ذراعيه وقال:

ـ أحاول أن أقول لكما حقائق الحياة.

ازداد امتعاض جم. ثم قال:

ـ أعرف كل ذلك.

وفجأة أصبح أتيكوس جاداً. فقال بلهجة المحامي ودون أي تغيير في طبقة صوته:

ـ لقد طلبت مني عمتكما أن أحاول وأفهمكما أنت وجان لويز أنكما لستما من الناس العاديين، فأنتما نتاج عدة أجيال من التربية الراقية...

هنا توقف أتيكوس وراقبني وأنا أحاول أن أجد بقّة خيالية على ساقي.

استأنف قائلاً بعد أن وجدتها وسحقتها:

ــ التربية الراقية، وأن عليكما أن تتصرفا بما يليق باسم عائلتكما...

ثابر أتيكوس على الكلام رغماً عنا:

ـ لقد طلبت مني أن أقول لكما إن عليكما أن تتصرفا كما يليق بسيدة صغيرة وبجنتلمان، إذ أنكما تلك السيدة الصغيرة وذلك الجنتلمان. هي تريد أن تتحدث إليكما عن العائلة وما كانت تعنيه لمقاطعة مايكوم خلال الأعوام الطويلة، وبذلك سيكون عندكما فكرة عمّن تكونان، وقد تُدفعان إلى التصرف كما يليق بكما. هكذا أنهى الحديث بسرعة كبيرة.

تبادلنا، جم وأنا، النظرات، ونحن مصعوقان، ثم نظرنا إلى أتيكوس، الذي كان يبدو وكأن قبّته تضايقه. ولم نتحدث إليه.

وللتوّ أمسكتُ بمشط من خزانة جم ومررّت أسنانه على حافتها.

قال أتيكوس:

ـ أوقفي هذه الضجة.

آلمتني فظاظته. كان المشط في منتصف رحلته ورميت به إلى الأرض. ودون سبب شعرت بنفسي أنخرط في البكاء ولكن دون أن أستطيع التوقف. لم يكن ذاك أبي الذي أعرفه. فأبي ما كان ليفكر بمثل تلك الأفكار. أبي ما كان ليتحدث بذاك الأسلوب. لقد أوحت له العمة ألكسندرا بذلك على نحوٍ ما. ومن خلال دموعي رأيت جم غارقاً في بركة مشابهة من العزلة وقد أمال رأسه جانباً.

لم يكن هناك مكان ما ألجأ إليه، ولكني التفتّ أريد الرحيل فقابلت مقدمة صدرية أتيكوس. دفنت وجهي فيها واستمعت إلى الأصوات الداخلية التي كانت تصدر من خلف القماش الأزرق الفاتح: دقات الساعة، والطقطقة الخفيفة لقميصه المنشّى، وصوت تنفّسه الخافت.

قلت له:

ـ معدتك تقرقع.

ـ أعرف ذلك.

ـ الأفضل لك أن تشرب بعض الصودا.

ـ سأفعل.

ـ يا أتيكوس، هل هذا السلوك الحسن وغيره سيجعل الأمور تختلف؟ أعني هل أنك...

أحسست بيده على مؤخرة رأسي. قال:

ـ لا تقلقي على أي شيء. لم يحن وقت القلق بعد.

حين سمعت بذلك، عرفت أنه رجع إلينا. عاد الدم الذي في ساقيّ إلى التدفق مرة أخرى، ورفعت رأسي.

ـ هل تريد منّا حقاً أن نفعل كل ذلك؟ لا أستطيع أن أتذكر كل ما هو مفترض من آل فينتش أن يفعلوه...

ـ لا أريدك أن تتذكّريه. انسيه.

ذهب إلى الباب ثم خرج من الغرفة مغلقاً الباب وراءه. كاد يغلق الباب بعنف، ولكنه تدارك نفسه في اللحظة الأخيرة وأغلقه برفق. وبينما كنا نحدق جم وأنا في الباب، فُتح مرة أخرى وأطل منه أتيكوس. كان حاجباه مرتفعين ونظارتاه قد سقطتا على أنفه وقال:

ـ أبدو كابن العم جوشوا يوماً بعد يوم، أليس كذلك؟ هل تعتقدان أني سأنتهي يوماً إلى أن أكلف العائلة خمسمائة دولار؟.

أعرف الآن ما الذي كان يحاول أن يفعله، ولكن أتيكوس كان رجلاً فحسب، ومثل ذلك العمل كان يتطلب امرأة.

* * *

الفصل الرابع عشر

رغم أننا لم نعد نسمع شيئاً عن عائلة فينتش من العمة ألكسندرا، فقد كنا نسمع عنها الشيء الكثير من سكان البلدة. ففي أيام السبت، حين كنا نتسلح جم وأنا بالقطع النقدية من فئة الخمسة سنتات، ويسمح لي جم بمرافقته (أصبح الآن يتحسس تماماً من وجودي معه في مكان عام)، كنا نمرّ على نحو ملتو من بين الحشود المتعرقة على الأرصفة فنسمع أحياناً: «هذان طفلاه» أو «هاهما اثنان من آل فينتش». وحين كنا نلتفت لنواجه متّهمينا، كنا لا نرى سوى زوجٍ من المزارعين يتفحصان بأعينهما الحقن الشرجية في واجهة صيدلية مايكوم، أو كنا نرى فلاحتين قصيرتين وبدينتين في قبعتين من القش جالستين في عربة هوفر.

«يمكنهم أن ينفلتوا من عقالهم ويغتصبوا الريف كله، ولن تهتم الحكومة، وهي المسؤولة، أبداً»؛ تلك كانت إحدى الملاحظات الغامضة التي سمعناها توجه إلينا مباشرة من شخص نحيل كان يمرّ بنا. وهذا ما ذكرني بأن لديّ سؤالاً أطرحه على أتيكوس.

في تلك الليلة نفسها سألته:

ـ ما هو الاغتصاب؟

نظر أتيكوس من وراء صحيفته، كان يجلس في كرسيه إلى القرب من النافذة. بعد أن كبرنا قليلاً، فكرنا جم وأنا بأنه من الكرم ترك فترة ثلاثين دقيقة يخلو فيها أتيكوس لنفسه بعد العشاء.

تنهد ثم قال إن الاغتصاب هو المعرفة الجسدية لأنثى بالقوة ودون موافقتها.

ـ حسناً، إذا كان هذا كل ما في الأمر فلماذا أخرستني كالبورنيا حين سألتها عن الموضوع؟

بدا أتيكوس متأمّلاً:

ـ أعيدي عليّ ما قلته.

ـ حسناً، لقد سألت كالبورنيا ونحن عائدون من الكنيسة ذلك اليوم عن معنى تلك الكلمة وطلبت مني أن أسألك ولكني نسيت ذلك والآن تذكرت.

أصبحت صحيفته في حجره الآن:

ـ أعيدي علي ما قلته مرة أخرى.

وحكيت له بالتفصيل عن رحلتنا إلى الكنيسة مع كالبورنيا. بدا أتيكوس وكأنه يستمتع بالحكاية، ولكن العمة ألكسندرا، التي كانت جالسة في إحدى الزوايا وهي تطرز بصمت، وضعت تطريزها في حجرها وحدقت فينا.

ـ هل كنتم جميعاً عائدين من كنيسة كالبورنيا يوم الأحد ذاك؟

قال جم:

ـ نعم يا سيدتي، لقد اصطحبتنا إلى هناك.

تذكر شيئاً ما فقلت:

ـ نعم يا سيدتي وقد وعدتني بالذهاب إلى منزلها في عصر أحد الأيام. يا أتيكوس سأذهب يوم الأحد القادم إذا كنت توافق. هل يمكنني ذلك؟ قالت كال إنها ستأتي لتصطحبني إذا كنت ستذهب بالسيارة إلى مكان بعيد.

ـ لن تذهبي.

هذا ما قالته العمة ألكسندرا. التفتّ إليها وأنـا مذهولـة ثم التفـتّ نحو أتيكوس في الوقت المناسب لالتقاط نظرته السريعة إليها، ولكـن كان قد سبق السيف العذل. قلت لها:

ـ أنا لم أوجد سؤالي إليك.

بالنسبة لشخص ضخم مثلـه، كـان أتيكـوس يـستطيع أن ينـهض ويجلس في الكرسي أسرع من أي شخص آخر عرفته في حيـاتي. كـان قد نهض واقفاً على قدميه وقال:

ـ اعتذري من عمتك.

ـ أنا لم أوجه سؤالي إليك، بل إليك أنت...

أدار أتيكـوس رأسـه وسمّـرني إلى الجـدار بعينـه الـسليمة. كـان صوته مميتاً:

ـ أولاً اعتذري من عمتك.

همهمت:

ـ آسفة يا عمتي.

ـ والآن، هيا نوضح هذه المسألة: ستطيعين كالبورنيا وتطيعيـنني وتطيعين عمتك طالما كانت في هذا البيت، هل فهمتِ؟

لقد فهمت. فكرت قليلاً ثم استنتجت أن الطريقـة الوحيـدة الـتي أستطيع بها الانـسحاب مـع بقيـة مـن مـاء الوجـه هـي أن أذهـب إلى الحمام، حيث بقيت هناك فتـرة طويلـة إلى حـد جعلتـهم يظنـون أني كنت مضطرة فعلاً إلى الذهاب إلى هناك. وحين عدت، تريثـت قلـيلاً في الردهة لأسمع جدالاً عنيفاً يجري في غرفة الجلوس. وعـبر البـاب كنت أستطيع مشاهدة جم جالساً على الكنبة ومجلـة كـرة القـدم أمـام وجهه، ورأسه يتحرك كأن صفحاتها كانت تحوي مباراة تنس حيّة.

كانت عمتي تقول:

ـ... عليك أن تفعل شيئاً بالنسبة إليها. لقد تركتَ لها الحبل على الغارب فترة أطول من اللازم يا أتيكوس، أطول من اللازم.

ـ لا أرى أي ضرر في تركها تذهب إلى هناك، فكال ستعتني بها هناك بقدر ما تعتني بها هنا.

من كانت تلك التي يتحدثون عنها؟ غاص قلبي بين ضلوعي: إنها أنا. أحسست بالجدران المنشّاة لسجن من القطن الزهري اللون تطبق عليّ، وللمرة الثانية في حياتي فكرت بالهرب من البيت، وعلى الفور.

ـ أتيكوس، لا بأس في أن تكون طيب القلب، أنت لست بالشخص الصعب، ولكن لديك ابنة وعليك أن تفكر فيها. وهي فتاة تكبر كل يوم الآن.

ـ هذا ما أفكر فيه.

ـ لا تحاول التهرب من الموضوع. عليك أن تواجه المسألة إن آجلاً أو عاجلاً ويمكن أن يكون ذلك هذه الليلة بالذات. لسنا في حاجة إليها الآن.

جاء صوت أتيكوس هادئاً:

ـ ألكسندرا، لن تغادر كالبورنيا هذا المنزل حتى ترغب هي بذلك. قد يكون لك رأي آخر، ولكن ما كان يمكن لي أن أدبر الأمور طوال هذه السنوات لولاها. إنها فرد مخلص من أفراد هذه العائلة وعليك أن تقبلي الأمور كما هي وببساطة. وإلى جانب ذلك يا أختي، فإني لا أريدك أن تجهدي نفسك بالتفكير عنّا... ليس هناك من داع لذلك. لا زلنا في حاجة إلى كال كما كنا دائماً.

ـ ولكن يا أتيكوس...

ـ وغضافة إلى ذلك، فلا أظن أن الطفلين قد تأذيا إطلاقاً من تربيتها لهما. وعلى كل حال، فقد كانت أقسى عليهما في بعض الأمور من أي أمّ، فهي لم يسبق لها أن تركتهما يُفلتان بأي غلطة، كما أنها لم تدلّلهما أبداً شأن المربيات الملّونات البشرة. لقد حاولتْ أن تربيهما وفق فلسفتها الخاصة في الحياة، وفلسفة كال جيدة جداً، وهناك شيء آخر، هو أن الطفلين يحبانها.

تنفّستُ الصعداء. إنهم لا يعنونني أنا، بل كالبورنيا. وبعد أن رُدّت إليّ الحياة دخلت إلى غرفة الجلوس. كان أتيكوس قد التجأ إلى ما وراء صحيفته وكانت العمة ألكسندرا تحاول جاهدة العمل بالتطريز. كانت إبرتها تعمل في الدائرة المشدودة تثقيباً. توقفت وشدّت القماشة أكثر: هاهي تعود إلى لعمل ولكنها ثائرة.

نهض جم وسار عبر السجادة. أشار إلي كي أتبعه. قادني إلى غرفته وأغلق الباب. كان وجهه جديّاً.

ـ لقد تشاجرا يا سكاوت.

كنا جم وأنا نتشاجر كثيراً هذه الأيام، ولكني لم أسمع أبداً ولا رأيت شخصاً يتشاجر مع أتيكوس. لم يكن ذلك بالمشهد المريح.

ـ سكاوت، حاولي ألا تعادي عمتنا، أتسمعينني؟

كانت ملاحظات أتيكوس لا تزال ترنّ في أذني، ممّا جعلني لا ألحظ لهجة الأمر في سؤال جم. ثم انتفض ريشي فجأة:

ـ هل تحاول أن تأمرني بما أفعله؟

ـ لا، ولكن المسألة... هي أن أتيكوس لديه الكثير من المشاغل الآن، وليس علينا أن نقلقه بمشاكلنا.

ـ مثل ماذا؟

لم يكن يبدو على أتيكوس في نظري أنه مشغول بشيء ما على وجه الخصوص.

- إنها قضية توم روبنسون التي تزعجه حتى الموت...

قلت إن أتيكوس ما كان يقلقه أي شيء. وزيادة على ذلك، فإن القضية لم تزعجنا أبداً إلا مرّة بالأسبوع وعلى أية حال لم يكن ذلك الإزعاج من النوع الذي يدوم.

قال جم:

- السبب هو أنك لا تستطيعين الاحتفاظ بشيء ما في ذهنك إلا لفترة قصيرة. أما بالنسبة لنا نحن الكبار فالأمر يختلف، فنحن...

كان ترفّعه الذي يثير الجنون أمراً لا يحتمل في هذه الأيام. لم يكن يرغب في شيء عدا القراءة والانعزال. ومع ذلك فقد كان لا يزال يحكي لي عن كل ما يقرأه، ولكن مع وجود اختلاف في هذه المرة: كان في السابق يظن أني قد أحب ما يقرأ، أما الآن فمن أجل أن يثقّفني ويعلّمني.

- يا للرب يا جم. ومن تحسب نفسك؟

- إني أعني ما أقوله يا سكاوت. إذا عاديت العمة فسوف... سوف أضربك على قفاك.

بعد هذا لم يعد في إمكاني أن أحتمل أكثر من ذلك.

- أيها المخنث الملعون، سأقتلك.

كان جالساً على الفراش وكان من السهل الإمساك به من خصلة شعره الأمامية ولكمه على فمه. صفعني وحاولت أن أكيل له لكمة يسارية أخرى، ولكن لكمة منه في المعدة أرسلتني منبطحة على الأرض. كادت أنفاسي تتقطع، ولكني لم أكترث لأني أدركت أنه كان يعارك، كان يعاركني ويردّ على ضرباتي بمثلها. كنا لا نزال ندّين.

صرخت وأنا أستأنف العراك من جديد:

«لم تعد مترفّعاً وقوياً الآن، أليس كذلك؟». كان ما يزال جالساً على الفراش ولم أستطع أن أتخذ وضعيّة ثابتة، ولذا رميت بنفسي عليه بأقوى ما أستطيع وأنا أضربه وأشد شعره وأقرصه وأخدشه بأظافري. وما بدأ كملاكمة أصبح عراكاً حقيقياً. كنا لا نزال نتعارك حين فصل بيننا أتيكوس.

ـ هذا يكفي. كلاكما إلى النوم فوراً.

عبّرت لجم عن شماتتي به فهو يرسل إلى الفراش في ميعاد نومي أنا.

ـ من الذي بدأ الشجار؟

هكذا سألنا أتيكوس مستسلماً.

ـ إنه جم. كان يحاول أن يأمرني بما عليّ أن أفعله. ولكنني لست مضطرة إلى إطاعته، أليس كذلك؟

ابتسم أتيكوس وقال:

ـ إذن فسنتفق على ما يلي: ستطيعين جم كلما استطاع إقناعك بذلك. هل هذا حل عادل؟

كانت العمة ألكسندرا حاضرة وإنما صامتة، وحين نزلت إلى الردهة مع أتيكوس سمعناها تقول: «... هذا مجرد واحد من الأشياء التي كنت أقولها لك»، وقد جعلنا هذا نتصالح من جديد ونشكل جبهة واحدة.

كانت غرفتانا متلاصقتين يصل بينهما باب، وحين أغلقت الباب الذي بينهما، قال لي جم: «ليلة سعيدة يا سكاوت».

همهمت «ليلة سعيدة» وأنا أشق طريقي عبر الغرفة لأطفئ النور. وحين مررت بالسرير دست على شيء دافئ ومرن بل أملس بالأحرى. لم يكن ذلك الشيء كالمطاط القاسي، وقد تولّد لدي إحساس بأنه حيّ. كما سمعته يتحرك.

أضأت النور ونظرت إلى الأرض قرب السرير. إن ما كنت قد دست عليه قد اختفى. قرعت على باب غرفة جم.

قال:

ـ ماذا؟

ـ كيف يكون ملمس الحية؟

ـ خشنة. باردة. مغبرة. لماذا؟

ـ أعتقد أن هناك حية تحت سريري. هل يمكنك أن تأتي لترى؟

ـ هل تمزحين؟

فتح جم الباب. كان يرتدي بنطال بيجامته. وقد لاحظت، ولكن ليس دون رضا، أن آثار لكماتي لازالت على فمه. وحين رأى أني كنت جادة فيما قلته. قال:

ـ إذا كنت تظنين أني سأدس بوجهي أمام حيّة، فلا شك أنك مخطئة. انتظري لحظة.

ذهب إلى المطبخ وأحضر المكنسة. قال:

ـ الأفضل أن تصعدي إلى السرير.

سألته:

ـ هل تعتقد أن هناك حية فعلاً؟

كان ذلك محتملاً، فقد كانت منازلنا دون أقبية، وكانت مبنية فوق أساسات من الحجر لا ترتفع إلا بضعة أقدام عن الأرض، وكان دخول الزواحف ليس بالأمر غير الوارد وإن يكن ليس شائعاً. إن العذر الذي تقدمه الآنسة راشيل هافرفورد لتناولها كأساً من الويسكي غير الممزوج كل صباح كان أنها لم تستطع أبداً أن تتغلب على خوفها من أن تجد حية ذات جرس وقد التفت حول نفسها في خزانة غرفة النوم، أو على غسيلها حين تذهب لتنشر قميصها الداخلي.

قام جم بحركة تجريبية مسح بها بالمكنسة ما تحت السرير. ونظرت إلى نهاية السرير لأرى إن كانت هناك حية ستخرج. لم يخرج شيء. قام جم بحركة مسح أعمق.

ـ هل تَنْخر الحيّات؟

قال جم:

ـ إنها ليست حية بل شخص ما.

وفجأة انطلقت رزمة قذرة بنية اللون من تحت السرير. رفع جم المكنسة وضرب بها ولكنه أخطأ رأس «ديل» بمقدار بوصة حين لاح ذاك من تحت السرير. ثم صاح:

ـ يا للرب العظيم!

راقبنا ديل وهو يخرج بالتدريج. كان الفراغ تحت السرير قد جعله يحشر نفسه حشراً هناك. نهض ثم هدل كتفيه وأدار قدميه ضمن تجويفي كاحليه، وحك مؤخرة عنقه. وبعد أن عادت دورته الدموية إلى حالها، قال: «مرحباً».

تضرع جم إلى الله مرة أخرى. أما أنا ففقدت النطق.

قال ديل:

ـ أكاد أموت. هاتوا أي شيء يؤكل.

وكمن في حلم ذهبت إلى المطبخ وجلبت له بعض الحليب ونصف رغيف من خبز الحنطة بقي من وجبة العشاء. التهم ديل الطعام التهاماً وهو يمضغه بأسنانه الأمامية كما هي عادته.

وأخيراً وجدت صوتي فقلت له:

ـ كيف وصلت إلى هنا؟

وبطريقة ملتوية وبعد أن أعاد الطعام إليه بعض الحياة، بدأ ديل يقص علينا حكايته: فبعد أن قُيِّد بالسلاسل وترك ليموت في القبو (في بلدة ميريديان توجد أقبية للمنازل) من قبل أبيه الجديد الذي كان يكرهه، وبعد أن تم إبقاؤه على قيد الحياة بواسطة حبات البازلاء النيئة التي رماها إليه مزارع سمع استغاثاته (لقد قام الرجل الطيب برمي قرون البازلاء له عبر مروحة التهوية وذلك عن طريق دسها واحداً إثر آخر)، فقد استطاع ديل أن يحرّر نفسه من قيوده بانتزاع السلسلة من الجدار. وقد تجوّل مسافة ميلين خارج بلدة ميريديان ولازالت أساور القيد في معصميه، حتى صادف فرقة استعراض صغيرة للحيوانات ووجد عملاً على الفور، ألا وهو غسل الجمل. وقد سافر مع هذه الفرقة عبر كل الميسيسبي حتى أنبأته حاسته في التوّجه، والتي لا تخطئ أبداً، بأنه أصبح في مقاطعة أبوت، ألاباما، وأن ما يكوم تقع عبر النهر مباشرة. وقد مشى بقية الطريق.

سأله جم:

ـ كيف وصلت إلى هنا؟

كان قد أخذ ثلاثة عشر دولاراً من حافظة نقود أمه، ولحق بقطار الساعة التاسعة المتوجه من ميريديان ونزل منه عند نقطة اتصال مايكوم، ثم مشى مسافة عشر أو أحد عشر ميلاً من الأميال الأربعة عشر التي هي المسافة حتى مايكوم، ولكن بعيداً عن الطريق العام وبين الشجيرات الخفيضة حتى لا تطارده الشرطة، كما أنه ركب بقية الطريق متعلقاً باللوح الخلفي لعربة قطن. إنه تحت السرير منذ ساعتين كما يظن، وقد سمعنا حين كنا في غرفة الطعام، وكاد رنين الشوكات والصحون أن يجعله يصاب بالجنون. لقد ظن أننا، جم وأنا، لن نؤوي أبداً إلى فراشنا، كما أنه درس موضوع الخروج ومساعدتي

على التغلّب على جم حين تشاجرنا، حيث أن جم قد أصبح أطول بكثير، ولكنه كان يعلم أن السيد فينتش سيظهر في أية لحظة، وفكر في أنه من الأفضل له البقاء حيث كان. كان مرهقاً وقذراً إلى حد لا يصدق ودون مأوى.

قال جم:

ـ يجب أن يعرفوا أنك هنا. وسنعرف على أية حال إن كنوا يبحثون عنك..

ابتسم ديل وقال:

ـ أعتقد أنهم ما يزالون يبحثون عني في كل دور السينما في ميريديان.

ـ يجب أن تخبر أمك عن مكانك، يجب أن تعرف أنك هنا...

التمعت عينا ديل وهو ينظر إلى جم، فنظر جم إلى الأرض. ثم وقف جم وحطّم ذلك العرف المتبقي من طفولتنا، إذ خرج من الغرفة وهبط إلى الردهة وسمعنا صوته ينادي من بعيد:

ـ أتيكوس، هل يمكنك أن تأتي إلى هنا يا سيدي؟

وتحت القذارة التي جعلها العرق في خطوط، شحب وجه ديل. أحسست بالغثيان. كان أتيكوس عند الباب الآن.

وصل إلى منتصف الغرفة وتوقف ويداه في جيبيه، وهو ينظر إلى ديل. وأخيراً وجدت صوتي فقلت:

ـ لا بأس يا ديل. حين يريدك أن تعرف شيئاً فهو يقوله لك.

نظر ديل إلي فقلت:

ـ أعني أنه لا بأس. أنت تعرف أنه لن يزعجك، وتعرف أنك لا تخاف من أتيكوس.

همهم ديل:

- لست خائفاً...

- جائع فحسب، وأراهن على ذلك.

هكذا جاء صوت أتيكوس جافاً ولطيفاً كعادته، واستأنف قائلاً:

- يا سكاوت، لدينا ما هو أفضل من رغيف من خبز الحنطة، أليست كذلك؟ أطعمي هذا الشخص حتى يشبع، وحين أعود سأرى ما سنفعله.

- سيد فينتش، لا تخبر الآنسة راشيل، لا تجعلني أرجع إليهم، أرجوك يا سيدي. وإلا سأهرب مرة أخرى...

قال أتيكوس:

- هوّن عليك يا بني. لن يجعلك أي شخص تذهب إلى أي مكان سوى إلى الفراش وسريعاً جداً. كل ما سأفعله هو أني سأقول للآنسة راشيل إنك هنا وأطلب منها أن تسمح لك بالمبيت عندنا الليلة. هذا ما تريده، أليس كذلك؟ وأرجوك أن تعيد إلى أرض المقاطعة ما أخذته منها، فتآكل التربة الطبيعي فيه ما يكفي من الأذى بحد ذاته.

حدّق ديل في شخص والدي المنسحب من الغرفة.

قلت:

- إنه يحاول أن يبدو مضحكاً. إنه يعني أن عليك أن تستحم. هل رأيت؟ لقد قلت لك إنه لن يزعجك.

كان جم واقفاً في إحدى زوايا الغرفة وعلى وجهه علائم الخيانة. قال:

- ديل، كان عليّ أن أخبره. لا يمكنك أن تهرب مسافة ثلاثمائة ميل دون معرفة أمك.

تركناه دون أن نضيف كلمة واحدة.

أكل ديل ثم أكل وأكل. لم يكن قد أكل شيئاً منذ الليلة الماضية. فقد استعمل كل ما كان لديه من نقود ليشتري بها تذكرة القطار، وقد ركب القطار كما اعتاد أن يفعل مرات عديدة، وتبادل أطراف الحديث مع المفتش بكل برود، وكان ديل بالنسبة للمفتش منظراً مألوفاً، ولكنه لم يجرؤ على طلب تنفيذ النظام الخاص بالأطفال الصغار المسافرين وحدهم لمسافات طويلة: إذا كنت قد فقدت نقودك فإن على المفتش أن يقرضك بعض المال لتتناول الطعام وسيعيد أبوك إليه المال في المحطة.

كان ديل قد انتهى من تناول بقايا الطعام وكان يريد الوصول إلى علبة من لحم الخنزير والفاصولياء موجودة في حجرة حفظ الأطعمة حين انطلق صوت الآنسة راشيل في الردهة: «يا للمسيح!» وارتجف هو كأرنب.

وقد تجلّد حين قالت: «انتظر حتى أوصلك إلى البيت. أهلك قد جنّوا عليك». وكان هادئاً خلال نطقها لـ: «إن كل ما ورثته من عائلة هاريس يخرج الآن منك»؛ وابتسم حين أردفت: «أعتقد أن بإمكانك المبيت هنا ليلة واحدة» وعانقها حين عانقته أخيراً.

رفع أتيكوس نظارتيه إلى الأعلى وفرك وجهه.

قالت العمة ألكسندرا:

ـ أبوكما متعب.

وكانت تلك أول كلمات تتلفظ بها العمة ألكسندرا منذ ساعات كما بدا لي. كانت هناك، ولكنها كانت صامتة معظم الوقت.

ـ هيا إلى الفراش أيها الأطفال.

غادرناهم وهم في غرفة الطعام، وكان أتيكوس لازال يمسح وجهه. سمعناه يضحك وهو يقول: «من الاغتصاب إلى الشغب إلى الفارين من بيوتهم وأتساءل عما ستجلبه يا ترى الساعتان التاليتان».

وبما أن الأمور سارت في أحسن حال، فقد قررنا ديل وأنا أن نكون لطيفين مع جم. وزيادة عليه، فقد كان على ديل أن ينام معه، إذن لا بأس من التحدث إليه.

ارتديت بيجامتي وقرأت لفترة ثم وجدت نفسي فجأة غير قادرة على إبقاء عينيّ مفتوحتين. كان ديل وجم هادئين الآن، وحين أطفأت مصباح القراءة لم يكن هناك شعاع من الضوء يتسلل من تحت الباب المؤدي إلى غرفة جم.

لا بد وأني كنت قد غفوت لبعض الوقت، لأني حين قُرصت لأستيقظ كان ضوء القمر الغارب ينيرها بخفوت.

ـ تزحزحي قليلاً يا سكاوت.

همهمت:

ـ يظن أنه كان من واجبه أن يفعل ما فعله. اغفر له.

دخل ديل السرير وتمدد بالقرب مني. قال:

ـ لست غاضباً منه، ولكني أردت أن أنام إلى جانبك. هل استيقظتِ تماماً؟

في ذلك الحين كنت قد استيقظت تماماً، ولكن بكسل.

ـ لماذا فعلتَ ما فعلته؟

لا جواب.

ـ قلت لماذا هربت؟ هل كان كريهاً كما تقول؟

ـ لا...

ـ ألم تبنيا الزورق كما كتبت لي؟

ـ قال إننا سنبنيه. ولكننا لم نفعل.

استندت على مرفقي مواجهة طيف ديل:

ـ ليس ذاك سبباً كافياً للهروب. إنهم لا ينجزون عادة نصف ما يعدون بإنجازه...

ـ لم يكن ذاك هو السبب، بل لأنهما ما كانا يهتمان بي.

وكان ذلك أغرب سبب للهروب سمعته في حياتي.

ـ وكيف ذلك؟

ـ حسناً، كانا يغادران البيت معظم الوقت، وحين يعودان، كانا يدخلان غرفتهما ويبقيان وحدهما.

ـ وما الذي كنا يفعلانه هناك في غرفتهما؟

ـ لا شيء، يجلسان ويقرآن فحسب، ولكنهما لم يكونا يريدانني معهما.

دفعت الوسادة إلى اللوح الرأسي للسرير وجلست:

ـ أتعلم ماذا؟ لقد كنت أفكر في الهروب هذه الليلة لأنهم كانوا جميعاً هنا. هل حقاً تريدهما معك طوال الوقت يا ديل؟

تنّهد ديل بصبر نصف تنهيدة.

ـ ليلة سعيدة، فأتيكوس يغيب طوال النهار وأحياناً إلى منتصف الليل وقد يغيب أياماً لدى برلمان الولاية وغيره... أنت لا تريدهما معك طوال الوقت. يا ديل، لا يمكنك أن تفعل شيئاً إذا كانا معك طوال الوقت.

ـ ليس الأمر كذلك.

وحين بدأ ديل يشرح وجهة نظره، شعرت أني أتساءل بيني وبين نفسي عن ماهية الحياة لو أن جم كان يختلف عما هو عليه، وحتى عما هو عليه الآن: ما الذي كنت سأفعله يا ترى لو أن أتيكوس لم

يشعر بضرورة وجودي ومساعدتي ونصيحتي؟ عجباً، إنه لا يستطيع أن يتدبر أموره يوماً واحداً من دوني. وحتى كالبورنيا لا تستطيع أن تدبر أمورها ما لم أكن موجودة. إنهما يحتاجان إلي.

- ديل، أنت لا تقول لي الحقيقة: لا يمكن لأسرتك أن تعيش دونك. لا بد أنهما خسيسان معك. هل أقول لك ما تفعله معهما...

تابع ديل بصوته الثابت نفسه في الظلام:

- المسألة هي، إن ما أحاول أن أقوله هو... إنهما يكونان في حال أفضل بدوني، ولا أستطيع أن أقدم لهما شيئاً. إنهما ليسا خسيسين، فهما يشتريان لي كل ما أريد، ولكن المسألة هي كما يلي: «الآن بعد أن حصلت على ما تريد اذهب والعب به وحدك... لديك غرفة مليئة بكل الأشياء. لقد أحضرت لك بذا الكتاب فاذهب وطالعه».

هنا حاول ديل أن يعمّق صوته وتابع قائلاً:

- «لستَ صبياً. الصبيان يخرجون ليعلبوا البيسبول مع الصبيان الآخرين. إنهم لا يبقون في المنزل ليزعجوا أسرتهم».

عاد ديل الآن إلى صوته الحقيقي:

- لا، ليسا خسيسين. إنهما يقبلانك ويعانقانك عند النوم وعند الاستيقاظ في الصباح وعند الوداع ويقولان لك إنهما يحبانك: يا سكاوت هيا نحصل على طفل.

- من أين؟

كان هناك رجل سمع به ديل ولديه زورق كان يجدف به حتى يصل إلى جزيرة ضبابية حيث كل الأطفال هناك، ويمكن للمرء أن يطلب منه طفلاً...

ـ هذا كذب.. عمتي قالت إن الله يسقطهم عبر المدخنة. على الأقل هذا ما أعتقد أنها قالته. في تلك المرة الواحدة لم يكن أسلوب عمتي واضحاً جداً.

ـ حسناً، المسألة ليست كذلك. الناس تحصل على الأطفال من بعضها البعض. ولكن هذا الرجل... لديه كل الأطفال المنتظرين مَنْ يوقظهم، إنه ينفخ فيهم الحياة...

غفا ديل مرة أخرى. طفت أشياء جميلة حول رأسه الحالم. كان أسرع مني بالقراءة مرتين. ولكنه كان يفضل سحر اختراعاته هو. كان يستطيع أن يجمع ويطرح أسرع من البرق، ولكنه كان يفضل عالمه الشفقي الخاص به، عالماً ينام فيه الأطفال، منتظرين أن يُقطفوا كما ليلك الصباح. كان يتحدث مع نفسه ببطء حتى ينام وكان يجرّني أنا أيضاً معه، ولكن في هدوء جزيرته الضبابية برزت صورة باهتة لمنزل رمادي له أبواب بنية حزينة.

ـ ديل؟

ـ هم...؟

ـ لماذا في رأيك لم يحاول بو رادلي الهروب أبداً؟

تنهد ديل تنهيدة طويلة ثم أدار ظهره إليّ.

ـ ربما ليس لديه مكان يهرب إليه...

* * *

الفصل الخامس عشر

بعد مكالمات هاتفية كثيرة، والكثير من الدفاع عن المتهم، ورسالة غفران طويلة من أمه، فقد تقرر أن ديل يستطيع المكوث. تمتعنا بأسبوع من الهدوء معاً. وبعد ذلك بقليل كما بدا، حل علينا كابوس.

بدأ ذلك في إحدى الأمسيات بعد العشاء. كان ديل معنا، والعمة ألكسندرا في كرسيها في الزاوية، وأتيكوس في كرسيه، أما أنا وجم فقد كنا على الأرض نقرأ. كان أسبوعاً هادئاً: فقد أطعت فيه عمتي، كما كان جم قد أصبح أكبر من أن يصعد إلى كوخ الشجرة، ولكنه ساعدنا ديل وأنا على إنشاء سلم جديد من الحبال له. كان ديل قد اهتدى إلى خطة مضمونة لجعل بو رادلي يخرج من دون أي ثمن. (سيضع أثراً طويلاً من نقاط الليمون من الباب الخلفي إلى الفناء الأمامي وسيتبعه بو كنملة). سمعنا قرعاً على الباب الأمامي، وقام جم بفتح الباب ثم قال إن السيد هك تيت قد وصل.

قال أتيكوس:

ـ حسناً، قل له أن يدخل.

ـ لقد سبق وفعلت. ولكن هناك بعض الرجال في الفناء في الخارج، وهم يريدون منك الخروج.

في مايكوم، يقف الرجال الراشدون خارجاً في الفناء الأمامي لسببين لا ثالث لهما: الموت والسياسة. وتساءلت عمن يكون قد مات يا ترى. ذهبنا جم وأنا إلى الباب الأمامي، ولكن أتيكوس صاح: «عودا إلى الداخل».

أطفأ جم أنوار غرفة الجلوس وألصق أنفه بالحاجز المنخلي للنافذة. احتجت العمة ألكسندرا، لكنه قال لها: «لحظة واحدة يا عمتاه. أريد أن أرى من هم».

احتللنا ديل وأنا نافذة أخرى. كانت هناك جمهرة من الرجال يتحلقون حول أتيكوس، وبدوا وكأنهم يتحدثون جميعاً في وقت واحد.

كان السيد تيت يقول:

ـ... سننقله إلى سجن المديرية غداً. لا أريد أية مشاكل، ولكني لا أستطيع أن أضمن عدم حدوثها...

قال أتيكوس:

ـ لا تكن أحمق يا هك، هذه مايكوم.

ـ قلت إني قلق لا غير...

ـ هك، لقد حصلنا على تأجيل واحد لهذه القضية حتى نضمن عدم وجود ما نقلق بشأنه. اليوم هو السبت. ستبدأ المحاكمة الاثنين على الأرجح. بإمكانك أن تبقيه ليلة واحدة، أليس كذلك؟ لا أعتقد أن هناك شخصاً واحداً في مايكوم سيضنّ علي بزبون واحد، في هذه الأوقات العصيبة إلى هذا الحد.

كانت هناك همهمة استحسان صمتت فجأة حين قال السيد لينك ديس:

ـ لا أحد هنا يريد أن يثير أية مشاكل، ولكن ما يقلقني هو عصابة أولد ساروم... ألا يمكنك يا هك الحصول على تلك التي تسمى... ماذا تسمى؟

قال السيد تيت:

ـ نقل المحاكمة إلى بلدة أخرى. لم يعد ذلك ممكناً الآن، أليس كذلك؟

قال أتيكوس شيئاً غير مسموع. التفتّ نحو جم الذي لوّح لي أن أصمت.

كان أتيكوس يقول:

ـ.. وإلى جانب ذلك، لستم خائفين من تلك العصابة، أليس كذلك؟

ـ... أنت تعرف كيف يتصرفون حين يكونون ثملين.

قال أتيكوس:

ـ إنهم لا يشربون يوم الأحد عادة، بل يذهبون إلى الكنيسة ويقضون معظم اليوم فيها..

قال أحدهم:

ـ هذه مناسبة خاصة على أية حال...

همهموا وغمغموا حتى قالت العمة إن على جم أن يشعل أنوار غرفة الجلوس وإلا فإنه سيُخزي العائلة. ولكن جم لم يسمعها.

ـ... لا أرى السبب في أنك أخذت هذه القضية على عاتقك.

كان المتحدث هو السيد لينك ديس الذي تابع الكلام قائلاً:

ـ ستخسر كل شيء من جراء هذه القضية يا أتيكوس. أعني كل شيء فعلاً.

ـ هل تعتقد ذلك فعلاً؟.

كان ذلك هو سؤال أتيكوس الخطير. «هل تعتقدين فعلاً يا سكاوت أنك تريدين الانتقال بحجرك إلى هناك؟» ثم طاخ طاخ ويتم اجتياح جميع حجارتي من على رقعة الداما. «هل تعتقد ذلك فعلاً يا بني؟ اقرأ هذا إذن». وكان على جم أن يكافح بقية المساء وهو يقرأ خطابات هنري و. غرادي.

كان صوت أتيكوس هادئاً وهو يقول:

ـ يا لينك، قد يذهب ذاك الشاب إلى الكرسي[1]، ولكنه لن يذهب إليه حتى تقال الحقيقة. وأنت تعرف ما هي الحقيقة.

كانت هناك همهمة بين مجموعة الرجال، وأصبحت أكثر إنذاراً بالسوء حين تراجع أتيكوس نحو آخر درجة في السلم الأمامي واقترب الرجال منه أكثر.

وفجأة صاح جم: «أتيكوس، الهاتف يرن»..

قفز الرجال قليلاً ثم انتشروا. كانوا أناساً نراهم كل يوم: تجاراً ومزارعين من سكان البلدة. وكان هناك الدكتور رينولدز والسيد آفري أيضاً.

صاح أتيكوس:

ـ حسناً ارفع السماعة وأجب.

ضحك الجميع متفرقين، وحين أضاء أتيكوس أنوار السقف في غرفة الجلوس وجد جم عند النافذة، شاحباً عدا علامة حمراء على أنفه تركها الشريط المنخلي.

سألنا:

ـ لماذا يا ترى تجلسون جميعاً في الظلام؟

راقبه جم وهو يذهب إلى الكرسي ويمسك بجريدة المساء. أعتقد أحياناً أن أتيكوس قد أخضع كل أزمة من أزمات حياته إلى تقييم هادئ خلف صحيفة «موبيل ريجيستر» و«برمينغهام نيوز» و«مونتغومري أدفرتايزر».

---

(1) يعني الكرسي الكهربائي. (المترجم).

قال له جم:

ـ إنهم يلاحقونك، أليس كذلك. يريدون النيل منك، أليس كذلك؟

أنزل أتيكوس جريدته وحدق في جم، ثم سأله: «ما الذي كنت تقرؤه؟» ثم قال بلطف: «لا يا بني. أولئك كانوا أصدقاءنا».

ـ ألم تكن تلك عصابة؟

كان جم ينظر شزراً.

حاول أتيكوس جاهداً أن يبتسم ولكنه لم ينجح. قال: «لا، ليس لدينا غوغاء أو ما شابه في مايكوم. في حياتي كلها لم أسمع بوجود عصابة في مايكوم».

ـ لقد لاحقت عصابة «كوكلاكس» الكاثوليك في إحدى المرات.

ـ لم أسمع بوجود الكاثوليك في مايكوم أيضاً. وإنك تخلط الأمور ببعضها. في الماضي، أي في حوالي عام 1920 كانت هناك «عصابة»، ولكنها كانت تنظيماً سياسياً أكثر من أي شيء آخر. وإضافة لإلى ذلك، فإنها لم تجد من ترهبه. وقد قاموا باستعراض في إحدى الليالي قرب منزل السيد سام ليفي، ولكن سام وقف على رواقه وقال لهم إن الأمور قد وصلت إلى حالة سيئة. لقد احتال عليهم ثم جعلهم يخجلون من أنفسهم إلى حد أنهم رحلوا بعيداً.

كانت تنطبق على عائلة «ليفي» كافة معايير «الناس الأكابر»: فقد كانوا يتمتعون بالحدس السليم إلى أكبر حد ممكن، كما كانوا يعيشون على قطعة الأرض نفسها في مايكوم منذ خمسة أجيال.

قال أتيكوس:

ـ لقد رحلت عصابة كوكلاكس، ولن تعود أبداً.

مشيت مع ديل حتى منزل الآنسة راشيل ثم عدت في الوقت الملائم لأسمع أتيكوس وهو يقول لعمتي: «... لصالح المرأة الجنوبية بقدر ما هو لصالح أي شخص، ولكن لا يمكن تفضيل الخيال الروائي اللطيف على حياة بشرية». وكان ذلك تصريحاً جعلني أشك في أنهما كانا يتشاجران مرة أخرى.

بحثت عن جم فوجدته في غرفته على السرير غارقاً في التفكير. سألته:

ـ هل يتشاجران؟

ـ نوعاً ما، إنها لا تتركه وشأنه بالنسبة لقضية توم روبنسون، كادت تقول إن أتيكوس يخزي اسم العائلة. يا سكاوت... أنا خائف.

ـ لماذا أنت خائف؟

ـ خائف على أتيكوس. قد يسبب له شخص ما الأذى.

كان جم يفضل أن يبقى مبهماً، وكان كل ما أجاب به على أسئلتي أن أدعه بحاله وأنصرف لشؤوني.

كان اليوم التالي يوم أحد. في الفترة ما بين «مدرسة الأحد» ووقت الصلاة في الكنيسة حين كانت الرعية تمدّ سيقانها وترتاح، رأيت أتيكوس واقفاً في فناء الكنيسة مع مجموعة أخرى من الرجال. كان السيد هك تيت حاضراً وتساءلت في نفسي إن كان قد نزل عليه وحي من الرب، فقد كان لا يذهب إلى الكنيسة أبداً. وحتى السيد أندروود كان هناك. وهذا السيد أندروود لم يكن يمارس أي نشاط في أية مؤسسة عدا صحيفة «مايكوم تريبيون» التي كان هو مالكها ومحررها وعامل طباعتها الأوحد. كان ينفق أيامه على منضدة الطباعة، حيث كان ينعش نفسه بين الحين والآخر من وعاء من خمر الكرز من سعة غالون واحد موجود دائماً أمامه. كان نادراً ما يجمع الأخبار فقد كان الناس يحضرونها إليه. ويقال إنه ألّف كل إصدار

لصحيفته «مايكوم تريبيون» من رأسه وسجّله على منضدة الطباعة. وكان ذاك أمراً يمكن تصديقه. ولكن شيئاً ما قد حدث حتى جعل السيد أندروود يخرج من مكتبه.

اجتمعت بأتيكوس وهو يدخل في الباب. قال إنهم قد نقلوا توم روبنسون إلى سجن مايكوم. كما قال مخاطباً نفسه أكثر مما كان يخاطبني إنه لو تم احتجازه في سجن مايكوم منذ البداية لما حدثت أية مشاكل. رأيته يجلس على مقعده في الصف الثالث من الأمام، وسمعته يدمدم ترتيله «أقرب إليك يا ربي»، متأخراً عن بقيتنا عدة أبيات. لم يكن يجلس معنا أبداً، أي مع العمة وجم وأنا. كان يحب أن يكون وحده في الكنيسة.

كان السلام المصطنع الذي يسود أيام الأحاد يصبح أكثر إزعاجاً مع وجود العمة ألكسندرا، فأتيكوس يهرب إلى مكتبه بعد الغداء مباشرة، حيث كنا نجده أحياناً إذا لحقنا به جالساً في كرسيه الدوار يطالع، والعمة ألكسندرا تنام ساعتين في فترة بعد الظهر وتتحدّانا أن نقوم بأية ضجة في الفناء، فالحيّ كلّه في حالة راحة، كما كان جم في أيام «شيخوخته» الآن يأوي إلى غرفته مع كومة من مجلات كرة القدم. ولذا كنت أنفق أيام الأحد مع ديل نلعب بصمت في «مرعى الغزلان».

كان الصيد محظوراً أيام الآحاد، لذا كنت ألعب مع ديل بكرة القدم الخاصة بجم حول المرعى لفترة، ولم يكن في ذلك متعة ما.

سألني ديل إذا كنت راغبة في تسديد وكزة ما إلى «بو ردلي». قلت إني لا أظن أنه من اللائق إزعاجه، وقضيت بقية فترة العصر أحكي لديل عن حوادث الشتاء الفائت. وقد تأثر تماماً بما حكيته له.

انفصلنا عند وقت العشاء، وبعد تناول الوجبة كنا جم وأنا قد حضّرنا نفسينا لقضاء أمسية روتينية، حين قام أتيكوس بعمل أثار اهتمامنا: دخل غرفة الجلوس حاملاً سلكاً كهربائياً طويلاً وفي نهايته مصباح كهربائي.

قال:

ـ سأخرج لبعض الوقت. حين أعود ستكونون نائمين، لذا أقول لكم «ليلة سعيدة» منذ الآن.

وبعد أن قال ذلك وضع قبعته على رأسه وخرج من الباب الخلفي. قال جم: «إنه يأخذ سيارته».

كان لأبينا بعض التصرفات الغريبة: منها مثلاً أنه لا يأكل الحلوى أو الفاكهة بعد الطعام، ومنها أيضاً أنه كان يحب المشي. وحسب ما أتذكر فإنه كانت هناك سيارة «تشيفروليت» في حالة جيدة في مرآب المنزل، وكان أتيكوس يستعملها كثيراً حين يسافر بغرض العمل، ولكنه كان يمشي في مايكوم من المنزل إلى المكتب أربع مرات في اليوم قاطعاً حوالي الميلين سيراً على الأقدام. قال إن المشي هو رياضته الوحيدة في مايكوم، إذا تمشى المرء دون هدف محدد في ذهنه، فقد كان يعتقد أن عقل هذا الشخص قاصر.

فيما بعد تمنيت لعمتي ولأخي «ليلة سعيدة»، وكنت قد انهمكت في قراءة أحد الكتب حين سمعت جم يخشخش في غرفته. كانت الضجة التي يحدثها عادة حين يريد النوم مألوفة جداً لديّ، ولكن هذه كانت مختلفة. قرعت على بابه وسألته:

ـ لم لا تريد أن تأوي إلى فراشك؟

ـ سأنزل إلى البلد لفترة.

كان يغيّر بنطاله.

ـ لماذا؟ الساعة العاشرة تقريباً يا جم.

كان يعرف ذلك، ولكنه كان يود الرحيل على أية حال.

ـ إذن، سأذهب معك وافقت أم لم توافق، هل تسمعني؟

رأى جم أن عليه أن يقاتلني حتى يبقيني في المنزل، وأعتقد أنه ظن أن الشجار قد يثير غضب عمتي، ولذا استسلم ولكن بقليل من الكياسة.

ارتديت ملابسي بسرعة. انتظرنا حتى أطفأت عمتي نور غرفتها، ثم هبطنا الدرج الخلفي بهدوء. لم يكن هناك قمر في تلك الليلة.

همست:

- سيرغب ديل في القدوم أيضاً.

قال جم بكآبة:

- حسناً.

قفزنا عبر جدار الممر، وتجاوزنا فناء منزل الآنسة راشيل الجانبي. مضينا نحو شباك ديل. صفّر جم مقلداً صوت الحجل. ظهر وجه ديل عند الحاجز المنخلي، ثم اختفى، وبعد دقائق خمس، رفع مزلاج الحاجز المنخلي وزحف خارجاً. وبما أنه كان جندياً قديماً محنكاً، فهو لم يتحدث حتى أصبحنا على الرصيف. قال:

- ما الحكاية؟

- إن جم مصاب بمرض «الفضول»، وهو مرض تقول كالبورنيا إن كل الصبيان في سنه يصابون به.

- كل ما في الأمر أن لديّ إحساساً خاصاً، إحساساً خاصاً.

مررنا قرب منزل السيدة دويوز، الذي كان ينتصب هناك فارغاً مغلق المصاريع، وقد نمت شجيرات الكاميليا ضمن الأعشاب الضارة وأعشاب الجونسون. كان هناك ثمانية منازل أخرى حتى نصل إلى زاوية مكتب البريد.

كان الطرف الجنوبي من الساحة مهجوراً. وعند كل زاوية انتصبت شجيرات «لغز القرد»، وبينها مربط الدواب المعدني يلتمع

تحت أنوار الشارع. كان النور يلتمع في دورة المياه العامة، وخلافه كانت دار المحكمة معتمة. كانت ساحة من المخازن كبيرة تحيط بساحة دار المحكمة الأصغر، ومن أعماقها كانت أنوار خافتة ترسل بصيصاً ضعيفاً.

كان مكتب أتيكوس ضمن دار المحكمة حين بدأ بممارسة المحاماة، ولكنه نقله بعد سنوات إلى مكان أهدأ ضمن بناء «مصرف مايكوم». وحين درنا حول زاوية الساحة، رأينا سيارته متوقفة أمام المصرف. قال جم: «إنه هناك».

ولكنه لم يكن هناك. حتى تصل إلى مكتبه كان عليك أن تسير ضمن ردهة طويلة. نظرنا عبر الردهة، وكان من المفروض أن نرى لافتة كتب عليها: «أتيكوس فينتش، محام» بأحرف صغيرة رصينة ينعكس عليها الضوء الخارج من خلف باب مكتبه. ولكن الظلام كان مخيماً.

حدق جم في باب المصرف ليتأكد. أدار مقبض الباب. كان مقفلاً. قال: «لنذهب حتى نهاية الشارع. ربما يقوم بزيارة السيد أندروود».

لم يكن السيد أندروود يدير مكتب صحيفة «مايكوم تريبيون» فحسب، بل كان يسكن فيه أيضاً. هذا بالإضافة إلى ما ذكر، وكان يغطي أخبار دار المحكمة والسجن عن طريق النظر ـ هكذا بكل بساطة ـ من شباك غرفته في الطابق العلوي. كان مبنى المكتب في الزاوية الشمالية الغربية من الساحة، وللوصول إليه كن علينا المرور من أمام السجن.

سجن مايكوم هو أكثر أبنية المديرية مهابة وقبحاً، وكان أتيكوس يقول إنه يبدو وكأنه صمم من قبل ابن العم «جوشوا سانت كلير». كان

لا شك حلماً لشخص ما. فهذا المبنى كان ذا وضع شاذ تماماً ضمن بلدة ذات مخازن مربعة الواجهات ومنازل ذات أسطحة مائلة. فهو عبارة عن نكتة قوطية مصغّرة إذن. كان عرضه زنزانة واحدة وارتفاعه زنزانتان، وكان كاملاً من حيث الشرفات المفرّجة والدعامات المرفرفة. أما الفانتازيا المحيطة به فقد تعمقت بواسطة واجهته المبنية من الآجر والقضبان الفولاذية الثخينة على نوافذه الكنسية. لم يكن منتصباً فوق تلة منفردة بل محشوراً كالإسفين بين «مخازن خرداوات تيندال» ومكتب صحيفة «مايكوم تريبيون». كان السجن هو الموضوع الوحيد لأحاديث أهالي مايكوم: فقد كان المنتقصون من قدره يقولون إنه يشبه المرحاض من الطراز الفيكتوري، أما المعجبون به فكانوا يقولون إنه يمنح البلدة مظهراً جيداً وراسخاً ويدعو إلى الاحترام، وما كان لأي غريب أن يشك أبداً في أنه مليء بالزنوج.

وبينما كنا نسير على الرصيف، شاهدنا نوراً منفرداً يلمع من بعيد. قال جم: «هذا مضحك، فالسجن ليس له نور خارجي».

قال ديل:

ـ يبدو وكأن النور معلق على الباب.

كان سلك كهربائي طويل يجري من بين قضبان نافذة الطابق الثاني وينزل حتى جانب البناء. وتحت النور الخارجي من المصباح الكهربائي كان أتيكوس جالساً وهو يسند الباب الأمامي. كان يجلس على أحد كراسي مكتبه، ويقرأ، متجاهلاً حشرات الليل التي تتراقص فوق رأسه.

تهيأت للجري، ولكن جم أمسك بي. قال: «لا تذهبي إليه، فقد لا يحب ذلك. إنه بخير، فلنذهب إلى البيت. كنت أريد أن أعرف أين هو فحسب».

كنا نختصر الطريق عبر الساحة حين جاءت أربعة سيارات مغبرة من الطريق العام المؤدي إلى بلدة يريديان، وهي تتحرك ببطء في صف واحد. دارت حول الساحة وتجاوزت بناء المصرف ثم توقفت أمام السجن.

لم يخرج أحد منها. رأينا أتيكوس ينظر من خلف صحيفته. أغلقها ثم طواها بعناية، ورماها في حجره ثم دفع بقبعته إلى مؤخرة رأسه. بدا عليه وكأنه كان يتوقع وصولهم.

همس جم: «هيا بنا». انسللنا عبر الساحة وعبر الشارع حتى احتمينا عند باب «جتني جنغل». ألقى جم نظرة خاطفة عبر الرصيف. قال: «يمكننا الاقتراب أكثر». جرينا حتى باب «مخزن خرداوات تيندال». أصبحنا الآن قريبين إلى حد كاف، وفي الوقت نفسه، دون أن يرانا أحد.

خرج الرجال فرداً فرداً وزوجاً زوجاً من السيارات. أصبحت الظلال مادة ملموسة حين كشف النور أشكالاً صلدة تتحرك نحو باب السجن. بقي أتيكوس حيث هو. كان الرجال يخفونه عن أنظارنا الآن.

سأله أحد الرجال:

ـ هل هو في السجن هنا؟

أجابه أتيكوس:

ـ نعم، وهو نائم. لا توقظوه.

وإذعاناً لما قاله أبي، حدث مشهد أدركت فيما بعد أنه كان مظهراً كوميدياً مقزّزاً لوضع غير كوميدي: إذ راح الرجال يتحدثون بلهجة أقرب إلى الهمس.

قال رجل آخر:

- أنت تعرف ما نريد. ابتعد عن الباب يا سيد فينتش.

قال أتيكوس بلهجة لطيفة:

- بإمكانك أن تدور إلى الخلف ثم تعود إلى بيتك مرة أخرى يا وولتر. إن هك تيت في مكان قريب من هنا.

قال أحد الرجال:

- ليذهب إلى الجحيم. في هذا الوقت لا بد وأن يكون قد توغّل مع مجموعته إلى قلب الغابات ولن يخرجوا منها قبل الصباح.

- فعلاً؟ وكيف ذلك؟

كان الجواب البليغ هو:

- لقد ذهبوا في رحلة لصيد طيور الشنقب. ألم تسمع بذلك يا سيدي فينتش؟

- لقد فكرت فيه، ولكني لم أصدقه. إذن، فهذا قد يغيّر في الأمر، أليس كذلك؟

قال أبي هذه الجملة الأخيرة دون أن يتغير صوته.

قال صوت عميق آخر، كان صاحبه مجرد ظل:

- أجل إنه يغيرها.

- هل تعتقد ذلك فعلاً؟

كانت تلك هي المرة الثانية التي أسمع فيها أتيكوس يطرح هذا السؤال خلال يومين، وكان ذلك يعني أن شيئاً ما سيحدث. إذن يجب ألا أفوّت علي الفرصة. أفلتّ من قبضة جم وجريت بأسرع ما أستطيع نحو أتيكوس.

صرخ جم وحول أن يلحق بي، ولكني كنت قد سبقته هو وديـل. شـققت طريقـي عـبر أجـساد معتمـة تنبعـث منـها الـروائح الكريهـة واندفعت نحو دائرة الضوء.

ـ مرحباً يا أتيكوس.

ظننت أنه سيفاجأ مفاجأة سارة، ولكن وجهه قتـل فـرحتي. فقـد كانت هناك لمعة من الخوف الواضح تخرج من عينيه، ولكنـها عـادت إليهما حين شق ديل وجم طريقهما نحو النور.

كانت هناك رائحة الويسكي العفـن وحظـيرة الخنـازير في المكـان، وحين نظرت فيما حولي اكتشفت أن هؤلاء الرجل كـانوا غربـاء. لم يكـن هؤلاء هم الرجال الذين رأيتهم في الليلة الماضية. ارتبكت ارتباكاً شـديداً: فقد قفزت منتصرة إلى داخل حلقة من الناس لم يسبق لي أن عرفتهم.

نهض أتيكوس من كرسـيه، ولكنـه كـان يتحـرك ببطء، كرجـل عجوز، أنزل الصحيفة بحرص، وراح يمسح علـى تجعـداتها بأصـابع متمهلة. كانت أصابعه ترتجف قليلاً.

قال:

ـ اذهب إلى البيت يا جم، وخذ معك سكاوت وديل.

كنا معاندين على الطاقـة الفوريـة، إن لم تكـن الطاعـة المرحلـة دائماً لتعليمات أتيكوس، ولكن من الطريقة التي كان جم يقف بهـا لم يكن يفكر بالتزحزح.

ـ قلت لك أن تذهب إلى البيت.

هزّ جم رأسه. وكما وضع أتيكوس قبـضته علـى وركيـه، كـذلك فعل جم، وبينمـا كانـا يواجهـان أحـدهما الآخـر، اسـتطعت أن أرى تشابهاً قليلاً بينهما: كان شعر جـم الكـستنائي النـاعم وعينـاه البنيتـان

ووجهه البيضاوي وأذناه المتقنتا الصنع موروثة كلها عن أمنا، وهي تتباين بحدة مع شعر أتيكوس الأسود الذي وخطه الشيب وملامحه العريضة، ولكنهما كانا متشابهين على نحو ما. كان التحدّي المتبادل يجعلهما متشابهين.

ـ يا بني، قلت اذهب إلى البيت.

هز جم رأسه.

ـ سأرسله أنا إلى البيت.

هذا ما قاله رجل فظ، ثم أمسك بجم بخشونة من قبته وكاد يرفعه إلى الأعلى.

ـ إياك أن تلمسه.

ورفست الرجل بسرعة. ورغم أني كنت حافية القدمين، إلا أني دهشت أن أراه يتراجع في ألم حقيقي. كنت أنوي أن أرفس قصبة ساقه ولكن تهديفي جاء أعلى بكثير.

وضع أتيكوس يده على كتفي وقال: «هذا يكفي يا سكاوت، لا ترفسي الناس. كلا..».

كنت أحاول أن أجد مبرراً قلت:

ـ لن يعامل أي شخص جم بهذا الأسلوب.

زمجر أحدهم:

ـ حسناً يا سيد فينتش، أخرجهم من هنا. معك خمس عشرة ثانية حتى تخرجهم من هنا.

في وسط هذا الاجتماع الغريب، وقف أتيكوس وهو يحاول أن يجعل جم يطيعه. ولكن جواب جم الثابت لتهديدات أتيكوس وأوامره كان: «لن أذهب». وأخيراً قال له أتيكوس: «أرجوك يا جم، خذهما إلى البيت».

كنت قد بدأت أشعر بالتعب من كل ذلك ولكني شعرت أن لجم أسبابه الخاصة فيما كان يفعله، نظراً للاحتمالات الواردة في حال جَعَلَه أتيكوس يذهب إلى البيت. تجولت بنظري مستطلعة الجمهرة. كانت تلك ليلة صيف، ولكن معظم الرجال كانوا يرتدون أوفرولات وقمصاناً من القطن مزررة حتى القبات. ظننت أنهم من الأشخاص الباردين بطبيعتهم، حيث كانت أكمامهم أيضاً مزررة عند المعصم. كان بعضهم يرتدي قبعات جذبت حتى آذانهم. كانوا رجالاً ذوي وجوه متجهمة، وعيون وسنانة، ويبدو عليهم أنهم غير معتادين على السهر حتى ساعات متأخرة. بحثت مرة أخرى عن وجه مألوف، وفي مركز نصف الدائرة من الرجال، وجدت وجهاً أعرفه.

ـ مرحباً يا سيدي كانينغهام.

لم يبد على الرجل أن سمعني.

ـ مرحباً يا سيد كانينغهام. كيف حال قضية «ملكك الموقوف»؟

كانت مشاكل السيد وولتر كانينغهام القانونية معروفة تماماً بالنسبة إلينا فقد كان أتيكوس قد وصفها لي مطولاً مرة من المرات. رمش الرجل الضخم بعينيه وشبّك إبهاميه في حمالات أفرولـه. بدا عليه الانزعاج. تنحنح ونظر بعيداً. لقد فشل عرضي الودي تماماً.

لم يكن السيد كانينغهام يرتدي قبعة، وكان الجزء العلوي من جبهته أبيض على عكس وجهه الذي لفعته الشمس، مما جعلني أتأكد من أنه يرتدي قبعة معظم الأيام. نقل وزنه من قدم إلى أخرى، وكان يرتدي حذاء عمل ثقيلاً.

ـ ألا تتذكرني يا سيد كانينغهام؟ أنا جان لويز فينتش. لقد جلبت لنا بعض الجوز مرة من المرات، ألا تتذكر؟

بدأت أحس باللاجدوى التي يشعر بها المرء حين لا يتعرف عليه شخص سبق له وقابله مرة بالصدفة.

بدأت محاولتي من جديد:

ـ أنا أذهب إلى المدرسة مع وولتر. إنه ابنك، أليس كذلك؟ أليس كذلك يا سيدي؟

اضطر السيد كانينغهام إلى أن يومئ برأسه إيماءة خفيفة. لقد عرفني أخيراً.

قلت:

ـ إنه في صفي، وهو تلميذ جيد. إنه ولد طيب، ولد طيب حقاً. لقد اصطحبناه مرة ليتناول طعام الغداء معنا. ربما حكى لك عني، فقد ضربته مرة ولكنه تصرف على نحو لطيف حيال ذلك. بلّغه سلامي، ألن تفعل؟

قال أتيكوس مرة أنه من اللطف أن نتحدث إلى الناس حول اهتماماتهم وليس حول اهتماماتنا نحن. لم يبد السيد كانينغهام أي اهتمام بابنه. لذا تطرقت مرة أخرى إلى ملكه الموقوف وذلك في محاولة أخيرة يائسة حتى أجعله يشعر وكأنه في بيته.

رحت أنصحه قائلة إن الأملاك الموقوفة شيء سيئ، حين استفقت ببطء إلى حقيقة أني كنت أخاطب الحشد كله. كان الرجال جميعهم ينظرون إلي، وبعضهم بفم نصف مفتوح. كان أتيكوس قد توقف عن نخس جم: كانا واقفين معاً بالقرب من ديل. كان اهتمامهم قد تصاعد حتى وصل حدّ الافتتان. حتى فم أتيكوس كان نصف مفتوح، وهو وضع وصفه هو مرة بأنه فظ غير مألوف. تقابلت عيوننا فأغلق هو فمه.

ـ حسناً يا أتيكوس، كل ما في الأمر أني كنت أقول للسيد كانينغهام إن الأملاك الموقوفة شيء سيئ، وهذا كل ما في الأمر، ولكنك قلت إنه ليس عليه أن يقلق، فقد تتطلب القضية فترة طويلة حتى تجد لها حلاً... وأنكم ستخرجون منها رابحين في النهاية...

كنت قد بدأت أفقد رصيدي من الكلام ببطء، متساءلة في نفسي عن مدى الحماقة التي ارتكبتها، فالأملاك الموقوفة قد تكون موضوعاً مناسباً لأحاديث غرفة الجلوس.

بدأت أحس بالعرق يتجمع عند أطراف شعري: كان بإمكاني احتمال أي شيء إلاّ كَوْن مجموعة من الناس تنظر إلي. كانوا جميعاً صامتين تماماً.

سألت:

ـ ما المسألة؟

لم يقل أتيكوس شيئاً. نظرت فيما حولي ثم نحو السيد كانينغهام الذي كان وجهه جامداً بالقدر نفسه. ثم فعل شيئاً عجيباً. فقد جلس القرفصاء وأمسكني من كلا كتفي. وقال:

ـ سأبلغه سلامك أيتها السيدة الصغيرة.

ثم انتصب واقفاً ولوّح بقبضة كبيرة ثم صاح:

ـ هيا ننصرف. هيا بنا يا شباب.

وكما جاؤوا، تحرك الرجال فرداً فرداً وزوجاً زوجاً عائدين إلى سياراتهم المتداعية. انصفقت الأبواب، وسعلت المحركات، ثم رحلوا جميعاً.

التفت نحو أتيكوس، ولكن أتيكوس كان قد توجه نحو السجن

وكان يستند إليه ووجهه إلى الجدار. ذهبت إليه وشددت كمّه: «هل يمكننا الذهاب إلى البيت الآن؟» أومأ برأسه، ثم أخرج منديله ومسح وجهه بأكمله وتمخّط بشدة.

- يا سيد فينتش؟

جاء صوت أجش هادئ الكلام من فوق:

- هل رحلوا؟

خطا أتيكوس نحو الخلف ونظر إلى الأعلى. قال:

- لقد رحلوا. نم يا توم. لن يزعجوك بعد الآن.

ومن جهة أخرى قطع صوت آخر صمت الليل بحدة:

- أنت ويا للعنة تصيح بأنهم لن يعودوا. لقد كنت أحميك طوال الوقت ببندقيتي.

كان السيد أندروود وبندقية رش ذات سبطانتين ينحنيان الآن عبر نافذته فوق مكتب «مايكوم تريبيون».

كان وقت طويل قد مضى على ميعاد نومي، وكنت أشعر بتعب متزايد. لقد بدا أن أتيكوس والسيد أندروود سيتحدثان بقية الليل كله، السيد أندروود من النافذة وأتيكوس متطلعاً إليه من الأسفل. وأخيراً عاد أتيكوس، أطفأ النور فوق باب السجن، وحمل كرسيه.

سأله ديل:

- هل يمكن أن أحمله لك يا سيد فينتش؟

لم يكن ديل قد نطق بكلمة واحدة طوال الوقت.

- لم لا، شكراً يا بني.

سرنا باتجاه المكتب، وقد تلكأنا ديل وأنا خلف أتيكوس وجم. كان الكرسي يعيق ديل، فأصبحت خطواته أبطأ. سَبَقنا أتيكوس وجم كثيراً، وافترضت أن أتيكوس كان يلومه بشدة لعدم ذهابه إلى البيت، ولكني كنت على خطأ. فبينما كانا يمران تحت أحد أنوار الشارع، مد أتيكوس يده ومسح بها على شعر جم، وهي إحدى الحركات التي يعبّر بها عن حبّه.



الفصل السادس عَشَر

سمعني جم. دفع برأسه من الباب الواصل بين غرفتينا. وحين وصل إلى سريري التمع النور في غرفة أتيكوس. بقينا حيث نحن حتى انطفأ، وسمعناه يتقلب في فراشه، وانتظرنا حتى هدأ ثانية.

أخذني جم إلى غرفته ووضعني في السرير إلى جانبه. قال: «حاولي أن تنامي، فسينتهي الموضوع بعد غد ربما».

كنا قد دخلنا البيت بهدوء حتى لا نوقظ العمة. أخرس أتيكوس محرك السيارة عند الممر المؤدي إلى المنزل ثم دفع السيارة نحو المرآب. ذهبنا إلى الباب الخلفي ثم نحو غرفتينا دون كلمة واحدة. كنت منهكة جداً وكدت أنام حين أصبحت ذكرى أتيكوس وهو يطوي صحيفته بهدوء ويدفع بقبعته إلى مؤخرة رأسه هي ذكرى أتيكوس يقف في منتصف شارع مهجور مترقِّب، يدفع بنظارتيه إلى الأعلى. لقد صدمتني فحوى حوادث الليلة وبدأت أبكي. كان جم لطيفاً جداً بالنسبة للموضوع: ولمرة واحدة لم يذكّرني بأن الأشخاص الذين قاربوا التاسعة من العمر لا يفعلون مثل تلك الأفعال.

كانت شهية الجميع ضعيفة في الصباح، عدا شهية جم: فقد أكل ثلاث بيضات. راقبه أتيكوس بإعجاب صريح، أما العمة ألكسندرا فقد كانت ترتشف قهوتها وتشع بموجات من الاستنكار. إن الأطفال الذين يتسللون خارج المنزل ليلاً عار على العائلة. قال أتيكوس إنه سعيد جداً بأن هذا العار قد وصل إلى حيث كان، فقالت العمة: «هراء، فقد كان السيد أندروود هناك طوال الوقت».

قال أتيكوس:

ـ أوتدرين؟ إنه لشيء مضحك بالنسبة لبراكستون هذا، فهو يحتقر الزنوج، ولا يحتمل أن يكون واحد منهم إلى القرب منه.

كان الرأي السائد في البلدة هو أن السيد أندروود رجل ضئيل الحجم، انفعالي وبذيء اللسان، أسماه أبوه في نوبة ما من نوبات المرح «براكستون براغ»، وهو اسم بذل السيد أندروود قصارى جهده حتى لا يخلص منه. قال أتيكوس إن تسمية الناس بأسماء الجنرالات الكونفدراليين (الجنوبيين) كان يساعد على خلق أشخاص مدمنين على السكر وذلك ببطء وثبات.

كانت كالبورنيا تقدم المزيد من القهوة للعمة ألكسندرا، وقد هزّت رأسها جواباً على ما ظننته نظرة توسل رابحة. قالت: «لازلت صغيرة جداً، وسأحكي لك حين لا تعودين كذلك». قلت إن ذلك قد يساعد معدتي فقالت: «حسناً». ثم جلبت فنجاناً من الخزانة، صبت ملء ملعقة شاي من البنْ فيه وملأت الفنجان حتى آخره بالحليب. شكرتها بأن مددت لساني لها. ونظرت إلى الأعلى لأرى عمتي وقد قطبت وجهها علامة التحذير. ولكنها كانت تقطب في وجه أتيكوس.

انتظرت حتى أصبحت كالبورنيا في المطبخ ثم قالت:

ـ لا تتحدث هكذا أمامهم.

ـ أتحدث أمام من؟

ـ هكذا أمام كالبورنيا. لقد قلت: «براكستون أندروود يحتقر الزنوج» أمامها مباشرة.

ـ حسناً، أنا على ثقة من أن كال تعرف ذلك. كل شخص في مايكوم يعرف ذلك.

كنت قد بدأت ألاحظ تغييراً دقيقاً في والدي هذه الأيام، وكان هذا التغيير يبرز حين يتحدث إلى عمتي ألكسندرا. كان نوعاً من العناد الهادئ وليس الغضب. ولقد تميز صوته بنوع من القسوة حين قال:

ـ كل ما يناسب قوله على المائدة يناسب قوله أمام كالبورنيا. إنها تعرف كم تعني هي لهذه العائلة.

ـ لا أعتقد أن تلك عادة طيبة يا أتيكوس، فهي تشجعهّم. أنت تعرف كيف يتحدثون بين أنفسهم. إن كل ما يجري في البلدة يصل إلى حيّهم قبل الغروب.

رمى والدي سكينه وقال:

ـ لا أعرف أي قانون يمنعهم من التحدث. وربما لو لم نكن نعطيهم كل تلك المادة للحديث لصمتوا. لم لا تشربين قهوتك يا سكاوت؟

كنت ألعب بها بملعقتي فقلت:

ـ كنت أحسب أن السيد كانينغهام صديق لنا. لقد قلت لي ذلك منذ زمن بعيد.

ـ إنه ما يزال كذلك.

ـ ولكنه أراد الليلة الماضية ايذاءك.

وضع أتيكوس شوكته إلى جانب سكينه ودفع بصحنه جانباً. قال:

ـ السيد كانينغهام رجل طيب أساساً. ولكن لديه كما لدى كل واحد منا نقاط ضعفه.

قال جم:

ـ لا تسمي تلك نقطة ضعف. كان مستعداً لأن يقتلك الليلة الماضية أول ما وصل إلى هناك.

ـ ربما كان سيؤذيني قليلاً، ولكنك ستبدأ يا بني بفهم الناس على نحو أفضل قليلاً حين تصبح أكبر. إن الغوغاء تتألف دائماً من بشر في كل الأحوال. والسيد كانينغهام كان جزءاً من غوغاء في الليلة الماضية، ولكنه كان لا يزال إنساناً. كل غوغاء في كل بلدة جنوبية صغيرة مؤلفة دائماً من أشخاص تعرفهم... هذا ليس إطراء لهم، أليس كذلك؟

قال جم:

ـ لا، ليس إطراءاً.

ـ لذا تطلب الأمر أن تعيدهم طفلة في الثامنة من العمر إلى رشدهم. أليس كذلك؟ وهذا يثبت شيئاً ما: إن عصابة من الوحوش يمكن أن توقف عند حدها لأن أفرادها لازالوا بشراً. هاهه. ربما نحتاج إلى قوة شرطة مؤلفة من الأطفال... أنتم الأطفال جعلتم وولتر كانينغهام يحس بورطتي لدقيقة واحدة. وكان ذلك كافياً.

حسناً، كنت آمل أن جم سيفهم الناس على نحو أفضل قليلاً حين يصبح أكبر سناً، أما أنا فلن أفهم. قلت بلهجة مشددة:

ـ أول يوم يعود وولتر إلى المدرسة سيكون آخر أيامه.

قال أتيكوس بصوت خفيض:

ـ لن تلمسيه أبداً. لا أريد أياً منكما أن يحمل ضغينة فيما يتعلق بهذا الموضوع، مهما يحدث.

قالت العمة ألكسندرا:

ـ ها أنت ترى ما الذي ينتج عن أمور كهذه. لا تقل إني لم أحذرك.

قال أتيكوس إنه لن يقول شيئاً من ذاك القبيل، ودفع كرسيه إلى الخلف ونهض قائلاً:

ـ بقي يوم واحد، لذا اعذروني. يا جم، لا أريد منك ومن سكاوت النزول إلى البلدة اليوم، أرجوكما.

حين رحل أتيكوس، وصل ديل وهو يقفز من الردهة إلى غرفة الطعام، ثم أعلن قائلاً:

ـ البلدة كلها تتحدث عن الموضوع، حول كيف تمكّنا من صدّ مائة شخص بأيدينا المجردة من أي سلاح...

حدقت به العمة ألكسندرا حتى أخرسته، ثم قالت:

ـ لم يكن هناك مائة شخص، ولم يصدّ أحد أحداً. كانوا عبارة عصبة من عائلة كانينغهام السكارى الفوضويين.

قال جم:

ـ حسناً يا عمتي، هذه فحسب طريقة ديل في النظر إلى الأمور.

ثم أشار إلينا لنتبعه.

قالت ونحن نتجه إلى الرواق الأمامي:

ـ ابقوا جميعاً ضمن الفناء اليوم.

بدا الأمر وكأنه يوم سبت. كان الناس من الطرف الجنوبي للمقاطعة يمرون عبر منزلنا بتيار بطيء إنما ثابت.

مرّ السيد دولفوس رايموند وهو يتمايل على جواده الأصيل. همهم جم:

ـ ألا ترون كيف هو جالس على ذلك السرج؟ كيف يمكن للمرء أن يسكر قبل الثامنة صباحاً؟

مرت عربة محملة حتى آخرها بالسيدات وهي تقعقع بالقرب منا. كن يرتدين قلنسوات شمسية من القطن وأثواباً من القطن. كان

رجل ملتح في قبعة صوفية يقود تلك العربة. قال جم لـديل: «هـؤلاء بعض أفراد جماعة المينونايت[1] وهن لا يستعملن الأزرار أبداً».

كـان هـؤلاء يعيـشون في أعمـاق الغابـات ويقومـون بمعظـم مقايـضاتهم عـبر النـهر ونـادراً مـا يـأتون إلى مـايكوم. اهـتم ديـل بالموضـوع. شـرح لـه جـم: «لهـم جميعـاً عيـون زرقـاء، والرجـال لا يـستطيعون أن يحلقـوا ذقـونهم بعـد الـزواج، فنـساؤهم يحـببن أن يدغدغهن الرجال بها».

مرّ أيضاً السيد «اكس بيلابس» على بغل ولوح لنا. قال جم: «إنـه رجل مضحك، واسمه «اكـس»[2] ولـيس هـذا أول حـرف مـن اسمـه فحسب. كان مرة في المحكمة وقد سئل عن اسمه، فقـال إنـه «إكـس بلابس». طلب منه الكاتب أن يهجئه فقال: اكـس. وسـأله مـرة أخـرى فقال: اكس. وظلا يسألونه حتى كتب حرف X على ورقة ورفعها أمـام أعين الجميع ليروها. وسألوه من أين جاء بذلك الاسـم فقـال إن أهلـه سجلوه بهذا الاسم حين ولد.

وبينما كان سـكان المديريـة يمـرون بنـا، قـام جـم بـشرح سِيَر الشخصيات الأبرز ومواقفها العامة لـديل: لقـد صـوّت الـسيد «تنـسو جونز» ضد القائمة الانتخابية الـتي كانـت مـع منـع الخمـور، الآنـسة إميلي ديفيز تتعاطى النشوق سـراً، الـسيد بـايرون وولـر يعـزف علـى الكمان، السيد جايك سلايد نبت له الطقم الثالث من الأسنان.

ظهرت عربة محملة بمجموعة مـن المـواطنين ذوي الوجـوه الكالحة على غير عادتها. وحين أشـاروا إلى فنـاء الآنـسة مـودي

(1) Mennonite طائفة دينية لا تستعمل الاختراعات الحديثة. (المترجم).

(2) حرف (X) يستعمل أيضاً في الرياضيات بمعنى (س) للمجهول. (المترجم).

أتكينسون الملتهب بالأزهار الصيفية، خرجت الآنسة مودي نفسها إلى الرواق. كان هناك شيء غريب في الآنسة مودي: فحين تكون في واقعها تكون بعيدة عنا إلى حد لا نستطيع معه رؤية ملامحها بوضوح، ولكننا نستطيع دائماً أن نعرف مزاجها من الطريقة التي تقف بها. كانت تقف الآن وذراعاها على خاصرتيها وكتفاها متهدلتان قليلاً، ورأسها ملوي إلى جانب ونظارتاها تغمزان في ضوء الشمس. وعرفنا أنها كانت تبتسم على نحو أشد ما يكون فظاعة.

أبطأ سائق العربة من سرعة بغاله، وصاحت امرأة ذات صوت حادٍ: «ذاك الذي يأتي بخيلاء سيرحل في الظلام».

أجابت الآنسة مودي:

ـ «القلب المرح يصنع وجهاً بشوشاً».

خمنت أن «غاسلي الأقدام» كانوا يظنون أن «الشيطان» هو الذي كان يقتبس من الكتاب المقدس لأغراضه الخاصة، بينما أسرع السائق ببغاله مبتعداً. أما لماذا كانوا يعترضون على فناء الآنسة مودي فكان أمراً غامضاً، وقد أصبح تأثيره مضاعفاً على عقلي لأني لاحظت أن معرفة الآنسة مودي بالكتاب المقدس كانت رائعة إذا ما أخذنا في الاعتبار أنها شخص ينفق طوال نهاره خارج المنزل.

سألها جم بعد أن كنا قد مشينا باتجاهها:

ـ هل ستذهبين إلى المحكمة اليوم؟

ـ لا، ليس لدي عمل في المحكمة هذا الصباح.

سألها ديل:

ـ ألن تذهبي لتتفرّجي؟

ـ لا، لن أذهب. إن مراقبة شخص مسكين وهو يحاكم بتهمة عقوبتها الموت لأمر يبعث على الكآبة. انظر إلى هؤلاء الناس، هذا أشبه بكرنفال روماني.

قلت:

ـ إنهم مضطرون إلى محاكمته علنياً. ليس لهم الحق في محاكمته بغير هذه الطريقة.

ـ أنا مدركة لهذا تماماً، ولكن بسبب أنها علنية لست مضطرة للذهاب، أليس كذلك؟

وصلت الآنسة ستيفاني كروفورد وكانت ترتدي قبعة وقفازات. قالت:

ـ هم.. هم... انظروا إلى كل هؤلاء الناس... يكاد المرء يظن أن «ويليام جنينغز بريان» سيخطب.

سألتها الآنسة مودي:

ـ إلى أين يا ستيفاني؟

ـ إلى «جيتني جنغل».

قالت الآنسة مودي إنها لم تر طوال حياتها الآنسة ستيفاني وهي ترتدي قبعة لدى ذهابها إلى «جيتني جنغل».

قالت الآنسة ستيفاني:

ـ حسناً، فكرت في أني قد ألقي نظرة على دار المحكمة من الداخل لأرى ما يفعله أتيكوس.

ـ الأفضل أن تحذري منه لئلا يسلمك أمراً قضائياً بالمثول أمام المحكمة.

طلبت من الآنسة مودي أن تفسّر ما تلفظت به، فقالت إنه يبدو وكأنه الآنسة ستيفاني تعرف الكثير عن القضية لدرجة أنه يمكن استدعاؤها كشاهدة.

انتظرنا حتى الظهر، حين عاد أتيكوس إلى البيت ليتناول الغداء وقال إنهم قد أمضوا الصباح وهم يختارون هيئة المحلفين. وبعد الغداء، انتظرنا ديل ثم ذهبنا إلى البلدة.

كانت مناسبة أشبه بالاحتفال. لم يكن هناك مكان واحد فارغ لربط دابة أخرى عند مربط الدواب العمومي، وكانت الدواب والعربات متوقفة تحت كل شجرة موجودة. كانت ساحة دار المحكمة مغطاة بالمتنزهين الجالسين على الصحف يشربون الحليب الدافئ من أباريق الفاكهة مع البسكويت والشراب. بعض الناس كان ينهش في دجاجة باردة وقطع من لحم الخنزير البارد. أما الأكثر غنى فكانوا يشربون مع الطعام الكوكا ـ كولا المشتراة من الدكان وذلك من كؤوس الصودا ذات الشكل البصلي. كما كان هناك أطفال بوجوه قذرة يلعبون لعبة الإمساك بأيديهم والدوران في حلقة ضمن هذا الحشد، وأطفال يتناولون وجبة الغذاء من صدور أمهاتهم.

في زاوية بعيدة من الساحة، جلس الزنوج بهدوء في الشمس، يتغذّون بالسردين والخبز المحمص والنكهات الأكثر حيوية لمشروب الـ «نيهي كولا». كان السيد دولفوس رايموند جالساً معهم.

قال ديل: «يا جم إنه يشرب من كيس».

بدا السيد دولفوس رايموند وكأنه يفعل ذلك: فقد كانت هناك مصاصتان صفراوان تتجهان من فمه إلى أعماق كيس ورقي بني اللون.

همهم ديل.

ـ لم أر أحداً يفعل مثل هذا من قبل. كيف يستطيع أن يبقي على ما في الكيس ضمن الكيس؟

ضحك جم وقال:

- في داخل الكيس زجاجة كوكا كولا مليئة بالويسكي وبذلك فإنه لا يزعج السيدات. ستراه وهو يمصّ منها طوال فترة بعد الظهر، كما أنه سيخرج لبرهة حتى يملأها مرة أخرى.

- ولماذا يجلس مع الملوّنين؟

- إنه يفعل ذلك دائماً. إنه يحبهم أكثر مما يحبنا، على ما أعتقد. وهو يعيش وحيداً عند حدود المقاطعة. كما أنه يعيش مع امرأة ملوّنة ولديه منها كل أنواع الأطفال «المولّدين». سأريك بعضهم إذا رأيناهم.

قال ديل:

- لا يبدو عليه أنه من الحثالة.

- ليس هو كذلك، فهو يملك كل ذلك الجانب من ضفة النهر هناك، كما أنه من عائلة عريقة جداً.

- إذن لماذا يتصرف هكذا؟

- هذا أسلوبه في الحياة. يقولون إنه لم يشف مما حدث يوم زفافه حتى الآن. فقد كان من المفروض أن يتزوج فتاة من آل.. آل سبندر على ما أظن. وكان من المفروض أن يقام لهما حفل زفاف ضخم، ولكن ذلك لم يحدث: فبعد التمرين على الاحتفال الذي سيجري في الكنيسة، صعدت العروس إلى الطابق العلوي وفجرت رأسه ببندقية رش. لقد ضغطت على الزناد بأصابع قدمها.

- هل عرف أحد السبب؟

قال جم:

- لا، لم يعرف أحد السبب بالضبط عدا السيد دولفوس. ويقال إنها انتحرت لأنها اكتشفت علاقته بتلك المرأة الملونة، وكان هو يعتقد أنه

يستطيع الاحتفاظ بها ويتزوج أيضاً. ومنذ ذلك اليوم وهو مخمور باستمرار نوعاً ما. ومع ذلك عليك أن تعلم أنه طيب جداً مع أولئك الأطفال...

سألته:

ـ يا جم ما هو الطفل «المولّد»؟

ـ الطفل «المولّد» نصفه أبيض ونصفه ملون. لقد رأيتهم يا سكاوت. تعرفين ذلك الصبي أحمر الشعر أجعده والذي يعمل موزعاً للدكان. إنه نصف أبيض. إنهم بؤساء حقاً.

ـ بؤساء لماذا؟

ـ لأنهم لا ينتمون إلى أي من الطرفين. الملونون لا يقبلون بهم لأنهم نصف بيض والبيض لا يقبلون بهم لأنهم ملونون، لذا فهم في المنطقة الحرام، لا ينتمون إلى أي طرف. ولكن السيد دولفوس، كما يقولون، قد أرسل اثنين من أولاده هؤلاء إلى الشمال. في الشمال لا تمييز ضدهم. هاها! إليك أحدهم هناك.

كان صبي صغير يتمسّك بيد امرأة زنجية يمشي باتجاهنا. بدا بالنسبة لي زنجياً تماماً: كان لونه بلون الشوكولاته الحقيقية وله منخران عريضان وأسنان جميلة. أحياناً كان يقفز بسعادة، ولكن المرأة الزنجية كانت تشد على يده حتى يتوقف.

انتظر جم حتى مرّا ثم قال:

ـ هذا أحد صغار أولئك الأولاد.

قال ديل:

ـ كيف يمكنك التمييز؟ بالنسبة لي بدا أسود.

ـ لا يمكنك تمييزهم أحياناً، إلا إذا كنت تعرف من هو أبوهم. ولكن نصفه ينتمي إلى آل رايموند على أية حال.

سألته:

ـ ولكن كيف يمكنك التمييز؟

ـ لقد قلت لك يا سكاوت إن عليك أن تعرفي من هم.

ـ حسناً، كيف تعرف أننا لسنا زنوجاً؟

ـ يقول العم جاك فينتش إننا لا نعرف حقاً. كما يقول إننا لو تتبعنا شجرة عائلة فينتش، فلسنا زنوجاً، ولكن ربما نكون قد أتينا من أثيوبيا مباشرة أيام «العهد القديم».

ـ حسناً، لو خرجنا منذ أيام «العهد القديم» فالمسألة قديمة جداً بحيث لم يعدلها من تأثير.

قال جم:

ـ هذا ما ظننته، ولكن في هذه المنطقة، يكفي أن يكون فيك نقطة دم زنجية واحدة حتى تتحول إلى رجل أسود تماماً. هاي! انظرا...

كانت إشارة ما غير مرئية قد جعلت المتناولين لغدائهم في الساحة ينهضون وينثرون فيما حولهم قطعاً من الجرائد والسيلوفان وأوراق التغليف. التحق الأطفال بأمهاتهم، وحملت النساء الرضّع على الخصور ضمن لفات خاصة، بينما بدأ الرجال في القبعات المشرّبة بالعرق يجمعون أسرهم ويسوقونها عبر أبواب المحكمة. في الزاوية البعيدة من الساحة نهض الزنوج والسيد دولفوس رايموند ونفضوا الغبار عن بناطيلهم. كان بينهم قلة من النساء والأطفال، مما بدا وكأنه يبدّد جو العطلة السائد. انتظروا بصبر عند الأبواب خلف عائلات البيض.

قال ديل:

ـ هيا بنا ندخل.

قال جم:

ـ لا، الأفضل أن ننتظر حتى يدخل الجميع، قد ينزعج أتيكوس إذا رآنا.

كانت دار المحكمة الخاصة بمديرية مايكوم تذكّر إلى حد ما ببلدة أرلنغتون من ناحية واحدة: فقد كانت أعمدتها التي تدعم سقفها الجنوبي أثقل بكثير مما يحتاجه الثقل الخفيف القائم فوقها. كانت تلك الأعمدة هي كل ما تبقى منتصباً بعد الحريق الذي تعرّضت له دار المحكمة عام 1865 وقد بنيت دار محكمة أخرى حول تلك الأعمدة. ومن الأفضل القول إنها بنيت رغماً عنها. أما بالنسبة للرواق الجنوبي، فقد كانت دار محكمة مديرية مايكوم من الطراز الفيكتوري القديم تمثل منظراً مؤذياً إذا ما شوهدت من الشمال. ومن ناحية أخرى، على أية حال، فإن الأعمدة المصممة لإحياء الطراز الإغريقي كانت تتناقض مع برج ساعة كبير من طراز القرن التاسع عشر يؤوي تلك الآلة الصدئة غير الجديرة بالثقة، وهو على أية حال مشهد يدل على شعب مصمم على الاحتفاظ بكل ذرة من ذرات الماضي.

وللوصول إلى غرفة المحكمة، في الطابق الثاني، كان على المرء أن يمر بعدة كوات معتمة لا تصلها الشمس وتابعة للمقاطعة: فهناك مخمّن الضرائب، وجابي الضرائب، وكاتب المقاطعة، ومحامي المقاطعة، والكاتب الجوال، أما قاضي الإشهاد فكان يقبع في غرفة صغيرة باردة معتمة تفوح منها روائح السجلات العتيقة المختلطة بروائح الإسمنت الرطب والبول الراكد. كان من الضروري إشعال الأنوار خلال وقت النهار، كما كانت هناك دائماً طبقة من الغبار على لوائح الأرضية الخشبية الخشنة. كان سكان هذه المكاتب مخلوقات نابعة من بيئتها: فهم رجال ذوو وجوه رمادية لم تلمسها الريح ولا الشمس.

عرفنا أن هناك ازدحاماً، ولكننا لم نتوقع تلك الحشود في مدخل الطابق الأرضي. انفصلت عن جم وديل، ولكني شققت طريقي نحو الجدار القريب من بئر السلم، عارفة أن جم سيأتي أخيراً باحثاً عني. وجدت نفسي في وسط جماعة «نادي الكسالى» وجعلت نفسي مخفيّة قدر الإمكان. وكان هؤلاء مجموعة من الرجال المسنّين المرتدين قمصاناً بيضاء وبناطيل خاكية ذات حمالات ممن أنفقوا حياتهم لا يفعلون شيئاً ويمضون أيامهم الأخيرة جالسين على المقاعد المصنوعة من خشب الصنوبر والموضوعة تحت شجرات السنديان الحية في الساحة. وهم كما يقول أتيكوس نقّاد يقظون لأعمال دار المحكمة، وإنهم يعرفون عن القانون بقدر ما يعرفه رئيس المحكمة، وذلك بسبب السنوات الطويلة من المراقبة. في العادة، يكونون هم نظّارة المحكمة الوحيدون، واليوم يبدو عليهم الامتعاض بسبب عدم قدرتهم على ممارسة روتينهم المعتاد. وحين تحدثوا بدا حديثهم هاماً، وكان موضوعه هو أتيكوس.

قال أحدهم:

ـ... أظن أنه يعرف ما يفعله.

قال آخر:

ـ لا أوافق على ذلك، فأتيكوس فينتش قارئ متعمق، قارئ متعمق جداً.

تهكمّت جماعة النادي حين قال أحدهم:

ـ إنه يقرأ جيداً، وهذا كل ما يفعله.

قال ثالث:

ـ فلأقل لك شيئاً يا «بيلي»، أنت تعرف أن المحكمة عيّنته ليدافع عن ذلك الزنجي.

ـ أجل، ولكن أتيكوس يهدف إلى الدفاع عنه، وهذا ما لا يعجبني في هذه المسألة.

كان ذلك خبراً جديداً، خبراً يلقي بضوء مختلف على الأمور: فأتيكوس كان مضطراً للدفاع عن ذاك الزنجي سواء شاء أم أبى. وأعتقد أنه من الغريب ألا يكون قد قال لنا أي شيء حول هذا الموضوع: كنا سنستطيع استعمال ذلك مرات عديدة للدفاع عنه وعن أنفسنا. إنه مضطر لذلك، ولهذا السبب كان عليه أن يدافع عن ذلك الزنجي. كان من شأن معرفتنا بذلك أن تجعل الشجارات أقل وتخفّف كذلك كل تلك الضجة. ولكن هل كان ذلك يفسّر موقف البلدة؟ لقد عيّنت المحكمة أتيكوس للدفاع عنه. وكان أتيكوس يهدف إلى الدفاع عنه. وهذا ما كانوا لا يحبونه في الموضوع. ذلك أمر محيّر.

بعد أن انتظر الزنوج حتى صعد البيض إلى الطابق العلوي، بدأوا هم بالدخول. قال أحد أعضاء النادي: «هيا. انتظروا لحظة». وكان يرفع عالياً عكازه، ثم أردف: «لا تجعلوهم يصعدوا إلى الطابق العلوي لفترة أخرى».

بدأ أعضاء النادي صعودهم ذي المفاصل المتيبّسة واصطدموا بديل وجم وهما ينزلان الدرج ويبحثان عني. مرّا بصعوبة عبر هؤلاء وصاح جم: «تعالي يا سكاوت، لم يعد هناك مقعد واحد فارغ. سنضطر إلى الوقوف».

قال بغضب: «انظروا إلى هناك» بينما الزنوج يصعدوا إلى الطابق العلوي كالموجة. كان العجائز الذين سبقوهم سيحتلون معظم محلات الوقوف وكنا سيئي الحظ وذلك كله بسبب غلطتي أنا، هكذا أعلمني جم. وقفنا بائسين عند الجدار.

ـ ألم تستطيعوا الدخول؟

كان المتكلم هو الكاهن سايكس الذي كان واقفاً يتطلع إلينا وقبعته السوداء في يده.

قال جم:

ـ مرحباً يا سيدي الكاهن. لا لم نستطع، لأن سكاوت أفسدت الأمر كله.

ـ حسناً، لنر ما نستطيع عمله.

شق الكاهن سايكس طريقه إلى الطابق العلوي. وخلال دقائق قليلة كان قد عاد وقال: «لا يوجد أي مقعد في الطابق السفلي. هل تعتقدون أنه من المناسب أن تأتوا إلى الشرفة معي؟».

قال جم: «طبعاً طبعاً». وأسرعنا سعيدين نسبق الكاهن سايكس إلى طابق غرفة المحكمة. من هنا صعدنا درجاً مغطّى وانتظرنا عند الباب. جاء الكاهن سايكس وراءنا وهو يلهث، ثم قادنا بلطف عبر صفوف الزنوج الجالسين في الشرفة. نهض أربعة زنوج ومنحونا مقاعدهم التي كانت في الصف الأول.

كانت شرفة الملونين تمتد على طول ثلاثة جدران من غرفة المحكمة كشرفة للطابق الثاني ومنها كنا نستطيع مشاهدة كل شيء.

كان المحلّفون جالسين إلى اليسار تحت نوافذ طويلةٍ. بدوا وكأنهم مزارعون جميعهم، حيث كانوا من ذوي البشرة المسفوعة بالشمس والقامة النحيلة، ولكن ذلك كان طبيعياً: فنادراً ما كان سكان البلدة يُختارون كمحلفين، فقد كانوا إما مشغولين أو معذورين. كان واحد أو اثنان من المحلفين يبدوان نوعاً ما وكأنهما من آل كانينغهام إنما بملابس لائقة. في هذه المرحلة كانوا يجلسون مستقيمين ويقظين في مقاعدهم.

كان المدعي العام ورجل آخر وأتيكوس وتوم روبنسون يجلسون إلى مناضد وظهورهم إلينا. وعلى منضدة ممثل الادعاء كان كتاب بنّي اللون وبعض أوراق الكتابة الصفراء. أما منضدة أتيكوس فكانت فارغة.

داخل الحاجز الذي يفصل النظارة عن المحكمة، كان الشهود يجلسون على كراسي من جلد البقر. كانت ظهورهم إلينا.

كان القاضي تايلور على المنبر كقرش عجوز وسنان، بينما كاتبه يجلس إلى مكان أخفض منه ويدوّن شيئاً ما بسرعة. كان القاضي تايلور يبدو كمعظم القضاة الذين سبق لي ورأيتهم: ودوداً، أبيض الشعر ذا وجه محمّر قليلاً، كما كان رجلاً يدير شؤون محكمته على نحو غير رسمي وإلى حد مزعج: فقد كان يرفع قدميه عالياً في بعض الأحيان أو غالباً ما ينظف أظافر أصابعه بموسى جيبه. وفي جلسات «تطبيق أمالي الضمير ومبادئ العدل الطبيعي على النزاعات» المطوّلة، وخاصة إن كانت بعد وجبة الغداء، كان يوحي للموجودين بأن النعاس يغالبه، ولكنه كان انطباعاً تبدّد إلى الأبد حين قام أحد المحامين مرة بإسقاط كومة من الكتب إلى الأرض عن عمد في محاولة يائسة منه لإيقاظه. وبدون أن يفتح عينيه، همهم القاضي تايلور: «يا سيد وايتلي، إذا كرّرت هذا فسيكلفك مائة دولار كغرامة».

كان رجلاً متعمّقاً في القانون، ورغم أنه كان يبدو كمن يمارس عمله دون اهتمام زائد إلا أنه كان يحكم قبضته في الواقع على أية محاكمة تجري أمامه. مرة واحدة فحسب شوهد القاضي تايلور في حالة تجمّد كاملة في المحكمة، وكان ذلك حين استطاع آل كانينغهام تجميده. فقد كانت «أولد ساروم» وهي منتجعهم المفضل، قد احتلت من قبل عائلتين كانتا منفصلتين ومستقلتين في البداية، ولكنهما ولسوء الحظ تحملان الكنية نفسها. فقد تزوج آل Cunningham من آل Coningham حتى أصبحت تهجئة الاسمين واحدة، ولذلك حتى

قام أحد أفراد عائلة Cunningham بالإحكام إلى القانون ضد أحد أفراد عائلة Coninhgam بسبب خلافهما على حقوق ملكية قطعة من الأرض. وخلال جدل في هذا المضمار، أفاد Jeems Cunningham بأن أمه كانت تكتب اسم العائلة على أنه Cunningham على الصكوك وما شابهها، ولكنها كانت بالفعل من آل Coningham فقد كانت مهجِّئة غير موثق بها، كما كانت قارئة ضعيفة معتادة على النظر بعيداً في بعض الأحيان، وذلك حين تجلس على الشرفة الأمامية في الأمسيات. وبعد تسع ساعات من الإصغاء إلى عجائب سكان «أولد ساروم»، رمى القاضي تايلور بالقضية إلى خارج المحكمة. وحين سئل عن الأساس الذي استند إليه في ذلك، قال: «تواطؤ بغرض تقديم المال من أجل إنجاح دعوى قضائية» وصرح بأنه يرجو الله أن يكون المختصون قد اقتنعوا بأنهم استطاعوا التعبير عن وجهات نظرهم جهاراً. وقد حدث ذلك. وكان ذلك هو هدفهم أوّلاً وأخيراً.

كانت للقاضي تايلور عادة تثير الاهتمام. فقد سمح بالتدخين في غرفة المحكمة ولكنه لم يسمح لنفسه بذلك: وفي بعض الأحيان، وحين يكون المرء محظوظاً، فإنه قد يكسب امتياز مراقبته وهو يضع سيجاراً طويلاً جافاً في فمه وينهشه ببطء. وكان السيكار المطفأ يتلاشى ببطء ليعود للظهور بعد بضع ساعات كخبيصة زلقة مسطحة، وقد انتزع لبّه واختلط بعصارات القاضي تايلور الهضمية. ومرة سألت أتيكوس كيف تستطيع السيدة تايلور أن تحتمل تقبيله، ولكن أتيكوس قال إنهما لا يقبّلان بعضهما كثيراً.

كانت منصة الشهود إلى يمين القاضي تايلور، وحين وصلنا إلى مقاعدنا كان السيد هك تيت قد سبق وجلس على تلك المنصة.

* * *

الفصل السّابع عشر

قلت:

ـ يا جم، هل أولئك الجالسون هناك عائلة يوويل؟

قال جم:

ـ صه، السيد هك تيت يدلي بشهادته.

كان السيد تيت قد ارتدى ما يليق بالمناسبة: بذلة عمل عاديّة تجعله يبدو كأي رجل آخر، فلم تكن هناك الجزمة العالية والمعطف ذو المربعات وحزام الرصاص. ومن تلك اللحظة ما عاد يخيفني. كان يجلس منحنياً إلى الأمام ويداه بين ركبتيه، وهو يصغي باهتمام إلى ممثل الادعاء.

لم يكن ممثل الادعاء الجوال وهو السيد غيلمر معروفاً لدينا كثيراً، فهو من بلدة «أبوتسفيل» وكنا لا نراه إلا لدى انعقاد المحكمة، وكان ذلك نادراً ما يحدث، فالمحكمة لم تكن من الأمور التي تهمنا جم وأنا. كان رجلاً أمرد الوجه غزا الصلع رأسه، وقد يكون في أي عمر يتراوح بين الأربعين والستين. ورغم أن ظهره كان لنا، إلا أننا عرفنا أن إحدى عينيه كانت حولاء وكان يستغلها لمصلحته: فحين يبدو عليه أنه ينظر إلى شخص ما لم يكن هو يفعل ذلك في الواقع، ولذلك كان المحلّفون والشهود يعانون منه كثيراً. كان المحلفون، الذين يظنون أنهم تحت المراقبة الشديدة، يصغون باهتمام، وكذلك الشهود الذين كانوا يظنون الظن نفسه.

كان السيد غيلمر يقول:

ـ... بالكلمات التي استعملتها أنت بنفسك يا سيد تيت.

قال السيد تيت وهو يلمس نظارتيه بيده ويتحدث إلى ركبتيه:

ـ حسناً، لقد استدعيتُ...

ـ هل يمكنك أن توجه كلامك إلى هيئة المحلفين يا سيد تيت؟ شكراً. من الذي استدعاك؟

قال السيد تيت:

ـ لقد جاء لاصطحابي بوب... أعني بوب يوويل الجالس هناك، ففي إحدى الليالي...

ـ أية ليلة بالضبط يا سيدي؟

ـ كانت ليلة الحادي والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر). كنت على وشك مغادرة مكتبي للذهاب إلى البيت حين دخل بو.. السيد يوويل، وكان في حالة اهتياج شديد وطلب مني أن أذهب إلى منزله بسرعة لأن أحد الزنوج قد اغتصب ابنته.

ـ وهل ذهبت؟

ـ بكل تأكيد. لقد ركبنا السيارة وانطلقنا بأسرع ما يمكن.

ـ وما الذي رأيته؟

ـ لقد رأيتها متمددة على الأرض في وسط الغرفة الأمامية، وهي الغرفة التي إلى اليمين. خلال الدخول إلى المنزل، كان يبدو عليها أنها ضربت ضرباً شديداً، ولكني أنهضتها على قدميها، وغسلت هي وجهها في دلو كان في الزاوية وقالت إنها على ما يرام. وقد سألتها عمن ضربها فقالت إنه توم روبنسون...

رفع القاضي تايلور، الذي كان يركز اهتمامه على أظافر أصابعه، رأسه وكأنه يتوقع اعتراضاً ما، ولكن أتيكوس بقي هادئاً.

ـ... وقد سألتها إن كان هو الذي ضربها فقالت نعم هو الذي ضربني. وسألتها إن كان قد اعتدى على عفافها فردت بالإيجاب. ولذا ذهبت إلى منزل السيد توم روبنسون وعدت به إلى هناك. وقد تعرفت هي عليه على أنه الشخص المعتدي ولذا ألقيت القبض عليه. هذا كل ما في الأمر.

قال السيد غيلمر:

ـ شكراً.

قال القاضي تايلور:

ـ أية أسئلة يا أتيكوس؟

رد أبي وكان جالساً خلف منضدته وكرسيه مميّلاً إلى جنب، وساقاه الواحدة فوق الأخرى وذراعه يرتاح فوق ظهر كرسيه: «نعم».

سأل أتيكوس الشاهد:

ـ هل استدعيت طبيباً يا حضرة المأمور؟ هل استدعى أحد طبيباً؟

قال السيد تيت:

ـ لا يا سيدي.

ـ لم تستدع طبيباً؟

كرر السيد تيت:

ـ لا، يا سيدي.

ـ ولم لا؟

كانت هناك حدة في لهجة أتيكوس.

ـ حسناً سأقول لك لماذا. لم يكن ذلك ضرورياً يا سيد فينتش فقد كانت ثد تلقت ضرباً مبرحاً. كان واضحاً أن شيئاً ما قد حدث بكل تأكيد. كان ذلك واضحاً.

ـ ولكنك لم تستدع طبيباً؟ بينما كنت هناك، هل استدعى شخص ما طبيباً، أو أحضر طبيباً، أو حملها إلى الطبيب؟

ـ لا يا سيدي.

هنا قاطع القاضي تايلور قائلاً:

ـ لقد أجابك على سؤالك ثلاث مرات يا أتيكوس. إنه لم يستدع طبيباً.

قال أتيكوس:

ـ لقد أردت أن أتأكد يا حضرة القاضي.

فابتسم القاضي.

رأيت يد جم التي كانت تستريح على حاجز الشرفة تحكم من قبضتها عليه. تنهد فجأة. نظرت إلى الأسفل فلم أر ما يستدعي مثل رد الفعل ذلك، وتساءلت إن كان جم يحاول أن يُمسرح الأمور. كان ديل يراقب بهدوء، وكذلك الكاهن سايكس إلى جانبه. همست: «ما القصة؟» فأجابني جم بإيجاز: «صه».

كان أتيكوس يقول:

ـ يا حضرة المأمور، قلت إنها كانت قد تلقت ضرباً مبرحاً. كيف كان ذلك؟

ـ حسناً....

ـ صف جروحها فحسب يا هك.

ـ حسناً، كانت مصابة في المناطق المحيطة بالرأس. وكانت هناك كدمات على ذراعيها، فقد كان الحادث قد جرى قبل ثلاثين دقيقة من وصولي...

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ابتسم السيد تيت وقال:

ـ آسف، هذا ما قالوه. على أية حال كانت مصابة كلها بالكدمات حين وصلت إلى هناك، كانت إحدى عينيها مسودّة من شدة الضرب.

ـ أية عين؟

رمش السيد تيت ومشط شعره بيده ثم قال بصوت خفيض:

ـ دعني أتذكر.

ثم نظر إلى أتيكوس وكأنه يعتبر السؤال طفولياً.

سأله أتيكوس:

ـ ألا تستطيع أن تتذكر؟

أشار السيد تيت إلى شخص غير مرئي على بعد خمسة بوصات منه وقال:

ـ عينها اليسرى.

قال أتيكوس:

ـ لحظة يا حضرة المأمور، هل كانت تلك عينها اليسرى وهي تواجهك أم عينها اليسرى وهي تقف بمحاذاتك؟.

قال السيد تيت:

ـ أجل حسناً، إنها عينها اليمنى إذن. لقد كانت عينها اليمنى، يا سيد فينتش. أتذكر الآن، لقد كانت مضروبة على هذا الجانب من وجهها...

رمش السيد تيت مرة أخرى، وكأن شيئاً ما قد تم توضيحه له. ثم أدار رأسه ونظر فيما حوله باتجاه توم روبنسون. وكأنما بالغريزة، رفع توم روبنسون رأسه.

لقد توضّح شيء ما لأتيكوس الآن، وهذا ما جعله ينهض واقفاً:

ـ يا حضرة المأمور، كرّر من فضلك ما قلته.

ـ قلت إنها كانت عينها اليمنى.

ـ لا...

سار أتيكوس حتى مكتب كاتب المحكمة وانحنى فوق اليد التي كانت تدوّن بجنون. توقفت اليد، وقلبت الصفحات، وقال كاتب المحكمة: «يا سيد فينتش، أتذكر الآن أنها كانت مضروبة على هذا الجانب من وجهها».

نظر أتيكوس إلى السيد تيت وقال:

ـ أي جانب يا هك؟ هل لك أن تكرر؟

ـ الجانب الأيمن يا سيد فينتش، ولكن كانت هناك كدمات أخرى... هل تريد أن تعرف بها؟

بدا أتيكوس وكأنه يطرح سؤالاً آخر، ولكنه فكر فيه على نحو أفضل ثم قال:

ـ نعم، ما هي الكدمات الأخرى؟

وبينما كان السيد تيت يجيب استدار أتيكوس ونظر إلى توم روبنسون وكأنه يقول إن ذاك كان أمراً لم يكونا قد راهنا عليه.

ـ... كانت ذراعاها مليئتين بالكدمات، كما أرتني عنقها. كان على حنجرتها آثار أصابع واضحة...

ـ حول حنجرتها كلها؟ في مؤخرة عنقها؟

ـ سأقول حول عنقها كلها يا سيد فينتش.

ـ ستقول؟

ـ أجل يا سيدي، فعنقها صغير، وأي شخص كان يستطيع الإحاطة به بواسطة...

ـ أجب على السؤال بنعم أو بلا من فضلك يا حضرة المأمور.

هكذا قال أتيكوس بلهجة جافة وصمت السيد تيت.

جلس أتيكوس وأشار إلى ممثل الادعاء الذي هزّ رأسه باتجاه القاضي الذي أومأ برأسه باتجاه السيد تيت الذي نهض متيبساً ونزل عن منصة الشهود.

إلى الأسفل منا، استدارت الرؤوس، واحتكت الأقدام بالأرضية، ونُقل الأطفال إلى الأكتاف، وهرب عدة أطفال من قاعة المحكمة. تهامس الزنوج الجالسون خلفنا بصوت خفيض فيما بينهم، كان ديل يسأل الكاهن سايكس عما يحدث، ولكن الكاهن سايكس قال إنه لا يعرف. حتى الآن، كانت الأمور مملّة تماماً: لم يرعد أحد، ولم تجر جدالات بين ممثل الادعاء والمحامي، ولم تكن هناك أية دراما، بل إحباط لآمال جميع الحاضرين كما يبدو. كان أتيكوس يمارس عمله بودّ وكأنه منهمك في جدال حول حق ملكية. وبقدرته اللامحدودة على تهدئة البحار الهائجة، فقد كان يستطيع أن يجعل دعوى اغتصاب تبدو جافة كموعظة. لقد ولى الرعب الذي كان يسكن ذهني، الرعب الممزوج بالويسكي المغشوش، وروائح الحظائر والرجال النكدين الناعسي العيون، والصوت الأجش الذي يصيح في ظلام الليل: «يا سيد فينتش؟ هل رحلوا؟» لقد تلاشى الكابوس مع ضوء النهار، وسيعود كل شيء كما كان.

كان المشاهدون كلهم في حالة استرخاء، كما القاضي تايلور، باستثناء جم. فقد كان فمه ملتوياً بنصف ابتسامة هادفة، وكانت عيناه سعيدتين كما قال شيئاً حول تعزيز دليل ما مما جعلني واثقة من أنه كان يتباهى.

-... روبت إي. لي يوويل.

وجواباً على صوت الكاتب المدوّي، نهض رجل ضئيل الحجم يوحي شكله بالمشاكسة ومشى بخيلاء نحو المنصة، ومؤخرة عنقه آخذة بالاحمرار من جراء سماعه لاسمه. وحين استدار ليحلف اليمين، رأينا وجهه وقد احمرّ كعنقه. لم نر أي تشابه بينه وبين ابنه الذي هو سميَّه أيضاً. كانت كومة من الشعر الضئيل المغسول حديثاً تنتصب من جبهته، كما كان أنفه نحيلاً، مدبباً ولامعاً. لم تكن له ذقن تقريباً، بل بدت وكأنها جزء من عنقه المجعّد.

صاح بتبجح: «... فليساعدني الله».

لكل بلدة في حجم مايكوم عائلات كعائلات يوويل. لم يكن من شأن أية تقلّبات اقتصادية أن تغيّر أوضاعها: فأشخاص كعائلة يوويل كانوا يعيشون كضيوف على المقاطعة في أوقات اليسر كما في أوقات الكساد الاقتصادي. لم يكن هناك من موظف لضبط التغيّب يستطيع أن يضبط دوام أولادها في المدرسة، كما لم يكن هناك من موظف صحة يستطيع تحريرهم من عللهم الخَلْقية، والأنواع المختلفة من الديدان المعوية، والأمراض الخاصة بالبيئة القذرة، التي كانوا مصابين بها.

كان أفراد عائلة يوويل يعيشون وراء مقلب قمامة البلدة فيما كان مرة كوخاً للزنوج. وقد دُعمت ألواح الكوخ الخشبية بألواح من الحديد المموّج، كما كان سطحه مغطى على نحو متراكب بعلب صفيح طرقت حتى ترققت، لذا فإن الشكل العام له هو الذي يوحي

فحسب بتصميمه الأصلي: فهو مربع، فيه أربع غرف صغيرة مفتوحة على ردهة محشورة بينها، والكوخ نفسه يستقر متقلقلاً على أربع كتل غير منتظمة من الحجر الكلسي. نوافذه عبارة عن فراغات مفتوحة في الجدران، كانت تغطى في الصيف بشرائط لزجة من أغلفة الجبن لإبعاد الهوام التي تتغذى على قمامة مايكوم.

كانت الهوام تعاني من مواسم عجفاء بسبب أن عائلة يوويل تقوم بجرد يومي كامل للقمامة، وكانت مخلفات صناعتهم تلك (أي ما لا يؤكل مما يلتقطونه من القمامة) تجعل الأرض المحيطة بالكوخ تبدو كبيت دمية لطفل مجنون: فالسياج كان أجزاء من أغصان الأشجار وأذرعة المكانس والأدوات، وكلها موضوع في رؤوسها مطارق صدئة ومذاري مكسورة الأسنان، ومجارف وفؤوس ومعازق، وقد ثبتت إلى بعضها البعض بقطع من الأسلاك الشائكة. وضمن هذا السياج/المتراس فناء قذر يحتوي على بقايا سيارة فورد (موديل T) مرفوعة على قوالب حجرية، وكرسي طبيب أسنان منبوذ، وبرّاد عتيق بالإضافة إلى مواد أخرى أقل حجماً: أحذية عتيقة، أجهزة راديو مهترئة، إطارات لوحات وبرطمانات مربّى، وبين هذا كله كانت دجاجات هزيلات تتجوّل وتنقر الأرض في أمل.

ولكن إحدى زوايا الفناء كانت تحيّر بلدة مايكوم. فعلى امتداد الحاجز، وضمن صف منتظم كانت ستة أوعية قذرة من النوع المطلي بالمينا المكسور تحمل زهور إبرة الراعي (الغرنوقي) الحمراء اللامعة، والمعتنى بها برقّة وكأنها كانت ملكاً للآنسة مودي أتيكنسون، لو أن الآنسة مودي تنازلت فسمحت لزهور إبرة الراعي بالعيش في فنائها. كان الناس يقولون إن هذه كانت لمايلا يوويل.

لم يكن هناك من يعرف عدد الأولاد بالضبط في ذلك الكوخ. فالبعض قال إنهم ستة، وقال آخرون بل تسعة: فقد كان هناك دائماً

أطفال عديدون قذرو الوجوه خلف النوافذ كلما مرّ شخص ما من هناك، ولم تكن هناك مناسبة للمرور من هناك سوى في عيد الميلاد، حين تقوم الكنيسة بتوزيع سلال الهدايا وحين يطلب منا محافظ البلدة أن نساعد عامل القمامة بأن نرمي بأنفسنا في مقلب القمامة بأشجار عيد الميلاد والنفايات.

اصطحبنا أتيكوس معه في عيد الميلاد الماضي حين استجاب لطلب المحافظ. كان هناك درب ترابي يتفرّع من الطريق العام باتجاه مقلب القمامة، وينتهي الطريق إلى مستوطنة زنجية صغيرة تبعد خمسمائة ياردة إلى ما وراء كوخ عائلة يوويل. كان من الضروري إما العودة إلى الطريق العام أو قطع الدرب كله ثم الالتفاف، وكان معظم الناس يلتفون عند المرور بالفناءات الأمامية لأكواخ الزنوج. ففي غسق كانون الأول (ديسمبر) المثلج، تبدو أكواخهم نظيفة ودافئة يخرج من مداخنها دخان أزرق فاتح اللون ومداخلها تتوهج بلون العنبر من نيران المدافئ. في المكان كانت تفوح روائح لذيذة: فراريج، ولحم الخنزير المقدد المقلي والهش كنسيم الغسق. اكتشفنا جم وأنا أنهم يطبخون السناجب، ولكن رجلاً ريفياً عجوزاً كأتيكوس هو الذي ميّز روائح قلي لحم «البوسوم»[1] والأرانب، وهي روائح تلاشت لدى عودتنا بالسيارة مروراً بمسكن عائلة يوويل.

كل ما كان لذلك الرجل الضئيل الحجم الجالس على منصة الشهود من ميزات عن أقرب جيرانه إليه كان: هو أنك إذا كشطت بصابون «القلي[2]» والماء الحار جداً بشرته فسترى أنها بيضاء.

---

(1) حيوان أمريكي من ذوات الجراب يتظاهر بالموت عندما يحدق به الخطر. (المترجم).

(2) مادة تستعمل في صنع الصابون وهي شديدة الفعالية. (المترجم).

سأله السيد غيلمر:

ـ أأنت السيد روبرت يوويل؟

أجاب الشاهد:

ـ هذا هو اسمي يا سيدي.

تصلّب ظهر السيد غيلمر قليلاً، وشعرت بالأسف عليه. ربما كان من الأفضل أن أشرح شيئاً ما هنا. لقد سمعت أن أطفال المحامين، إذا ما شاهدوا آباءهم في المحكمة، في معمعان جدال ما، فإنّهم يأخذون انطباعاً خاطئاً بأن ممثل الادعاء هو العدو الشخصي للأب المحامي، ولذا يعانون من الآلام ويدهشون حين يرونهما يخرجان من قاعة المحكمة وكل ذراعه في ذراع معذّبه خلال الاستراحة الأولى. ولكن هذا لم يكن صحيحاً بالنسبة لجم ولي. فنحن لم نتلقّ أية صدمات من جراء مراقبة أبينا يخسر أو يكسب. يؤسفني أني لا أستطيع تزويدكم بأي دراما في هذا الخصوص، ولو أني حاولت لكان ذلك غير حقيقي. كنا نستطيع على أية حال أن نعرف متى تصبح المناظرة لاذعة وليس بالأحرى حرفية، ولكن هذا ما لاحظناه من مراقبة محامين آخرين غير والدنا. لم أسمع أتيكوس يرفع صوته أبداً في حياتي، إلاّ إذا كان يخاطب شاهداً ثقيل السمع. كان السيد غيلمر يؤديّ واجبه وكذلك أتيكوس. وإلى جانب ذلك، كان السيد يوويل هو شاهد السيد غيلمر، ولم يكن من شأنه أن يكون جلفاً معه دون الناس جميعاً.

كان السؤال التالي هو:

ـ هل أنت والد مايبلا يوويل؟

وكان الجواب:

ـ حسناً إنْ لم أكن أنا أبوها فلا أستطيع شيئاً حيال ذلك الآن، فأمها قد ماتت.

تحرك القاضي تايلور في مكانه. استدار ببطء في كرسيه الدوار ونظر باعتدال إلى الشاهد ثم سأله بطريقة جعلت الضحك الصادر عن الجالسين إلى الأسفل منّا يتوقف فجأة:

ـ هل أنت والد مايلا يوويل؟

أجاب السيد يوويل بخنوع:

ـ أجل يا سيدي.

استمر القاضي تايلور في لهجته التي تدل على النية الطيبة:

ـ هل هذه هي المرة الأولى التي تمثل فيها أمام المحكمة؟ لا أتذكر أنه سبق لي ورأيتك هنا.

وبعد أن أجاب الشاهد بإيماءة من رأسه، استأنف القاضي كلامه قائلاً:

ـ حسناً، لندخل في الموضوع مباشرة. لن يكون هناك أية إيحاءات بذيئة مسموعة حول أي موضوع من أي شخص في هذه المحكمة طالما كنت هنا. هل تفهم؟

أومأ السيد يوويل برأسه، ولكني لا أعتقد أنه فهم، فقد تنهد القاضي وقال:

ـ حسناً يا سيد غيلمر؟

ـ شكراً يا سيدي. يا سيد يوويل، هل لك أن تحكي لنا وبكلماتك أنت ما الذي حدث في مساء يوم الحادي والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، من فضلك؟

ابتسم جم ودفع شعره إلى الخلف. فعبارة «بكلماتك أنت» كانت من العلامات التجارية المميزة للسيد غيلمر. غالباً ما كنا نتساءل إن كان الشاهد يستخدم كلمات شخص آخر، ومن هو ذلك الشخص يا ترى؟

ـ حسناً، في ليلة الحادي والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)... كنت قادماً إلى البيت من الغابات حاملاً بعض الحطب وما أن وصلت إلى السياج حتى سمعت مايبلا تصرخ كخنزير مطعون في حنجرته داخل المنزل.

هنا نظر القاضي بحدة إلى الشاهد ولا بد أنه لاحظ أن إيحاءاته خالية من القصد الشرير، فقد استرخى على نحو ناعس.

ـ في أي وقت حدث ذلك؟

ـ قبل المغيب مباشرة. حسناً. قلت لنفسي إن مايبلا كانت تصرخ بجنون يجعلها تضرب حتى المسيح لو كان أمامها.

ولكن نظرة أخرى من المنبر أخرست السيد يوويل.

قال السيد غيلمر:

ـ حسناً؟ هل كانت تصرخ؟

نظر السيد يوويل بحيرة نحو القاضي ثم قال:

ـ حسناً، كانت مايبلا تصيح ذلك الصياح المقدس ولذا أسقطت حملي وركضت بأسرع ما أستطيع ولكني اصطدمت بالسياج، وحين استطعت أن أفلت منه أسرعت نحو النافذة ورأيت...

وهنا أصبح وجه السيد يوويل قرمزياً. نهض وأشار بأصبعه إلى توم روبنسون وقال:

ـ رأيت ذاك الزنجي الأسود يواقع ابنتي مايبلا.

كانت قاعة محكمة القاضي تايلور هادئة جداً إلى حد أنه لم يستعمل مطرقته سوى مرات قليلة، ولكنه ظل يطرق بها الآن خمس دقائق كاملة. كان أتيكوس قد انتصب واقفاً عند المنبر وهو يقول شيئاً للقاضي. أما السيد هك تيت كأعلى ضابط شرطة في المديرية فقد وقف في الممشى الأوسط وهو يهدئ قاعة المحكمة المكتظة بالناس. إلى الخلف منا، بدرت أنّة غاضبة مكتومة من الناس الملّونين.

انحنى الكاهن سايكس فوق ديل وفوقي وهو يشدّ جم من مرفقه وقال:

ـ يا سيد جم، الأفضل أن تأخذ الآنسة جان لويز إلى البيت. يا سيد جم، هل تسمعني؟

التفت جم وقال:

ـ سكاوت اذهبي إلى البيت. يا ديل، اذهبا إلى البيت كلاكما.

قلت وأنا أتذكر قولاً مأثوراً لأتيكوس:

ـ عليك أن تجبرني على ذلك بالقوة.

قطب جم بسخط باتجاهي، ثم قال للكاهن سايكس:

ـ أعتقد أنه لا بأس من بقائها يا حضرة الكاهن، فهي لا تفهم على أية حال.

جُرحت مشاعري جرحاً مميتاً فقلت:

ـ بل أفهم بكل تأكيد، وأستطيع أن أفهم كل ما تفهمه أنت.

ـ صه. إنها لا تفهم يا حضرة الكاهن، فهي لم تبلغ التاسعة بعد.

كانت عينا الكاهن سايكس السوداوان قلقتين. قال:

ـ هل يعرف السيد فينتش أنكم هنا؟ ليس هذا مناسباً للآنسة جان لويز، ولا حتى لكما أيها الصبيّان.

هز جم رأسه وقال:

ـ لا يستطيع أن يرانا من هذا البعد. لا بأس يا حضرة الكاهن.

كنت أعرف أن جم سيكسب لأني أدركت أن لا شيء يمكن أن يجعله يغادر الآن. إذن كنا في أمان ديل وأنا، على الأقل لفترة ما: فأتيكوس يستطيع أن يرانا من حيث كان، هذا إذا نظر باتجاهنا.

وحين قرع القاضي تايلور بمطرقته، كان السيد يوويل جالساً باعتداد في كرسي الشهود، وهو يراقب ما صنعته يداه. فبعبارة واحدة حوّل المتنزهين السعيدين إلى جمهور عابس متوتر مهمهم، منوَّم مغناطيسياً ببطء على طرقات المطرقة التي راحت حدّتها تخف حتى أصبح الصوت الوحيد في قاعة المحكمة عبارة عن نقرات خفيفة: ربما كان القاضي يضرب طاولته بقلم رصاص.

وبعد أن عاد القاضي تايلور إلى السيطرة على محكمته مرة أخرى، استرخى من جديد في كرسيه. بدا متعباً فجأة، فقد ظهرت عليه بوادر الشيخوخة، وفكرت فيما قاله أتيكوس: فهو والسيدة تايلور لم يعودا يقبّلان بعضهما بعضاً كثيراً: لا بدّ وأنه في السبعين الآن.

قال القاضي:

ـ كان هناك طلب بإخلاء القاعة من المشاهدين، أو من النساء والأطفال على الأقل، ولكننا سنرفض هذا الطلب مؤقتاً. يرى الناس عادة ما يبحثون عنه، ويسمعون ما يصغون إليه، ولهم الحق في إخضاع أولادهم لذلك، ولكني سأؤكد لكم أمراً واحداً: عليكم أن تسمعوا وتروا ما تسمعونه وترونه بصمت أو ستغادرون هذه القاعة، ولكنكم لن تغادروها حتى تتم محاكمتكم جميعاً بتهمة تحقير المحكمة. يا سيد يوويل، عليك أن تبقي شهادتك ضمن اللغة الإنكليزية المسيحية، إذا أمكن. تفضل يا سيد غيلمر.

ذكرني السيد يوويل بالصم والبكم. كنت على ثقة من أنه لم يسمع كلمات القاضي تايلور الموجهة إليه: فقد كان فمه يناضل بصمت ضدها، ولكن وجهه أظهر تأثيرها عليه. لم يعد الاعتداد بادياً عليه، بل حل محله نوع من الاهتمام العنيد الذي لم ينطل على القاضي إطلاقاً: وطوال مكوث السيد يوويل على منصة الشهادة، كانت عينا القاضي مركّزتين عليه، وكأنه يتحداه أن يقوم بحركة خاطئة.

تبادل السيد غيلمر وأتيكوس النظرات. كان أتيكوس قد جلس مرة أخرى، وقد أبقى قبضته على خدّه وكنا نستطيع مشاهدة وجهه. كان السيد غيلمر يبدو يائساً نوعاً ما. ولكن سؤالاً بدر عن القاضي جعله يسترخي، إذ قال:

ـ يا سيد يوويل، هل شاهدت المتهم يقيم علاقة جنسية مع ابنتك؟

ـ نعم لقد رأيتُه.

كان الجمهور هادئاً، ولكن المتهم قال شيئاً. همس أتيكوس شيئاً ما فصمت توم روبنسون.

سأل السيد غيلمر:

ـ قلت إنك كنت عند النافذة؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ وكم تبعد النافذة عن الأرض؟

ـ حوالي ثلاث أقدام.

ـ هل كنت قادراً على رؤية الغرفة بوضوح؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ يكيف بدت الغرفة؟

ـ حسناً، كانت في حالة من الفوضى وكأن عراكاً قد حصل.

ـ وماذا فعلت حين رأيت المتهم؟

ـ حسناً، لقد درت من حول المنزل لأدخل، ولكنه خرج من الباب الأمامي قبلي مباشرة. وقد ميّزته جيداً. ولكني كنت منشغلاً جداً بماييلا بحيث لم ألحق به. أسرعت إلى داخل البيت وكانت مستلقية على الأرض وهي تزعق...

ـ إذن ماذا فعلت؟

ـ حسناً، لقد ركضت إلى مكتب السيد تيت بأسرع ما استطعت. فقد كانت أعرف الفاعل جيداً إذ أنه يعيش في وكر الزنوج القريب ويمرّ بالقرب من المنزل كل يوم. يا حضرة القاضي، إني أطالب المقاطعة منذ خمسة عشر عاماً بأن تطهّر ذلك الوكر القريب من منزلي، فهؤلاء الناس خطرون كجيران، زيادة على أنهم يخفّضون من قيمة ممتلكاتي...

قال السيد غيلمر بلهجة مستعجلة:

ـ شكراً يا سيد يوويل.

هبط الشاهد بسرعة من على المنصّة واصطدم بقوة بأتيكوس الذي نهض ليستجوبه. سمح القاضي للحاضرين بالضحك.

قال أتيكوس بلطف:

ـ لحظة يا سيد. هل يمكنني أن أسألك سؤالاً أو سؤالين؟

عاد السيد يوويل إلى منصة الشهود، ثم جلس، وراقب أتيكوس بارتياب متعال، وهو تعبير شائع لدى شهود مقاطعة مايكوم حين يُواجهون بمحامي الخصم.

قال أتيكوس:

ـ يا سيد يوويل، يبدو أن الناس مارسوا الكثير من الركض تلك الليلة. هيّا نَرَ ما حدث: فأنت تقول إنك ركضت إلى المنزل، وركضت إلى النافذة، وركضت إلى الداخل، وركضت إلى مايلا وركضت إلى السيد تيت. هل ركضت خلال كل ذلك الركض نحو الطبيب؟

ـ لم يكن هناك من داع لذلك. فقد رأيت ما حدث.

ـ ولكن هناك شيء لا أفهمه. ألم تكن مهتمّاً بحالة مايلا؟

ـ كنت مهتماً جداً. لقد رأيت من فعل ذلك.

ـ لا، أعني حالتها الصحية. ألم تفكر بأن طبيعة جروحها تتطلب اهتماماً طبياً فورياً؟

ـ ماذا؟

ـ ألم تجد أنه من الضروري أن تجلب لها طبيباً على الفور؟

قال الشاهد إنه لم يفكر بذلك أبداً، فهو لم يستدع طبيباً لأي من أولاده طوال حياته، ولو أنه اضطر إلى ذلك فسيكلفه ذلك خمسة دولارات. ثم أضاف:

ـ أهذا كل ما في الأمر؟

قال أتيكوس بلهجة عرضية:

ـ ليس تماماً. يا سيد يوويل، لقد سمعتَ شهادة المأمور. أليس كذلك؟

ـ ماذا تعني؟

ـ كنتَ في قاعة المحكمة حين كان السيد هك تيت على منصة على منصة الشهود، أليس كذلك؟ لقد سمعتَ كل ما قاله، أليس كذلك؟

درس السيد يوويل المسألة بعناية وبدا عليه أنه قرر أن السؤال آمن. قال:

ـ نعم.

ـ هل توافق على وصفه لجروح مايلا؟

نظر أتيكوس نحو السيد غيلمر وابتسم. بدا على السيد يوويل أنه مصمم على ألا يمنح الدفاع الفرصة للنجاح.

ـ لقد شهد السيد تيت قائلاً إن عينها اليمنى كانت مسودة، وإنها كانت مصابة فيما حول...

قال الشاهد:

ـ حسناً حسناً، أوافق السيد تيت على كلّ ما قاله.

سأله أتيكوس برقة:

ـ هل توافق فعلاً؟ كل ما أريده هو أن أتأكد من الموضوع.

ثم سار نحو كاتب الحكمة، وقال له شيئاً، وقد قام الكاتب بتسليتنا عدة دقائق بإعادة قراءة شهادة السيد تيت بطريقة بدا معها أنه يقرأ أسعار سوق الأسهم: «.. أجل حسناً، إنها عينها اليمنى إذن. لقد كانت عينها اليمنى يا سيد فينتش. أتذكر الآن لقد كانت مضروبة». ثم قلب الصفحة وقرأ: «على هذا الجانب من وجهها يا حضرة المأمور كرر من فضلك ما قلته. قلت إنها كانت عينها اليمنى».

قال أتيكوس:

ـ شكراً يا «بيرت». لقد سمعت الشهادة مرة أخرى يا سيدي يوويل. هل لديك ما تضيفه على ذلك؟ هل توافق على ما قاله المأمور؟

ـ أؤيد تيت. كانت عينها مسودة وكانت قد تعرضت لضرب شديد.

بدا الرجل الضئيل وكأنه نسي الإذلال الذي تعرض له سابقاً من القاضي. وكان يتضح أنه ظن أتيكوس نداً سهلاً. وبدا وجهه يحمر مرة أخرى، كما انتفخ صدره، وأصبح من جديد ديكاً صغيراً أحمر. وظننت أن قميصه سيتمزق عند سؤال اتيكوس التالي:

ـ يا سيد يوويل، هل تستطيع أن تقرأ وتكتب؟

هنا قاطع اليد غيلمر قائلاً:

ـ اعتراض. لا أرى علاقة لقدرة الشاهد على القراءة والكتابة بهذه القضية، وأعتقد أن السؤال لا علاقة له بالموضوع وغير هام.

كاد القاضي يقول شيئاً ولكن أتيكوس سبقه فقال:

ـ يا سيدي القاضي، إذا سمحت بهذا السؤال والسؤال اللاحق فستعرف فوراً علاقته بالموضوع.

قال القاضي:

ـ حسناً، لنر، ولكن أريدك أن تجعلنا نعرف يا أتيكوس. الاعتراض مرفوض.

بدا على السيد غيلمر الفضول حول علاقة قدرة السيد يوويل على الكتابة والقراءة بالقضية.

قال أتيكوس:

ـ سأكرر السؤال: هل تستطيع القراءة والكتابة؟

ـ طبعاً.

ـ هل لك أن تكتب اسمك وترينا إياه؟

ـ سأفعل ذلك. كيف تظن أني وقع شيكات الإعانة إذن؟

كان السيد يوويل يحاول تحبيب المواطنين به. وكانت الهمسات والضحكات الخافتة الصادرة عن الطابق الأول تدور حول هذا الشخص، وكم هو مسكين.

بدأت أشعر أني أصبحت عصبية. بدا أتيكوس وكأنه يعرف ما يفعله، إلا أن الأمر راح يبدو لي وكأنه ذاهب لصيد الضفادع دون ضوء. محظور محظور محظور عليك كمحام أن تسأل شاهداً سؤالاً لا تعرف الجواب عليه مسبقاً، وكانت تلك عقيدة رضعتها مع

الحليب. افعل ذلك، وستحصل غالباً على جواب لا تريده، جواب قد يجعلك تخسر الدعوى.

كان أتيكوس يبحث في جيب جاكيته عن شيء ما. أخرج مظروفاً ثم أخرج قلمه من صدريته. كان يتحرك ببطء، وقد التفت بحيث يراه المحلفون جيداً. فتح غطاء قلمه وركبه على القلم بلطف. ثم هزّ القلم قليلاً وسلّمه مع المظروف إلى الشاهد، وقال له:

ـ هل لك أن تكتب اسمك عليه؟ أريده واضحاً حتى يراك المحلفون تفعل ذلك.

كتب السيد يوويل على ظهر المظروف ثم رفع نظره برضا عن الذات ليرى القاضي يحدق فيه وكأنه زهرة كاردينيا عطرة في أوج تفتحها على منصة الشهادة، وليرى السيد غيلمر نصف جالس نصف واقف عند منضدته. كان المحلفون يراقبونه، وكان أحدهم ينحني إلى الأمام ويداه فوق الحاجز.

سأل:

ـ ما المهم في الموضوع.

قال القاضي:

ـ أنت أعسر يا سيد يوويل.

استدار السيد يوويل بغضب نحو القاضي وقال إنه لا يرى علاقة بين كونه أعسر وبين هذه القضية، وإنه رجل يهاب المسيح وإن أتيكوس فينتش يحتال عليه. إن المحامين الماكرين من أمثال أتيكوس فينتش يحتالون عليه طوال الوقت بأساليبهم الماكرة. لقد أخبرهم بما حدث، وسيقول ذلك مراراً وتكراراً، وقد فعل ما وعد به: فكل ما سأله إياه أتيكوس بعد ذلك لم يجعله يغير إفادته، فقد نظر من النافذة ثم ركض فهرب الزنجي، ثم ركض نحو الشريف. وأخيراً صرفه أتيكوس.

سأله السيد غيلمر سؤالاً آخر:

ـ بالنسبة لكتابتك باليد اليسرى، هل أنت قادر على استعمال كلتا يديك بالبراعة نفسها يا سيد يوويل؟

ـ لست كذلك إطلاقاً. أستطيع استعمال إحدى يديّ كالأخرى تماماً. اليد الواحدة كالأخرى.

ثم نظر بغضب إلى منضدة الدفاع.

بدا جم وكأنه في نوبة هادئة إذ كان يضرب حاجز الشرفة برقة، وهمهم مرة قائلاً:

ـ لقد أمسكنا به.

لم أكن من الرأي نفسه، فقد كان أتيكوس يحاول أن يظهر ـ كما بدا لي ـ أنه من المحتمل أن يكون السيد يوويل هو الذي ضرب مايلا. لقد استطعت أن أتابع الأمر إلى ذلك الحد. إذا كانت عينها اليمنى هي المسودة من الضرب وكانت إصابتها في معظمها في الجهة اليمنى من الوجه، فهذا سيظهر أن الذي ضربها شخص أعسر. كان شرلوك هولمز وجم فينتش سيوافقان على ذلك. ولكن يمكن أن يكون توم روبنسون أعسر أيضاً. وقد تخيلت شأن السيد هك تيت أن شخصاً يواجهني مثلاً ثم تخيلت في ذهني وبسرعة حركات إيمائية سريعة، واستنتجت أنه من الممكن أن يكون قد أمسك بها بيده اليمنى وضربها بيده اليسرى. نظرت إليه. كان ظهره لنا، ولكني استطعت رؤية كتفيه العريضتين وعنقه الأشبه بعنق الثور ثخانة. كان يمكنه بكل سهولة أن يكون قد فعل ذلك. اعتقدت أن جم يستعجل الحكم على الأمور.

* * *

الفصل الثامن عشر

ولكن شخصاً ما كان يصيح مرة أخرى:

ـ مايبلا فايوليت يوويل...

سارت فتاة شابة نحو منصة الشهادة. وبينما كانت ترفع يدها وتقسم أن الشهادة التي ستقدمها ستكون هي الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة وليساعدها الله على ذلك، بدا عليها أنها رقيقة التكوين، ولكن حين جلست وأصبحت في مواجهتنا على كرسي الشهود، بدت على حقيقتها: فتاة ذات جسد قوي التركيب معتادة على العمل المضني.

في مقاطعة مايكوم كان من السهل أن تعرف الشخص الذي يستحم على نحو منتظم، بالمقارنة مع أولئك الذين يستحمون مرة في السنة: كان للسيد يوويل مظهر يبدو معه وكأنه مسلوق سلقاً، فقد نقع جسده بالماء لليلة واحدة مما حرمه من طبقات وقائية من القذارة، وبدت بشرته حساسة لعناصر الطبيعة. أما مايبلا فبدت وكأنها فتاة تحاول أن تبقي نفسها في حالة من النظافة، وتذكرت صف أصص زهرة الغونوقي في فناء منزل عائلة يوويل.

طلب السيد غيلمر من مايبلا أن تحكي للمحلّفين بكلماتها هي بالذات عمّا حدث مساء يوم الحادي والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) من العام الماضي، بكلماتها هي بالضبط إذا تفضلت.

كانت مايبلا تجلس صامتة.

بدأ السيد غيلمر بصبر:

ـ أين كنت عند الغسق في ذلك المساء؟

ـ على الرواق.

ـ أي رواق؟

ـ لا يوجد سوى رواق واحد، الأمامي.

ـ ما الذي كنت تفعلينه على الرواق؟

ـ لا شيء.

قال القاضي تايلور:

ـ إحك لنا ما حدث فحسب، دون زيادة أو نقصان، هل لـك أن تفعلي ذلك؟

حـدقت مـاييلا فيـه ثم أجهـشت بالبكـاء. غطـت فمهـا بيـديها وانتحبت. سمح لها القاضي بالبكاء لفتـرة ثم قـال: «يكفـي هـذا الآن. لا تخافي من أي شخص موجود هنا، طالما كنت تقولين الحقيقة. هذا كله غريب عليك، أعـرف ذلـك، ولكـن لـيس عليـك أن تخجلـي أو تخافي من أي شيء. ما الذي تخشينه؟».

تلفظت مايلا بشيء ما ويداها على فمها.

سألها القاضي:

ـ ما الذي قلته؟

ـ هو.

انتحبت وهي تشير إلى أتيكوس.

ـ السيد فينتش؟

أومأت برأسها بشدة قائلة:

ـ لا أريده أن يفعل بي ما فعله بأبي، فقد حاول أن يجعله يبدو أعسر...

حك القاضي تايلور شعره الأبيض الكثيف. من الواضح أنه لم يُواجَه سابقاً بمشكلة من هذا النوع. سألها:

ـ كم عمرك؟

ـ تسعة عشر عاماً ونصف.

تنحنح القاضي وحاول دون نجاح أن يتحدث بلهجة ملطفّة. زأر:

ـ ليس لدى السيد فينتش أية نية في تخويفك، ولو فعل فأنا هنا لأمنعه. وهذا شيء من بين أشياء أخرى هي من صميم عملي. والآن، هيا، فأنت فتاة كبيرة. ارفعي رأسك وقولي لنا... قولي لنا ما حدث لك. يمكنك ذلك، هه؟

همست لجم:

ـ هل لديها حدس سليم؟

كان جم ينظر نحو منصة الشهادة. قال:

ـ لا نستطيع أن نعرف بعد. لديها من العقل ما يكفي لجعل القاضي يشعر بالأسى عليها، ولكنها قد تكون مجرد... أوه، لا أعرف.

بعد أن هدأت، قامت مايلا وحدجت أتيكوس بنظرة مليئة بالرعب وقالت للسيد غيلمر:

ـ حسناً يا سيدي، لقد كنت واقفة على الرواق و... ومرّ هو وكما ترى، كانت هناك تلك الخزانة في الفناء التي جلبها والدي لنحطّبها.. قال لي والدي إن عليّ أن أفعل ذلك بينما هو في الغابات، ولكني لم أكن أشعر بالقوة الكافية، وجاء هو...

ـ «من هو»؟

أشارت مايلا إلى توم روبنسون.

قال السيد غيلمر:

ـ سأضطر إلى أن طلب منك أن تكوني أكثر تخصيصاً. أرجوك. فالكاتب لا يستطيع أن يسجّل الإيماءات على نحو جيد.

قالت:

ـ ذاك الذي هناك. روبنسون.

ـ إذن ما الذي حدث؟

ـ قلت له: «تعال إلى هنا يا زنجي وحطّب لي هذه الخزانة، وسأعطيك خمسة سنتات». كان يستطيع أن يفعل ذلك بكل سهولة. وهكذا دخل الفناء ودخلت المنزل لأحضر له الخمسة سنتات ثم التفتّ فجأة وقبل أن أدرك ما حدث كان قد انقض عليّ. كان قد تسلل خلفي، لقد فعل ذلك. لف ذراعه حول عنقي وهو يشتمني ويقول كلاماً قذراً... قاتلته وصرخت، ولكنه كان قد أمسك بي من عنقي. وقد ضربني المرة تلو الأخرى...

انتظر السيد غيلمر حتى استعادت مايلا رباطة جأشها: كانت قد لوت منديلها فتحوّل إلى حبل متعرق: وحين فتحته لتمسح وجهها كان عبارة عن كتلة من التجعيدات من ضغط يديها الحارتين. انتظرت السيد غيلمر حتى يسألها سؤالاً آخراً، ولكنه حين لم يفعل قالت:

ـ رماني إلى الأرض وكان يمسكني من عنقي واغتصبني.

سأل السيد غيلمر:

ـ هل صرختِ؟ هل صرختِ ودافعتِ عن نفسك؟

ـ أعتقد أني فعلتُ، فقد صرخت بأقوى ما استطعت، ورفست وصحت بأعلى ما استطعتُ.

ـ ثم ماذا حدث؟

ـ لا أتذكر جيداً، ولكن الشيء التالي الذي أتذكره هو أني عرفت أن بابا كان في الغرفة يقف فوقي ويصرخ: «من الذي فعل ذلك؟ من هو؟» ثم أغمي علي والشيء التالي الذي أتذكره هو السيد تيت وهو يرفعني عن الأرض ويقودني إلى دلو الماء.

من الواضح أن سرد ماييلا قد منحها الثقة، ولكنها لم تكن بثقة أبيها الوقحة: فقد كان هناك شيء ما فيها يوحي بالخلسة، كهرّة ذات عينين ثابتتين وذيل مرتعش.

سألها السيد غيلمر:

ـ قلت إنك دافعت عن نفسك بأقوى ما تستطيعين. دافعت بالأسنان والأظافر؟

ـ لقد فعلت ذلك بكل تأكيد.

ـ هل أنت متأكدة من أنه اغتصبك بمعنى الكلمة؟

التوت قسمات مايلا، وخشيت أن تنخرط في البكاء مرة أخرى. ولكنها قالت بدلاً عن ذلك:

ـ لقد فعل ما كان ينويه.

لفت السيد غيلمر الانتباه إلى القيظ بأن مسح رأسه بيده. قال بلطف:

ـ حسناً، هذا كل ما هنالك الآن. ولكن ابقي هنا. فأنا أتوقع من السيد فينتش الضخم الشرير أن يسألك بعض الأسئلة.

همهم القاضي تايلور بلهجة متزمتة:

ـ لا يتوجب على ممثل النيابة أن يجعل الشاهد يتحامل على وكيل الدفاع، على الأقل ليس في هذه المرة.

نهض تيكوس مبتسماً، ولكنه بدلاً عن أن يسير نحو منصة الشهود فتح معطفه وعلّق إبهاميه في صدريته، ثم مشى ببطء عبر

القاعة نحو النوافذ. نظر إلى الخارج، ولكنه لم يَبْدُ مهتماً تماماً بما رآه، ثم التفت وسار بسرعة نحو منصة الشهود. ومن سنوات طويلة من الخبرة، استطعت أن أعرف أنه كان يحاول الوصول إلى قرار حول شيء ما.

قال مبتسماً:

- آنسة مايبلا، لن أحاول إخافتك لفترة ما، لم يئن الأوان بعد. ولكن هيا نتعرّف الواحد على الآخر. كم هو عمرك؟

- سبق وقلت إني في التاسعة عشرة، قلت ذلك للقاضي الذي هناك.

وهنا أشارت مايبلا برأسها نحو منبر القاضي بامتعاض.

- أجل، لقد فعلتِ ذلك، أجل يا سيدتي. عليك أن تحتمليني يا آنسة مايبلا، فأنا أشيخ ولا أستطيع الآن أن أتذكر جيداً كما كنت في السابق. قد أسألك عن أشياء سبق لك وقلتِها، ولكنك ستجيبيني، أليس كذلك؟ هذا حسن.

لم أستطع أن أرى أي شيء في تعابير مايبلا يبرّر افتراضه بأنه قد ضمن تعاونها الكامل معه. فقد كانت تنظر إليه بسخط شديد.

قالت:

- لن أجيب على كلمة واحدة تقولها طالما تواظب على السخرية مني.

سألها أتيكوس وقد أخذته المفاجأة:

- ماذا يا سيدتي؟

- طالما تهزأ مني.

قال القاضي تايلور:

- السيد فينتش لا يهزأ منك. ما حكايتك؟

نظرت مايبلا من تحت جفنيها المسدلين إلى أتيكوس، ولكنها قالت للقاضي:

ـ طالما يدعوني بسيدتي ويقول لي يا آنسة مايبلا فلست مضطرة إلى قبول طريقته في ازدرائي، لست مضطرة إلى ذلك.

استأنف أتيكوس مشيته نحو النوافذ وترك للقاضي تايلور معالجة هذا الموضوع. لم يكن القاضي تايلور من ذلك النوع من الأشخاص الذين يثيرون الشفقة، ولكني أحسست بالشفقة عليه وهو يحاول الشرح. قال لمايبلا:

ـ هذا هو أسلوب السيد فينتش. لقد عملنا معاً في هذه المحكمة منذ سنوات وسنوات، والسيد فينتش مهذب دائماً مع الجميع. إنه لا يحاول الهزء بك، بل يحاول أن يكون مهذباً. هذا هو أسلوبه فحسب.

عاد القاضي ليسند ظهره إلى كرسيه، وقال:

ـ يا أتيكوس، هيا نتابع هذه الإجراءات، وعلى الكاتب أن يسجل أن الشاهدة لم تتعرض للهزء بها، بل العكس هو الصحيح.

تساءلت في نفسي إن كان قد سبق لأي شخص أن ناداها بـ«سيدتي» أو «الآنسة مايبلا»، ربما لا، حيث أنها انزعجت من مجرد سماعها لتعابير الكياسة الروتينية. كيف هي حياتها يا ترى؟ سرعان ما وجدتُ الجواب.

استأنف أتيكوس:

ـ تقولين إنك في التاسعة عشرة، كم أخت وأخ لديك؟

ثم سار من النوافذ عائداً إلى المنصة.

أجابت:

ـ سبعة.

وتساءلت في نفسي إن كانوا كلهم من تلك العيّنة التي رأيتها في أول أيام المدرسة.

ـ هل أنت كبراهم؟

ـ نعم.

ـ منذ متى ماتت أمكم؟

ـ لا أعرف. منذ وقت طويل.

ـ هل سبق لك وذهبت إلى المدرسة؟

ـ أكتب وأقرأ على نحو جيد كبابا الجالس هناك.

ذكرتني مايلا بشخصية في كتاب قرأته اسمها «السيد جينغل».

ـ كم بقيت في المدرسة؟

ـ سنتان... ثلاث... لا أدري.

ببطء ولكن بثقة بدأت أرى نمط أسئلة أتيكوس: فمن أسئلة كان السيد غيلمر لا يجدها غير ذات صلة بالموضوع أو غير أساسية بحيث يعترض عليها، كان أتيكوس يرسم ويبطء أمام المحلّفين صورة للحياة العائلية لأسرة يوويل. فقد عرفت هيئة المحلّفين ما يلي: كانت شيكات الإعانة غير كافية إطلاقاً لإطعام العائلة، وكان هناك شك كبير في أن الأب يسكر بثمنها... فقد كان يغيب أحياناً في المستنقع لأيام بحالها ويعود مريضاً: نادراً ما كان الطقس بارداً بما فيه الكفاية ليتطلب ارتداء حذاء، ولكن حين كانوا يحتاجون إلى حذاء، كانوا يصنعونه من قطع العجلات القديمة. كانت العائلة تستقي الماء بالدلاء من نبع كان ينبثق من أحد أطراف مقلب القمامة. وكانوا يبقون المنطقة المحيطة به نظيفة من القمامة. وبالنسبة إلى النظافة كان على كل واحد منهم أن يعتني بنفسه: إذا أردت أن تغتسل فعليك أن تحضر الماء

بنفسك. كان الأطفال الأصغر سناً مصابون بالزكام الدائم ويعانون من مرض الحكة المزمنة. وكانت هناك سيدة تأتي أحياناً وتسأل ماييلا عن السبب في عدم بقائها في المدرسة: وقد سجلت الجواب كما يلي:

طالما كان في العائلة اثنان يستطيعان الكتابة والقراءة فلا حاجة أن تتعلم البقية : فقد كان بابا في حاجة إلى وجودهم في البيت.

قال أتيكوس رغماً عن أنفه:

ـ يا آنسة مايبلا... إن فتاة مثلك في التاسعة عشرة من العمر لا بد وأن يكون لها أصدقاء. من هم أصدقاؤك؟

قطبت الشاهدة كأنها قد وقعت في مأزق. قالت:

ـ أصدقاء؟

ـ أجل، ألا تعرفين أحداً في سنك أو أكبر قليلاً، أو أصغر؟ شبان وفتيات؟ مجرد أصدقاء عاديين؟

اشتعل عداء مايبلا مرة أخرى بعد أن كان قد خمد متحولاً إلى حيادية حاقدة، فقالت:

ـ أتهزأ بي مرة أخرى يا سيد فينتش؟

ترك أتيكوس سؤالها يجيب على سؤاله.

كان سؤاله التالي:

ـ هل تحبّين أباك يا آنسة مايبلا؟

ـ أحبّه، ماذا تعني؟

ـ أعني، هل هو طيّب معك، هل التعامل معه سهل؟

ـ إنه محتمل إلا حين...

ـ إلا حين ماذا؟

نظرت مايلا إلى أبيها، الذي كان جالساً وكرسيه مسند على الحاجز. عدّل جلسته وراح ينتظر جوابها.

قالت مايلا:

ـ إلا حين لا شيء. قلت إنه ممكن احتماله.

مال السيد يوويل في كرسيه مرة أخرى.

سألها أتيكوس بلطف شديد:

ـ إلا حين يشرب؟

فكان أن أومأت برأسها موافقة.

ـ هل يضربك؟

ـ ماذا تعني؟

ـ حين يكون غاضباً، هل يضربك عادة؟

نظرت مايلا فيما حولها، ثم نحو كاتب المحكمة، ثم إلى القاضي.

قال القاضي:

ـ أجيبي على السؤال يا آنسة مايلا.

صرخت بثبات:

ـ لم يسبق لبابا أن لمس شعرة في رأسي طوال حياتي. لم يلمسني مرة واحدة.

كانت نظارتا أتيكوس قد انزلقتا قليلاً، فدفعهما نحو أعلى أنفه. قال:

ـ لقد كانت محادثتنا جيدة حتى الآن يا آنسة مايلا، والآن أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نعالج القضية. تقولين إنك طلبت من توم روبنسون أن يأتي ليكسر لك... ما كان ذلك؟

ـ خزانة، خزانة عتيقة ذات أدراج من جانب واحد.

ـ هل كنت على معرفة جيدة بتوم روبنسون؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني هل كنت تعرفين من هو، وأين يعيش؟

أومأت مايبلا برأسها وقالت:

ـ كنت أعرف من هو، فقد كان يمرّ بالقرب من المنزل كل يوم.

ـ هل كانت تلك أول مرة تطلبين منه أن يدخل إلى ما وراء السياج؟

أجفلت مايبلا قليلاً لدى سماعها السؤال. كان أتيكوس يقوم برحلة حجّ بطيئة نحو النوافذ، كما كان يفعل طوال الوقت: كان يطرح سؤالاً ثم ينظر إلى الخارج وينتظر الجواب. لم يَرَ إجفالها اللاإرادي ووثبتها في مكانها وهي جالسة، ولكن بدا لي أنه يعرف أنها تحركت. استدار ثم رفع حاجبيه وقال:

ـ هل كنت تلك...؟

ـ نعم.

ـ ألم يسبق لك أن طلبت منه أن يدخل إلى ما وراء السياج؟

الآن كانت جاهزة للإجابة:

ـ لم أفعل، وبكل تأكيد لم أفعل.

قال أتيكوس بهدوء:

ـ إنّ «لم أفعل» واحدة تكفي. ألم تطلبي منه أن يؤدي لك خدمات كتلك من قبل؟

تنازلت مايبلا قائلة:

ـ ربما أكون قد فعلت ذلك. كان هناك عدة زنوج في الجوار.

ـ هل تتذكرين أية مناسبات أخرى؟

ـ لا.

ـ حسناً، والآن إلى ما حدث. قلت إن توم روبنسون كان خلفك في الغرفة حين التفتّ، هل هذا صحيح؟

ـ نعم.

ـ قلت إنه «لف ذراعه حول عنقك وهو يشتمك ويقول كلاماً قذراً». هل هذا صحيح؟

ـ نعم صحيح.

أصبحت ذاكرة أتيكوس دقيقة فجأة. قال:

ـ تقولين: «رماني وأمسك بي من عنقي واغتصبني».. هل هذا صحيح؟

ـ هذا ما قلته.

ـ هل تذكرين أنه ضربك على وجهك؟

ترددت الشاهدة.

ـ تبدين واثقة تماماً بأنه أمسك بك من عنقك. وفي تلك الأثناء كنت تدافعين عن نفسك، ألا تتذكرين؟ فأنت «رفسته وصرخت بأقوى ما استطعت». هل تتذكرين أنه ضربك على وجهك؟

كانت مايبلا صامتة. بدا أنها تحاول أن توضح شيئاً ما لنفسها. واعتقدت لبرهة أنها كانت تمارس حيلة السيد تيت وحيلتي في التظاهر بأن شخصاً ما كان أمامها. نظرت إلى السيد غيلمر.

ـ إنه سؤال سهل يا آنسة مايبلا، لذا سأبذل محاولة أخرى. هل تذكرين أنه ضربك على وجهك؟

كان صوت أتيكوس قد فقد تلك الراحة التي يوحي بها عادة، فأصبح يتحدث بصوته القاسي الحيادي المهني:

ـ هل تذكرين أنه ضربك على وجهك؟

ـ لا، لا أذكر إن كان ضربني. أعني أني أتذكر، لقد ضربني. أجل.

ـ هل كانت آخر جملة لك هي الجواب؟

ـ ماذا؟ نعم، لقد ضربني... لا أستطيع أن أتذكر، هذا كل ما في الأمر... لقد حدث كل ذلك بسرعة كبيرة.

نظر القاضي تايلور بصرامة نحو مايلا. قال:

ـ لا تبكي أيتها الشابة...

ولكن أتيكوس قاطعه قائلاً:

ـ فلتبكِ إذا أرادت يا سيدي القاضي. لدينا من الوقت ما يكفي.

نشقت مايلا بغضب ونظرت إلى أتيكوس وقالت:

ـ سأجيب على أي سؤال لديك... أجلسْني هنا واهزأْ بي، هل لك أن تفعل ذلك؟ سأجيب على كل سؤال لديك...

قال أتيكوس:

ـ هذا حسن. لم يتبق إلا القليل من الأسئلة. يا آنسة مايلا، لا أريد أن أكون مضجراً، ولكنك أفدت بأن المتهم قد ضربك، أمسك بك من عنقك، وخنقك، واغتصبك. أريد أن تكوني متأكدة من الشخص الصحيح. هل لك أن تتعرفي على الشخص الذي اغتصبك؟

ـ سأفعل، إنه هناك.

التفت أتيكوس نحو المتهم وقال:

ـ قف يا توم. دع الآنسة مايلا تنظر إليك جيداً. هل هذا هو الرجل يا آنسة مايلا؟

كانت كتفا توم روبنسون القويتان تتموجان تحت قميصه الرقيق. نهض ووقف ويده اليمنى على ظهر كرسيه. بدا عليه أنه غير متوازن إلى حد كبير، ولكن ذلك لم يكن بسبب طريقة وقوفه إذ كانت ذراعه اليسرى أقصر من اليمنى بخمسة عشر سنتيمتراً، وكانت تتدلى دون

حراك إلى جانبه. كان في نهايتها يد صغيرة ذاوية، ومن هذا المكان البعيد، من الشرفة، كنت أستطيع أن أرى أنها يد عاطلة تماماً.

همس جم:

ـ سكاوت، سكاوت انظري. يا حضرة الكاهن، إنه مشلول.

انحنى الكاهن سايكس من فوقي وهمس لجم:

ـ لقد انحشرت في محلجة للقطن، في محلجة السيد دولفوس رايموند حين كان صبياً بعد... وقد نزف حتى كاد يموت... وقد تمزقت كل عضلات ذراعه وانفصلت عن عظامها...

قال أتيكوس:

ـ هل هذا هو الرجل الذي اغتصبك؟

ـ إنه هو بكل تأكيد.

كان سؤال أتيكوس التالي عبارة عن كلمة واحدة:

ـ كيف؟

كانت مايلا الآن في حالة هياج:

ـ لا أعرف كيف فعل ذلك، ولكنه فعلها... قلت إن كل شيء حدث بسرعة كبيرة وإلى حد أني...

ـ والآن هيا ندرس الموضوع بهدوء...

هكذا بدأ أتيكوس، ولكن السيد غيلمر قاطعه باعتراض: لم يكن السؤال غير ذي صلة بالموضوع أو غير أساسي، ولكن أتيكوس كان يرهب الشاهدة.

ضحك القاضي تايلور فوراً:

ـ اجلس يا هوراس، إنه لا يفعل ما تقوله. بل العكس هو الصحيح، فالشاهدة هي التي ترهب أتيكوس.

كان القاضي تايلور هو الشخص الوحيد الذي ضحك في القاعة. حتى الأطفال الرضع كانوا صامتين، وتساءلت فجأة إن كانوا قد اختنقوا على صدور أمهاتهم.

قال أتيكوس:

ـ والآن، يا آنسة مايلا، لقد شهدت بأن المتهم قد خنقك وضربك. لم تقولي إنّه تسلل من خلفك وضربك خلسة فأفقدك الوعي، بل أنك التفتّ فوجدته هناك خلفك...

كان أتيكوس قد عاد إلى ما وراء منضدته، وقد شدد على كلماته بأن راح يضرب بأصابعه عليها:

ـ هل تريدين إعادة النظر في شهادتك؟

ـ هل تريدني أن أقول ما لم يحدث؟

ـ لا يا سيدتي، أريدك أن تقولي ما حدث فعلاً. قولي لنا مرة أخرى، من فضلك، ما الذي حدث؟

ـ لقد قلت لك ما حدث.

ـ لقد شهدتِ بأنك التفتّ فوجدته خلفك. هل خنقك عندئذ؟

ـ أجل

ـ ثم ترك عنقك وضربك؟

ـ قلت إنه فعل.

ـ وقد ضربك على عينك اليسرى حتى اسودت بقبضته اليمنى؟

ـ لقد تفاديت الضربة... وقد طاشت، لقد طاشت فعلاً. لقد تفاديتها وطاشت.

لقد نزل الوحي على مايلا أخيراً.

ـ لقد أصبحت فجأة واضحة بالنسبة إلى هذه المسألة. فمنذ قليل كنت لا تستطيعين التذكّر جيداً، أليس كذلك؟

ـ قلت إنه ضربني.

ـ حسناً. لقد خنقك، ضربك ثم اغتصبك، هل هذا صحيح؟

ـ صحيح بكل تأكيد.

ـ أنت فتاة قوية، ما الذي كنت تفعلينه طوال الوقت، هل كنت تقفين فحسب؟

ـ قلت لك أني صرخت ورفست وقاتلت...

مد أتيكوس يده وخلع نظارتيه، ثم أدار عينه اليمنى الصحيحة نحو الشاهدة، وأمطرها بالأسئلة. قال القاضي تايلور:

ـ سؤال واحد في كل مرة يا أتيكوس. امنح الشاهدة فرصة للجواب.

ـ حسناً، لماذا لم تهربي؟

ـ حاولت...

ـ حاولت ماذا؟ ما الذي منعك؟

ـ أنا... لقد رماني أرضاً. هذا ما فعله. لقد رماني أرضاً وارتمى فوقي.

ـ هل كنت تصرخين طوال ذلك الوقت؟

ـ كنت أصرخ بكل تأكيد.

ـ لماذا إذن لم يسمعك الأطفال الآخرون؟ أين كانوا؟ عند مقلب القمامة؟

لا جواب.

ـ أين كانوا؟

ـ لماذا لم تجعلهم صرخاتك يهرعون مسرعين؟ المقلب أقرب إلى الغابات، أليس كذلك؟

لا جواب.

ـ أو أنك لم تصرخي حتى شاهدت والدك عند النافذة؟ لم تفكّري بالصراخ إلا حينذاك، أليس كذلك؟

لا جواب.

ـ صرخت أولاً على أبيك بدلاً عن أن تصرخي على توم روبنسون؟ هل كان الأمر كذلك؟.

لا جواب.

ـ من ضربك؟ توم روبنسون أم أبوك؟

لا جواب.

ـ ما الذي رآه أبوك عند النافذة، جريمة اغتصاب أم أفضل دفاع عنها؟ لم لا تقولين الحقيقة يا طفلتي؟ ألم يضربك بوب يوويل؟

جين التفت أتيكوس مبتعداً عن مايلا بدا وكأن معدته تؤلمه، ولكن وجه مايلا كان مزيجاً من الرعب والغضب. جلس أتيكوس متعباً ومسح نظارتيه بمنديله.

وفجأة نطقت مايلا:

ـ لديّ ما أقوله.

رفع أتيكوس رأسه:

ـ هل تريدين أن تقولي لنا ما حدث؟

ولكنها لم تسمع الشفقة التي كانت في اقتراحه.

ـ لديّ ما أقوله ثم لن أقول شيئاً آخر بعد ذلك. ذلك الزنجي هناك اغتصبني، وإذا لم تقوموا أنتم أيها الرجال الأكابر بأي إجراء....

يتعلق بذلك، فلستم سوى جبناء عفنين، جبناء عفنين كلكم. إن تصرفاتكم الرفيعة لا تساوي شيئاً.. إن «سيدتي»، و«الآنسة مايلا» لا تساوي شيئاً يا سيد فينتش...

ثم انفجرت باكية بدموع حقيقية. كان كتفاها يهتزان من البكاء الغاضب. وقد التزمت بكلمتها. فلم تعد تجيب على أية أسئلة، وحتى حين حاول السيد غيلمر أن يعيدها إلى سكة المحاكمة. واعتقد أنها لو لم تكن فقيرة وجاهلة إلى ذلك الحد، لكان القاضي تايلور قد سجنها للاحتقار الذي أظهرته لكل من كان في قاعة المحكمة. على أية حال كان أتيكوس قد أصابها بضربات موجعة إلى حد كبير وبأسلوب لم يكن واضحاً لي، ولكني لم أشعر بأي سرور لقاء فعله ذلك. كان يجلس ورأسه إلى الأرض. ولم أر أبداً شخصاً يحدق في شخص آخر بمثل ذلك الحقد الذي كانت تظهره مايلا بينما كانت تغادر منصة الشهادة وتمرّ بالقرب من منضدة أتيكوس.

وحين قال السيد غيلمر للقاضي تايلور إن الادعاء سيستريح، قال القاضي: «لقد حان الوقت لنأخذ جميعنا قسطاً من الراحة. سنستريح مدة عشر دقائق».

تقابل أتيكوس مع السيد غيلمر أمام منبر القاضي وتهامسا، ثم غادر قاعة المحكمة عبر باب يقع إلى خلف منصة الشهود، وكانت تلك إشارة لنا جميعاً للاسترخاء. لقد اكتشفت أني كنت أجلس على حافة المقعد الطويل، وأني كنت مصابة بخدر نوعاً ما. نهض جم وتثاءب وكذلك فعل ديل، ومسح الكاهن سايكس وجهه بقبعته. كانت الحرارة تسعين درجة[1] على الأقل كما قال.

---

(1) فهرنهايت. (المترجم)

كان السيد براكستون أندروود، الجالس بهدوء في كرسي مخصص للصحافة، يمتص الإفادات بإسفنجة عقله، ويسمح لعينيه الساخرتين بالتجوال عبر شرفة الملونين، وحين قابلتا عينيّ شخر ثم نظر بعيداً.

قلت:

- جم، لقد رآنا السيد أندروود.

- حسناً، لن يقول لأتيكوس، بل سينشرها في الزاوية الاجتماعية من صحيفته.

ثم التفت جم نحو ديل وراح يفسّر له النواحي الأدق في المحاكمة، ولكني تساءلت في نفسي عمّا تكون تلك. لم تكن هناك أية جدالات مطولة بين أتيكوس والسيد غيلمر حول أية نقاط. ويبدا على السيد غيلمر أنه يمارس الادعاء متردداً تقريباً، فقد كان الشهود يقادون من أنوفهم كالحمير، مع اعتراضات قليلة جداً من قبله. ولكن أتيكوس قال لنا مرة إنه في محكمة القاضي تايلور ينتهي أي محام يفسّر الإفادة تفسيراً حرفياً إلى أن يستلم تعليمات صارمة من المنبر. وقد اختصر ذلك كله لي على أنه يعني أن القاضي تايلور قد يبدو كسولاً ويعمل وهو نائم، ولكن نادراً ما كان ينقض أي حكم يصدره، وكان ذلك هو البرهان على مدى جودته كقاض. قال أتيكوس إنه كان قاضياً جيداً.

عاد القاضي تايلور الآن وصعد إلى كرسيه الدوّار. أخذ سيجاراً من جيب صدرته وفحصه بدقة. قرصتُ ديل. وبعد أن مرّ السيجار بتفتيش القاضي الدقيق عانى من عضّة شريرة. شرحت له: «أحياناً نأتي لنراقبه، وسيستغرقه ذلك بقية وقت ما بعد الظهر. راقبه وسوف ترَ». ودون إدراك منه للمراقبة التي تمارس عليه من فوق، تخلص القاضي تايلور من

النهاية المقضومة بأن دفعها إلى ما بين شفتيه بمهارة خبير ثم وبرمية واحدة رماها نحو المبصقة فنزلت فيها وسمعناها وهي تهبط فيها.

همهم ديل:

ـ لا شك أنه كان ماهراً جداً في لعبة الكرة الممضوغة.

الاستراحة تعني حكماً خروجاً عاماً، ولكن الناس لم تكن اليوم تتحرك. وحتى أعضاء نادي الكسالى الذين فشلوا في تخجيل الشبان ليجلسوا في مقاعدهم ظلوا واقفين على امتداد الجدران وأعتقد أن السيد هك تيت قد حجز مرحاض المديرية ليستعمله الرسميون.

عاد أتيكوس والسيد غيلمر، ونظر القاضي تايلور إلى ساعته. قال: «الساعة تقترب من الرابعة»، وكان ذلك محيّراً حيث كان يجب على ساعة دار المحكمة أن تكون قد رنّت مرتين على الأقل عند تمام الساعة. لم أسمعها ولم أسمع حتى اهتزازاتها.

قال القاضي تايلور:

ـ هل سنحاول إنهاء الدعوى هذا اليوم؟ ما رأيك يا أتيكوس؟

قال أتيكوس:

ـ أعتقد أننا نستطيع ذلك.

ـ كم شاهد لديك؟

ـ واحد.

ـ حسناً، استدعه.

* * *

الفصل التاسع عشر

تلمس توماس روبنسون المكان من حوله، ومرّر أصابعه تحت ذراعه اليسرى ثم رفعها. وجّه يده نحو الكتاب المقدس وحاولت يده الأشبه بالمطاط أن تقيم اتصالاً مع الغلاف الأسود للكتاب. وحين رفع يده، فإن الأخرى المعطوبة انزلقت عن الكتاب المقدس واصطدمت بالمنضدة. كان يحاول مرة أخرى حين زأر القاضي تايلور:

ـ حسناً يا توم. لا بأس بذلك.

أقسم توم ثم سار نحو كرسي الشهود. وقد حفزه أتيكوس على أن يحكي لنا بسرعة ما يلي:

كان توم في الخامسة والعشرين، متزوجاً وله ثلاثة أطفال، وقد سبق له وخالف القانون مرة من قبل: فقد حكم عليه مرة بثلاثين يوماً بسبب جنحة بسيطة.

قال أتيكوس:

ـ كانت بسيطة، ما الذي ارتكبته؟

ـ تشاجرت مع رجل آخر حاول أن يجرحني.

ـ وهل نجح في ذلك؟

ـ نعم يا سيدي، قليلاً، ولكن ليس على نحو مؤذ تماماً. أنت ترى أني...

وهنا حرك توم كتفه الأيسر.

قال أتيكوس:

ـ أجل، لقد أدنتما كلاكما؟

ـ نعم يا سيدي، وكان علي أن أقضي فترة السجن لأنه لم يكن معي من المال ما يكفي لدفع الغرامة. أما الشخص الآخر فقد دفعها.

انحنى ديل عبري وسأل جم عما كان أتيكوس يفعله. قال جم إن أتيكوس كان يري المحلفين أن توم ليس لديه ما يخفيه.

سأله أتيكوس:

ـ هل كنت على معرفة بمايلا فايوليت يوويل؟

ـ نعم يا سيدي، فأنا مضطر إلى المرور بالقرب من منزلها لدى ذهابي إلى الحقل وعودتي منه كل يوم.

ـ حقل من؟

ـ أنا أعمل بقطف القطن لدى السيد لينك ديس.

ـ هل كنت تقطف القطن في تشرين الثاني (نوفمبر)؟

ـ لا يا سيدي، أنا أعمل في فنائه في الخريف والشتاء. وأعمل طوال السنة، فلديه الكثير من أشجار الجوز وما شابه.

ـ تقول إنه كان عليك أن تمر من أمام منزل آل يوويل للوصول إلى مكان العمل والعودة منه. هل هناك طريق آخر غيره؟

ـ لا يا سيدي، لا يوجد طريق آخر أعرفه.

ـ يا توم، هل سبق لها وتحدثت إليك؟

ـ نعم يا سيدي، فأنا أرفع قبعتي حين أمّر بالقرب من منزلها، وفي أحد الأيام طلبت مني أن أدخل إلى داخل السياج وأن أحطّب لها خزانة.

ـ ومتى طلبت منك أن تحطب تلك... الخزانة؟

ـ يا سيد فينتش، لقد كان ذلك في الربيع الماضي. وأتذكر تلك الحادثة لأن الوقت كان وقت تحطيب، وكانت معي معزقتي. قلت لها إني لا أحمل إلا تلك المعزقة، ولكنها قالت إن لديها بلطة. وقد أعطتني البلطة وحطبت لها الخزانة. قالت: «أعتقد أن عليّ أن أعطيك خمسة سنتات، أليس كذلك؟» فقلت لها: «لا يا سيدتي، هذا مجاني». ثم ذهبت إلى البيت. يا سيد فينتش كان هذا في الربيع الماضي أي منذ أكثر من سنة من الآن.

ـ هل دخلت مرة أخرى إلى ذلك المكان؟.

ـ نعم يا سيدي.

ـ متى؟

ـ حسناً، مرات كثيرة.

مدّ القاضي تايلور يده إلى مطرقته غريزياً، ولكنه ترك يده تسقط، فالهمهمة تحتنا سكنت دون تدخّل منه.

ـ وفق أية ظروف؟

ـ عفوك يا سيدي؟

ـ لماذا دخلت ضمن السياج كثيراً من المرات؟

استرخي جبين توم روبنسون وقال:

ـ كانت تدعوني إلى الدخول يا سيدي. ويبدو أنني كلما مررت من هناك كان لديها شيء ما أفعله لها.. كتكسير الحطب، أو نقل الماء. كانت تسقي تلك الزهور الحمراء يومياً...

ـ هل كنت تتلقى أجراً لقاء خدماتك؟

ـ لا يا سيدي، ليس بعد أن عرضت عليّ خمسة سنتات في المرة الأولى. لقد كنت سعيداً بأداء تلك الخدمات، فلم يكن يبدو

على السيد يوويل أنه يساعدها إطلاقاً، وكذلك الأطفال، وكنت أعرف أن ليس لديها الكثير من تلك السنتات الخمسة.

ـ وأين كان الأطفال الآخرون؟

ـ كانوا في أنحاء المكان باستمرار، كانوا دائماً هناك. كانوا يراقبونني وأنا أعمل، هذا بعضهم، أما بعضهم الآخر فكان يجلس في النافذة.

ـ هل كانت الآنسة مايلا تتحدث إليك؟

ـ نعم يا سيدي، كانت تتحدث إليّ.

وبينما كان توم روبنسون يدلي بشهادته، خطر لي أن مايلا يوويل كانت دون شك أكثر الأشخاص بالعالم شعوراً بالوحدة. كانت أكثر وحدة حتى من بو رادلي، الذي لم يخرج من منزله منذ خمسة وعشرين عاماً. وحين سألها أتيكوس إن كان لديها أصدقاء، بدا عليها أنها لم تفهم ما يعنيه، ثم ظنت أنه كان يهزأ منها. كانت حزينة ـ ما فكرت ـ كأولئك الأطفال الذين سماهم جم بـ«المولّدين»: فالبيض لا يكترثون بها لأنها كانت تعيش بين الخنازير، والزنوج لا يكترثون بها لأنها بيضاء. ما كان يمكنها أن تعيش مثل السيد دولفوس رايموند، الذي كان يفضل صحبة الزنوج، لأنها لم تكن تملك ضفة نهر ولم تكن من عائلة عريقة غنية. لم يقل أحد عن عائلة يوويل: «تلك هي طريقتهم في الحياة». كانت مايكوم تقدم لهم سلال الهدايا في عيد الميلاد ونقود المعونة الاجتماعية وظاهر يدها. كان توم روبنسون، على الأرجح، هو الشخص الوحيد الذي كان يعاملها باحترام. ولكنها تقول إنه اغتصبها، وحين انتصبتْ بعد أداء الشهادة نظرتْ إليه وكأنه قذارة بين قدميها.

قاطع أتيكوس تأملاتي قائلاً:

ـ هل حدث أن دخلت إلى منزل آل يوويل في أي وقت من الأوقات... هل حدث ان دخلت إلى منزل آل يوويل دون دعوة واضحة من أحدهم؟

ـ لا يا سيدي، يا سيد فينتش، لم أفعل ذلك أبداً. ولا يمكن أن أفعل مثل ذلك يا سيدي.

كان أتيكوس يقول أحياناً إن الطريقة الوحيدة لمعرفة ما إذا كان الشاهد يكذب أو يصدق هو أن تصغي إليه وليس أن تراقبه: وقد طبقت هذا الاختبار.. لذا أنكر توم روبنسون الأمر ثلاث مرات في نفس واحد، ولكن بهدوء، دون أي علامة انتحاب في صوته، وقد وجدت نفسي أصدقه، رغم احتجاجاته الكثيرة. بدا عليه أنه زنجي محترم، والزنجي المحترم لا يمكن أن يدخل فناء شخص ما بمبادرة منه.

ـ يا توم، ما الذي حدث معك مساء يوم الواحد والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) من العام الماضي؟

إلى الأسفل منا، كان الحضور قد أمسكوا كلهم بأنفاسهم ومالوا بأجسادهم إلى الأمام. وخلفنا فعل الزنوج الشيء نفسه.

كان توم زنجياً ذا لون أسود مخملي، ليس لامعاً، بل مخملياً أسود ناعماً. كان بياض عينيه يلمع في وجهه، وحين كان يتحدث كنا نرى ومضات أسنانه اللامعة. لو كان دون عاهة لكان نموذجاً جميلاً للإنسان.

قال:

ـ يا سيد فينتش، كنت ذاهباً إلى بيتي كالعادة في ذلك المساء، وحين مررت بمنزل آل يوويل كانت الآنسة مايلا على الرواق، كما أفادت. كان المكان هادئاً ولم أدرك لماذا. كنت أفكر في السبب، وأنا أمرّ من هناك، حين طلبت مني أن أدخل لأساعدها مدة دقيقة واحدة. حسناً، دخلت ضمن السياج ونظرت فيما حولي أبحث عن حطب لأكسره، ولكني لم أجد أي حطب، وقالت: «لا، لدّي شيء آخر لك في المنزل. فالأبواب القديمة قد تخلخلت مفصّلاتها وتكاد تقع» قلت: «هل لديك مفك للبراغي يا آنسة مايلا؟» قالت إن لديها واحداً

بالتأكيد. حسناً، صعدتُ الدرج وأشارتْ هي إلي بالدخول، ودخلتُ إلى الغرفة الأمامية ونظرت إلى الباب. قلت يا آنسة مايلا هذا الباب يبدو جيداً. حركته إلى الخلف وإلى الأمام وكل مفصلاته جيدة. ثم أغلقت هي الباب في وجهي. يا سيد فينتش، كنت أتساءل عن سبب الهدوء في المنزل، وقد فهمت أنه لم يكن هناك طفل واحد في المكان، ولا واحد منهم، وقلت يا آنسة مايلا أين هم الأطفال؟

بدأت بشرة توم السوداء المخملية باللمعان، ومرّر يده على وجهه.

ـ قلت لها أين الأطفال، وقالت ـ وكانت تضحك بطريقة ما ـ قالت إنهم ذهبوا جميعاً إلى البلدة للحصول على الآيس كريم. قالت: «لقد استغرق مني جمع سبع قطع من فئة الخمسة سنتات سنة كاملة، ولكني فعلتها أخيراً. لقد ذهبوا جميعاً إلى البلدة».

لم يكن انزعاج توم نابعاً من رطوبة الجو. قال له أتيكوس:

ـ وماذا قلتَ لها آنئذ يا توم؟

ـ قلت لها، مرحى يا آنسة مايلا، لقد تفضلتِ عليهم. فقالت: «هل تظن ذلك؟» لا أظن أنها فهمت ما كنت أعنيه... كنت أعني أنه كان ذكياً منها أن توفر النقود ولطيف منها أن تعامل أخوتها بتلك الطريقة.

قال أتيكوس:

ـ أفهمك يا توم. استمر.

ـ حسناً، قلت لها إني أفضل الذهاب طالما لا يوجد ما أفعله من أجلها، وقالت نعم أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلها، فسألتها عنه، وقالت إن عليّ أن أقف على كرسي هناكَ وأنزل لها صندوقاً من أعلى الخزانة.

ـ أليست تلك هي الخزانة نفسها التي حطبتها؟

ابتسم الشاهد وقال:

ـ لا يا سيدي، خزانة أخرى. كانت عالية علو السقف. وهكذا صنعت ما طلبته وكنت أحاول الوصول إلى الصندوق حين حدث الشيء التالي الذي أتذكره، ألا وهو أنها... أنها أمسكت بي من ساقي، أمسكت من ساقي يا سيد فينتش. لقد أخافتني إلى درجة أني وقعتُ وقلبتُ الكرسي... كان ذاك هو الشيء الوحيد، قطعة الأثاث الوحيدة التي تحركت من مكانها في تلك الغرفة، يا سيد فينتش، وذلك قبل أن أغادرها. وأقسم بالله على ذلك.

ـ ما الذي حدث بعد أن قلبت ذلك الكرسي؟

كان توم روبنسون قد وصل إلى حالة صمت كاملة. نظر إلى أتيكوس، ثم إلى المحلفين، ثم إلى السيد أندروود الجالس عبر الغرفة.

ـ يا توم، لقد أقسمت على أن تقول الحقيقة كلها. هل لك أن تقولها؟

مرّر توم يده بعصبية فوق فمه.

ـ ما الذي حدث بعد ذلك؟

قال القاضي تايلور وقد اختفى ثلث سيكاره الآن:

ـ أجب على السؤال.

ـ يا سيد فينتش، لقد نزلت من على ذلك الكرسي والتفتّ، ولكنّها قفزت عليّ بطريقة ما.

ـ قفزت عليك؟ بعنف؟

ـ لا يا سيدي... لقد... لقد ضمتني. ضمتني من خصري.

في هذه المرة هبطت مطرقة القاضي بعنف، وحين حدث ذلك أضيئت الأنوار في السقف. لم يكن الظلام قد حل بعد، ولكن شمس العصر كانت قد غادرت النوافذ. وسرعان ما استعاد القاضي النظام.

ـ قفزت عليك؟ بعنف؟

ـ لا يا سيدي... لقد... لقد ضمتني. ضمتني من خصري.

في هذه المرة نزلت مطرقة القاضي بعنف، وحين حدث ذلك أضيئت الأنوار في السقف. لم يكن الظلام قد حل بعد، ولكن شمس العصر كانت قد غادرت النوافذ. وسرعان ما استعاد القاضي النظام.

ـ ثم ما الذي فعلته؟

ابتلع الشاهد ريقه بصعوبة ثم قال:

ـ تطاولتْ حتى قبلتْني على هذا الجانب من وجهي. قالت إنها لم يسبق لها أن قبلت رجلاً راشداً من قبل وإنها يمكن لها أن تقبل زنجياً أيضاً. وقالت إنها لا يهمها ما سيفعله أبوها لها. قالت: «قبّلني أيها الزنجي». قلت: «يا آنسة مايبلا، دعيني أخرج من هنا»، وحاولت أن أركض ولكنها ألصقت ظهرها بالباب وكان علي أن أدفعها. لم أكن أريد إيذاءها يا سيد فينتش، وقلت لها: «دعيني أخرج»، ولكن وبينما كنت أقول ذلك راح السيد يوويل يصرخ عبر النافذة.

ـ وماذا قال؟

ابتلع توم روبنسون ريقه بصعوبة مرة أخرى، واتسعت عيناه.

ـ قال شيئاً لا يليق بي قوله... لا يليق بأطفال هؤلاء الناس الجالسين هنا أن يسمعوه.

ـ ما الذي قاله يا توم؟ يجب أن تقول للمحلفين ما قاله.

أغلق توم روبنسون عينيه بشدة وقال:

ـ لقد قال «أيتها العاهرة الملعونة من الله، سأقتلكِ».

ـ ثم ماذا حدث؟

ـ يا سيد فينتش، رحت أعدو بأسرع ما أستطيع وإلى حد أنيّ لا أعرف ما حدث.

ـ يا توم، هل اغتصبتَ ماييلا يوويل؟

ـ لا يا سيدي.

ـ هل آذيتها بأية طريقة كانت؟

ـ لا يا سيدي.

ـ هل قاومتَ محاولاتها؟

ـ يا سيد فينش، لقد حاولت ألاّ أكون فظاً معها. لم أكن أرغب في أن أكون فظاً، لم أكن أريد أن أدفعها أو ما شابه.

خطر لي أن سلوك توم روبنسون، بطريقته الخاصة، كان جيداً بقدر سلوك أتيكوس. لم أكن قد فهمت دقة ورطة توم حتى شرحها لي أبي فيما بعد: فهو لم يكن ليجرؤ على ضرب امرأة بيضاء ضمن أية ظروف ثم يتوقع أن يعيش طويلاً، ولذا انتهز أول فرصة للهرب... وهو دليل أكيد على الشعور بالذنب.

قال أتيكوس:

ـ فلنعد يا توم إلى السيد يوويل، هل قال لك شيئاً؟

ـ لم يقل شيئاً يا سيدي. قد يكون قال شيئاً، ولكني لم أكن هناك...

قاطعه أتيكوس بحدة:

ـ حسناً، ماذا سمعتَ، مع من كان يتكلم؟

ـ يا سيد فينتش، كان يتحدث إلى الآنسة مايلا وينظر إليها.

ـ ثم ركضتَ؟

ـ لقد فعلت ذلك بالتأكيد يا سيدي.

ـ لماذا ركضت؟

ـ كنت خائفاً يا سيدي.

ـ ولم كنت خائفاً؟

ـ يا سيد فيتش، لو كنت زنجياً شأني، لخفت أنت أيضاً.

جلس أتيكوس. كان السيد غيلمر في طريقه نحو منصة الشهادة، ولكن قبل أن يصل إلى هناك، نهض السيد لينك ديس من مكانه بين الجمهور وأعلن:

ـ أريد منكم جميعاً أن تعرفوا شيئاً واحداً الآن. لقد عمل هذا الشاب لدي منذ ثماني سنوات ولم يسبب لي مشكلة واحدة ولو صغيرة، ولا حتى ذرة من مشكلة.

ـ أغلق فمك يا سيدي!

هكذا صاح القاضي تايلور الذي استيقظ تماماً الآن وراح يزمجر وقد أصبح وجهه قرنفلي اللون، كما أن حديثه لم تشبه أية شائبة بسبب سيجاره. صاح:

ـ يا لينك ديس، إن كان لديك ما تقوله يمكنك أن تفعل ذلك تحت القسم وفي الوقت المناسب، ولكن حتى يحين ذلك عليك أن تخرج من هذه القاعة، أتسمعني؟ اخرج من هذه القاعة يا سيدي، أتسمعني؟ وسأكون ملعوناً إذا استمعت إلى هذه الدعوى مرة أخرى.

نظر القاضي تايلور نظرات حادة كالسكاكين نحو أتيكوس، وكأنه يتحداه أن يقول شيئاً، ولكن أتيكوس كان قد أطرق برأسه وراح يضحك في عبّه. تذكر شيئاً ما كان قد قاله حول ملاحظات القاضي تايلور المفعمة بالسلطة والتي كانت تتجاوز واجباته أحياناً، ولكن قلة

من المحامين كانت تفعل أي شيء حيالها. نظرت إلى جم، ولكن جم هز رأسه. قال: «هذا لا يشبه أن يقوم أحد المحلفين ويتحدث، حينها سيكون الأمر مختلفاً على ما أعتقد. لقد كان السيد لينك يخل بنظام المحكمة أو ما شابه».

قال القاضي تايلور للكاتب أن يلغي كل ما كتب بعد جملة «يا سيد فينتش لو كنت زنجياً شأني لخفت أنت أيضاً». وقال للمحلفين إن عليهم أن ينسوا أمر المقاطعة. نظر بارتياب نحو الممشى الأوسط وانتظر على ما افترضت، حتى يخرج السيد لينك ديس نهائياً. ثم قال:

ـ تفضل يا سيد غيلمر.

سأل السيد غيلمر:

ـ لقد سجنتَ مرة ثلاثين يوماً بسبب جنحة بسيطة؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ كيف بدا ذلك الزنجي بعد أن انتهيت منه؟

ـ لقد ضربني يا سيد غيلمر.

ـ أجل، ولكنك حُكِمت أيضاً، أليس كذلك؟

رفع أتيكوس رأسه وقال:

ـ لقد كانت تلك جنحة بسيطة وكل شيء موجود في الملف يا سيدي القاضي.

ظننت أنه يبدو متعباً.

قال القاضي بتعب مماثل:

ـ سيجيب الشاهد على كل حال.

ـ نعم يا سيدي حُكمتُ بثلاثين يوماً.

كنت أعرف أن السيد غيلمر سيحكي بكل إخلاص أن أي شخص أدين بارتكاب جنحة بسيطة يمكنه أن يفكر في اغتصاب مايلا يوويل، وكان ذلك هو السبب الوحيد الذي لديه. ومثل تلك الأسباب تكون عادة مثمرة.

ـ يا روبنسون، أنت ماهر جداً في تكسير الخزائن والحطب بيد واحدة، أليس كذلك؟

ـ نعم يا سيدي. أعتقد ذلك.

ـ هل أنت قويّ إلى حد أنك تستطيع أن تخنق امرأة بيد واحدة وترميها إلى الأرض؟

ـ لم أفعل ذلك يا سيدي.

ـ ولكنك قوي بما فيه الكفاية لتفعل ذلك؟

ـ أعتقد ذلك يا سيدي.

ـ كنت تشتهيها منذ زمن طويل، أليس كذلك أيها الولد؟

ـ لا يا سيدي، لم أنظر إليها باشتهاء أبداً.

ـ إذن كنت لطيفاً جداً معها حتى تقوم بكل ذلك التحطيب ونقل الماء، أليس كذلك؟

ـ كنت أحاول مساعدتها فحسب يا سيدي.

ـ كان ذلك كرماً كبيراً منك، فقد كان لديك في البيت أعمال أخرى تقوم بها بعد عودتك من عملك اليومي، أليس كذلك؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ لماذا لم تكن تؤدّي تلك الأعمال بدلاً عن أن تخدم الآنسة يوويل؟

ـ لقد كنت أؤدي هذه وتلك.

ـ لا بد وأنك كنت مشغولاً جداً. لماذا؟

ـ لماذا ماذا يا سيدي؟

ـ لم كنت حريصاً على القيام بتلك الخدمات لتلك المرأة؟

تردد توم روبنسون وهو يبحث عن جواب. ثم قال:

ـ بدت وكأنها كانت في حاجة إلى من يساعدها، ولم يكن هناك من يساعدها، كما كنت أقول...

ـ رغم وجود السيد يوويل وسبعة أطفال في المنزل يا ولد؟

ـ حسناً، قلت إن الأمر بدا وكأنهم لم يكونوا يمدون يد المساعدة إليها...

ـ وهل قمت بذلك التحطيب وبتلك الأعمال لمجرد طيبة قلبك يا ولد؟

ـ حاولت مساعدتها كما قلت.

ابتسم السيد غيلمر ابتسامة كالحة نحو المحلفين وقال:

ـ أنت شاب طيب جداً على ما يبدو... هل فعلت ذلك كله ولم تتلق سنتاً واحداً لقاءه؟

ـ نعم يا سيدي. لقد شعرت بالشفقة عليها، فقد بدا عليها أنها كانت تحاول بذل جهدها أكثر من بقيتهم...

ـ لقد «شعرتَ» بالشفقة «عليها»، شعرتَ «بالشفقة» عليها؟

بدا على السيد غيلمر وكأنه مستعد للوصول حتى السقف.

أدرك الشاهد خطأه وتحرك بضيق في كرسيه. ولكن سبق السيف العذل. فإلى الأسفل منا، لم يعجب جواب توم روبنسون أحداً. وتوقف السيد غيلمر فترة طويلة حتى يترك ذلك تأثيره. ثم قال:

ـ والآن، ذهبتَ إلى البيت كالعادة، في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي، وطلبتَ هي منك أن تدخل وتحطب لها الخزانة؟

ـ لا يا سيدي.

ـ هل تنكر دخولك المنزل؟

ـ لا يا سيدي، قالت إن لديها شيئاً ما أفعله لها داخل المنزل...

ـ إنها تقول إنها طلبت منك أن تحطب لها خزانة، أهذا صحيح؟

ـ لا يا سيدي، ليس صحيحاً.

ـ إذن فأنت تقول إنها تكذب يا ولد؟

نهض أتيكوس ولكن توم روبنسون لم يكن في حاجة إليه.

ـ لم أقل إنها تكذب يا سيد غيلمر، بل أقول إنها على خطأ.

ورداً على الأسئلة العشرة التالية التي ألقاها السيد غيلمر مسترجعاً أقوال مايلا حول الحادثة، كان جواب الشاهد هو أنها على خطأ.

ـ ألم يطردك السيد يوويل من المنزل يا ولد؟

ـ لا يا سيدي، لا أظن أنه فعل ذلك.

ـ ألا تظن ذلك، ماذا تعني؟

ـ أعني أني لم أبق في المنزل مدة كافية حتى يتاح له أن يطردني.

ـ أنت صريح جداً حول هذا الموضوع. لماذا هربتَ بهذه السرعة؟

ـ قلت إني كنت خائفاً يا سيدي.

ـ إذا كنت غير مذنب، فلماذا تخاف؟

ـ كما قلت سابقاً، لم يكن وجود زنجي في مثل تلك... الورطة أمراً مأموناً.

ـ ولكنك لم تكن في ورطة... لقد أفدت بأنك كنت تقاوم الآنسة يوويل. هل كنت خائفاً من أنها قد تؤذيك، فهربت وأنت ذلك الرجل الضخم؟

ـ لا يا سيدي، كنت خائفاً أن أقدم إلى المحاكمة كما يحدث لي الآن.

ـ خائفاً من إلقاء القبض عليك، خائفاً من أن تواجه بما ارتكبته؟

ـ لا يا سيدي، بل كنت خائفاً من أن أواجه بما لم أرتكبه.

ـ هل تتواقح معي يا ولد؟

ـ لا يا سيدي، لم أحاول ذلك.

كان ذلك هو كل ما استطعت سماعه من استجواب السيد غيلمر، لأن جم جعلني أصطحب ديل إلى الخارج. لسبب ما، بدأ ديل بالبكاء ولم يستطع أن يتوقف عنه: بكى بصمت في البداية ثم ارتفع صوت بكائه حتى سمعه أشخاص عديدون كانوا على الشرفة. قال جم إني إذا لم أذهب معه فسيجبرني على ذلك، وقال الكاهن سايكس إنه من الأفضل لي أن أذهب، ولذا ذهبت. بدا على ديل أنه في حالة جيدة ذلك اليوم، ولكني أعتقد أنه لم يكن قد شفي بعد تماماً من قضية فراره من منزل أمه.

ـ ألست على ما يرام؟

هكذا سألته حين وصلنا إلى أسفل الدرج.

حاول ديل أن يتماسك حين هبطنا الدرج الجنوبي. كان السيد لينك ديس الشخص الوحيد على الدرجة العليا. سألني حين مررت بالقرب منه: «هل حدث شيء هام يا سكوت؟» فأجبته وأنا ألتفت نصف التفاتة: «لا يا سيدي. ديل مريض».

ـ تعالوا إلى ما تحت الأشجار، فربما أثر عليكم الحرّ.

اخترنا أثخن شجرة سنديان حية وجلسنا تحتها.

قال ديل:

ـ لم استطع احتماله، هذا كل ما في الأمر.

ـ من، توم؟

ـ ذلك السيد غيلمر العجوز الذي راح يعامله بتلك الطريقة ويتحدث إليه بذلك الأسلوب الكريه.

ـ يا ديل، هذا عمله. عجباً، لو لم يكن لدينا وكلاء نيابة... لما أمكن وجود محامي الدفاع، كما أعتقد.

تنفس ديل بصبر:

ـ أعرف كل ذلك يا سكاوت. ولكن الطريقة التي كان يتحدث بها جعلتني أشعر بالغثيان، بالغثيان التام.

ـ من المفترض أن يتصرف كذلك يا ديل، لقد كان يستجوب...

ـ لم يكن يتصرف بتلك الطريقة حين...

ـ يا ديل، كان أولئك هم شهوده هو.

ـ حسناً، السيد فينتش لم يتصرف بتلك الطريقة مع مايلا والعجوز يوويل حين كان يستجوبهما. إن طريقة ذلك الرجل في مخاطبته بكلمة «ولد» طوال الوقت وهزئه به وتطلعه نحو المحلفين في كل مرة يجيب بها...

ـ حسناً يا ديل، ولكنه مجرد زنجي على أية حال.

ـ لا يهمني ذلك أبداً. لا حق لهم، لا حق لهم في معاملتهم بتلك الطريقة. لا حق لأحد أن يتكلم بتلك الطريقة... لقد جعلتني أشعر بالغثيان.

ـ هذا هو أسلوب السيد غيلمر ولا شيء آخر يا ديل، إنه يتصرف بهذه الطريقة مع الجميع. لم تره بعد وهو يضرب ضربته الأخيرة. لماذا حين... حسناً، بدا السيد غيلمر اليوم وكأنه كان لا يمارس حتى نصف ما يمارسه عادة. إنهم يتصرفون هكذا دائماً، أعني معظم المحامين.

ـ السيد فينتش لا يتصرف بتلك الطريقة.

ـ إنه ليس مثالاً يا ديل، إنه...

كنت أحاول أن أفتش في ذاكرتي عن عبارة حادة من عبارات الآنسة مودي أتكينسون. وقد وجدتها: «إنه في قاعة المحكمة كما هو في الشارع العام».

قال ديل:

ـ ليس هذا ما أعنيه.

ـ أعرف ما تعنيه يا ولد.

صدر هذا عن صوت إلى الخلف منا. وظنناه يأتي من جذع الشجرة، ولكنه كان صوت السيد دولفوس رايموند. كان يحدق فينا من وراء الجذع.

ـ لست ضعيفاً، إنما تجعلك هذه القضية مريضاً، أليس كذلك؟

* * *

الفصل العشرون

ـ تعال إلى هنا يا بني، فلدي شيء يشفي معدتك.

وبما أن السيد دولفوس رايموند كان رجلاً شريراً فقد قبلت دعوته بامتعاض، ولكنني لحقت بديل. وبطريقة ما، لم أكن أظن أن أتيكوس سيوافق على تودّدنا للسيد رايموند، وكذلك العمة ألكسندرا.

قال لديل وهو يعرض عليه كيسه الورقي وفيه المصاصات الورقية:

ـ إليك. خذ رشفة جيدة، ستهدئك.

رشف ديل من المصاصات، وابتسم ثم أخذ رشفة طويلة.

ضحك السيد رايموند الذي بدا عليه أنه يتمتع بإفساد طفل.

حذّرت ديل قائلة:

ـ احذر يا ديل.

ترك ديل المصاصات وابتسم وقال:

ـ يا سكاوت، لم تكن تلك سوى كوكا ـ كولا.

استند السيد رايموند على جذع شجرة وهو جالس. كان متمدداً على العشب قبل ذلك. قال:

ـ لن تَشِيا بي أيها الصغيران، فهذا سيخرب سمعتي.

ـ هل تعني أن كل ما تشربه من ذلك الكيس هو الكوكا ـ كولا؟ مجرد كوكا ـ كولا فحسب؟

ـ نعم يا آنستي.

وأومأ السيد رايموند برأسه. أحببت رائحته. كانت مزيجاً من رائحة الجلد والجياد وبذور القطن. كان يرتدي جزمة الركوب الإنكليزية الوحيدة التي رأيتها في حياتي.

ـ هذا كل ما أشربه، معظم الوقت.

ـ إذن، فأنت تدّعي أنك نصف...؟ اعذرني يا سيدي... لم أكن أعني...

ضحك السيد رايموند، فهو لم ينزعج أبداً، وحاولت أن أؤلّف سؤالاً حذراً:

ـ لِم تفعلُ ما تفعله؟

ـ لم أفعل... أوه حسناً، تعنين لماذا أتظاهر؟ حسناً، الأمر بسيط جداً. بعض الناس لا يتظاهرون... كما أفعل أنا. والآن أستطيع أن أقول فليذهبوا إلى الجحيم. لا يهمني سواء أحبوا ذلك أم كرهوه. وأنا أقول إني لا أكترث إذا لم يعجبهم الأمر، هذا حق بما فيه الكفاية... ولكني لا أقول فليذهبوا إلى الجحيم. هل فهمتما ما أعني؟..

قلنا ديل وأنا:

ـ لا يا سيدي.

ـ أحاول أن أمنحهم سبباً، أتريان معي الآن؟ إن ذلك يساعد الناس على إيجاد سبب إذا لم يستطيعوا إيجاده. حين أنزل إلى البلدة، وهو أمر نادر، فإني لو تمايلت قليلاً وشربت من هذا الكيس، سيقول الناس دولفوس رايموند واقع تحت سيطرة الويسكي... ولذا لن يغير من أساليبه. إنه لا يستطيع مغالبة نفسه، ولذا يعيش هذا النوع من الحياة.

ـ ليس هذا من الأمانة في شيء يا سيد رايموند، أي أن تجعل نفسك أسوأ مما أنت عليه...

ـ ليس من الأمانة في شيء، ولكنه يساعد الناس كثيراً. بيني وبينك يا آنسة فينتش، لست ذلك السكير، ولكنك ترين أنهم لن يقدروا أبداً أن يفهموا أني أعيش بهذه الطريقة لأن تلك هي الطريقة التي أريدها.

أحسست بأنه لا يتوجب علي أن أكون هنا وأنا أصغي لهذا الرجل الآثم الذي لديه أطفال مولّدون ولا يهتم بمن يعرف أو لا يعرف ذلك. ولكنه كان رجلاً آسراً. فلم يسبق لي أن قابلت كائناً يرتكب عن عمد تزويراً ضد نفسه. ولكن لماذا أسرّ إلينا بأعمق أسراره؟ سألته عن السبب فقال:

ـ لأنكما طفلان ويمكنكما أن تفهما ذلك، ولأني سمعت أن ذلك الطفل...

وهنا أشار برأسه نحو ديل واستأنف قائلاً:

ـ أن ذلك الطفل لم تتأثر غرائزه بعد بالأمور السائدة هنا. بعد أن يكبر قليلاً لن يصاب بالغثيان ويبكي. ربما ستصدمه على أساس أنها... ليست عادلة تماماً، ولكنه لن يبكي بعد أن يكبر سنوات أخرى قليلة.

ـ يبكي من أي شيء يا سيد رايموند؟

كانت ذكورية ديل قد بدأت تثبت وجودها.

ـ يبكي بسبب الجحيم الصرف الذي يمنحه بعض الناس للآخرين... دون تفكير حتى. يبكي بسبب الجحيم الذي يمنحه البيض للملوّنين، دون أن يتوقفوا ليفكروا حتى في أن هؤلاء بشر أيضاً.

همهمت:

ـ يقول أتيكوس إن خداع رجل ملّون أسوأ بعشر مرات من خداع رجل أبيض. يقول إنّه أسوأ شيء يمكن للمرء أن يفعله.

قال السيد رايموند:

ـ لا أظن ذلك... يا آنسة جان لويز، أنت لا تعرفين أن أباك ليس من النوع العادي من الناس، وأن الأمر يتطلب سنوات قليلة حتى يتم إدراكه. أنت لم تري من العالم ما يكفي بعد. لم تري هذه البلدة حتّى، ولكن كل ما عليك فعله هو أن تعودي إلى المحكمة.

وهذا ما ذكرني بأننا كنا قد فوّتنا على أنفسنا كل استجواب السيد غيلمر تقريباً. نظرت إلى الشمس، وكانت تسقط مسرعة وراء أسطح المخازن على الجانب الغربي من الساحة. وبما أني كنت بين نارين، فلم أستطع أن أقرّر أيهما أريد أن أقفز فيها: السيد رايموند أو المحكمة الجوالة الخامسة.

قلت:

ـ تعال يا ديل. هل أنت أفضل حالاً الآن؟

ـ لقد سعدت بلقائك يا سيد رايموند، وشكراً للشراب. لقد هدأني كثيراً.

أسرعنا عائدين إلى دار المحكمة، تسلقنا السلالم، ثم مجموعتين من الأدراج، وشققنا طريقنا نحو حاجز الشرفة. كان الكاهن سايكس قد احتفظ لنا بمقعدينا.

كانت قاعة المحكمة هادئة، وتساءلت من جديد أين كان أولئك الأطفال. تحول سيكار القاضي تايلور الآن إلى بقعة بنية في منتصف فمه: كان السيد غيلمر يكتب على إحدى رزمتي الأوراق الصفراء التي على منضدته، محاولاً أن يسبق كاتب المحكمة الذي كانت يده تهتز بسرعة. همهمت: «يا لسوء الحظ، لقد فاتت علينا».

كان أتيكوس قد أصبح في منتصف مرافعته أمام المحلفين. كان من الواضح أنه قد أخرج بعض الأوراق من محفظته التي كانت موضوعة على كرسيه، لأنها كانت على منضدته. كان توم روبنسون يعبث بالأوراق.

ـ... عدم توفر أي دليل موثّق، فهذا الرجل قد اتُهم بجناية ويُحاكم الآن وقد يدفع حياته ثمناً لذلك...

قرصتُ جم:

ـ هل بدأ منذ زمن طويل؟

ـ لقد انتهى من التطرق إلى الدليل، ولسوف نفوز يا سكاوت. لا أرى كيف لا يمكننا ذلك. إنه يرافع منذ خمس دقائق. لقد جعل الأمر يبدو بسيطاً وسهلاً... حسناً، كنت أتمنى أن أشرحه لك، ولكنك لن تفهميه حتى.

ـ هل السيد غيلمر...

ـ صه. لا جديد، المعتاد فحسب. صه الآن.

نظرنا إلى الأسفل من جديد. كان أتيكوس يتحدث بطلاقة، بذلك النوع من التجرّد الذي يستعمله حين يملي رسالة. كان يمشي ببطء جيئة وذهاباً أمم المحلفين، وبدا على المحلفين أنهم يصغون باهتمام: كانت رؤوسهم مرفوعة وكانوا يتبعون خطى أتيكوس بما بدا وكأنه تقدير. وأعتقد أن ذلك كان بسبب أن أتيكوس لم يكن يهدر كالرعد.

توقف أتيكوس، ثم فعل شيئاً لم يكن من عادته. فك ساعته وسلسلتها ووضعهما على الطاولة قائلاً:

ـ إذا سمحت المحكمة...

أومأ القاضي تايلور برأسه، ثم فعل أتيكوس شيئاً لم أره يفعله من قبل أو بعد ذلك، في السر أو في العلن: فكّ أزرار صدريته، وزرّ قبته، وحلّ ربطة عنقه قليلاً ثم خلع معطفه. لم يكن من عادته أن يفعل أياً من هذه الأشياء إلاّ بعد أن يدخل إلى غرفته في وقت النوم، وبالنسبة لجم ولي، فقد بدا لنا هذا مساوياً لوقوفه أمامنا وهو عارٍ تماماً. تبادلنا نظرات مروّعة.

وضع أتيكوس يديه في جيبه، ثم استدار نحو المحلّفين، رأيت زرّ قبّته الذهبي ورأسي قلمي الحبر والرصاص وهما يلتمعان تحت النور.

قال:

ـ أيها السادة.

نظرنا جم وأنا مرة أخرى كل نحو الآخر: كان أتيكوس يقولها على نحو عادي وبالطريقة التي يخاطبني أنا فيها حتى كأنّ صوته قد فقد حدته وتجرّده، وكان يتحدث إلى المحلفين وكأنهم أشخاص واقفون عند زاوية مكتب البريد.

كان يقول:

«يا سادة، لن أطيل، ولكني أريد أن أستعمل ما تبقى لي من وقت لديكم لأذكّركم بأن هذه الدعوى ليست بالدعوى الصعبة، ولا تحتاج إلى تمحيص دقيق لحقائق معقدة، ولكنها تتطلب منكم أن تكونوا واثقين دون أي شك يقبله العقل بأن المتهم مذنب. أولاً: هذه الدعوى ما كان يجب أن تقدم إلى المحكمة أصلاً. هذه القضية بسيطة وواضحة كالأبيض والأسود».

«لم تقدم النيابة ولو ذرة واحدة من الأدلة الطبية تثبت أن الجريمة المتهم بها توم روبنسون قد حدثت إطلاقاً. بل اعتمدت النيابة بدلاً عن ذلك على شهادة شاهدين لم تكن الأدلة التي صرّحا بها موضع الارتياب

فحسب خلال الاستجواب، بل إن المتهم قد نقضها كلية. المتهم ليس مذنباً، ولكن الآثم الحقيقي شخص موجود في هذه القاعة».

«وأقول الآثم أيها السادة، لأن الإثم هو الذي دفعها إلى أن تفعل ما فعلته. إنها لم ترتكب جريمة، بل كان ما فعلته مجرد خرق لمجموعة أعراف صارمة من أعراف مجتمعنا تتمتع بقداسة القدم، أعراف متزمتة إلى حدّ أن أي شخص يخرقها سيُنبذ من قبلنا كأنما لا يليق به أن يعيش بيننا. إنها ضحية الفقر القاسي والجهل، ولكني لا أستطيع أن أرثي لها: فهي بيضاء، كانت تعرف تماماً ضخامة إثمها، ولكنها ثابرت على خرق تلك الأعراف لأن رغباتها كانت أقوى منها. وقد ثابرت على ذلك، وكان رد فعلها التالي شيئاً عرفناه كلنا في وقت من الأوقات. لقد فعلت شيئاً مارسه كل طفل: حاولت أن تبعد دليل إثمها عن نفسها. ولكنها في هذه الحالة لم تكن طفلاً يخبئ الشيء المحرَّم الذي سرقه: بل صوبت ضربتها نحو ضحيتها ـ يجب بالضرورة أن تبعده عن نفسها ـ يجب أن يُزال من أمام ناظريها ومن هذا العالم. يجب أن تدمّر دليل إثمها».

«وما هو دليل إثمها؟ إنه توم روبنسون، الكائن البشري. عليها أن تبعد توم روبنسون عنها. فتوم روبنسون هو الشيء الذي يذكّرها يومياً بما ارتكبته. وما هو الإثم الذي ارتكبته؟ لقد حاولت إغواء رجل زنجي».

«إنها بيضاء، وقد حاولت إغواء زنجي. لقد حاولت شيئاً يُعتبر في عرف مجتمعنا أمراً محظوراً: لقد قبّلت رجلاً أسود. ليس عمّاً عجوزاً، بل شاباً زنجياً قوياً. لم تكن تأبه بالعرف قبل أن تخرقه، ولكنها أحست بوطأته فيما بعد».

«لقد شاهد والدها ما حدث، وقد أفاد الشاهد بذلك. ما الذي فعله والدها؟ لا نعرف، ولكن هناك دليل مادي يشير إلى أن مايلا

يوويل تعرضت لضرب وحشي من قبل شخص استعمل يسراه على وجه الحصر. نحن نعرف ما فعله السيد يوويل إلى حد ما: لقد فعل ما كان سيفعله أي رجل أبيض محترم دؤوب يخاف الله في مثل تلك الظروف... لقد أقسم على تقديم دليل، ووقّعه دون شك بيسراه، والآن يجلس أمامكم توم روبنسون ليتحمّل وزْر ذلك، وباليد الصالحة الوحيدة التي يملكها: يده اليمنى».

«وهكذا، فإن زنجياً هادئ الطباع، محترماً ومتواضعاً حدث أن تهوَّر تهوراً كاملاً فأحس «بالشفقة» على امرأة بيضاء وها هو يضطر الآن إلى أن يضع شهادته مقابل شهادة شخصين أبيضين. لا أحتاج إلى تذكيركم بمظهرهما وسلوكهما على منصة الشهادة... فأنتم قد شاهدتموهما بأنفسكم. إن شاهدي النيابة، وأستثني هنا مأمور مقاطعة مايكوم، قد قدّما نفسيهما إليكم أيها السادة، وإلى هذه المحكمة، وهما واثقان على نحو ساخر من أنه لن يجري التشكيك بشهادتيهما، وواثقان من أنكم أيها السادة ستوافقون على ما يقولانه على أساس الفرضية ـ الفرضية الشريرة ـ التي تفيد أن «كل» الزنوج يكذبون، وأن «كل» الزنوج أشخاص لا أخلاقيون أساساً، وأن «كل» الذكور الزنوج لا يمكن الوثوق بهم فيما يخص نسائنا، وهو افتراض يربطه المرء بدرجة قدراتهم العقلية».

«وهذه أيها السادة كذبة سوداء بحد ذاتها بقدر ما هي بشرة توم روبنسون سوداء، كذبة لست مضطراً إلى أن ألفت انتباهكم إليها. فأنتم تعرفون الحقيقة، والحقيقة هي: بعض الزنوج يكذبون، وبعض الزنوج لا أخلاقيون، وبعض الزنوج الذكور لا يمكن الوثوق بهم فيما يخص النساء.. أكُنّ سوداوات أو بيضاوات. ولكن هذه حقيقة تنطبق على الجنس البشري كله وليس على عنصر بعينه منه. ليس في هذه المحكمة شخص لم يتفوّه بكذبة في حياته، أو لم يرتكب عملاً غير أخلاقي، ولا يوجد رجل حيّ لم ينظر في حياته إلى امرأة ما بشهوة».

توقف أتيكوس وأخرج منديله. ثم خلع نظارتيه ومسحهما، ورأينا شيئاً آخر فيه نراه للمرة الأولى: فنحن لم يسبق لنا أن رأيناه يعرق... كان واحداً من أولئك الرجال الذين لا تتعرق وجوههم، ولكن وجهه كان لامعاً الآن.

«أمر آخر أيها السادة قبل أن أنهي مرافعتي. قال «توماس جفرسون»[1] مرة إن كل الناس قد خلقوا متساوين، وهي عبارة يُغْرَمُ اليانكي والجانب النسوي من «الفرع التنفيذي» في واشنطن برمينا بها. هناك ميل في هذا العام (1935) لدى بعض الناس لاستعمال هذه الجملة خارج سياقها، وذلك حتى تنطبق على كل الشروط. والمثال الأكثر مدعاة للضحك الذي أستطيع التفكير به هو أن الناس المسؤولين عن التربية العامة يرفعون التلاميذ الأغبياء والكسالى مع المجتهدين... وذلك لأن كل الناس قد خلقوا متساوين. هكذا سيقول لك المربّون. فالأطفال الذين يرسبون في صفوفهم يعانون من مشاعر نقص رهيبة. نحن نعرف أن الناس لم يخلقوا كلهم متساوين بالمعنى الذي يريد بعض الناس أن يُقنعونا به: فبعض الناس أكثر ذكاء من غيرهم، وبعض الناس لديهم فرصة أكبر لأنهم ولدوا ولديهم هذه الفرصة، بعض الناس يجمعون من المال أكثر من الآخرين، وبعض السيدات يُجدن صنع الكعك أكثر من غيرهن... بعض الناس ولدوا وهم يتمتعون بموهبة تفوق المستوى العادي لأغلبية الناس.

«ولكن هناك طريقة واحدة في هذا البلد ـ يخلق فيها الناس متساوين جميعاً ـ فهناك مؤسسة إنسانية واحدة تجعل الفقير يتساوى مع فرد من عائلة «روكفلر»، والأحمق يتساوى مع شخص كآينشتاين، والجاهل يتساوى مع عميد كلية، هذه المؤسسة، أيها السادة، هي المحكمة.

---

(1) (1743 ـ 1826) رئيس الولايات المتحدة ومؤلف «إعلان الاستقلال» (المترجم).

«ويمكن أن تكون تلك هي «المحكمة العليا للولايات المتحدة» أو أكثر المحاكم تواضعاً في البلد كلها، أو هذه المحكمة الموقّرة التي تعملون في خدمتها. إن لمحاكمنا أخطاءها، كما لأية مؤسسة إنسانية، ولكن في هذا البلد محاكمنا هي المساوي الأكبر بين البشر، وفي محاكمنا كل الناس خلقوا متساوين.

«لست بالمثالي حتى أؤمن بحزم بنزاهة محاكمنا وبنظام المحلفين، فهذه ليست مثالية بالنسبة لي، بل هي واقع حيّ فعّال. أيها السادة، ليست المحكمة سوى كل شخص منكم يجلس أمامي هنا على منصة المحلفين. والمحكمة تكون قويمة بقدر ما يكون محلفوها كذلك، وتكون هيئة المحلفين قويمة بقدر ما هم الأشخاص الذين يشكلونها قويمون. أنا واثق من أنكم أيها السادة ستراجعون دون انفعال الشهادات التي استمعتم إليها، وتصلون إلى قرار، وتعيدون هذا المتهم إلى عائلته. أناشدكم بالله أن تقوموا بواجبكم».

انخفض صوت أتيكوس، وحين استدار مبتعداً عن المحلفين قال شيئاً ما لم أسمعه. قال ذلك لنفسه أكثر مما قاله للمحكمة. قرصتُ جم:

ـ ماذا قال؟

ـ «أناشدكم باسم الله أن تصدقوه». أعتقد أنه قال ذلك.

انحنى ديل من فوقي ولكز جم:

ـ انظر إلى هناك.

تابعنا أصبعه بقلوب غائصة. كانت كالبورنيا تتقدم نحو منتصف الممشى بين الصفين من المقاعد وهي تتجه نحو أتيكوس مباشرة.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

توقفتْ بخجل عند الحاجز وانتظرتْ حتى تَلْفِتَ اهتمام القاضي تابلور. كانت ترتدي مريلة نظيفة وتحمل مظروفاً في يدها.

رآها القاضي تايلور وقال:

ـ هذه كالبورنيا، أليس كذلك؟

قالت:

ـ نعم يا سيدي. هل يمكنني أن أوصل هذه الرسالة للسيد فينتش يا سيدي؟ لا علاقة لهذه بالـ... بالمحاكمة.

أومأ القاضي برأسه وأخذ أتيكوس المظروف من كالبورنيا. فتحه وقرأ محتوياته وقال:

ـ سيدي القاضي، هذه رسالة من أختي. وهي تقول إن طفليّ مفقودان، فهما لم يعودا إلى البيت منذ الظهر... إني... هل يمكنك...

ـ أعرف أين هما يا أتيكوس.

هكذا تكلم السيد أندروود: ثم استأنف:

ـ إنهما هناك في الشرفة الخاصة بالملوّنين... وهما هناك منذ الساعة الواحدة والدقيقة الثامنة عشرة بالتحديد.

التفت أبونا ونظر إلى الأعلى. صاح:

ـ جم، انزل من هناك.

ثم قال للقاضي شيئاً لم نسمعه. نزلنا متجاوزين الكاهن سايكس وشققنا طريقنا نحو الدرج.

كان أتيكوس وكالبورنيا في انتظارنا في الطابق الأسفل. بدت كالبورنيا في حالة من الغيظ، أما أتيكوس فبدا منهكاً.

كان جم يقفز مستثاراً:

ـ لقد كسبنا، أليس كذلك؟

قال أتيكوس بإيجاز:

ـ لا أعرف. هل كنتم هنا فترة بعد الظهر كلها؟ اذهبوا مع كالبورنيا إلى البيت وتناولوا عشاءكم... وابقوا في المنزل.

توسل جم:

ـ أوه يا أتيكوس... اسمح لنا بالبقاء. أرجوك اسمح لنا بسماع الحكم. أرجوك يا سيدي.

ـ قد يخرج المحلفون ويعودون خلال دقيقة، لا نعرف...

ولكننا لاحظنا أن أتيكوس كان يلين.

ـ حسناً، لقد سمعتم المحاكمة كلها، فلا بأس من أن تسمعوا البقية. أأقول لكم؟ يمكنكم العودة بعد أن تتناولوا طعام العشاء... كلوا ببطء فلن يضيع عليكم أي شيء هام الآن... وإذا كان المحلفون ما يزالون خارجاً، فبإمكانكم الانتظار معنا. ولكني أتوقع أن تنتهي الأمور قبل عودتكم.

سأل جم:

ـ هل تعتقد أنهم سيبرئونه بهذه السرعة؟

فتح أتيكوس فمه ليجيب، ولكنه أغلقه وغادرنا.

تضرّعت أن يحفظ لنا الكاهن سايكس مقاعدنا. ولكنني توقفت عن ذلك حين تذكرت أن الناس نهضوا وبدؤوا يغادرون جماعات جماعات حين خرج المحلفون من القاعة.. والليلة سيغزون بائع

العصير والسندويش، ومقهى «الأوكي» والفندق، هذا إذا لم يكونوا قد جلبوا معهم وجبات عشائهم أيضاً.

سارت بنا كالبورنيا إلى المنزل قائلة:

ـ سأسلخ جلد كل منكما وهو حيّ، لا أستطيع أن أتصور مجرد تصور فكرة إصغائكم أيها الأطفال إلى كل ذلك. يا سيد جم، ألست تعرف أنه ليس من المفروض فيك أن تأخذ أختك الصغيرة إلى تلك المحاكمة؟ ستصاب السيدة ألكسندرا بالشلل حتماً حين تعرف. ليس لائقاً بالأطفال أن يسمعوا...

كانت أنوار الشارع مضاءة، ولمحنا الشكل الجانبي لوجه كالبورنيا الممتعض حين مررنا من تحتها.

ـ يا سيد جم، كنت أظن أنَّ لك رأساً بدأ ينمو على كتفيك، لا أستطيع أن أتصور مجرد تصوّر. إنها أختك الصغيرة. لا أستطيع أن أتصور ذلك يا سيدي. لا بد أنك خجل من نفسك تماماً... أليس فيك عقل أبداً؟

كنت متنبّهة تماماً، فقد حدثت أمور كثيرة حتى الآن وبسرعة كبيرة شعرت معها أنه سأمضي سنوات عديدة قبل أن أستطيع فرزها، وهاهي كالبورنيا الآن تتخلى عن جم العزيز على قلبها. ما الذي سيجلبه المساء من مفاجآت أخرى أيضاً؟

كان جم يضحك:

ـ ألا تريدين أن تسمعي بما حدث يا كال؟

ـ اسكت يا سيدي. عليك أن تكون مُطَأطَأ الرأس خجلاً الآن بدلاً عن أن تضحك.

أحيت كالبورنيا سلسلة من التهديدات التي علاها الصدأ والتي لم تزعج جم إطلاقاً، ثم صعدت الدرج الأمامي وهي تصيح بجملتها المشهودة: «إذا لم يؤدبك السيد فينتش فسأفعل ذلك أنا... ادخل إلى المنزل يا سيدي».

دخل جم مبتسماً، وأومأت كالبورنيا برأسها علامة الموافقة على مشاركة ديل لنا في طعام العشاء: «هيا اهتف إلى الآنسة راشيل فوراً فهي تبحث عنك كالمخبولة في كل مكان. واحذر لئلا تعيدك بالزورق إلى ميريديان منذ الصباح الباكر».

جاءت العمة ألكسندرا للقائنا، وكاد يغمى عليها حين أخبرتها كالبورنيا عن المكان الذي كنّا فيه. وأعتقد أن مشاعرها جُرحت حين قلنا لها أن أتيكوس قال إن بإمكاننا العودة، لأنها لم تفه بكلمة واحدة خلال العشاء. كانت تعيد ترتيب الطعام في صحنها، وتنظر إليه بحزن بينما قامت كالبورنيا على خدمتنا، جم وديل وأنا بنوع من الانتقام. صبت كالبورنيا الحليب، ووضعت سلطة البطاطا ولحم الخنزير المقدد وهي تهمهم: «يجب أن تخجلوا مما فعلتم» وتكررها بدرجات مختلفة الحدّة. وكان آخر أوامرها: «فلتأكلوا كلكم ببطء».

كان الكاهن سايكس قد احتفظ لنا بمقاعدنا. وقد دهشنا حين علمنا أننا قد غبنا حوالي الساعة تقريباً، وكنا مندهشين أيضاً إذا وجدنا قاعة المحكمة كما تركناها إنّما مع تغييرات طفيفة: كانت منصة المحلفين فارغة، والمتهم قد رحل، وكذلك القاضي تايلور، ولكنه عاد للظهور حين كنا نجلس.

قال جم:

ـ لم يتحرّك أحداً تقريباً.

قال الكاهن سايكس:

ـ لقد تحرك الناس بعض الشيء حين خرج المحلفون. لقد جلب الرجال هناك في الأسفل العشاء للنساء، وهؤلاء أطعمن أطفالهن.

سأل جم:

ـ منذ متى غادر المحلفون القاعة؟

ـ منذ ثلاثين دقيقة تقريباً. قدم السيد فينتش والسيد غيلمر المزيد من الخطابات، كما أن القاضي تايلور هاجم المحلفين.

ـ وكيف كان هو؟

ـ ماذا أقول؟ حسناً، لقد كان جيداً. لا أشكو منه إطلاقاً، لقد كان عادلاً تماماً. لقد قال لهم إذا صدقتم هذا، سيكون لديكم حكم واحد تصدرونه، وإذا صدقتم ذاك فسو تصدرون حكماً آخر. أعتقد أنه كان يميل إلى جانبنا قليلاً...

ثم حك الكاهن سايكس رأسه.

ابتسم جم وقال بحكمة:

ـ ليس من المفروض به أن يميل إلى أي جانب، يا سيدي الكاهن ولكن لا تبتئس، فقد كسبناها. لا أستطيع أن أتصور كيف يمكن لأيّ هيئة محلفين أن تدين المتهم بناء على ما سمعناه...

ـ هيا لا تكن واثقاً إلى هذا الحد يا سيد جم، فأنا لم أر في حياتي هيئة محلفين تصدر قراراً لصالح رجل ملون ضد رجل أبيض...

ولكن جم قال إن هذه المرة ستكون استثناء، وقد أخضعنا لمراجعة مطولة حول الدليل المطلوب، ولأفكاره حول القانون فيما يخص الاغتصاب: لا يكون الأمر اغتصاباً إذا سمحت المرأة للرجل بذلك، ولكن يجب أن تكون في الثامنة عشرة من عمرها ـ هذا في ولاية ألاباما ـ ومايبلا كانت في التاسعة عشرة. طبعاً عليها أن ترفس وتصرخ، وعليها أن تُغْلَب وتُداس بالأقدام، والأفضل أن تُضرب حتى يغمى عليها. إذا كانت تحت الثامنة عشرة، لا يكون كل هذا ضرورياً حتى يُتهم الرجل بالاغتصاب..

اعترض الكاهن سايكس قائلاً:

ـ يا سيد جم، ليس من اللائق أن تسمع السيدات الصغيرات مثل هذا الكلام...

ـ أوه، إنها لا تعرف عما نتحدث. يا سكاوت أنت أصغر من أن تفهمي هذه الأمور، أليس كذلك؟

ـ ليس الأمر على هذه الحال أبداً، فأنا أفهم كل كلمة تقولها.

ربما كانت لهجتي مقنعة أكثر من اللازم، لأن جم صمت ولم يناقش الموضوع مرة أخرى.

سأل جم:

ـ كم الساعة يا سيدي الكاهن؟

ـ إنها تقترب من الثامنة.

نظرت إلى الأسفل فشاهدت أتيكوس يتمشّى حول المكان ويداه في جيبه: جال بالنوافذ ثم سار محاذياً الحاجز وحتى منصة المحلفين. نظر إلى داخلها، ثم تفحص القاضي تايلور المتربّع على عرشه، ثم عاد من حيث بدأ. حاولت أن ألفت نظره، وحين نجحت في ذلك لوّحت له. وقد ردّ على تحيّتي بإيماءة بالرأس ثم استأنف جولته.

كان السيد غيلمر واقفاً عند النوافذ يتحدث إلى السيد أندروود. بينما كان «بيرت»، كاتب المحكمة، يدخن السيكارة تلو الأخرى دون أن يطفئ أيّاً منها: كان يجلس وقدماه فوق الطاولة.

أما رسميّو المحكمة، أولئك الحاضرون منهم: أتيكوس والسيد غيلمر والقاضي تايلور الغارق في النوم، و«بيرت»، فقد كانوا الوحيدين الذين بدا عليهم أنهم يتصرفون على نحو عادي. لم يسبق لي أن رأيت قاعة محكمة مكتظة بالبشر وساكنة إلى هذا الحد. أحياناً كنت تسمع صوت طفل ينقّ باكياً، أو آخر يخرج راكضاً، ولكن الكبار كانوا يجلسون أو يقفون كَمَنْ في كنيسة. في الشرفة، كان الزنوج يجلسون أو يقفون من حولنا في صَبْرٍ توراتي.

عانت ساعة المحكمة القديمة من التوتر التمهيدي ثم دقت معلنة تمام الساعة، ثمانية دقات تصم الآذان وتهزّ العظام.

وحين دقت إحدى عشر مرة كانت قد فقدت كل شعور. فبعد معاركتي للنوم، سمحت لنفسي بأن أغفو غفوة قصيرة على ذراع الكاهن سايكس وكتفه المريح. ثم استيقظت وقمت بجهد مخلص محاولة أن أبقى كذلك، وذلك بالنظر إلى الأسفل والتركيز على الرؤوس التي تحتنا: كانت هناك ست عشرة رأساً صلعاء وأربعة عشر رجلاً يمكن أن نسميهم على أنهم من أصحاب الشعر الأحمر، وأربعون رأساً تتراوح ألوانها ما بين البني والأسود، وتذكرت شيئاً كان جم قد شرحه لي مرة حين كان يمر بفترة موجزة من البحث الفيزيائي: قال لو أن مجموعة كبيرة من الناس - مثلاً إستاد رياضي مليئ بالناس - ركزوا كلهم على شيء واحد، كأن يشعلوا ناراً في شجرة في غابة، فالشجرة ستشتعل من تلقاء ذاتها، ولهوت بفكرة الطلب إلى كل شخص في الأسفل بأن يركز على إطلاق سراح توم روبنسون، ولكني فكرت في أنهم إذا كانوا منهكين بقدر ما أنا منهكة، فلن تنجح الحيلة.

كان ديل غارقاً تماماً في النوم ورأسه على كتف جم، وجم كان صامتاً.

سألته:

- ألم يطيلوا مداولتهم؟

قال بسعادة:

- طبعاً يا سكاوت.

- من الطريقة التي تحدثت بها، كان يخيل إليّ أنها ستستغرق خمس دقائق فحسب.

رفع جم حاجبيه وقال:

ـ هناك أمور لا تفهمينها.

وكنت متعبة إلى حد أني لم أجادله.

ولكن لا بد أني كنت مستيقظة إلى حد معقول، وإلاّ لما كنت قد تلقيت ذلك الانطباع الذي كان يزحف إلى داخلي. ولم يكن يختلف كثيراً عن ذاك الذي عرفته في الشتاء الماضي، وقد ارتجفت، رغم أن الليلة كانت حارة. وقد نما ذلك الشعور حتى أصبح الجو في قاعة المحكمة كما كان بالضبط في صباح يوم بارد من أيام شباط (فبراير)، حين سكتت العصافير الساخرة وتوقف النجّارون عن الطرق في منزل الآنسة مودي الجديد، وحين أُغلق كل باب خشبي في الحي بذلك الإحكام الذي تغلق به أبواب منزل آل رادلي. شارع فارغ مهجور في حالة من الانتظار، وقاعة المحكمة كانت مكتظة بالناس. لم تعد الليلة الصيفية القائظة لتختلف عن صباح يوم شتائي بارد. أما السيد هك تيت، الذي كان يدخل قاعة المحكمة ويتحدث إلى أتيكوس، فقد كان مرتدياً على الأرجح جزمته العالية وجاكتته ذات المربعات. كان أتيكوس قد أوقف رحلته الهادئة ووضع قدمه على الدعامة السفلى لأحد الكراسي. وبينما كان يصغي إلى ما يقوله السيد تيت، كان يمرر يده ببطء على فخذه صعوداً ونزولاً، وتوقعت من السيد تيت أن يقول في أية لحظة: «إليك به يا سيد فينتش..»..

ولكن السيد تيت قال: «المحكمة ستنعقد من جديد»، وقد قالها بصوت مدوٍ بالسلطة، وارتفعت الرؤوس التي تحتنا فجأة. غادر السيد تيت القاعة ثم عاد بتوم روبنسون. أوصل توم إلى مكانه إلى القرب من أتيكوس ووقف هناك. تنبّه القاضي تايلور فجأة وجلس منتصباً وهو ينظر إلى منصة المحلفين.

ولكن ما حدث بعد ذلك كانت له صفة أشبه بالحلم: ففي الحلم رأيت المحلفين يعودون، وهم يتحركون كمن يسبح تحت الماء، وجاء صوت القاضي تايلور من البعيد البعيد، وكان ضئيلاً. ورأيت شيئاً ما ليس من المتوقع أن يراه إلا ولد محام، أو لا يترقبه إلا هو، وكان ذلك أشبه بمراقبة أتيكوس وهو يمشي في الشارع، ويرفع بندقية إلى كتفه ثم يجذب الزناد، ولكني كنت أراقب طوال الوقت مدركة أن البندقية كانت فارغة.

ليس من عادة هيئة من المحلفين أدانت متهماً أن تنظر باتجاهه، وحين دخلت تلك الهيئة، لم ينظر ولا واحد منهم نحو توم روبنسون. سلم رئيسها قطعة من الورق إلى السيد تيت الذي سلمها بدوره إلى القاضي..

أغلقت عينيّ. كان القاضي تايلور يقرأ أصوات المقترعين: «مذنب... مذنب... مذنب... مذنب..». اختلست النظر إلى جم: كانت يداه بيضاوين من شدة إمساكه بحاجز الشرفة، وكانت كتفاه تنتفضان وكأن كل كلمة «مذنب» كانت عبارة عن طعنة تصيبه بينهما.

كان القاضي تايلور يقول شيئاً ما. كانت مطرقته في يده، ولكنه لم يكن يستعملها. شاهدت بغير وضوح أتيكوس وهو يدفع بأوراقه من منضدته إلى داخل حقيبة يده. أغلقها، توجه نحو كاتب المحكمة وقال له شيئاً ما، ثم أومأ برأسه للسيد غيلمر، ثم توجه نحو توم روبنسون وهمس له بشيء ما. كان أتيكوس يضع يده على كتف توم حين همس له. تناول أتيكوس جاكتته من ظهر الكرسي ووضعها على كتفيه. ثم غادر القاعة ولكن ليس من المخرج المعتاد. ربما كان يريد الذهاب إلى البيت من أقصر طريق، لأنه كان يمشي بسرعة عبر الممشى الأوسط متجهاً نحو المخرج الجنوبي. لاحقت بنظري أعلى رأسه وهو يشق طريقه نحو الباب. لم ينظر إلى الأعلى.

كان أحدهم يقرصني، ولكني كنت غير راغبة في أن أبعد عينيّ عن الناس الذين في الأسفل أو عن صورة أتيكوس وهو يمشي وحيداً عبر الممشى.

ـ يا آنسة جان لويز؟

نظرت فيما حولي. كانوا قد شرعوا بالوقوف. كل من حولنا ومن في الشرفة على الجدار المقابل من الزنوج كانوا يهمّون بالنهوض. كان صوت الكاهن سايكس بعيداً بعد صوت القاضي تايلور.

ـ يا آنسة جان لويز، قفي. فأبوك يغادر المحكمة.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

كان دور جم في البكاء الآن. فقد كان وجهه مخططاً بالدموع الغاضبة ونحن نشقّ طريقنا بين الحشد السعيد. كان يهمهم: «ليس عدلاً» طوال طريقنا نحو زاوية الساحة حيث وجدنا أتيكوس بانتظارنا. كان أتيكوس واقفاً تحت عمود النور ويبدو عليه وكأن شيئاً لم يحدث: كان أزرار صدريته مقفلة، وقبته وربطة عنقه في مكانهما الصحيح، وسلسلة ساعته تلتمع. لقد عاد إلى هدوئه المعتاد من جديد.

قال جم:

ـ ليس عدلاً.

ـ لا يا بني، ليس عدلاً.

ثم سرنا نحو البيت.

كانت العمة ألكسندرا لازالت ساهرة تنتظر. كانت في الروب دوشامبر، وكنت أستطيع أن أقسم أنها كانت ترتدي المشدّ تحته. همهمتْ: «آسفة يا أخي». وبما أني لم يسبق أن سمعتها تنادي أتيكوس بـ«أخي» من قبل، فقد اختلست نظرة إلى جم، ولكنه لم يكن يصغي. كان ينظر إلى أتيكوس ثم إلى الأرض وتساءلت إن كان يعتقد يا ترى أن أتيكوسَ مسؤول نوعاً ما عن إدانة توم روبنسون.

سألت عمتي ملمّحة إلى جم:

ـ هل هو بخير؟

قال أتيكوس:

ـ سيكون بخير الآن. كانت التجربة أقوى قليلاً مما يستطيع احتماله.

تنهد أبونا ثم استأنف قائلاً:

ـ أنا ذاهب لأنام، وإذا لم أستيقظ في الصباح لا تنادوا عليّ.

ـ لم أكن أعتقد أنه من الحكمة أوّلاً وقبل كل شيء أن أدعهما...

قال أتيكوس:

ـ هذا هو بيتهما يا أختي. لقد جعلناه لهما على هذه الشاكلة، فعليهما أن يتعلّما كيف يتغلبان على الصعوبات.

ـ ولكن ليس عليهما الذهاب إلى دار المحكمة والتمرّغ...

ـ إنها أيضاً جزء من مقاطعة مايكوم بقدر ما هي حفلات الشاي التبشيرية.

قالت العمة ألكسندرا وقد بدا القلق في عينيها:

ـ يا أتيكوس، أنت آخر شخص كنت أفكر في أنه قد يسخر منا.

ـ لست أسخر منكن بل أنا منهك فحسب. سأذهب إلى الفراش.

قال جم بكآبة:

ـ أتيكوس...

التفت أيتكوس في الممشى وقال:

ـ ماذا يا بني؟

ـ كيف استطاعوا أن يفعلوا ما يفعلونه؟ كيف استطاعوا؟

ـ لا أعرف، ولكنهم فعلوه. لقد فعلوا ذلك سابقاً وفعلوه الليلة وسيفعلونه من جديد وحين يفعلونه... يبدو أن الأطفال هم وحدهم الذي يبكون. فلتصبح على خير.

ولكن الأشياء تكون دائماً في حالة أفضل في الصباح. نهض أتيكوس في وقته المعتاد وكان في غرفة الجلوس وراء صحيفة «موبيل ريجيستر» عندما دخلناها متعثرين. كان وجه جم الصباحي يطرح السؤال الذي كانت شفتاه الوسنانتان تحاولان جاهدتين نطقه.

قال له أتيكوس ونحن ندخل إلى حجرة الطعام وهو يطمئنه: «لم يحن أوان القلق بعد، فالأمر لم ينته عند هذا الحد. سيكون هناك استئناف، ويمكنك الاعتماد على ذلك. يا للسماء يا كال، ما هذا كله؟» وكان يحدق في طبق إفطاره.

قالت كالبورنيا:

ـ لقد أرسل لك والد توم روبنسون هذا الفروج هذا الصباح، وقد جهزته لك.

ـ قولي له إني فخور بذلك... وأراهن على أنهم لا يتناولون في «البيت الأبيض» فراريج على الفطور. وما هذه؟

قالت كالبورنيا:

ـ إنها أقراص أرسلتها «إسيتلا» من الفندق.

نظر إليها أتيكوس بحيرة فقالت:

ـ الأفضل أن تدخل المطبخ وتنظر ما بداخله يا سيد فينتش.

لحقنا به. كانت طاولة مثقلة بطعام يكفي لدفن العائلة بأكملها: قطع ضخمة من لحم الخنزير المملح، البندورة (الطماطم)، الفاصولياء وحتى العنب. ابتسم أتيكوس ابتسامة عريضة حين وجد برطماناً من عظام رسغ الخنزير المخلّلة.

سألت:

ـ أتعتقد أن عمتي ستسمح لي بأكل هذه في حجرة الطعام؟

قالت كالبورنيا:

ـ كان هذا كله موجوداً على الـدرج الخلفـي حـين وصـلت إلى هناك هذا الصباح. إنهم.. إنهم يقدّرون ما فعلته يا سيد فينتش. إنهم... إنهم يحاولون أن يفعلوا ما هو أكبر من إمكانياتهم، أليس كذلك؟

اخضلّت عينا أتيكوس. سكت برهة ثم قال:

ـ قولي لهم إني ممتّن جداً، قولي لهم... قولي لهم أن علـيهم ألا يفعلوا ذلك مرة أخرى. فهذه أوقات عصيبة...

غادر المطبخ وذهب إلى حجرة الطعام واعتذر لنفـسه مـن العمـة ألكسندرا، ثم ارتدى قبعته وانطلق نحو البلدة.

سمعنا خطوات ديل في القاعة، ولذا تركت كالبورنيا فطور أتيكـوس الذي لم يلمسه على الطاولة. وبين اللقم أخبرنا ديل عـن ردّ فعـل الآنـسة راشيل على أحـداث الليلـة الماضـية، وكـان كمـا يلـي: إذا أراد رجـل كأتيكوس فينتش أن ينطح جداراً صخرياً، فذاك رأسه وهو حرّ فيه.

دمدم ديل وهو يقضم فخذ دجاجة:

ـــ كنـت أود أن أقـول لهـا ولكنـها لم تَبْـد كمـن سيـصغي ذاك الصباح. قالت إنها استيقظت في منتصف الليل وتساءلت أين كنـت يـا ترى في مثل تلـك الـساعة مـن الليـل، وقالـت إنهـا أرادت أن تقـول للمأمور أن يبحث عني ولكنه كان في المحكمة.

قال جم:

ـ يا ديل، عليك أن تتوقـف عـن مغـادرة المـنزل دون إعلامهـا. فهذا يغضبها.

تنهد ديل بصبر. ثم قال:

ـ لقد قلـت لهـا حـتى أزرقّ وجهـي أيـن كنـت ذاهبـاً... ولكـن

الحكاية وما فيها أنها ترى وراء كل ما أفعله أمراً مبيتاً، أراهن على أن تلك المرأة تشرب ما يعادل ثمن غالون على الفطور في كل صباح... وأعرف أنها تشرب كأسين مليئين، فقد رأيتها تفعل ذلك.

قالت العمة ألكسندرا:

ـ لا تتحدث بهذه الطريقة يا ديل. هذا لا يليق بطفل. إنها طريقة... مليئة بالسخرية.

ـ ليس الأمر كما تقولين يا عمة ألكسندرا. إن قول الحقيقة ليس مليئاً بالسخرية، أليس كذلك؟

ـ ولكن الطريقة التي تقول بها الحقيقة توحي بذلك.

التمعت عينا جم وهو ينظر إليها، ولكنه قال لديل:

ـ لنذهب. يمكنك أن تأخذ البكرة معك.

حين ذهبنا إلى الرواق الأمامي، كانت الآنسة ستيفاني كروفورد مشغولة بالحديث إلى الآنسة مودي أتكينسون والسيد آفري. نظروا باتجاهنا واستمروا في الحديث. زمجر جم. تمنّيت لو كان معي سلاح.

قال ديل:

ـ أكره نظرات الكبار إلينا. فهذا يشعرنا أننا ارتكبنا شيئاً ما.

صاحت الآنسة مودي طالبة من جم أن يذهب إليها.

أنّ جم وقفز من الأرجوحة.

قال ديل: «سنذهب معك».

كان أنف الآنسة ستيفاني يرتجف من الفضول. أرادت أن تعرف من أعطانا الإذن بالذهاب إلى المحكمة... لم ترنا هي ولكن الأمر كان قد شاع في كل أنحاء البلدة هذا الصباح بأننا كنا نجلس في شرفة

الملونين. هل وضعنا أتيكوس هناك كنوع من الـ...؟ ألم نكن هناك في وسط أولئك الـ...؟ هل فهمت سكاوت كل الذي...؟ ألم نصب بالجنون ونحن نرى أبانا يُهزم؟

كانت كلمات الآنسة مودي قاتلة. قالت:

- هه يا سيتفاني. لا أستطيع قضاء فترة الصباح كلها هنا على الرواق... يا جم فينتش، لقد ناديت عليك لأرى إن كنت تستطيع أنت وزميلاك تناول بعض الكعك معي. لقد استيقظت منذ الخامسة صباحاً لأطبخها، لذا من الأفضل أن تقولوا نعم. اعذرينا يا ستيفاني. صباحك جميل يا سيد آفري.

على طاولة مطبخ الآنسة مودي كانت كعكة كبيرة وكعكتان صغيرتان. كان من المفروض أن تكون هناك ثلاث كعكات. لم يكن من شأن الآنسة مودي أن تنسى ديل، ولا بدّ أننا قد عبرّنا لها عن ذلك دون كلمة واحدة. ولكننا فهمنا كل شيء حين قطعت الآنسة مودي قطعة من الكعكة الكبيرة وأعطتها إلى جم.

وبينما كنا نأكل، شعرنا أن تلك كانت طريقة الآنسة مودي في التعبير عن رأيها في أنه لم يتغير أي شيء فيما يتعلق بها. كانت تجلس بهدوء في كرسي المطبخ وتراقبنا.

وفجأة تحدثت:

- لا تتذمر يا جم، فالأمور لا تكون عادة بذلك السوء الذي تبدو عليه.

داخل البيت، وحين تريد الآنسة مودي أن تقول شيئاً مطولاً، فإنها تنشر أصابعها على ركبتيها وتجعل الجسر الاصطناعي في فمها مستقراً في مكانه. لقد فعلت كل ذلك وانتظرناها.

- أريد أن أقول لكم بكل بساطة أن هناك بعض الناس في هذا العالم قد خُلقوا ليؤدوا الأعمال البغيضة نيابة عنا. وأبوكما واحد من هؤلاء.

قال جم:

ـ أوه. حسناً.

أجابت الآنسة مودي وقد أدركت ما عناه جم بتلك الهمهمات القدرية:

ـ لا تقل لي أوه ـ حسناً يا سيدي، فلستَ كبيراً بما فيه الكفاية لتقييم ما قلتُه.

كان جم يحدق في قطعته نصف المأكولة من الكعك. قال:

ـ إن ذلك أشبه بيرقة في شرنقتها، كشيء نائم ومغلف ومحفوظ في مكان دافئ. كنت أظن دائماً أن سكان مايكوم هم أفضل الناس في العالم، أو على الأقل هكذا كانوا يبدون لي.

قالت الآنسة مودي:

ـ نحن أكثر الناس أماناً في العالم، فنحن نادراً جداً ما نُطالب بأن نكون مسيحيين حقيقيين، ولكن حين يحدث ذلك، فإن لدينا أشخاص كأتيكوس ليدافعوا عنا.

ابتسم جم بكآبة:

ـ أتمنى لو كانت كل المقاطعة تفكر بطريقتك.

ـ ستدهش لو علمت كم نحن كثيرون.

علا صوت جم وهو يقول:

ـ من هم؟ من فعل في هذه البلدة شيئاً واحداً يساعد به توم روبنسون؟ قولي من؟

ـ أصدقاؤه الملونون وأشخاص مثلنا. أشخاص كالقاضي تايلور. كالسيد هيك تيت. توقف عن الطعام وابدأ بالتفكير يا جم. هل سبق لك وفكرت في أن تعيين القاضي تايلور لأتيكوس كمحام للدفاع عن

ذلك الشاب لم يكن مجرد مصادفة؟ وأن للقاضي تايلور أسبابه في تعيين أتيكوس؟

كانت تلك مجرد فكرة، فالدفاعات التي تعيّنها المحكمة تحال عادة إلى «ماكسويل غرين» وهو آخر محام انضم إلى النقابة وكان في حاجة إلى بعض الخبرة. كان على ماكسويل غرين أن يدافع في قضية توم روبنسون.

كانت الآنسة مودي تقول:

ـ فكروا في ذلك، فالأمر لم يكن مجرد مصادفة. كنت جالسة على الرواق هناك في الليلة الماضية، وكنت أنتظر. انتظرت وانتظرت ورأيتكم تعودون جميعاً وأنتم تمشون على الرصيف. وبينما كنت أنتظر فكرت في أن أتيكوس فينتش لن يكسب الدعوى، فهو لا يستطيع أن يكسبها، ولكنه الشخص الوحيد في هذه الأنحاء الذي يستطيع أن يجعل هيئة المحلفين تتداول كل تلك الفترة الطويلة في قضية كهذه. وقد فكرت كما يلي: إننا نتقدم خطوة... حسناً إنها خطوة صغيرة جداً، ولكنها خطوة على أية حال.

همهم جم:

ـ التحدث بهذه الطريقة جيد... ولكن هل يستطيع القضاة والمحامون المسيحيون أن يعوضوا عن محلّفين وثنيين؟ ما أن أكبر...

قالت الآنسة مودي:

ـ هذا شيء سيكون عليك أن تأخذه من أبيك.

هبطنا الدرجات الباردة الجديدة لمنزل الآنسة مودي الجديد وعدنا إلى الشمس، فوجدنا السيد آفري والآنسة ستيفاني كروفورد ما يزالان في المكان. كانا قد سارا قليلاً على امتداد الرصيف ووقفا أمام منزل الآنسة ستيفاني. وكانت الآنسة راشيل تسير باتجاههما.

قال ديل:

ـ أعتقد أني سأكون مهرجاً حين أكبر.

توقفنا عن السير جم وأنا.

ـ نعم يا سيدي، سأكون مهرجاً. فليس هناك في هذا العالم ما أستطيع أن أفعله تجاه الناس سوى الضحك، لذا سأنضم إلى السيرك وأضحك حتى أرتوي.

قال جم:

ـ لقد فهمت الأمر معكوساً يا ديل، فالمهرجون حزينون، والناس هم من يضحك عليهم.

ـ حسناً، سأكون نوعاً جديداً من المهرجين. سأقف في منتصف الحلقة وأضحك على الناس. انظروا إلى هناك، كل واحد منهم يبدو عليه وكأنه يركب على عصا مكنسة. والخالة راشيل قد سبق لها وركبت واحدة.

كانت الآنسة ستيفاني والآنسة راشيل تلوّحان لنا بجنون، بطريقة لم تكذب ملاحظة ديل.

قال جم:

ـ أوه يا للرب. أعتقد أنه سيكون غير ممكن تجاهلهم.

كان هناك شيء ما على غير ما يرام. فالسيد آفري كان محمرّ الوجه من نوبة عطاس أصابته كاد يعصف بنا خارج الرصيف حين اقتربنا منه. كانت الآنسة ستيفاني ترتجف من الإثارة، وأمسكت الآنسة راشيل بكتف ديل وقالت له:

ـ ادخل إلى الفناء الخلفي وابق هناك. هناك خطر قادم.

سألت:

ـ ما المسألة؟

ـ ألم تسمعي بعد؟ لقد انتشر الخبر في كل أنحاء البلدة...

في هذه اللحظة خرجت العمة ألكسندرا إلى الباب ونادت علينا، ولكنها كانت قد تأخرت كثيراً. فقد استمتعت الآنسة ستيفاني بإعلامنا بأنه في هذا الصباح أوقف السيد بوب يوويل أتيكوس عند زاوية مكتب البريد، وبصق في وجهه، وقال له إنه سينتقم منه ولو كان عليه أن ينتظر حياته كلها.



الفصل الثالِث والعِشرُون

كان التعليق الوحيد الذي صدر عن أتيكوس هو:

ـ كنت أتمنى لو أن السيد يوويل لا يمضغ التبغ.

وفقاً لرواية الآنسة ستيفاني كروفورد على أية حال، فقد كان أتيكوس يغادر مكتب البريد حين اقترب منه السيد يوويل، وشتمه، وبصق عليه، وهدّد بقتله. وقالت الآنسة ستيفاني (التي كانت هناك ورأت كل شيء إذا كانت تمر بالقرب من محلات جيتني جنغل) إن أتيكوس لم يرمش له جفن، بل أخرج منديله ومسح وجهه ووقف هناك وترك السيد يوويل يسميه بأسماء لا يمكن لها أن تكررها بلسانها بأي شكل من الأشكال. كان السيد يوويل محارباً قديماً اشترك في حرب مجهولة، وقد كان رد فعل أتيكوس الهادئ قد جعله يقول له: «أنت أكثر اعتداداً بنفسك من أن تتشاجر معي، أليس كذلك يا ابن الحرام يا محبّ الزنوج؟» وقالت الآنسة ستيفاني أن أتيكوس قال: «لا، بل أنا أصبحت عجوزاً على ذلك»، ثم وضع يديه في جيبيه وسار في طريقه. وقالت الآنسة ستيفاني إن مثل تلك المسائل تناسب شخصاً كأتيكوس فينتش، فهو يستطيع أن يكون متحفّظاً تماماً أحياناً.

ولكننا جم وأنا لم نأخذ المسألة على أنها مسلّية.

قلت:

ـ على أية حال، فقد كان أعظم رام في المديرية في مرة من المرات. كان يستطيع....

قال جم:

ـ أنت تعرفين أنه يرفض حمل البندقية. وهو لا يملك واحدة حتى... وتعرفين أنه حتى في تلك الليلة عند السجن لم يكن يحمل بندقية. قال لي مرة إن حمل البندقية هو دعوة لشخص ما كي يطلق النار عليه.

قلت:

ـ الأمر الآن مختلف، سنطلب منه أن يستعير واحدة.

وقد طلبنا منه ذلك فقال:

ـ هراء.

قال ديل إن مناشدة الطبيعة الأفضل في أتيكوس قد يكون لها تأثير أفضل: وعلى أية حال فإننا سنموت جوعاً إذا قتله بوب يوويل، وزيادة على ذلك فإن العمة ألكسندرا هي التي ستربّينا، وكنا نعرف جميعاً ما الذي ستفعله أوّل ما تفعله وقبل أن يدفن أتيكوس: فهي ستطرد كالبورنيا. قال جم إذا حاولت أنا البكاء وادعيت الإصابة بنوبة، فأنا صغيرة بعد وفتاة أيضاً، فقد يرضخ أتيكوس. ولكن هذا لم يكن صحيحاً.

إلاّ أنّ أتيكوس حين لاحظنا نتجول ببطء في الجوار، لا نأكل ولا نمارس اهتماماتنا المعتادة، اكتشف كم كنا خائفين. وقد قام في إحدى الليالي بإغراء جم بمجلة لكرة القدم، ولما رأى جم يقلّب الصفحات ثم يرميها جانباً، قال:

ـ ما الذي يقلقك يا بني؟

أجابه جم متطرقاً إلى لب الموضوع مباشرة:

ـ السيد يوويل.

ـ ما الذي حدث؟

ـ لم يحدث شيء. نحن خائفان عليك ونعتقد أن عليك أن تفعل شيئاً ما حياله.

ابتسم أتيكوس بسخرية وقال:

ـ وماذا أفعل؟ هل أوقع معه عقد سلام؟

ـ حين يقول رجل ما إنه سينال منك، فيبدو أنه يعني ما يقوله.

قال أتيكوس:

ـ لقد عنى ما قاله حين هدّدني. يا جم، عليك أن تحاول النظر إلى الأمور من وجهة نظر بوب يوويل ولو لدقيقة واحدة. لقد حرمته في تلك المحاكمة من آخر خرقة من الصدق حاول أن يحتمي وراءها، هذا إن كانت لديه في الأصل أساساً. وكان على هذا الرجل أن ينتقم بطريقة ما، فهو من ذلك النوع من الناس. وهكذا، فإن كان البصاق في وجهي وتهديده لي قد أنقذ مايبلا يوويل من جولة إضافية من الضرب، فأنا سعيد بما حصل. لقد كان عليه أن «يفّش خلقه في شخص ما» وأفضل أن أكون أنا ذلك الشخص وليس بالأحرى أولئك الأطفال الذين يملؤون منزله. هل تفهمني؟

أومأ جم برأسه.

دخلت العمة ألكسندرا الغرفة بينما كان أتيكوس يقول:

ـ ليس علينا أن نخشى بوب يوويل إطلاقاً، فقد أخرج كل ما عنده في ذلك الصباح.

قالت العمة:

ـ لا يجب أن تكون واثقاً إلى هذا الحد يا أتيكوس. فهو من ذلك النوع من الناس الذين قد يفعلون أي شيء ليثأروا لأمر ما. أنت تعرف كيف يكون هؤلاء الناس عادة.

ـ ما الذي يمكن أن يفعله يوويل ذاك لي يا أختي؟

قالت العمة:

ـ شيئاً ما وخلسة. عليك أن تأخذ ذلك بالحسبان.

أجاب أتيكوس:

ـ ليس لدى أي شخص في مايكوم فرصة كبيرة ليرتكب شيئاً خلسة.

بعد ذلك، لم نعد خائفين. كان الصيف يشارف على الانتهاء، وقد استمتعنا بما تبقّى منه قدر الإمكان. وقد أكّد لنا أتيكوس أن توم روبنسون لن يحدث له شيء حتى تراجع محكمة أعلى قضيته، وأن أمامه فرصة طيبة لإطلاق سراحه، أو محاكمته من جديد على الأقل. كان الآن في سجن «إنفليد بريزون فارم»، الذي يبعد سبعين ميلاً والواقع ضمن حدود مقاطعة تشستر. وسألت أتيكوس إن كان يسمح لزوجة توم وأولاده أن يزوروه، فأجاب بالنفي.

وسألته في إحدى الأمسيات:

ـ إذا خسر الاستئناف، ما الذي سيحدث له؟

قال أتيكوس:

ـ سيذهب إلى الكرسي[1]، ما لم يخفف حاكم الولاية عقوبته. لم يحن وقت القلق بعد، يا سكاوت. وأمامنا فرصة طيبة للفوز.

كان جم ممدّداً على الأريكة يقرأ في مجلة «الميكانيك للجميع» رفع عينيه وقال:

ـ ليس هذا عدلاً. فهو لم يقتل أحداً حتى لو كان مذنباً بالفعل بما اتهم به. إنه لم يقض على حياة أحد.

---

(1) يعني هنا أنه سيعدم على الكرسي الكهربائي. (المترجم).

قال أتيكوس:

- أنت تعرف أن الاغتصاب في ولاية ألاباما يعتبر جريمة يعاقب عليها بالموت.

- نعم يا سيدي، ولكن هيئة المحلفين لم تكن مضطرة إلى الحكم عليه بالموت... ولو أرادت لحكمت عليه بالسجين عشرين عاماً.

قال أتيكوس:

- توم روبنسون شخص ملوّن، يا جم. ليس في هذه المنطقة من العالم هيئة محلفين تقول: «نعتقد أنك مذنب، ولكن ليست مذنباً جداً» وذلك فيما يتعلق بتهمة كهذه. فقد كانت المسألة مسألة تبرئة مباشرة أو لا شيء إطلاقاً.

كان جم يهز رأسه:

- أعرف أن ذلك ليس صحيحاً، ولكني لا أستطيع أن أعرف مكمن الخطأ... ربما لا يجب أن يكون الاغتصاب جريمة يعاقب عليها بالموت...

رمى أتيكوس صحيفته إلى القرب من كرسيه. قال إنه لم يعترض أبداً على القانون الخاص بالاغتصاب، ولا مرة واحدة، ولكنه كان يشعر بارتياب عميق بمدى صحته كلما طلبت النيابة عقوبة الموت وأقرّت هيئة المحلفين طلبها اعتماداً على دليل عرضي تماماً. ثم نظر إليّ فرآني أستمع فتبسّط في الكلام: «أعني، قبل أن يُحكم على شخص بالإعدام لأنه ارتكب جريمة قتل، مثلاً، يجب أن يكون هناك شاهد عيان أو شاهدان. يجب أن يكون هناك شاهد يقول: (نعم لقد كنت هناك ورأيته وهو يجذب الزناد)».

قال جم:

ـ ولكن أشخاصاً كثيرين شنقوا بناء على دليل عرضي.

ـ أعرف ذلك، وربما كان كثيرون منهم يستحقون الشنق فعلاً، ولكن في حالة عدم توفر شاهد العيان، فهناك دائماً شك ما، وأحياناً ظل لشك. القانون يسميه «شك معقول»، ولكني أعتقد أن المتهم مخول بأن يكون فوق الشك. هناك دائماً احتمال ـ مهما كان هذا الاحتمال غير وارد ـ بأن المتهم بريء.

قال جم بعناد:

ـ إذن، فالمسألة تعود في النهاية إلى هيئة المحلّفين. يجب أن نتخلص من نظام المحلّفين.

بذل أتيكوس جهداً حتى لا يبتسم، ولكنه لم يستطع مغالبة الابتسام. قال:

ـ أنت تقسو علينا نوعاً ما يا بني. أعتقد أن هناك طريقة أفضل. يجب تغيير القانون. تغييره بحيث يكون للقضاة فقط حق تثبيت العقوبة بالنسبة للقضايا التي تتعلق بالإعدام.

ـ إذن، فلتذهب إلى مونتغومري وتغيّر القانون.

ـ ستدهش إذا عرفت مدى صعوبة ذلك. لن أعيش لأرى القانون يتغير، وإذا عشت لتراه فستكون رجلاً طاعناً في السن.

لم يعجب ذلك جم. قال:

ـ لا يا سيدي، يجب التخلص من نظام المحلفين فالرجل لم يكن مذنباً في الأصل، وقالوا إنه مذنب.

ـ لو كنت واحداً من أولئك المحلّفين يا بني، ومعك أحد عشر صبياً من أترابك، لكان توم رجلاً حراً الآن. فحتى الآن لم يتدخل أي

أمر في تفكيرك. أما أولئك المحلفون في قضية توم فهم اثنا عشر رجلاً عاقلاً في الحياة اليومية، ولكنك لاحظت أن شيئاً ما كان يحول بينهم وبين التفكير العقلاني. كما شاهدت الشيء نفسه في تلك الليلة أمام السجن. وحين ابتعد ذلك الطاقم، لم يبتعد أفراده لأنهم أشخاص عاقلون، بل ابتعدوا لأننا كنا هناك. هناك شيء ما في عالمنا هذا يجعل الناس يفقدون عقولهم: وفي هذه الحالة لا يستطيعون أن يعدلوا حتى ولو حاولوا. في محاكمنا، حين تكون هناك شهادة رجل أبيض ضد شهادة رجل أسود، فالأبيض هو الرابح دائماً. إنها حقيقة بشعة جداً، ولكنها من حقائق الحياة.

قال جم بإصرار:

ـ هذا بعيد عن العدل.

ثم ضرب ركبته بيده وقال:

ـ لا يمكنك أن تدين شخصاً بدليل كذلك الدليل، أليس كذلك؟

ـ لا يمكنك «أنت» ذلك، ولكنهم «هم» قادرون على ذلك. المكان الوحيد الذي يجب أن يعامل فيه الإنسان بعدل هو قاعة المحكمة، مهما كان لونه، ولكن للناس أسلوبهم الخاص في حمل مشاعر البغض الخاصة بهم إلى منصة المحلفين. وحين تكبر، سترى البيض وهم يغشّون السود في كل يوم من أيام حياتك، ولكن دعني أقل لك شيئاً يجب ألاّ تنساه: كلما غش رجل أبيض رجلاً أسود، كائناً من كان ذلك الرجل، ومهما بلغت ثروته أو عراقة أسرته، فإنه لا شك شخص وضيع.

كان أتيكوس يتحدث بهدوء إلى حد أن كلمته الأخيرة تحطمت بجلبة على آذاننا. نظرت نحوه، فرأيت وجهه متّقداً.

ـ ليس هناك ما يثير اشمئزازي أكثر من رؤية رجل أبيض تافه يستغلّ جهل الزنجي. لا تتجاهلوا الأمر، فهو يتفاقم، وفي يوم من الأيام سندفع حساب «فاتورة» ما حدث ويحدث. وآمل ألا يكون ذلك في فترة حياتكما أيها الطفلان.

كان جم يحكّ رأسه. وفجأة اتسعت عيناه وقال:

ـ يا أتيكوس، لماذا لا يختار أشخاص مثلنا ومثل الآنسة مودي بين هيئة المحلفين؟ أنت لا ترى شخصاً واحداً من بلدة مايكوم ضمن هيئة المحلفين: فكلهم من منطقة الغابات.

استند أتيكوس إلى الوراء في كرسيه الهزاز. ولسبب ما بدا عليه أنه سرّ من جم. قال:

ـ كنت أتساءل في نفسي: متى يا ترى خطر لك ذلك الخاطر؟ على كل حال هناك أسباب كثيرة. منها مثلاً أن الآنسة مودي لا يمكن أن تكون ضمن هيئة المحلفين لأنها امرأة..

شعرت بالنقمة فقلت:

ـ أتعني أن النساء في ألاباما لا يمكنهن...

ـ نعم، وأعتقد أن الهدف من ذلك هو حماية سيداتنا الرقيقات من حضور دعاوٍ كدعوى توم. وزيادة عليه فإني أشك في أن يتم البت في أية دعوى في مثل تلك الحالة، فالسيدات سيقاطعن باستمرار ليطرحن الأسئلة.

ضحكنا جم وأنا. كان وجود الآنسة مودي ضمن هيئة محلفين أمراً مؤثراً. وفكرت في السيدة دوبوز العجوز على كرسيها ذي العجلات... وهي تقول: «أوقف ذلك الطرق يا جون تايلور، فأنا أريد أن أسأل هذا الرجل سؤالاً». ربما كان أجدادنا يتمتّعون بالحكمة.

كان أتيكوس يقول:

ـ بالنسبة لأناس من أمثالنا... فهذه هي حصتنا من «الفاتورة». في العادة نحصل على المحلفين الذين نستحق. إن سكان مايكوم الشجعان غير مهتمين أولاً، أما ثانياً فهم خائفون. ثم هم...

سأل جم:

ـ خائفون، لماذا؟

ـ ماذا لو أن السيد لينك ديس هو الذي سيقرر مبلغ الأضرار الذي سيؤدّى إلى الآنسة مودي لو حدث مثلاً أن الآنسة راشيل دهستها بسيارة. إن السيد لينك ديس لن يفكر في أن يخسر أيّاً منهما كزبون لمحلّه التجاري، أليس كذلك؟ ولذا فإنه يقول للقاضي تايلور إنه لا يستطيع أن يكون ضمن هيئة المحلفين لأنه ليس لديه من يهتم بمخزنه خلال غيابه. وهكذا يعذره القاضي تايلور. وأحياناً يعذره بغضب.

سألتُ:

ـ وما الذي سيجعله يظن أن إحداهن ستتوقف عن الشراء من مخزنه؟

قال جم:

ـ الآنسة راشيل ستفعل ذلك، ولكن ليس الآنسة مودي. ولكن تصويت المحلفين يظل سرياً، أليس كذلك؟

ضحك أبونا وقال:

ـ أمامك الكثير لتتعلمه بعد يا بني. من المفروض أن يبقى تصويت المحلفين سراً. ولكن العمل كمحلف يجبر الإنسان على أن يقرر شيئاً ويدلي برأيه فيه. لا يحب الناس ذلك. ففي بعض الأحيان يكون ذلك أمراً لا يدعو إلى السرور.

همهم جم:

ـ ولكن محلفي توم وصلوا إلى قرارهم بسرعة.

تحركت أصابع أتيكوس نحو ساعة جيبه:

ـ لا لم يكن الأمر كذلك.

قالها بهمس وكأنه يتحدث إلى نفسه. ثم استأنف:

ـ كان ذلك هو الشيء الذي جعلني أفكر بأن هذه قد تكون ظلاً لبداية ما. لقد أمضى المحلفون ساعات قليلة حتى وصلوا إلى قرار. كان قرارهم أمراً لا مناص منه، فهم سيدينون المتهم، ولكنهم يصلون إليه عادة بدقائق قليلة. في هذه المرة...

وهنا قطع حديثه ونظر إلينا:

ـ ربما تودون أن تعرفوا أن هناك شخصاً واحداً بذل جهداً كبيراً... وفي البداية كان هذا الشخص يزمجر مطالباً بالبراءة الكاملة.

دهش جم فسأل:

ـ من؟

التمعت عينا أتيكوس وقال:

ـ لا أستطيع أن أقول من، ولكني سأخبركم بالتالي ولن أذهب أبعد من ذلك: كان واحداً من أصدقائكم القدامى من «أولد ساروم»...

صاح جم بصوت كالنباح:

ـ أحد أفراد أسرة كانينغهام؟ واحد من... لم أميّز أي واحد منهم ضمن هيئة المحلفين... لا شك أنك تمزح.

ثم نظر إلى أتيكوس نظرة جانبية.

ـ إنه واحد من أقاربهم. له حدبة. لم يلفت نظري. له حدبة. كان يمكن أن يلفت نظري، ولكن لم يحدث.

قال جم بلهجة تبجيلية:

ـ يا للسماء، الآن يريدون قتله وبعد لحظة يحاولون إطلاق سراحه... لا يمكن لي أن أفهم هؤلاء البشر طوال حياتي.

قال أتيكوس إن كل ما على المرء أن يفعله هو أن يعرفهم. وإن آل كانينغهام لم يأخذوا أو ينتزعوا شيئاً من أي شخص منذ أن هاجروا إلى «العالم الجديد»، قال إن الأمر الآخر المتعلق بهم هو أنك ما أن تكسب احترامهم فإنهم يساندونك بكل ما فيهم من قوة. وإن لديه شعوراً، ولكنه مجرد شك لا أكثر، بأنهم غادروا السجن في تلك الليلة يحملون احتراماً كبيراً لآل فينتش. ثم أنه حتى يغيّر أحد أفراد آل كانينغهام رأيه فلا بدّ من حدوث صاعقة، وزيادة عليه لا بد أن يقوم فرد آخر من آل كانينغهام بإقناع هذا الشخص. ثم قال: «لو كان لدينا اثنان من أفراد تلك الجمهرة (التي هاجمت السجن)، لكان لدينا هيئة محلفين لا تستطيع اتخاذ أي قرار».

قال جم ببطء:

ـ هل تعني أنك وضعت بالفعل ضمن هيئة المحلفين رجلاً أراد قتلك قبل ذلك بليلة؟ كيف أمكنك أن تخاطر بمثل تلك الطريقة، يا أتيكوس، كيف؟

ـ حين تحلّل الأمر، سترى أن المخاطرة كانت قليلة. لا يوجد فرق بين شخص ذاهب ليُدين وآخر ذاهب ليُدين، أليس كذلك؟ ولكن هناك فرقاً ضئيلاً بين إنسان ذاهب ليدين وآخر مشوَّش العقل قليلاً، أليس كذلك؟ لقد كان المجهول الوحيد على اللائحة كلها.

سألت:

ـ ما قرابة ذلك الرجل من السيد وولتر كانينغهام؟

نهض أتيكوس، وتمطّى وتثاءب. لم يكن قد حان وقت نومنا نحن بعد، ولكننا فهمنا أنه أراد أن نمنحه فرصة لقراءة صحيفته. التقطها، وفتحها ثم نقرني على رأسي نقرة خفيفة. دندن متحدثاً إلى نفسه:

ـ لنر الآن. لقد تذكرت. إنه ابن عمه وابن خالته في الآن نفسه.

ـ وكيف يمكن ذلك؟

ـ تزوجت أختان من أخين. هذا كل ما لدي لأقوله لك، وعليك أن تحلّيها بنفسك.

عذّبت نفسي ثم وصلت إلى حل هو أني لو تزوجت من جم وكان لديل أخت وتزوجها فسيكون أولادنا أولاد خالة في الوقت نفسه. ثم قلت لجم بعد أن كان أتيكوس قد غادر الغرفة: «عجباً يا جم، إن آل كانينغهام أشخاص مضحكون. هل سمعت ما قيل يا عمتي؟».

كانت العمة ألكسندرا تحوك بساطاً، ولم تكن تراقبنا. كانت تجلس في كرسيها وسلة الشغل إلى جانبها، وقد نشرت بساطها على حضنها. لم كانت السيدات تحوك الأبسطة في الليالي الحارة؟ أمر حيرني فعلاً.

قالت:

ـ سمعته.

تذكرت تلك المناسبة البعيدة المأساوية حين أسرعت للدفاع عن وولتر كانينغهام الصغير. والآن أنا سعيدة لأني فعلت ما فعلته. قلت: «ما إن تبدأ المدرسة حتى أدعو وولتر إلى البيت على الغداء». هكذا

خططت وقد نسيت قراري الخاص بأن أضربه في المرة التالية التي سأراه فيها. «يمكنه البقاء معنا أحياناً بعد المدرسة أيضاً. يمكن لأتيكوس أن يأخذه بالسيارة إلى (أولد ساروم). وربما سيستطيع أن يقضي الليل معنا أحياناً، ما رأيك يا جم؟ موافق؟».

قالت العمة ألكسندرا: «سنرى»، وفي العادة يكون مثل هذا التصريح منها تهديداً، وليس وعداً. ولدهشتي التفّت إليها وقلت:

ـ لم لا يا عمتي؟ إنهم أناس طيبون.

نظرت إلي من فوق نظارتيها الخاصتين بالخياطة وقالت:

- يا جان لويز، لا أشك أبداً في أنهم أناس طيبون. ولكنهم ليسوا من طينتنا.

قال جم:

ـ إنها تعني أنهم جاهلون يا سكاوت؟

ـ وما هو الجاهل؟

ـ أوه، إنه ذو الذوق الرديء، إنهم يحبون العزف على الكمان وما شابه.

ـ وأنا أيضاً.

قالت العمة ألكسندرا:

ـ لا تكوني حمقاء يا جان لويز، فالمسألة هي أنك تستطيعين أن تفركي وولتر كانينغهام حتى يلمع جلده، وتستطيعين أن تلبسيه حذاء وبذلة جديدة، ولكنه لن يكون مثل جم أبداً. وزيادة عليه، فإن في تلك العائلة نزعة إلى السكر بعض ميلٍ كامل. إن نساء آل فينتش لا يبدين اهتماماً بمثل هذا النوع من الناس.

قال جم:

ـ يا عمتي، إنها لم تبلغ التاسعة بعد.

ـ ولكن من الأفضل أن تتعلم ذلك منذ الآن.

ها قد تحدثت العمة ألكسندرا، ولقد ذكرتني جيداً بآخر مرة قامت فيها بالاعتراض بشدة. لم أعرف السبب أبداً.. وكان ذلك حين كنت منهمكة بالخطط الخاصة بزيارة منزل كالبورنيا: كنت فضولية ومهتمة بالموضوع، وكنت أريد أن أكون «ضيفتها»، وأرى كيف كانت تعيش ومن هم أصدقاؤها. ربما كان ذلك أشبه بمن يريد أن يرى الوجه الآخر للقمر. في هذه المرة كانت التكتيكات مختلفة، ولكن هدف العمة ألكسندرا كان هو نفسه. ربما كان هذا هو السبب الذي دفعها لتأتي وتعيش معنا: لتساعدنا على اختيار أصدقائنا. سأحاول أن أصدّها طالما أستطيع، لذا قلت:

ـ إن كانوا أناساً طيبين، لم لا أستطيع إذن أن أكون لطيفة مع وولتر؟

ـ لم أقل إن عليك ألا تكوني لطيفة معه. يجب أن تكوني ودودة ومهذبة معه، يجب أن تكوني مؤدبة مع الجميع يا عزيزتي. ولكن لا يجب أن تدعيه إلى البيت.

ـ وماذا لو كان من أقربائنا؟

ـ إنه ليس من أقربائنا، ولكن حتى ولو كان كذلك، لما تغيّر جوابي.

قال جم مدافعاً:

ـ يا عمتي، يقول أتيكوس إن المرء يستطيع اختيار أصدقائه ولكنه لا يستطيع حتماً اختيار أفراد عائلته، سيبقون أقرباءه سواء أقرّ بذلك أم لا، وحين لا يقرّ بذلك فإنه يبدو غبياً تماماً.

ـ هذا هو أبوكما وهذا رأيه منذ زمان بعيد، ولكني لازلت أقول إن جان لويز لن تدعو وولتر كانينغهام إلى هذا المنزل. وحتى لو كان هو ابن عمها وابن خالتها في آن واحد، فإنه لن يُستقبل في هذا البيت ما لم يكن ذلك ليقابل أتيكوس بشأن يخص العمل. أعتقد أن هذا أمر مبتوت فيه.

كانت قد قالت: «لا» ولكن عليها أن تشرح أسبابها هذه المرة، لذا سألتها:

ـ ولكني أريد أن العب مع وولتر يا عمتي، فلم لا أستطيع؟

خلعت نظارتيها ثم حدقت فيّ وقالت:

ـ سأقول لك لم لا. لأنه... حثالة، لهذا لا أريدك أن تلعبي معه. لن أسمح لك بالتواجد معه حتى لا تتعلمي عاداته وما لا يعرف سوى الرب ماذا أيضاً. أنت كما أنت الآن مشكلة كافية وافية لأبيك.

لا أعرف ما الذي كنت سأفعله، ولكن جم أوقفني عند حدّي. فقد أمسكني من كتفي ووضع ذراعه حولي، وقادني وأنا أبكي بجنون إلى غرفة نومه. سمعنا أتيكوس فأطل برأسه من باب غرفته، ولكن جم قال له بصرامة: «لا شيء يا سيدي. كل شيء على ما يرام»، فعاد أتيكوس إلى غرفته.

قال جم: «ما رأيك ببعض العلكة؟» ثم مد يده إلى جيبه وأخرج بعضاً منها ومن النوع الفاخر. وقد استغرقت مني تلك العلكة دقائق بحالها حتى حولتها إلى حشوة مريحة داخل فمي بعد أن استمتعت بسكّرها.

كان جم يعيد ترتيب بعض الأمور على منضدة الزينة. كان شعره كثيفاً زيتياً في الخلف وفي الأمام، وقد تساءلت في نفسي إن كان سيبدو أبداً كشعر رجل في المستقبل... ربما لو حلقه كله وبدأ ينمو

من جديد، فسيعود شعره إلى ما كان عليه. كان حاجباه قد أصبحا أكثف، كما لاحظت أنه أصبح أكثر نحولاً. إنه يصبح أكثر طولاً.

حين تلفّتُّ، لا بد وأنه ظن أني قد بدأت أبكي من جديد، لأنه قال:

ـ هل أريك شيئاً شريطة ألاّ تفشي السرّ إلى أحد؟

قال ذلك وهو يفك أزرار قميصه ويبتسم بخجل.

ـ حسناً ما هو؟

ـ ألا تستطيعين أن تريه؟

ـ لا.

ـ إنه شعر.

ـ أين؟

ـ هنا. هنا تماماً.

لقد كان لطيفاً معي هذه الليلة لذا قلت له أنه يبدو جميلاً، ولكني لم أر شيئاً.

ـ إنه جميل فعلاً يا جم.

ـ وتحت إبطي أيضاً. سأذهب لألعب كرة القدم في العام القادم. سكاوت، لا تجعلي العمة تثير غضبك.

لقد بدا لي أنه كان يقول لي البارحة فحسب إن عليّ ألا أثير غضب العمة.

ـ أنت تعرفين أنّها غير معتادة على البنات، أو في أحسن الأحوال البنات من أمثالك. إنها تحاول أن تصنع منك سيدة محترمة. ألا يمكنك أن تتعلمي الخياطة أو ما شابه؟

ـ لا بحق الجحيم. إنها لا تحبني، هذا كل ما في الأمر، وأنا لا يهمني. أن تلقيها لوولتر كانينغهام بالحثالة هو الذي جعلني أغضب

وليس ما قالته عن أني أمثل مشكلة لأتيكوس. فقد وضّح لي هو موقفه مني مرة بصراحة، فقد سألته إن كنت أمثّل مشكلة له وقال إني لست بالمشكلة الكبيرة، وفي أسوأ الحالات فإني مشكلة يستطيع حلها، وإن علي ألا أقلق فكري ولو لثانية واحدة بأنني أزعجه. لا لقد غضبت بسبب ولتر، فهو ليس حثالة يا جم. إنه ليس كآل يوويل.

رفس حذاءه ثم وضع رجليه على السرير. أسند نفسه إلى وسادة وأضاء نور القراءة. قال:

ـ أتعرفين يا سكاوت؟ لقد فهمت القضية كلها الآن. لقد فكرت بها كثيراً مؤخراً وقد استطعت فهمها كلها. هناك أربعة أنواع من الأشخاص في العالم. هناك النوع العادي من أمثالنا والجيران، وهناك النوع من أمثال آل كانينغهام الذين يعيشون في الغابات، والنوع من أمثال آل يوويل هناك عند مقلب القمامة، والزنوج.

ـ وماذا عن الصينيين، و«الكانجو» الذين يقطنون مقاطعة بولدوين؟

ـ أنا أعني سكان مقاطعة مايكوم. والمسألة هي أن ن وعنا لا يحب نوع آل كانينغهم، وهؤلاء لا يحبّون نوع آل يوويل، وآل يوويل يكرهون ويحتقرون الأشخاص الملونين.

هنا قلت لجم إنه لو كان كلامه صحيحاً، فلماذا لم يبرّئ محلّفو توم، وهم كلهم أشخاص شبيهون بآل كانيغهام، لم يبرؤوه نكاية بآل يوويل.؟

أزاح جم سؤالي بيده مبعداً إياه على أساس أنه طفولي. قال:

ـ هل تعلمين أني رأيت أتيكوس يدقّ بقدمه الأرض عندما يكون هناك عزف على الكمان في الراديو؟ وأنه يحب المشروب المحظور أكثر من أي شخص آخر عرفته...؟

ـ إذن فهذا يجعلنا كآل كانينغهام. لا أرى السبب في أن عمتي...

ـ لا، دعيني أنهي حديثي أولاً... كلامك صحيح ولكننا لا نـزال نختلف عنهم على نحو ما. قال أتيكوس مـرة إن الـسبب في أن عمـتي مولعة بالعائلة هو أن كل ما لدينا هو الخلفية الاجتماعية، وليس لـدينا سنتاً واحداً يدعم هذه الخلفية.

ـ حسناً يا جم، لا أعرف... لقد قال لي أتيكوس مرة إن معظم ما يقال عن «العائلات العريقة» كلام فارغ، لأن عائلة كل شخص قديمـة قدم عائلة أي شخص آخر. وسـألته إن كـان ذلـك يـشمل الأشـخاص الملوّنين والإنكليز. فردّ عليّ بالإيجاب.

قال جم:

ـ الخلفية الاجتماعية لا تعني العائلة العريقة. بل تعـني منـذ مـتى كانت عائلة المرء تقرأ وتكتب. يا سكاوت، لقد درست هـذه المـسألة كثيراً، وهذا هو السبب الوحيد الذي اكتـشفته. في قـديم الزمـان حـين كان آل فينتش لا يزالون في مصر، لا بـد أن أحـدهم تعلـم شيئاً مـن الهيروغليفية، وعلّمها لابنه.

وهنا ضحك جم ثم استأنف قائلاً:

ـ تصوري أن عمتي فخورة بأن أبـا جـدّها كـان يـستطيع القـراءة والكتابة... إن السيدات يخترن أشياء مضحكة ليفاخرن بها.

ـ حسناً، أنا سعيدة أنه كان يستطيع ذلك، وإلا فمن كان سـيعلّم أتيكوس والآخرين؟ ولو أن أتيكوس لا يستطيع القراءة، لكنّا أنت وأنا في ورطة. ولكني لا أعتقد أن هذه هي الخلفية الاجتماعية يا جم.

ـ حسناً، كيف تفسّرين إذن أن آل كانينغهام مختلفون عنا؟ الـسيد وولتر لا يستطيع بالكاد توقيع أسمه، لقد رأيته. كل مـا في الأمـر أننـا كنا نمارس القراءة والكتابة قبلهم بزمن طويل.

ـ لا ، بل يجب على كل شخص أن يتعلم ، فلا أحد يولد وهو متعلم. إن وولتر ذكي كما يجب ، ولكنه يتخلف أحياناً لأن عليه أن يبقى في البيت ليساعد أباه. إنه لا ينقصه أي شيء. لا يا جم ، أعتقد أن هناك نوعاً واحداً من الناس. إنه الناس.

التفت جم وضرب مخدته. وحين عاد ليستند عليها كان وجهه يعلوه الغموض. كان قد غرق الآن في إحدى نوبات إحساسه بالإحباط ، وكنت قد شعرت بالتعب. عقد حاجبيه ، وأصبح فمه خطاً نحيلاً. صمت لفترة.

قال أخيراً:

ـ هذا ما فكرت به أنا أيضاً حين كنت في مثل عمرك. ولكن لو كان هناك نوع واحد من الناس فلماذا لا يتفاهمون معاً؟ وإذا كانوا كلهم متشابهون ، فلماذا ينحرفون عن المسار ليحتقر الواحد منهم الآخر؟ يا سكاوت ، أظن أنّي بدأت أفهم شيئاً ما. أظن أنّي بدأت أفهم السبب في أن بو رادلي بقي محجوزاً في المنزل كل هذه السنوات وقد أغلق عليه النوافذ والأبواب... السبب في ذلك هو أنه «يريد» أن يبقى في الداخل.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

ارتدت كالبورنيا أكثر مرايلها المنشّاة قساوة. حملت صينية من الشارلوت[1]، واستندت إلى الباب المؤرجح، ثم ضغطت بلطف. أعجبت بالليونة والرشاقة اللتين كانت تحمل بهما الأحمال الثقيلة من الأشياء اللذيذة. وكذلك فعلت العمة ألكسندرا، على ما أعتقد، لأنها سمحت لكالبورنيا بأن تقدم الحلوى اليوم.

كان شهر آب (أغسطس) على أبواب أيلول (سبتمبر). ديل سيغادر إلى ميريديان غداً. اليوم كان هو وجم قد ذهبا بعيداً إلى «دوّامة باركر». فقد اكتشف جم بدهشة غاضبة أن أحداً لم يكلف نفسه أبداً أن يعلم ديل السباحة، وهو يعتبرها نوعاً من المهارات الضرورية كالمشي. كانا قد أمضيا عصرين متتالين عند النهر، وقالا إنهما سيمارسان السباحة عاريين ولذا لا أستطيع مرافقتهما، وهكذا وزّعت ساعاتي المترعة بالوحدة ما بين كالبورنيا والآنسة مودي.

اليوم كانت العمة ألكسندرا وحلقتها التبشيرية في حالة عراك في أنحاء المنزل كله. ومن المطبخ، استطعت أن أسمع السيدة غريس مريوذر تقدم تقريراً في غرفة الجلوس حول الحياة القذرة التي تعيشها قبيلة «المرونا»، كما أظن أني سمعت الاسم. فقد كانت هذه القبيلة تنبذ النساء في أكواخ حين يزف موعدهن، ولا أعرف ما هو ذاك؟ ولم يكن لديها أي حسّ بالعائلة. كنت أعرف أن هذا سيحزن عمتي.كما

---

(1) Charlotte: حلوى من خبز وكريما وفاكهة. (المترجم).

كانت تُخضع الأطفال لاختبارات رهيبة حين يصلون إلى سن الثالثة عشرة. كانوا يعجون بالأمراض وبديدان الأذن، ويمضغون لحاء شجرٍ معين ثم يبصقونه في وعاء كبير مشترك. وبعد ذلك يشربونه ليسكروا.

انفض الاجتماع لتناول المرطبات والمأكولات الخفيفة.

لم أكن أعرف أكان عليّ الدخول إلى حجرة الطعام أم البقاء بعيداً. لقد كانت العمة ألكسندرا قد طلبت مني أن أنضم إليهن لتناول الطعام إلا أنه لم يكن ضرورياً أن أحضر الجانب العملي من الاجتماع، إذ قلت إنه يضجرني. كنت أرتدي ثوبي الوردي اللون الخاص بيوم الأحد، وحذاء وتنورة تحتانية، وقد فكرت في أني لو أرقت أي شيء لكان على كالبورنيا أن تغسل ثوبي مرة أخرى لأجل الغد. لقد كانت مشغولة جداً اليوم، وقررت أن أبتعد عن حجرة الطعام.

سألتها وأنا أرغب في مساعدتها:

ـ هل أستطيع مساعدتك يا كال؟

توقفت كالبورنيا في الردهة وقالت:

ـ ابقي ساكنة كالفأرة في تلك الزاوية، وستساعدينني على تحميل الصواني حين أعود.

بدأت الهمهمة اللطيفة للسيدات ترتفع حين فتحت كالبورنيا الباب: «عجباً يا ألكسندرا، لم أر في حياتي مثل هذه الشرلوت... إنها جميلة جداً... لا أستطيع أبداً أن أطهو فطيرتي هكذا، أبداً أبداً... من كان سيكفر في صنع الكاتو الصغير بتوت الندى؟... كالبورنيا؟... من كان سيخطر له ذلك... أي شخص سيقول لك إن زوجة الواعظ... لا ـ لا، حسناً هي كذلك، وذاك الطفل الآخر الذي لا يستطيع المشي بعد..»..

أصبحن الآن صامتات، وعرفت أنهن قد حصلن على الطعام جميعاً. عادت كالبورنيا ووضعت إبريق أمي الفضي الثقيل على صينية. همهمت: «إبريق القهوة هذا عجيب. إنهم لا يصنعون مثله هذه الأيام».

ـ هل يمكن لي أن أحمله إلى الداخل؟

ـ إذا كنت حريصة ولن توقعيه. ضعيه في نهاية المائدة عند السيدة ألكسندرا. هناك عند الفناجين وما شابه. هي التي ستصب القهوة.

حاولت أن أضغط بمؤخرتي على الباب المؤرجح كما تفعل كالبورنيا ولكن الباب لم ينفتح. فتحت كالبورنيا الباب لي وهي تبتسم وقالت: «انتبهي الآن. إنه ثقيل. لا تنظري إليه ولن تريقيه».

كانت رحلتي ناجحة: ابتسمت العمة ألكسندرا ابتسامة لامعة وقالت: «ابقي معنا يا جان لويز». وكان ذلك جزءاً من حملتها لتعليمي كيف أصبح سيدة محترمة.

كان من عادة كل مضيفة لإحدى الحلقات أن تدعو جيرانها لتناول المأكولات الخفيفة، أكن «معمدانيات» أم «مشيخيات»، وكان ذلك يفسر حضور الآنسة راشيل (الرزين كحضور القضاة) والآنسة مودي والآنسة ستيفاني كروفورد. جلست بالقرب من الآنسة مودي وأنا أشعر ببعض العصبية وتساءلت لماذا ترتدي النساء قبعاتهن لكي يعبرن الشارع فحسب؟ كانت النساء المحتشدات يملأنني دوماً بخوف غامض ورغبة أكيدة في أن أكون في مكان آخر، ولكن هذا الشعور هو ما كانت تسميه العمة ألكسندرا بشعور «الطفل المدلّل».

كانت السيدات منتعشات في الثياب الرقيقة ذات الأزهار: كن أغلبهن قد وضعن الكثير من البودرة ولكن دون استعمال حمرة الخدود، أما النوع الوحيد من أحمر الشفاه في الغرفة فكان «تانجي

ناتشورال». كما كان طلاء «كيوتكس ناتشورال» يلتمع على أظافر أيديهن، ولكن بعض السيدات الأصغر سناً كن يستعملن النوع المسمى «روز». كانت روائح عطورهن سماوية. جلست بهدوء، بعد أن تغلبت على يديّ بأن تمسكت بواسطتهما بذراعي الكرسي، وانتظرت أن تكلمني إحداهن.

لمع جسر الأسنان الذهبي في فم الآنسة مودي حين قالت:

ـ أنت أنيقة جداً اليوم يا آنسة جان لويز. أين بنطالك اليوم؟

ـ تحت ثوبي.

لم أكن أريد أن أبدو مضحكة، ولكن السيدات ضحكن. التهبت وجنتاي حين أدركت خطئي، ولكن الآنسة مودي نظرت إليّ نظرة جدية. إنها لا تضحك أبداً إلاّ إذا كنت قصدت أن أكون مضحكة.

وفي الصمت المفاجئ الذي أعقب ذلك، صاحت الآنسة ستيفاني كروفورد عبر الغرفة:

ـ ماذا تريدين أن تكوني حين تكبرين يا جان لويز؟ محامية؟

ـ لا، لم أفكر بذلك بعد...

أجبتها وأنا ممتنة لكونها تلفظت فغيّرت مجرى الحديث. ثم بدأت أختار مهنتي بسرعة: ماذا أقول ممرضة؟ قائدة طائرة؟

ـ حسناً...

ـ عجباً، ظننتك تريدين أن تكوني محامية، فقد سبق لك وبدأت بالذهاب إلى المحكمة.

ضحكت السيدات مرة أخرى. قالت إحداهن:

ـ ستيفاني تلك شخص غريب الأطوار.

تشجعت الآنسة ستيفاني على متابعة الموضوع فقالت:

ـ ألا تريدين أن تكوني محامية حين تكبرين؟

لمست يد الآنسة مودي يدي، فأجبت برقة كافية:

ـ لا، مجرد سيدة.

نظرت إليّ ستيفاني بشك، وقررت أني لم أكن أقصد أية وقاحة، وقد قنعت أخيراً بأن قالت:

ـ حسناً، لن تكن لديك فرصة كبيرة لتحقيق ذلك حتى تبدئي بارتداء الفساتين مرات أكثر.

أطبقت يد الآنسة مودي بشدة على يدي فلم أقل شيئاً. كان دفء اليد كافياً.

كانت السيدة غريس ميريوذر جالسة إلى يساري، وشعرت أنه من الأدب التحدث إليها. كان السيد ميريوذر، وهو الميثودي المخلص وقت الجد، لا يرى في الغناء ما هو ضار. كان يقول: «يا للعناية السماوية المدهشة. كم هو جميل ذلك الصوت، إنه ينقذ بائساً مثلي..».. وكان الرأي السائد في مايكوم، على أية حال، أن السيدة ميرييوذر قد جعلته يصحو وصنعت منه مواطناً مفيداً. بالتأكيد، كانت السيدة ميريوذر أكثر السيدات ورعاً في مايكوم. بحثت عن موضوع قد يكون مهماً لها، قلت:

ـ ما الذي درستموه عصر هذا اليوم؟

قالت:

ـ آه يا طفلتي، كنا نتحدث عن أولئك «المرونا» البائسين.

ثم صمتت. كان لا بد من بضع أسئلة أخرى.

كانتا عينا السيدة مريوذر البنيتان الواسعتان تمتلئان دائماً بالدموع حين تتذكر المضطهدين. قالت:

ـ إنهم يعيشون في تلك الغابة دون أي شخص آخر عدا السيد ج. غرايمز ايفريت. ليس هناك شخص واحد أبيض مستعد للاقتراب منهم سوى السيد ج. غرايمز ايفريت الورع كالقديسين.

كانت السيدة ميريوذر تعزف بصوتها كنه آلة الأرغن، فكل كلمة تأخذ مداها الكامل:

ـ الفقر... الجهل... انعدم الأخلاق... لا أحد يعرف كل ذلك بالضبط سوى ج. غرايمز ايفريت. هل تعرفين أنه حين طلبت مني الكنيسة القيام بتلك الرحلة إلى أرض المعسكر قال لي ج. غريمز ايفريت...

ـ هل كان هو هناك يا سيدتي؟ ظننت...

ـ كان هناك في إجازة. قال ج. غرايمز ايفريت لي: «يا سيدة ميريوذر، ليست لديك أية فكرة، أية فكرة عما نجابهه هناك». هذا ما قاله لي.

ـ نعم يا سيدتي.

ـ قلت له: «يا سيد إيفريت، إن سيدات «الكنيسة الأسقفية لمايكوم ألاباما في الجنوب وراءك مئة بالمئة». هذا ما قلته له. وكما تعرفين، فقد أخذت على نفسي عهداً في تلك اللحظة. قلت لنفسي حين أعود إلى البلدة، سأحاضر حول موضوع «المرونا» وأجلب رسالة ج. غرايمز ايفريت إلى مايكوم، وهذا ما أفعله الآن.

ـ نعم يا سيدتي.

حين كانت السيدة ميريوذر تهز رأسها، كانت خصلات شعرها الداكن اللون تتهزهز. قالت:

ـ يا جان لويز، أنت فتاة محظوظة. فأنت تعيشين في بيت مسيحي مع أشخاص مسيحيين في بلدة مسيحية. أما هناك في أرض ج. غرايمز ايفريت فلا شيء سوى الخطيئة والقذارة.

ـ نعم يا سيدتي.

ـ الخطيئة والقذارة... عما كنت تتحدثين يا جيرترود؟

وهنا التفتت السيدة ميريوذر إلى السيدة الجالسة إلى القرب منها: «أوه تعنين تلك... حسناً، دائماً أقول اغفري وانسي، اغفري وانسي. إن ما على الكنيسة أن تفعله هو أن تساعدها على أن تعيش حياة مسيحية من الآن فصاعداً وذلك من أجل أولئك الأطفال. يجب أن يذهب بعض الرجال إلى هناك ويقولوا للواعظ أن يشجعها».

هنا قاطعتها قائلة:

ـ اعذريني يا سيدة مريوذر. هل تتحدثون جميعكم عن مايلا يوويل؟

ـ ما يـ...؟ لا يا طفلتي. بل زوجة ذلك الزنجي، زوجة توم، توم...

ـ روبنسون يا سيدتي.

التفتت السيدة ميريوذر نحو جارتها مرة أخرى:

ـ هناك شيء واحد أؤمن به فعلاً يا جيرترود، ولكن بعض الناس لا يرونه بطريقتي نفسها. لو أننا نجعلهم يعرفون أننا نغفر لهم، وأننا قد نسينا الموضوع، فإن هذا كله سينقضي.

قاطعتها مرة أخرى:

ـ يا سيدة ميريوذر، ما الذي سينقضي؟

التفتت إليّ من جديد. كانت السيدة مريوذر واحدة من أولئك الراشدين المحرومين من الأطفال، والذين يظنون أنه من الضروري استعمال نبرة صوت مختلفة لدى التحدث إلى الأطفال. قالت باللهجة الدارجة:

ـ لا شيء يا جان لويز. الطباخون وعمال الحقول غير راضين، ولكنهم عادوا إلى هدوئهم الآن... لقد همهموا وتمتّعوا طوال ذلك اليوم الذي تلا تلك المحاكمة.

واجهت السيدة مريوذر السيدة فارو:

- يا جيرترود، سأقول لك أن ليس هناك ما هو أكثر تحييراً من العابس مقطب الجبين. إن أفواههم تتهدل حتى تصل إلى هنا. وإذا ما جلبت إحداهن لتساعدك في المطبخ، فهذا سيفسد يومك كله. هل تعرفين ما قلت لخادمتي «صوفي» يا جيرترود؟ قلت: «يا صوفي، أنت بكل بساطة لا تتصرفين اليوم كما يليق بمسيحية. لم يكن المسيح يسوع من النوع الذي يهمهم ويتمتم ويتذمر طوال النهار». وهل تظنين أن ذاك أجدى معها؟ لقد رفعت عينيها عن الأرض وقالت: «لا، يا سيدة مريوذر، لم يكن المسيح يفعل ذلك». أقول لك يا جيرترود إن عليك ألا تدعي فرصة واحدة تفوتك دون أن تذكري فيها الرب.

وتذكرت هنا الأرغن الصغير القديم في المعبد الصغير في «فينتشز لانديغ». حين كنت صغيرة جداً، وكنت إذا ما أحسنت التصرف خلال النهار، يسمح لي أتيكوس أن أنفخ بمنفاخه بينما يقوم هو بمتابعة لحن ما بإصبع واحد، وكانت النغمة الأخيرة تستمر طالما بقي هناك هواء يبقيها. كان هواء السيدة ميريوذر قد نَفدَ، كما رأيت، وكانت تسترجع مخزونها بينما تهيأت السيدة فارو لتتحدث.

كانت السيدة فارو امرأة رائعة التكوين، ذات عينين فاتحتي اللون وقدمين صغيرتين. كان لشعرها تموجات دائمة، وهو كومة من الحلقات الرمادية المتلاصقة. كانت الثانية في ترتيب أكثر السيدات ورعاً في مايكوم، وكانت لديها عادة غريبة إذ كانت تمهّد لأي شيء تريد قوله بصوت ناعم ذي صفير.

قالت:

- اس - اس - اس يا غريس، هذا شبيه بما كنت أقوله لـ «الأخ هيوستون» ذلك اليوم. قلت له: «س - س - س يا «أخ هيوستون»،

يبدو أننا نحارب في معركة خاسرة، أجل معركة خاسرة. فهم لا يكترثون أبداً. يمكننا تثقيفهم حتى تزرقّ وجوهنا، ويمكننا أن نحاول أن نجعلهم مسيحيين حتى نسقط أرضاً من التعب، ولكن لا توجد سيدة آمنة في فراشها هذه الأيام». قال لي: «يا سيدة فارو، لا أعرف ما الذي نحن مقدمون عليه هنا» فقلت له س ـ س ـ س إن ما يقوله حقيقة واقعة.

أومأت السيدة مريوذر برأسها بحكمة. كان صوتها يعلو على رنين فناجين القهوة والأصوات البليدة الصادرة عن السيدات وهن يقضمن المأكولات. قالت:

ـ يا جيرترود، أقول لك إن هناك بعض الناس الطيبين وإن كانوا ضالين في هذه البلدة. إنهم طيبون لكنهم ضالون. إنهم أولئك الذين يظنون أنهم يفعلون الصواب في هذه البلدة، هؤلاء من أعني. لست أنا بالتي تذكرهم بالاسم، ولكن بعضهم في هذه البلدة ظن أنه كان يفعل الصواب منذ فترة، ولكن ما فعله حقاً كان تحريضهم. هذا كل ما فعله. كاد الأمر يبدو وكأنه الصواب حين فعلوا ما فعلوا، أنا واثقة من أني لا أعرف، لست مثقفة في هذا المجال، ولكنها كانت مقطبة الجبين... متذمرة... أقول لك إن «صوفي» لو استمرت فيما كانت عليه يوماً آخر لطردتها. لم يقتنع رأسها المصنوع من الصوف أن السبب الوحيد الذي يجعلني أبقيها في خدمتي هو هذا الكساد الاقتصادي وأنها في حاجة إلى ذلك الدولار والربع الذي هو أجرتها الأسبوعية.

ـ إنه لا يعرف النفاق، أليس كذلك؟

كانت الآنسة مودي هي من قالت ذلك. خطان ضيقان على زاويتي فمها، وهي تجلس بصمت إلى القرب مني، وفنجان القهوة متوازن على ركبة واحدة. كنت قد فقدت خيط الحديث منذ فترة

طويلة، وذلك حين توقفتا عن التحدث عن زوجة توم روبنسون، وقد أرضيت نفسي بالتفكير في فينشز لاندينغ والنهر. كانت العمة ألكسندرا قد جعلت الأمور ارتجاعية: فالجزء العملي من الاجتماع كان مروعاً فظيعاً والجزء الاجتماعي منه كان كئيباً.

قالت السيدة مريوذر:

ـ يا مودي، أنا واثقة أني لا أعرف ما الذي تعنينه.

قالت الآنسة مودي باقتضاب:

ـ أنا واثقة من أنك تعرفين.

وصمتت. حين تكون الآنسة مودي غاضبة فإن اقتضابها يكون جليدياً. كان شيئاً ما قد جعلها غاضبة جداً، وكانت عيناها الرماديتان باردتين كصوتها. احمرّ وجه السيدة ميريوذر، ونظرت إليّ ثم التفتت بعيداً. كانت السيدة فارو قد اختفت عن ناظري.

نهضت العمة ألكسندرا من خلف منضدتها ووزّعت بسرعة المزيد من المأكولات، واشتبكت السيدة ميريوذر والسيدة غيتس في حوار حيوي. وحين جعلتهما تنهمكان في الحديث مع السيدة بيركينز، خطت العمة ألكسندرا نحو الخلف. نظرت نحو الآنسة مودي نظرة ملؤها الامتنان الصافي، واستغربت من عالم النساء. لم تكن الآنسة مودي والعمة ألكسندرا صديقتين حميمتين على نحو خاص، وهاهي العمة تشكرها الآن على شيء ما وبصمت. لماذا؟ لم أكن أعرف. وقد شعرت بقناعة كافية بسبب اكتشافي أن العمة ألكسندرا يمكن أن توخز إلى حد يجعلها تشعر بالامتنان لعون قدّم لها. لم يكن هناك شك في ذلك. فسرعان ما سوف أدخل هذا العالم، الذي تتأرجح على سطحه السيدات المعطرات ببطء، وهن يروّحن بالمراوح برقة ويشربن الماء البارد.

ولكني كنت أكثر شعوراً بالراحة في عالم والدي. فأشخاص كالسيد هك تيت لا يوقعونك في الفخ بأسئلة بريئة ليضحكوا عليك، وحتى جم ما كان ينزع كثيراً إلى الانتقاد إلاّ إذا قلت أمامه شيئاً سخيفاً. بدت السيدات لي وكأنهن يعشن في رعب ثقيل الوطأة من الرجال، وبدا كذلك أنهن لا يستحسنّ الرجال من كل قلوبهن ولكني كنت أحب الرجال. كان هناك شيء ما فيهم مهما مارسوا الشتم والشرب والقمار ومضغوا التبغ، مهما كانوا كريهين، فقد كان هناك شيء ما فيهم كنت أحبه غريزياً... فهم ليسوا...

ـ منافقون يا سيدة بيركينز، منافقون بالفطرة...

هذا ما كنت تقوله السيدة ميريوذر ثم استأنفت قائلة:

ـ على الأقل لا نحمل هذه الخطيئة على أكتافنا هنا. الناس هناك يعطونهم حريتهم، ولكنك لا ترينهم يجلسون إلى الطاولة نفسها معهم. على الأقل نحن لا نمارس ذلك الخداع الذي يمارسونه فهم يقولون لهم: نعم أنتم أنداد لنا ولكن ابعدوا عنا. أما هنا فنحن نقول: عيشوا بطريقتكم ونحن نعيش بطريقتنا. وأعتقد أن تلك المرأة، تلك «السيدة روزفلت» قد فقدت عقلها... لقد جنّت حتماً إذ تأتي إلى مدينة بيرمينغهام وتحاول الجلوس معهم. لو كنت محافظ بيرمينغهام لـ...

حسناً لم تكن أي منا محافظ بيرمنيغهام، ولكني رغبت لو كنت حاكم ألاباما لمدّة يوم واحد: كنت سأطلق سراح توم روبنسون بسرعة إلى حد أن «الجمعية التبشيرية» لن يكون لديها من الوقت ما يكفي لتلتقط أنفاسها. كانت كالبورنيا تحكي منذ أيام لطباخة الآنسة راشيل حول توم روبنسون وكيف أنّه يصعب عليه تحمّل ما أصابه، ولم تتوقف عن الحديث حين دخلت المطبخ. قالت إن أتيكوس فعل كل ما بوسعه ليهون عليه سجنه، وإن الشيء الأخير الذي قاله لأتيكوس قبل أن يؤخذ

إلى السجن هو: «وداعاً يا سيد فينتش، لا يمكنك أن تفعل أن شيء الآن، لذا لا فائدة من المحاولة». قالت كالبورنيا إن أتيكوس حكى لها أنه منذ أن أخذوا توم إلى السجن فقد هذا كل أمل. قالت إن أتيكوس حاول أن يشرح الأمور له وكيف أن عليه أن يبذل قصارى جهده حتى لا يفقد الأمل لأن أتيكوس يبذل قصارى جهده للعمل على إطلاق سراحه. وسألت طباخة الآنسة راشيل كالبورنيا لماذا لا يقول أتيكوس: «أجل، سيطلق سراحك» ويترك الأمور عند ذلك الحد... لو قال ذلك فإنه سيمنح الراحة إلى توم. قالت كالبورنيا: «لأنك لا تعرفين القانون جيداً. أول شيء تتعلّمينه عندما تعيشين مع أسرة تتعامل مع القانون هو أنه لا توجد أية أجوبة محددة على أي شيء. لا يستطيع السيد فينتش أن يقول إن شيئاً ما هو كذا حين لا يعرف أنه كذلك».

سمعت الباب الأمامي ينصفق وسمعت خطوات أتيكوس في الردهة. وتساءلت تلقائياً عن الساعة. ليس هذا وقت عودته إلى البيت، وفي أيام اجتماعات «الجمعية التبشيرية» فإنه يبقى عادة في البلدة حتى يحل الظلام.

توقف في الردهة. كانت قبعته في يده، وكان وجهه شاحباً.

قال:

ـ المعذرة سيداتي. أرجوكن الاستمرار في الاجتماع. لا تدعنني أقطع عليكن الاجتماع. يا ألكسندرا، هل يمكنك القدوم إلى المطبخ للحظة؟ أريد أن أستعير منك كالبورنيا لفترة.

لم يدخل عبر حجرة الطعام، بل ذهب إلى الردهة الخلفية ودخل المطبخ من الباب الخلفي. قابلناه العمة ألكسندرا وأنا. فتح باب حجرة الطعام مرة أخرى وانضمت الآنسة مودي إلينا. كانت كالبورنيا قد نهضت نصف نهضة من كرسيّها.

قال أتيكوس:

ـ يا كال، أريدك أن تذهبي معي إلى منزل هيلين روبنسون...

سألت العمة ألكسندرا وقد أقلقتها النظرة التي كانت مرتسمة على وجه أبي:

ـ ما الحكاية.

ـ لقد مات توم.

رفعت العمة ألكسندرا يدها إلى فمها.

قال أتيكوس:

ـ لقد أطلقوا النار عليه. كان يركض. كان ذلك خلال فترة التريّض. قالوا إنه اندفع فجأة بجنون نحو السور وبدأ يتسلقه. أمامهم تماماً...

ـ ألم يحاولوا إيقافه؟ الم يحذّروه؟

كان صوت العمة ألكسندرا يرتجف.

ـ أوه نعم، طلب منه الحراس التوقف. لقد أطلقوا عدة طلقات في الهواء ثم أطلقوا بقصد القتل. وقد أصابوه حين تجاوز السور تماماً. قالوا إنه لو كانت لديه ذراعان سليمتان لنجا، فقد كان يتحرك بسرعة. وجدوا فيه سبعة عشر ثقب رصاصة. لم تكن هناك حاجة إلى إطلاق كل تلك الطلقات عليه. كال، أريدك أن تأتي معي وتساعديني على إخبار هيلين بالنبأ.

همهمت كالبورنيا وهي تحاول فك مريلتها دون جدوى:

ـ نعم يا سيدي.

اقتربت منها الآنسة مودي وفكت لها مريلتها.

قالت العمة ألكسندرا:

ـ هذه هي القشة الأخيرة يا أتيكوس.

ـ هذا يعتمد على الطريقة التي تنظرين إلى الأمر بها. وما هو زنجي واحد بالنسبة إليهم ضمن مائتين منهم؟ لم يكن هو «توم» بالنسبة للحراس، بل مجرد سجين هارب.

استند أتيكوس إلى البرّاد، دفع بنظارتيه إلى الأعلى، وفرك عينيه. قال:

ـ كانت لدينا فرصة طيبة. قلت له ما كنت أفكر فيه، ولكني لم أستطع أن أقول له أكثر من أن لدينا فرصة طيبة. أعتقد أن توم كان قد تعب من «فرص» الرجال البيض وفضّل أن ينتهز «فرصته» الخاصة به. هل أنت جاهزة يا كال؟

ـ نعم يا سيدي يا سيد فينتش.

ـ إذن هيا بنا.

جلست العمة ألكسندرا في كرسي كالبورنيا وغطت وجهها بيديها. جلست هناك بهدوء كامل: كانت هادئة إلى درجة أني تساءلت إن كان سيغمى عليها. وسمعت الآنسة مودي تتنفس وكأنها قد صعدت الدرج للتو، وفي حجرة الطعام كانت السيدات تثرثرن بسعادة.

ظننت أن العمة ألكسندرا كانت تبكي، ولكنها حين أبعدت يديها عن وجهها، لم تكن كذلك. بدت متعبة. ثم نطقت أخيراً، وكان صوتها خفيضاً:

ـ لا أستطيع أن أقول إني أصادق على كل ما يفعله، يا مودي، ولكنه أخي، وكل ما أريد أن أعرفهُ هو: متى سينتهي كل هذا؟

ثم ارتفع صوتها:

- إن ذاك يمزقه إرباً إرباً. إنه لا يفصح عن ذلك كثيراً، ولكنه يمزقه إرباً إرباً. لقد رأيته حين... ما الذي يريدونه منه غير ذلك يا مودي، ما الذي يريدونه غير ذلك؟

سألت الآنسة مودي:

- من هم الذين يريدون يا ألكسندرا؟

- أعني هذه البلدة. إن أهلها يريدون منه أن يفعل ما يخشون هم فعله بأنفسهم... فذاك لن يضرّهم كثيراً. إنهم راغبون تماماً في جعله يخرب صحته وهو يؤدي ما يخشون هم أن يفعلوه. إنهم...

قالت الآنسة مودي:

- اهدئي سيسمعنك، هل سبق لك وفكرت بالأمر بالطريقة التالية يا ألكسندرا؟ أكانت مايكوم تعرف ذلك أم لا، إلا أننا ندفع له أعلى مكافأة نستطيع أن ندفعها لأي إنسان. إننا نأتمنه على فعل ما هو حق. إن الأمر بهذه البساطة.

- من هؤلاء؟

لم تعرف العمة ألكسندرا أنها كانت تردد كلام ابن أخيها ابن الثانية عشرة.

- تلك الحفنة من الناس في هذه البلدة الذين يقولون إن عمل الخير ليس مقتصراً على فئة دون غيرها. تلك الحفنة من الناس الذين يقولون إن المحاكمة العادلة يجب أن تكون من نصيب الجميع، وليس نحن فحسب. إنها تلك الحفنة من الناس المستمتعين بما يكفي من التواضع حتى يقولوا في أنفسهم حين ينظرون إلى زنجي: «لطف الله هو الذي جعلنا ننجو من حياة بائسة».

كانت حرارة الآنسة مودي القديمة قد عادت إليها الآن:

ـ إنها الحفنة من الناس من سكان هذه البلدة الذين لديهم خلفية اجتماعية، هؤلاء هم من تسألين عنهم.

لو كنت أكثر انتباهاً، لكانت لدي نبذة أخرى أضيفها إلى تعريف جم للخلفية الاجتماعية، ولكني وجدت نفسي أرتجف ولا أستطيع التماسك. لقد شاهدت «سجن انفيلد» كما كان أتيكوس قد دلّني على فناء التريّض. كان في حجم ملعب كرة القدم.

أمرت الآنسة مودي: «أوقفي ذلك الارتجاف». فتوقفت. «انهضي يا ألكسندرا، فقد تركناهنّ فترة طويلة بما فيه الكفاية».

نهضت العمة ألكسندرا ومسّدت مشدها، ثم أخرجت منديلها من زنارها ومسحت أنفها. ربتت على شعرها وقالت:

ـ هل يبدو عليّ؟

قالت الآنسة مودي:

ـ إطلاقاً. هل تمالكت نفسك يا جان لويز؟

ـ نعم يا سيدتي.

ـ إذن هيا بنا ننضمّ للسيدات.

حين فتحت الآنسة مودي الباب المؤدي إلى حجرة الطعام ارتفعت أصواتهن. كانت العمة ألكسندرا تتقدمني، ورأيت رأسها يرتفع وهي تعبر من الباب.

قالت:

ـ أوه يا سيدة بيركينز. أنت تحتاجين إلى مزيد من القهوة. اسمحي لي أن أقدمها لك.

قالت الآنسة مودي:

ـ كالبورنيا ذهبت في مهمة لعدة دقائق يا غريس. اسمحي لي أن أمرر لك المزيد من هذه الكعكات المصنوعة من توت الندى. هل سمعت ما فعله ابن عمي ذاك قبل أيام؟ أعني ذاك الذي يحب صيد السمك؟...

وهكذا انطلقتا ضمن صف من النساء الضاحكات وحول حجرة الطعام، وهما تعيدان ملء فناجين القهوة، وتوزعان الحلويات وكأن أسفهما الوحيد كان المصيبة المنزلية المؤقتة المتمثلة في فقد كالبورنيا.

انطلقت الهممات اللطيفة مرة أخرى: «أجل يا سيدي هكذا قلت يا سيدة بيركنز، إن ج. غرايمز إيفريت قديس شهيد، لقد احتاج إلى زوجة فكانوا يركضون نحو... صالون الجمال عصر كل يوم سبت، بعد أن تغرب الشمس بقليل. إنه ينام مع الـ... الفراريج، صندوق ممتلئ بالدجاجات المريضة. يقول «فريد» إن ذلك هو الذي أثار المسألة كلها. يقول «فريد»..».

نظرت العمة ألكسندرا عبر الغرفة باتجاهي ثم ابتسمت. نظرت إلى صينية من الحلويات كانت على الطاولة، وأومأت برأسها إليها. راقبت نفسي أحمل الصينية وأتجه نحو السيدة ميريوذر. وبأفضل ما لديّ من كياسة، سألتها إن كانت تريد البعض منها. وعلى أية حال، فإن كانت عمتي تستطيع أن تكون سيدة حقيقية في وقت كهذا، فأنا أستطيع أيضاً.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

ـ لا تفعلي ذلك يا سكاوت. ضعيه على الدرجات الخلفية.

ـ جم، هل أنت مجنون؟...

ـ قلت ضعيه على الدرجات الخلفية.

رفعت المخلوق الصغير وأنا أتنهد، ووضعته على آخر درجة ثم عدت إلى سريري. كان أيلول (سبتمبر) قد حلّ، ولكن لا أثر للطقس البارد، ولذا كنا لا نزال ننام في الرواق الخلفي المغطى بالشريط المنخلي. كانت اليراعات المضيئة لازالت في أنحاء المكان، كما كانت زواحف الليل والحشرات الطائرة التي تضرب الشريط المنخلي طوال الصيف لم تبتعد بعد إلى حيث ترحل عادة حين يأتي الخريف.

وجدت حشرة طريقها إلى داخل المنزل: وقد استنتجت أن الحشرة الصغيرة قد زحفت صاعدة الدرج ثم انسلت من تحت الباب. كنت أضع كتابي على الأرض إلى القرب من سريري حين رأيتها. وهذه المخلوقات لا يزيد طولها عن بوصة واحدة، وحين تلمسها فإنها تتكوّر على نفسها متحولة إلى كرة رمادية محكمة.

تمدّدت على بطني، ومددت يدي إليها ووخزتها. تكورت. ثم شعرت بالأمان، على ما أفترض، فعادت إلى شكلها الأصلي. سافرت مسافة بوصات على سيقانها المئة، فلمستها مرة أخرى. تكورت من جديد. وبما أني كنت أشعر بالنعاس، فقد قررت إنهاء الأمر. كنت سأسحقها بيديَّ حين تكلم جم.

كان جم مقطب الجبين. ربما كان ذلك جزءاً من المرحلة التي كان يمرّ فيها، وقد تمنّيت لو أنه يتجاوزها بسرعة. لم يكن قاسياً على الحيوانات أبداً، ولكني لم أعرف أن حبّه للخير كان يمتد ليعانق عالم الحشرات.

سألت:

- لم طلبت مني ألاّ أسحقها؟

- لأنها لا تزعجك.

أجابني جم من الظلام. كان قد أشعل نور القراءة.

- أعتقد أنك تمر الآن بمرحلة لا تقتل فيها الذباب والبعوض، على ما أعتقد. أعلمني حين تغيّر رأيك. هل أقول لك شيئاً؟ لن تجعلني أجلس دون أن أسحق بقة تقرصني.

أجابني بلهجة وسنانة:

- اصمتي.

كان جم هو الذي يصبح أكثر شبهاً بالبنات كل يوم، وليس أنا. وحيث كنت أشعر بالراحة فقد تمدّدت على ظهري وانتظرت النوم، وبينما كنت أنتظر فكرت في ديل. كان قد غادرنا منذ أول الشهر مع تأكيدات شديدة بأنه سيعود حالما تغلق المدرسة أبوابها... كان يظن أنه لدى أسرته فكرة عامة الآن مفادها أنه يحب قضاء الصيف في مايكوم. اصطحبتنا الآنسة راشيل بالتاكسي إلى محطة اتصال مايكوم، وقد لوّح لنا ديل من نافذة القطار حتى غاب عن الأنظار. لم يفارق مخيلتي أبداً: وقد افتقدته. في آخر يومين قضاهما معنا، علّمه جم السباحة...

علّمه السباحة. فجأة أفقت تماماً إذ تذكرت ما حكاه لي ديل.

كنت «دوامة باركر» في نهاية طريق ترابي بعيد عن الطريق العام المؤدّي إلى بلدة ميريديان وعلى مبعدة ميل من بلدتنا. من السهل أن يجد المرء عربة قطن أو سيارة عابرة تقلّه على الطريق العام، وكان المشوار القصير على الأقدام نحو النهر سهلاً، ولكن احتمال أن يمشي المرء طريق الإياب نحو البيت بأكمله عند الغسق، حين تكون حركة السير خفيفة، كان احتمالاً وارداً ومتعباً، ويحرص السابحون عادة على ألا يتأخروا كثيراً.

ووفقاً لرواية ديل، فقد كان هو وجم قد وصلا للتو إلى الطريق العام حين شاهدا أتيكوس يقود سيارته باتجاههما. بدا عليه أنه لم يرهما، لذا لوّحا له كلاهما. وخيراً أوقف أتيكوس سيارته وحين لحقا به قال:

ـ الأفضل لكما أن تجدا سيارة تعيدكما إلى البيت، فأنا لن أذهب إلى البيت إلا بعد فترة من الزمن.

وقال ديل إن كالبورنيا كنت في المقعد الخلفي للسيارة.

احتجّ جم، ثم توسل فقال أتيكوس:

ـ حسناً، يمكنكما أن تأتيا معنا شريطة البقاء في السيارة.

وفي الطريق إلى بيت توم روبنسون حكى لهما أتيكوس ما حدث.

انعطفت السيارة خارج الطرق العام ثم سارت ببطء مارة بمقلب القمامة ومنزل آل يوويل، ثم هبطت في الزقاق الضيق نحو أكواخ الزنوج. قال ديل إن جمهرة من الأطفال السود كانوا يلعبون في فناء منزل توم الأمامي. أوقف أتيكوس سيارته وترجّل. لحقت به كالبورنيا عبر البوابة الأمامية.

سمعه ديل يسأل أحد الأطفال:

ـ أين أمك يا سام؟

أجابه سام:

ـ إنها هناك في منزل الأخت ستيفنز، يا سيد فينتش. هل تريد مني أن أهرع إليها وأناديها؟

قال ديل إن أتيكوس بدا متردداً، ثم قال، نعم، وانطلق سام. قال أتيكوس للأطفال:

ـ استمروا في اللعب أيها الأطفال.

خرجت فتاة صغيرة من باب الكوخ ووقفت تنظر إلى أتيكوس. قال ديل إن شعرها كان كومة من الضفائر القاسية الصغيرة، وكل واحدة منها تنتهي بشريطة لامعة. ابتسمت من الأذن حتى الأذن ثم سارت نحو والدنا، ولكنها كانت أصغر من أن تنزل الدرجات وحدها: قال ديل إن أتيكوس مضى نحوها، رفع قبعته وعرض عليها إصبعه. وأمسكت هي بها وأنزلها هو الدرجات ببطء. ثم أعطاها إلى كالبورنيا.

كان سام يهرول خلف أمه حين وصلا. قال ديل إن هيلين قالت: «مساء الخير يا سيد فينتش، هل لك في كرسي؟» ولكنها لم تقل شيئاً آخر، ولا أتيكوس أيضاً.

قال ديل:

ـ يا سكاوت، لقد سقطت على التراب. سقطت هكذا على التراب كأنّما داستها قدم مارد ضخم، هكذا فجأة. هكذا... بم؟ وكأنك تدوسين نملة. وهنا ضرب ديل الأرض بقدمه.

قال ديل إن كالبورنيا وأتيكوس أوقفا هيلين على قدميها وجرّاها

إلى داخل الكوخ. وقد بقوا في الداخل فترة طويلة، ثم خرج أتيكوس وحده. وحين عادوا بالسيارة مارّين بمقلب القمامة، صرخ بهم بعض أفراد عائلة يوويل ولكن ديل لم يسمع ما قالوه جيداً.

اهتمت مايكوم بخبر موت توم لمدة يومين ربما، كانت فترة يومين كافية حتى تنتشر المعلومات في أنحاء المقاطعة. «هل سمعت بما حدث..؟ لا؟ حسناً، يقولون إنه كان يهرب بسرعة البرق..». بالنسبة لمايكوم كان موت توم شيئاً «نمطياً». فالشيء النمطي هو أن يحاول زنجي أن يكسر قيوده ويهرب، والشيء النمطي هو أن يكون عقل الزنجي دون خطة، دون تفكير في المستقبل، بل مجرد الهروب في أول فرصة تلوح له. شيء مضحك. كان يمكن لأتيكوس فينتش أن يطلق سراحه. ولكن أن ينتظر...؟ لا وحق الجحيم. أنت تعرف كم هم ضعيفو العقول. هذا يكشف لك الأمر: فتوم روبنسون شخص متزوج شرعياً، ويقولون إنه كان نظيف السمعة ويذهب إلى الكنيسة وغير ذلك، ولكن ما أن تسنح لهم الفرصة فإن القشرة رقيقة جداً، فالزنجي يبقى زنجياً.

تفاصيل أخرى قليلة تمكن المستمع من تكرار نسخته هو عن الحكاية، ثم لا شيء كموضوع للحديث حتى ظهرت صحيفة «مايكوم تريبيون» في الخميس التالي. كان فيها نعي مع ترجمة موجزة عن حياة المتوفي في «أخبار الملونين»، ولكن كان هناك أيضاً مقال افتتاحي أيضاً.

في ذلك المقال، كان السيد ب. ب. أندروود كأكثر ما يكون مرارة، وقد بدا أنه لم يأخذ بعين الاعتبار من سيقوم بإلغاء إعلانه أو اشتراكه في الصحيفة. (ولكن مايكوم لم تكن من هذا النوع: فقد كان بإمكان السيد أندروود أن يزعق حتى يغرق أو يكتب ما يشاء له أن يكتب، ومع ذلك فالناس سيستمرون في الإعلان لديه ودفع الاشتراكات لصحيفته. إذا كان يريد أن يتحامق في صحيفته، فذلك

شأنه). لم يكن السيد أندروود يتحدث عن إخفاقات العدل، بل كان يتحدث بطريقة يستطيع معها الأطفال أن يفهموا. كان السيد أندروود يتصور بكل بساطة أن قتل الأشخاص ذوي العاهة خطيئة، أكانوا واقفين، جالسين، أو فارّين. وقد شبّه موت توم بالذبح الذي لا معنى له للطيور الشادية من قبل الصيادين والأطفال، وقد ظنت مايكوم أنه كان يحاول كتابة افتتاحية شاعرية إلى حد يعاد معه طبعها في صحيفة «مونتغومري أدفرتايزر».

تساءلت في نفسي وأنا أقرأ افتتاحية السيد أندروود كيف يمكن لكلامه أن يكون صحيحاً. قتل بلا معنى...؟ لقد عومل توم معاملة قانونية حتى يوم مماته، كما حوكم علناً وأدانه اثنا عشر رجلاً طيباً وصادقاً، كما دافع عنه والدي طوال الوقت. ثم توضح لي ما عناه السيد أندروود: لقد بذل أتيكوس ما بوسعه كرجل حرّ لإنقاذ توم روبنسون، ولكن ضمن محاكم القلوب السرية كان أتيكوس خاسراً. فتوم روبنسون أصبح رجلاً ميتاً في اللحظة التي فتحت بها مايلا يوويل فمها وزعقت.

لقد بعث اسم «يوويل» في نفسي شعوراً بالغثيان. لم تكن مايكوم قد أضاعت وقتها في إيصال أفكار السيد يوويل حول مقتل توم ونقلها عبر ذلك «القنال الإنكليزي» للإشاعة، ألا وهو الآنسة ستيفاني كروفورد. قالت الآنسة ستيفاني للعمة ألكسندرا في حضور جم: «حسناً، لقد كبر إلى حد يسعه معه أن يستمع إلى ما أقوله». إن السيد يوويل قال إن موت توم جعل رقم الذي يجب أن يموتوا ينخفض من ثلاثة إلى اثنين. وقد قال لي جم إن عليّ ألا أخاف، فالسيد يوويل مجرد ثرثار لا أكثر. كما قال لي جم إني إذا تلفظت بكلمة واحدة لأتيكوس حول ذلك، أو إذا جعلت أتيكوس يعرف بطريقة أو بأخرى أني عرفت، فإن جم شخصياً، لن يخاطبني أبداً، مرة أخرى.

* * *

الفصل السادِسُ والعِشرُون

بدأت المدرسة، وبدأت كذلك من جديد رحلاتنا اليومية مروراً بمنزل آل رادلي. كان جم الآن في الصف السابع وأصبح يذهب إلى المدرسة الثانوية، الواقعة خلف مبنى المدرسة الابتدائية، وكنت أنا الآن في الصف الثالث وأصبح مسار حياتنا اليومي مختلفاً إلى حد أني كنت أمشي صباحاً مع جم حتى المدرسة وأراه في مواعيد الوجبات. كان يخرج ليعلب كرة القدم، ولكنه كن أنحف واصغر من أن يفعل أي شيء للفريق عدا أن يحمل له دلاء الماء. وكان يفعل ذلك بحماسة، حتى أنه أصبح يقضي معظم أوقات العصر خارج المنزل فلا يعود قبل حلول الظلام إلاّ نادراً.

لم يعد منزل آل رادلي يخيفني، ولكنه ما يزال على كآبته السابقة، وعلى برودته السابقة تحت أشجار السنديان الضخمة تلك، كما لا يزال منفّراً. كان السيد ناثان رادلي لا يزال يُرى في أيام الصحو، وهو يسير من البيت إلى البلدة وبالعكس، وكنا نعرف أن «بو» لا يزال هناك وذلك للسبب القديم نفسه: فلم يره أحد يخرج محمولاً بعد. كنت شعر أحياناً بوخزة ندم لدى مروري بذلك المنزل العتيق، وذلك لأني شاركت فيما كان عذاباً محضاً لآرثر رادلي. فأي ناسك عاقل يرغب في أن يتلّصص عليه الأطفال من خلال مصاريع النافذة، أو يوصلوا له التحيات على نهاية قصبة صيد، أو أن يتجولّوا في بستان خضاره في الليل؟

ومع ذلك تذكرت. تذكرت بنسين من النوع المرسوم عليه رأس

هندي والعلكة والدميتين المصنوعتين من الصابون والميدالية الصدئة والساعة المكسورة ذات السلسلة. لا بد وأن جم قد رماها في مكان ما. توقفت ونظرت إلى الشجرة في عصر أحد الأيام: كان جذعها منتفخاً حول بقعة الإسمنت. وكانت لون البقعة نفسها يتحول إلى الأصفر.

على كل حال، فقد كدنا نراه مرتين، وكان ذلك رقماً قياسياً كافياً لأي شخص.

ولكني كنت أبحث عنه كلما مررت من هناك. ربما سنراه في يوم من الأيام. لقد تخيلت كيف سيكون ذلك: حين سيحدث سيكون هو جالساً في الأرجوحة حين أمرّ أنا فأقول: «كيف حالك يا سيد آرثر؟» وكأني كنت أقول ذلك له في عصر كل يوم من أيام حياتي. وسيقول هو: «مساء الخير يا جان لويز» وكأنما كان يقول لي ذلك في عصر كل يوم من أيام حياتي. «إن الطقس جميل، أليس كذلك؟» وسأقول: «نعم يا سيدي. جميل تماماً». ثم استأنف طريقي.

كان ذلك مجرد خيال. لن يتاح لنا أن نراه أبداً. ربما كان يخرج فعلاً حين لا يكون القمر بازغاً ويتلصّص على الآنسة ستيفاني كروفورد. لو كنت في مكانه لاخترت شخصاً آخر أنظر إليه، ولكن ذلك كان شأنه الخاص. إنه لن يأتي ليتلصص علينا أبداً.

قال أتيكوس في إحدى الليالي حين عبرت عن رغبة تائهة في أن أنظر ولو مرة واحدة إلى بو رادلي قبل أن أموت:

ـ لن تبدئي ذلك مرة أخرى، أليس كذلك؟ وإذا كنت ستفعلين ذلك، فأقول لك من الآن: أوقفي ذلك. أنا أكبر سناً من أن أطاردكم بعيداً عن حدود ملكية آل رادلي. وزيادة عليه فالمكان خطير. كان يمكن أن تقتلوا في إحدى المرات. أنت تعرفين أن السيد ناثان يطلق

النار على كل ظل يراه، حتى الظلال التي تترك آثار أقدام حافية قياس (39). لقد كنتم محظوظين إذ لم تقتلوا.

سكتّ فوراً، وتعجبت في الوقت نفسه من أتيكوس. فقد كانت هذه هي أول مرة يجعلنا ندرك فيها أنه كان يعرف أكثر بكثير مما كنا نظن أنه يعرف حول أمرٍ ما. وقد حدث ذلك منذ سنوات. لا، في الصيف الماضي فحسب... لا، بل الصيف الذي سبق، حين... الوقت يمارس حِيلهُ عليّ. يجب أن أتذكر أن أسأل جم.

لقد حدثت أشياء كثيرة لنا، كان بو رادلي الآن أقل مخاوفنا شأناً. قال أتيكوس إنه لا يرى كيف يمكن أن يحدث أي شيء آخر لنا، وأن الأمور لها طريقتها في الاستقرار، وبعد مرور ما يكفي من الوقت، سينسى الناس وجود توم روبنسون كله.

ربما كان أتيكوس على حق، ولكن حوادث الصيف كنت معلّقة فوق رؤوسنا، كما الدخان في غرفة مغلقة. لم يناقش راشدو مايكوم القضية معي أو مع جم أبداً، فقد بدا أنهم كانوا يناقشونها مع أطفالهم، ويبدو أن موقفهم من الموضوع هو أن أحداً منّا لم يكن يستطيع شيئاً حيال كون أتيكوس والداً، ولذا فإن على أطفالهم أن يكونوا لطفاء معنا رغماً عنهم. ما كان ممكناً أن يكون الأطفال قد وصلوا إلى ذلك بأنفسهم: فلو تُرِك زملاء الصف ليتصرّفوا من تلقاء أنفسهم، لكنا اضطررنا جم وأنا إلى خوض عدة معارك ملاكمة سريعة وعرضية ووضعنا حداً للمسألة. ولكن بما أن الأمر كان على ما هو عليه، فإننا أُرغمنا على رفع رؤوسنا عالياً وأن نكون «جنتلماناً» و«سيدة». وبطريقة ما كان هذا يشبه عصر السيدة هنري لافاييت دوبوز دون صياحها ذلك كله. ولكن كان هناك أمر غريب واحد، على أية حال، لم أفهمه أبداً: فرغم عيوب أتيكوس كأب، كان الناس راضين

عن انتخابه مرة أخرى لبرلمان الولاية في ذلك العام، كالعادة، دون معارضة. وقد استنتجت بأن الناس غريبو الأطوار فحسب. لقد ابتعدت عنهم، ولم أفكر بهم ثانية حتى اضطررت إلى ذلك.

لقد أرغمت على ذلك في أحد الأيام في المدرسة. فقد كانت لدينا حصة أسبوعية تسمى «الحوادث الجارية». وكان من المفروض أن يقوم كل طفل باختيار مقال من صحيفة، فيستوعب مضمونه ثم يرويه لبقية الصف. وقد كان من شأن هذه الممارسة أن تتغلّب ـ على حد زعمهم ـ على مجموعة متنوعة من الشرور: فقد كان من شأن الوقوف أمام زملاء الصف أن يشجّع على تعلّم الوقفة الجيدة أمام الآخرين وتدريب الطفل على حفظ التوازن: فإلقاء خطاب قصير كان يجعله واعياً بالكلمات، كما أن حفظه للحادثة التي يرويها يقّوي ذاكرته، فكونه قد اختير يجعله أكثر حرصاً على العودة إلى «المجموعة».

كانت الفكرة عميقة، ولكنها لم تفلح تماماً في مايكوم وكالعادة. فأولاً، كان قلة من الأطفال الريفيين يحصلون على صحف، وهكذا فإن ثقل «الحوادث الجارية» كان يتحمله أطفال البلدة، وهذا كان من شأنه أن يقنع «أطفال الباص» على نحو أعمق بأن أطفال البلدة كانوا يحصلون على كل الاهتمام على أية حال. أما الأطفال الريفيون الذين كانوا يستطيعون، فكانوا يحضرون مختارات مما أسموه «صحيفة غريت». وهي نشرة كاذبة في نظر «الآنسة غيتس» معلمتنا. لماذا كانت تقطب جبينها كلما قرأ طفل ما مقتطفاً من «صحيفة غريت»؟ كان ذلك أمراً لا أعرفه، ولكن بطريقة ما، كان ذلك مرتبطاً بحبّ العزف على الكمان وتناول البسكويت المحليّ بالعصير المركز على الغداء، وأن يكون المرء متديّناً على نحو شديد، وأن يغنّي «الحمار يغني بعذوبة»

وأن يلفظ كلمة Donkey أو حمار على شكل Dunkey، وقد كانت الدولة تدفع الرواتب للمعلمين حتى يثنوا أولئك الأطفال عن مثل تلك الممارسات.

ومع ذلك، فلم يكن الكثير من الأطفال يعرفون ماذا تعني عبارة «الأحداث الجارية». فهاهو «ليتل تشاك ليتل»، وهو الخبير العتيق بالأبقار وعاداتها، توقفه الآنسة غيتس بعد أن كان قد قرأ نصف حكاية كتبها في الصحيفة «العم ناتشل» وتقول له: «يا تشارلز، هذه ليست حادثة جارية. إنها إعلان».

كان سيسيل جايكوبز يعرف كما هي الحادثة الجارية على أي حال. توجه نحو مقدمة غرفة الصف وبدأ يقرأ: « أولد (العجوز) هتلر... »

قالت الآنسة غيتس:

ـ اسمه أدولف هتلر يا سيسيل. لا يبدأ المرء كلامه بأولد فلان.

ـ أجل يا سيدتي. أولد أدولف هتلر كان يقاضي...

ـ يضطهد يا سيسيل...

ـ كلا يا آنسة غيتس، بل ما هو مكتوب هنا... على أي حال، حسناً: كان أولد أدولف هتلر يلاحق اليهود ويجزهم في السجون وهو يستولي على أملاكهم ولا يسمح لأي منهم بالخروج من البلاد وهو يغسل جميع ضعاف العقول...

- يغسل ضعاف العقول؟

- أجل يا سيدتي، يا آنسة غيتس. أعتقد أنهم لا يتمتعون بالحس السليم الكافي ليجعلهم يغتسلون. لا أظن أن الأبله يستطيع المحافظة على نظافة جسده. على أي حال، لقد بدأ هتلر ببرنامج

لجمع جميع من هم نصف يهود أيضاً ويريد أن يسجلهم في حال أرادوا أن يسببوا له المتاعب وأعتقد أن هذا أمر سيئ وهذه هي حادثتي الجارية.

قالت الآنسة غيتس:

- جيد جداً يا سيسيل.

عاد سيسيل إلى مقعده.

ارتفعت يد في آخر الصف:

ـ كيف يستطيع فعل ذلك؟

سألت الآنسة غيتس بنفاد صبر:

ـ من يفعل ماذا؟

قال صاحب اليد المرفوعة:

ـ أعني كيف استطاع هتلر أن يضع الكثير من الناس في سجن كذاك، وكأن الحكومة لم تستطع إيقافه عن فعل ذلك؟

قالت الآنسة غيتس وهي تنتهز الفرصة لتجعل التعليم ديناميكياً: «هتلر هو الحكومة». ثم مضت تحو اللوح. كتبت كلمة "ديموقراطية" بأحرف كبيرة. قالت: « الديموقراطية. هل لدى أي منكم تعريف لها؟»

قال أحدهم:

ـ نحن.

رفعت يدي متذكرة شعار حملة قديمة كان أتيكوس قد شرحه لي.

ـ ما الذي تظنين أنها تعني يا جان لويز؟

قلت وأنا أقتبس: «تعني حقوقاً متساوية للجميع ولا مزايا خاصة لأي كان! »

ابتسمت الآنسة غيتس قائلة:

- جيد جداً يا جان لويز.

ثم كتبت قبل كلمة "ديموقراطية" كلمة "نحن أمة". قالت:

- أيها الصف، كرروا معاً: "نحن أمة ديموقراطية."

كررنا ذلك وراءها. م قالت الآنسة غيتس:

- هذا هو الفرق بين أمريكا وألملنيا. نحن بلد ديموقراطي وألمانيا ديكتاتورية. ديكتاتورية. هنا لا نؤمن باضطهاد أي شخص. يأتي الاضطهاد من أشخاص لديهم تحامل. تحامل.

قال صوت متسائل في منتصف غرفة الصف:

- لماذا لا يحبون اليهود في رأيك يا آنسة غيتس؟

- لا أعرف يا هنري. فهم يشاركون في كل مجتمع يعيشون فيه، ومعظمهم متدينون جداً. يحاول هتلر أن يتخلص من الدين، وربما لا يحبهم لهذا السبب.

قال سيسيل:

- حسناً، لا أعرف بالتأكيد، ولكن يفترض أنهم يعملون بصرف العملات أو ما شابه، ولكن هذا ليس مبرراً لاضطهادهم. وهم بيض البشرة، أليس كذلك؟

قالت الآنسة غيتس:

- حين تصل إلى المدرسة الثانوية، يا سيسيل، ستتعلم أن اليهود كانوا مضطهدين منذ بداية التاريخ، حان وقت درس الحساب أيها الأطفال.

وبما أني ما أحببت مادة الحساب أبداً، فقد قضيت كل ساعة الدرس وأنا أنظر من النافذة إلى الخارج. والمرة الوحيدة التي رأيت

فيها أتيكوس يقطّب جبينه كانت حين راح «إلمر ديفيس» ينبئه بآخر الأخبار عن هتلر. كان أتيكوس يخرس الراديو ويقول: «أف». وقد سألته مرة عن السبب في أنه لا يحتمل هتلر فقال لي: «لأنه مجنون».

لم يكن ذلك كافياً، كما كنت أفكر، بينما استمر الصف في أعمال الجمع. مجنون واحد وملايين الألمان. بدا لي أنه كان من الأفضل لهم لو حبسوا هتلر في حظيرة بدلاً من تركه يحبسهم كلهم. كان هناك أمر آخر غير صحيح... سأسأل أبي عنه.

وقد فعلت، وقال إنه لا يستطيع على الأرجح الإجابة عن سؤالي لأنه لا يعرف الجواب.

ـ ولكن هل من المقبول أن تكره هتلر؟

ـ لا، ليس مقبولاً كره أي شخص.

قلت:

ـ يا أتيكوس، هناك أمر ما لا أفهمه. قالت الآنسة غيتس إن ذاك كان كريهاً، أي أن يفعل هتلر ما يفعله، وقد احمرّ وجهها فعلاً حين أثير الأمر...

ـ أعتقد أن وجهها قد احمرّ فعلاً.

ـ ولكن...

ـ نعم؟

ـ لا شيء يا سيدي.

وابتعدت، وأنا لست متأكدة من أني أستطيع أن أشرح لأتيكوس ما كان في ذهني، ولا إن كنت أستطيع أن أوضح ما كان مجرد إحساس. ربما يستطيع جم تقديم الجواب. كان جم يفهم أمور المدرسة أكثر من أتيكوس.

كان جم منهكاً من حمل دلاء الماء. وكان إلى جانب سريره على الأرض اثنتا عشرة قشرة موز على الأقل تحيط بزجاجة حليب فارغة. سألته:

ـ لماذا كل هذا الأكل؟

ـ يقول المدرب إني إذا استطعت أن أكسب وزناً يعادل اثني عشر كيلو غراماً في العام الذي يلي العام القادم فإني سأستطيع اللعب مع الفريق. وهذه أسرع طريقة لذلك.

ـ هذا إذا لم تتقيّأه يا جم. أريد أن أسألك سؤالاً.

ـ هيا.

أنزل كتابه ومدّد ساقيه.

ـ الآنسة غيتس سيدة لطيفة، أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد. لقد أحببتها حين كنت في صفها.

ـ إنها تكره هتلر كثيراً.

ـ وما الخطأ في ذلك؟

ـ حسناً، لقد حكت اليوم عن مدى السوء في معاملته لليهود تلك المعاملة. يا جم، ليس عدلاً أن نضطهد أحداً أليس كذلك؟ أعني أن تكون لدينا أفكار خسيسة حول أي شخص حتى، أليس كذلك؟.

ـ لا يا سكاوت. ولكن ما الذي يقلقك؟

ـ حساً، لدى خروجنا من دار المحكمة في تلك الليلة، كانت الآنسة غيتس تنزل الدرج أمامنا، لا بد أنك لم ترها: كانت تتحدث إلى الآنسة ستيفاني كروفورد. لقد سمعتها تقول إن الوقت قد حان وأصبح ضرورياً أن يلقّنهم أحد درساً، فهم أصبحوا يحاولون تخطّي حدودهم، وإن الخطوة التالية التي سيفكرون فيها ستكون الزواج منّا.

يا جم، كيف يمكنك أن تكره هتلر إلى ذلك الحد ثم تلتفت لتمارس بشاعاتك على أشخاص موجودين في موطنك بالذات...؟

فجأة ثارت ثائرة جم. قفز من سريره وأمسك بي من قَبَتي وهزّني وهو يقول:

ـ لا أريد أن أسمع شيئاً حول دار المحكمة تلك، أبداً، أبداً، هل تسمعينني؟ هل تسمعينني؟ لا تقولي كلمة واحدة لي عنها مرة أخرى، هل تسمعينني؟ والآن هيا من هنا.

كنت مندهشة إلى حد أنّي لم أبْكِ. زحفت خارجة من غرفة جم وأغلقت الباب بهدوء، لئلا ينفجر مرة أخرى بسبب صوت ما غير ملائم. ولكوني شعرت فجأة بالتعب فقد كنت في حاجة إلى أتيكوس. وجدته في غرفة الجلوس، وقد مضيت نحوه وحاولت الصعود إلى حجره.

ابتسم أتيكوس وقال:

ـ لقد أصبحت كبيرة على ذلك الآن، سأكون مضطراً إلى ضم جزء منك فحسب.

ثم ضمني إليه واستأنف الكلام بلطف:

ـ يا سكاوت، لا تجعلي جم يثبط عزيمتك. إنه يمر بوقت عصيب الآن. لقد سمعتكما قبل قليل.

قال أتيكوس إن جم كان يحاول بشدة أن ينسى شيئاً معيناً، ولكن كل ما كان يفعله عملياً هو حفظه لفترة من الزمن، حتى يمر وقت كاف عليه. ثم سيكون قادراً على التفكير فيه وفرز الأمور فيما بعد. وحين يستطيع جم أن يفكر بالأمر، سيعود إلى نفسه مرة أخرى.

* * *

الفصل السّابع والعشرون

لقد هدأت الأمور واستقرت فعلاً، ولكن وفق أسلوبها الخاص، كما قال أتيكوس. فحتى منتصف شهر تشرين الأول (أكتوبر)، حدث أمران صغيران فقط لشخصين عاديين من سكان مايكوم. لا، كانت هناك ثلاث حوادث، ولم تكن تلك تتعلق كلها بنا نحن آل فينتش... وإنما كان لها علاقة ما بنا على أية حال.

وكانت أول حادثة هي أن السيد بوب يوويل نال وظيفة ثم فقدها خلال أيام، وربما أراد أن يكون فريد نوعه في سجلات الثلاثينات من القرن العشرين: فقد كان الشخص الوحيد الذي سمعت أنه طرد من «الوكالة العمومية للعمال»[1] لكسله. واعتقد أن بروز شهرته القصير الأجل قد جلب عليه وظيفة أقصر أجلاً، ولكن وظيفته تلك دامت بقدر شهرته السيئة: فقد وجد السيد يوويل نفسه منسياً شأنه شأن توم روبنسون. وبعد ذلك، عاد للظهور أسبوعياً وبانتظام عند مكتب الإنعاش الاجتماعي للحصول على شيك المعونة، وكان يستلمه متذمراً ومهمهماً بكلمات غامضة ضد أولاد الزنا أولئك الذين يظنون أنهم يديرون هذه البلدة ولا يسمحون لرجل شريف بأن يكسب قوته بعرق جبينه. هذا وقالت «روث جونز»، وهي موظفة الإنعاش الاجتماعي إن السيد يوويل قد اتهم أتيكوس صراحة بأنه حرمه من

---

(1) W P A برنامج للضمان الاجتماعي أسسه الرئيس روزفلت للقضاء على البطالة في الولايات المتحدة. (المترجم).

وظيفته. وقد انزعجتْ إلى حد أنها سارت نحو مكتب أتيكوس لتقول له ما سمعته. قال أتيكوس للآنسة روث إن عليها ألا تقلق، وإن بوب يوويل يعرف الطريق إلى مكتبه لو أراد أن يناقش «حرمان» أتيكوس له من وظيفته.

أما الحادثة الثانية فحدثت للقاضي تايلور. لم يكن القاضي تايلور ممّن يرتادون الكنيسة في ليالي الأحد، أما السيدة تايلور فكانت من هؤلاء. كان القاضي تايلور يستمتع بساعة صلاة ليلة الأحد وحده في منزله الكبير، وكان يقضي تلك الساعة عادة في مكتبه يقرأ كتابات «بوب تايلور» (لم يكن من أقربائه، ولكن القاضي كان سيفخر بمثل هذا الادعاء). وفي إحدى ليالي الأحد، وبينما كان القاضي تيلور غارقاً في الاستعارات الغنية والألفاظ المنمّقة، لفت انتباهه فجأة وهو غارق في إحدى الصفحات صوت خربشة مزعجة. قال موجهاً كلامه إلى «آن تايلور»، وهي كلبته الغريبة البدينة صعبة الوصف: «صه». ثم أدرك أنه كان يتحدث في غرفة فارغة، كان صوت الخربشة آت من مؤخرة المنزل. مشى القاضي تايلور بتثاقل نحو الرواق الخلفي ليفتح الباب لكلبته حتى تخرج ولكنه وجد الباب المنخلي يتأرجح مفتوحاً. وقد لمح ظلاً عند زاوية المنزل، وكان ذلك هو كل ما رآه من زائره. وصلت السيدة تايلور عائدة من الكنيسة لتجد زوجها في كرسيه، غارقاً في كتابات «بوب تايلور»، وقد وضع بندقية على حجره.

أما الحادثة الثالثة فقد جرت لهيلين روبنسون، أرملة توم. فإذا كان السيد يوويل قد نُسي كما نُسي توم روبنسون، فإن توم روبنسون كان قد نُسي كما نُسي بو رادلي. ولكن توم لم يكن قد نُسي من قبل مستخدمه السيد لينك ديس. وقد قدم السيد لينك ديس وظيفة لهيلين. لم يكن هو في حاجة إلى خدماتها فعلاً، ولكنه قال إنه يشعر بالأسف

تماماً للطريقة التي جرت بها الأمور. لم أعرف أبداً من الذي كان يهتم بأطفالها حين تكون في العمل. قالت كالبورنيا إن هيلين كانت تجد مشقة كبيرة، إذ كان عليها أن تمشي مسافة ميل كامل بعيداً عن طريقها لتتجنب المرور بمنزل عائلة يوويل الذين ـ وفقاً لما قالته هيلين ـ شتموها حين حاولت استعمال الطريق العام في أول مرة. وقد لاحظ السيد لينك ديس أن هيلين كانت تصل في الصباح من الاتجاه غير الصحيح، وقد استجرّها إلى التصريح عن السبب. رجته هيلين قائلة: «أرجوك يا سيدي أن تترك الأمور كما هي». قال السيد لينك ديس: «لن أفعل بحق الجحيم»، ثم طلب منها أن تأتي إلى متجره في عصر ذلك اليوم نفسه قبل أن تغادر العمل. وقد فعلت ذلك، وقام السيد لينك بإغلاق متجره، ثم لبس قبعته وثبّتها على رأسه، ومشى مع هيلين حتى منزلها، وقد اصطحبها من الطريق المختصر، مروراً بمنزل عائلة يوويل. وفي طريق عودته توقف السيد لينك عند البوابة المجنونة.

صاح:

ـ يا يوويل. أنادي يا يوويل.

كانت النوافذ المزدحمة عادة بالأطفال خاوية.

ـ أعرف أن كل واحد فيكم متمدد هناك على الأرض. والآن اسمعني يا بوب يوويل: إذا سمعت مرة أخرى من عاملتي هيلين أنها لا تستطيع السير على هذه الطريق، فسوف أسجنكم جميعاً قبل غروب الشمس.

ثم بصق السيد لينك على التراب وسار نحو منزله.

ذهبت هيلين إلى العمل في صباح اليوم التالي واستعملت الطريق العام. لم يقم أحد بشتمها، ولكنها بعد أن ابتعدت مسافة أمتار عن

منزل عائلة يوويل، نظرت حولها فرأت السيد يوويل خلفها. التفتت واستمرت في السير، وأبقى السيد يوويل على المسافة نفسها إلى الخلف منها حتى وصلت إلى منزل السيد لينك ديس. وتقول هيلين إنها خلال المسافة كلها نحو منزل السيد لينك كانت تسمع صوتاً خافتاً خلفها، يدندن بكلمات قذرة. هذا وقد أصيبت بالهلع الشديد، فهتفت إلى السيد لينك ديس في متجره الذي لم يكن بعيداً جداً عن منزله. وحين خرج السيد لينك من مخزنه رأى السيد يوويل مستنداً إلى السياج. قال له السيد يوويل:

ـ لا تنظر إليّ يا لينك كأنني قذارة. فأنا لم أقفز على...

ـ أول شيء يمكنك أن تفعله يا يوويل هو أن تخرج جثتك العفنة من أرضي. أنت تستند على حاجزي ولست أستطيع طلاءه بطلاء جديد. والشيء الثاني الذي يمكنك أن تفعله هو أن تبتعد عن طباختي وإلا حبستك بتهمة التهجّم...

ـ لم ألمسها يا لينك ديس ولست من النوع الذي يحبّذ صحبة الزنوج.

ـ ليس عليك أن تلمسها، كل ما عليك أن تفعله هو أن تخيفها، وإذا لم تكن تهمة التهجّم كافية لحبسك لفترة، فسوف أحبسك وفق «قانون السيدات»، لذا ابتعد عن مرمى ناظري. وإذا كنت تظن أني لا أعني ما أقول، فهيّا وتحرش بتلك المرأة مرة أخرى.

من الواضح أن السيد يوويل ظن أنه يعني ما يقول، فهيلين ما عادت لتتقدم بأية شكوى بعد ذلك.

ـ لا أحب ذلك يا أتيكوس، لا أحبه إطلاقاً.

كان ذلك هو تقييم عمتي لهذه الحوادث.

ـ ذلك الرجل يبدو وكأن لديه حقداً دائماً متواصلاً ضد كل من له علاقة بتلك الدعوى. وأنا أعرف أن هذا النوع من الناس يصرون على الانتقام، ولكني لا أفهم لماذا يحمل حقداً على الإطلاق: فقد نجح في المحكمة في أن يصل إلى ما يريد، أليس كذلك؟

قال أتيكوس:

ـ أعتقد أني أفهم. قد يكون ذلك لأنه يعرف في دخيلته أن هناك قلة في مايكوم تصدق فعلاً ما نسجه هو ومابيلا. كان يظن أنه سيصبح بطلاً، ولكن كان كل ما ناله لقاء جهده.. هو.. «حسناً، سندين ذلك الزنجي ولكن عد أنت إلى مقلب القمامة». لقد حاول مع كل شخص تقريباً، ولذا يجب أن يكون راضياً الآن. على كل حال سيهدأ حين يتغير الطقس.

ـ ولكن لماذا حاول يا ترى السطو ليلاً على منزل القاضي تايلور؟ من الواضح أنه لم يكن يعلم أن جون كان في المنزل وإلا لما حاول. الأنوار الوحيدة التي تكون ظاهرة في ليالي الأحد في منزل جون هي تلك التي على الرواق الأمامي وفي الخلف في غرفة الشطرنج.

ـ أنت لا تعرفين إن كان بوب يوويل هو الذي مزّق ذلك الباب المنخلي، ولا تعرفين من فعلها حقاً. ولكني أستطيع أن أخمّن. لقد أثبت أنه كاذب ولكن جون جعله يبدو كالأحمق. فطوال فترة وجوده على منصة الشهود لم أكن أجرؤ على النظر إلى جون دون أن أبتسم. كان جون ينظر إليه وكأنه دجاجة ذات ثلاث سيقان أو كبيضة مربعة الشكل. لا تقولي لي إن القضاة لا يحاولون جعل المحلفين يتحاملون.

وهنا ضحك أتيكوس.

ومع نهاية شهر تشرين الأول (أكتوبر)، عادت حياتنا إلى روتينها

المألوف من مدرسة ولعب ودراسة. بدا على جم أنه نجح في أن يبعد عن ذهنه ما كان يحاول أن ينساه، كما أن رفاق الصيف قد جعلونا ننسى ـ على نحو رحيم ـ غرابة أطوار والدنا. سألني سيسيل جاكوبس في إحدى المرات إن كان أتيكوس «راديكالياً». وحين سألت أتيكوس هذا السؤال سرّ منه إلى درجة أغاظتني، ولكنه قال إنه لم يكن يضحك مني. قال:

ـ قولي لسيسيل إني راديكالي بقدر ما هو «كوتون توم هفلين» كذلك.

كانت العمة ألكسندرا في نجاح مضطرد. لا بد وأن الآنسة مودي قد أخرست كل أعضاء الجمعية التبشيرية بضربة واحدة، فهاهي عمتي تأخذ بمقاليد الأمور مرة أخرى. لقد أصبحت مأكولاتها الخفيفة ألذّ حتى من السابق. وقد تعلمت أمراً آخر حول الحياة الاجتماعية للـ «مرونا» البائسين من الإصغاء إلى السيدة ميريوذر: لقد كان لديهم حس قليل جداً بالأسرة إلى حد أن القبيلة كلها كانت أسرة كبيرة واحدة. لقد كان للطفل الواحد من تلك القبيلة آباء بعدد ما في القبيلة من رجال، وأمهات بعدد ما فيها من نساء. وقد كان ج. غرايمز إيفريت يبذل قصارى جهده لتغيير هذه الحالة، وهو في حاجة ماسة إلى صلواتنا.

عادت مايكوم إلى نفسها من جديد. عادت بالضبط كما كانت في العام الماضي والذي سبقه، مع تغييرين صغيرين فقط. الأول: أن الناس قد أزالوا من واجهات مخازنهم وسياراتهم الملصقات التي كانت تقول: «قانون العودة إلى الازدهار الوطني: نحن نقوم بدورنا». وقد سألت أتيكوس عن السبب فقال إن ذلك يعود إلى أن ذلك القانون قد مات. وحين سألته من قتله، قال: تسعة رجال مسنون.

أما التغيير الثاني الذي طرأ على مايكوم منذ العام الماضي فلم تكن له أهمية قومية. فحتى ذلك الحين، كان احتفال «الهالووين»[1] غير معترف به في مايكوم إطلاقاً. كان كل طفل يفعل ما يحلو له، وقد يساعده أطفال آخرون إن كانت هناك حاجة لنقل شيء ما، كوضع عربة خفيفة فوق أعلى الإسطبل. ولكن الآباء فكروا في أن ما حدث في العام الماضي تجاوز الحدود، وذلك حين تم تعكير الصفو على «الآنسة توتّي» والآنسة «فروتّي».

كانت الآنستان توتي وفروتي باربر أختين عانستين تعيشان معاً في المنزل الوحيد في مايكوم الذي يفخر بأن له قبواً. وقد كان يشاع أن الآنستين من الحزب «الجمهوري»، حيث أنهما هاجرتا من كلانتون، ألاباما في عام (1911). كانت عاداتهما غريبة علينا، أما لماذا كانتا تريدان قبواً، فلم يعرف أحد ذلك، ولكنهما طلبتا مثل ذلك، وقد نالتا قبواً، وقد أنفقتا بقية حياتهما وهما تطردان أجيالاً من الأطفال إلى خارجه.

كانت الآنستان توتي وفروتي (كان اسماهما الأصليان هما ساره وفرانسيس)، زيادة على أساليبهما اليانكية[2]، مصابتين بالصمم كلتيهما. كانت الآنسة توتي تنكر ذلك وبالتالي فقد عاشت في عالم من الصمت، أما الآنسة فروتي، التي لا ترضى أن يفوتها شيء، فكانت تستخدم بوقاً للسمع ضخماً إلى حد أن جم قال إنه مكبر للصوت من أحد تلك الغرامافونات القديمة من الطراز المرسوم عليه كلب.

---

(1) Halloween عشية عيد كل لقديسين في 31 تشرين الأول (أكتوبر). (المترجم)

(2) Yankee اسم يطلق على أبناء الولايات الشمالية من الولايات المتحدة الأمريكية. (المترجم).

وبهذه الحقائق في أذهانهم وبما أن احتفال الهالووين قد أضحى وشيكاً، قام بعض الأطفال الشريرين بالانتظار حتى نامت الآنستان باربر، ثم تسللوا إلى غرفة جلوسهما، (في مايكوم لا أحد يوصد أبوابه في الليل سوى آل رادلي)، وقاموا بنقل كل قطعة أثاث ـ خلسة ـ وخبؤوها في القبو. وأنا أنكر مساهمتي في مثل هذا العمل.

ـ لقد سمعتهم.

كانت تلك هي الصرخة التي أيقظت جيران الآنستين باربر في فجر اليوم التالي:

ـ لقد سمعتهم يقودون شاحنة حتى الباب. وقد كانوا يضربون الأرض بأقدامهم كالجياد. لا بد وأنهم أصبحوا الآن في نيو أورليانز.

كانت الآنسة توتي واثقة من أن بائعي الفرو الذين عبروا المدينة منذ يومين هم الذين سرقوا أثاثهما.

قالت:

ـ كانوا ذوي شعور داكنة. سوريّون على ما يبدو.

استدعي السيد هك تيت. مسح المكان وقال إنه يظن أن مرتكبي الحادث من سكان البلدة أنفسهم. قالت الآنسة فروتي إنها كانت ستميّز صوتاً لشخص من مايكوم في أي مكان سمعته، ولم يكن هناك أية أصوات من مايكوم في الردهة في الليلة الماضية: فقد كان اللصوص يدحرجون حرف الراء وهذا ما لا يفعله أهل مايكوم. لا يمكن إيجادهم واسترجاع المفروشات إلا باستعمال كلاب الأثر، هذا ما أصرت عليه الآنسة توتي، لذا اضطر السيد تيت إلى أن يسير مسافة عشرة أميال على الطريق العام ليجمع الكلاب الريفية ويجعلها تتعقب الأثر.

وقد جلبها أولاً إلى الدرج الأمامي لمنزل الآنستين باربر، ولكن كل ما فعلته الكلاب هي أنها كانت تهرع إلى مؤخرة المنزل وتعوي عند باب القبو. وحين أراد السيد تيت أن يطلقها وحاول ثلاث مرات دون أن ينجح، فقد خمّن حقيقة ما حدث. وفي ظهيرة ذلك اليوم، لم يكن ممكناً مشاهدة أي طفل حافي القدمين في مايكوم، ولم يخلع طفل نعليه حتى تمت إعادة الكلاب إلى أصحابها.

وهكذا قالت نساء مايكوم إن الأمور ستكون مختلفة هذا العام. فسوف يتم فتح مدرج المدرسة الثانويّة، وسيكون هناك مهرجان احتفالي مع مشاهد مسرحية للراشدين، ولعبة عض التفاح ولعبة شد الحلوى القاسية الدبقة، ولعبة تثبيت الذيل على الحمار بالنسبة للأطفال. كما ستكون هناك جائزة مقدارها خمسة وعشرين ستاً لأفضل زي خاص باحتفال الهالووين، إذا كان مصممه هو الذي يرتديه.

تأوّهنا جم وأنا. ليس ذلك لأننا قد فعلنا أي شيء، بل كان ذلك للأجل مبدأ الأمور. كان جم يظن أنه أكبر سناً من أن يشارك في الهالووين على أية حال. قال إنه لن يرضى أن يراه أحد قرب المدرسة الثانوية وهو متورط في أمر كهذا. قلت في نفسي: «حسناً سيأخذني أتيكوس إلى مكان الاحتفال».

وسرعان ما علمت، على أية حال، أن خدماتي ستكون مطلوبة على المسرح في ذلك المساء. كانت السيدة غريس ميريوذر قد ألّفت مشهداً مسرحياً عنوانه: «مديرية مايكوم: من الطين إلى النجوم». وكان المفروض بي أن أمثل دور «فخذ الخنزير المقدد». فهي كانت تعتقد أنه سيكون شيئاً رائعاً أن يرتدي الأطفال أزياء تمثل المنتجات الزراعية للمديرية: سيرتدي سيسيل جاكوبس زياً يبدو معه كبقرة، أما آغنس بون فستكون حبة فاصولياء لطيفة، كما سيكون طفل آخر حبة فول سوداني، وهكذا دواليك حتى ينفد رصيد مخيلة السيدة ميرييوذر والرصيد من الأطفال.

كانت واجباتنا الوحيدة، وهذا ما استطعت أن أفهمه من التمرينين اللذين قمنا بهما، أننا سندخل من يسار خشبة المسرح بينما تقوم السيدة مريوذر (وهي ليست المؤلفة فحسب بل الراوية أيضاً) بتسميتنا. فحين كانت ستصرخ «لحم خنزير» كان ذلك هو إشارة الانطلاق بالنسبة لي. ثم ستقوم المجموعة بعد أن تصبح مجتمعة فوق الخشبة بإنشاد نشيد المقاطعة الرسمي: «مقاطعة مايكوم. مقاطعة مايكوم، سنكون مخلصين لك إلى الأبد»، وذاك هو مسك الختام. كما ستقوم السيدة ميريوذر بالصعود إلى الخشبة حاملة علم الولاية.

لم يكن الزي الذي سأرتديه مشكلة. فالسيدة كرنشو، وهي الخياطة المحلية، كان لديها من الخيال بقدر ما كان للسيدة ميريوذر. أخذت السيدة كرنشو بعض الأسلاك السميكة وحنتها بحيث جعلتها تبدو بشكل فخذ الخنزير المقدد. ثم غطت ذلك بقماش بني اللون وطلته بدهان جعلته يبدو بلون اللحم المقدد. كان علّي أن أنحني وكان على شخص ما أن يجذب ذلك الاختراع حتى يغطي رأسي ويصل إلى ركبتي تقريباً. وقد تركت لي السيدة كرنشو ـ عن حسن تأمل ـ ثقبين للنظر. وقد كان عملها ممتازاً: فقد قال جم إني كنت أبدو كفخذ خنزير مقدّد بالضبط إنما مع ساقين. ولكن كانت للزي إزعاجات كثيرة على أية حال، فقد كان يجعلني أشعر بحرّ شديد، كان ضيّقاً: فلو حكّني لما استطعت أن أصل إليه، وما أن أكون داخله حتى لا أستطيع الخروج منه دون مساعدة.

وحين حلّ الهالووين، كنت أفترض أن العائلة كلها ستكون حاضرة لترى أدائي على الخشبة، ولكني أصبت بخيبة الأمل. قال أتيكوس بكل ما يستطيعه من اللباقة إنه لا يظن أنه يستطيع حضور مهرجان تلك الليلة بالذات، فهو متعب جداً. فقد كان في مونتغومري لمدة أسبوع وقد وصل إلى البيت عصر اليوم بالذات. قا ل إنه يظن أن جم قد يرافقني لو طلبت منه ذلك.

قالت العمة ألكسندرا إن عليها أن تذهب إلى الفراش مبكرة، فهي قد ساهمت في تزيين خشبة المسرح كل فترة بعد الظهر، وتشعر بالإنهاك: وهنا قطعت كلامها فجأة في منتصف جملة كانت تقولها. أغلقت فمها ثم فتحته مرة أخرى لتقول شيئاً، ولكن لم تخرج أية كلمات.

سألتها:

ـ ماذا حدث يا عمتي؟

ـ لا شيء، لا شيء. لقد سار أحدهم فوق قبري للتو.

ثم دفعت بعيداً بما كان قد سبّب لها وخزة الخوف تلك، واقترحت علي أن أعرض دوري على العائلة في غرفة الجلوس. وهكذا حشرني جم في زيّي، ووقف عند باب غرفة الجلوس، وصاح: «لحم الخنزير» كما قد تقولها بالضبط السيدة ميريوذر، وتقدمت داخلة الغرفة. وقد سر أتيكوس والعمة ألكسندرا بالعرض.

كررت دوري أمام كالبورنيا في المطبخ وقالت إني رائعة. أردت أن أعبر الشارع إلى منزل الآنسة مودي لأعرض أمامها أيضاً، ولكن جم قال إنها قد تحضر المهرجان على أية حال.

بعد ذلك، لم يعد مهماً من سيذهب أم لا. قال جم إنه سيرافقني. وهكذا بدأت أطول رحلة لنا معاً.

* * *

الفصل الثامن والعشرون

كان الطقس حاراً على نحو لم نعهده في آخر يوم من أيام تشرين الأول (أكتوبر). لم نشعر بالحاجة إلى ارتداء جاكيتاتنا، كانت الريح آخذة في الاشتداد فقال جم أن المطر قد يهطل قبل أن نعود إلى البيت. لم يكن القمر بازغاً.

كان نور الشارع عند الزاوية يلقي بظلال حادة على منزل آل رادلي. سمعت جم يضحك بصوت خافت، قال: «أراهن على أنه لا أحد هناك ليزعجهم الليلة». كان جم يحمل زي فخذ لحم الخنزير المقدد، وكان مرتبكاً بالأحرى، حيث كان من الصعب حمله. لقد كان في تصرفه ذاك شهامة.

قلت:

- ولكنه مكان مخيف مع ذلك، أليس هذا صحيحاً؟ إن «بو» لا يؤذي أحداً، ولكني سعيدة تماماً أنك معي.

- أنت تعرفين أن أتيكوس ما كان ليتركك تذهبين إلى المدرسة وحدك.

- ولم لا، المدرسة عند الزاوية وعبر الفناء.

قال جم ليغيظني:

- ذلك الفناء يعتبر مكاناً بعيداً بالنسبة للفتيات الصغيرات ليلاً. ألست خائفة من الأشباح؟

- ضحكنا: الأشباح (والأبخرة) الحارة والتعاويذ والإشارات

السرية كل ذلك اختفى مع مرور الأعوام كما يختفي السديم مع شروق الشمس. قال جم:

ـ ما كان ذلك الشيء العتيق الذي كنا نقوله: «يا أيها الملاك النوراني، يا حياة في الموت، ابتعد، عن طريقي ولا تمتص أنفاسي».

قلت:

ـ كفى.

وكنا الآن أمام منزل آل رادلي.

ـ لا بد أن «بو» في البيت. اصغي.

إلى الأعلى منا في الظلام كان عصفور ساخر وحيد يطلق ما يعرفه من الألحان في جهل سعيد بمن يملك الشجرة التي كان جاثماً عليها، وقد راح ينطلق من الزعيق الحاد لطائر عباد الشمس إلى الوقوقة الغاضبة لأبي زريق إلى النواح الحزين لطائر «البورويل».

درنا حول الزاوية وتعثرت بجذر نام في الطريق. حاول جم مساعدتي ولكن كان كل ما فعله هو أنه أوقع زيّي في التراب. لم أقع أرضاً، على أية حال، وسرعان ما كنا نستأنف طريقنا ثانية.

ابتعدنا عن الطريق ودخلنا فناء المدرسة. كان الظلام شديداً.

سألته حين كنا قد سرنا بضع خطوات:

ـ كيف تعرف أين نحن يا جم؟

ـ أستطيع أن أقول إننا تحت السنديانة الكبيرة لأننا نمرّ عبر بقعة باردة. انتبهي الآن ولا تتعثري مرة أخرى.

كنا قد أبطأنا السير إلى حد أننا نسير بحذر شديد، ونتلمس طريقنا نحو الأمام حتى لا نصطدم بالشجرة. كانت الشجرة وحيدة وعتيقة. ما كان بإمكان طفلين معاً أن يلمس أحدهما ذراعي الآخر إذا

ما قاما بلفها حول الشجرة. كانت بعيدة عن أنظار المعلمين وجواسيسهم وعيون الجيران الفضوليين: إنها قريبة من حدود منزل آل رادلي، ولكن آل رادلي لم يكونوا فضوليين. كانت بقعة صغيرة من الأرض تحت أغصانها قد رصت بشدة من عراكات وألعاب مختلسة كثيرة.

كانت الأنوار في مدرج المدرسة الثانوية تشع من مسافة، ولكنها أعمتنا، هذا إن كانت قد فعلت أي شيء آخر. قال جم:

ـ لا تنظري إلى الأمام يا سكاوت. انظري إلى الأرض ولن تقعي.

ـ كان عليك أن تحضر المصباح اليدوي يا جم.

ـ لم أكن أعرف أن الظلام شديد إلى هذا الحد. لم يكن يبدو أن الظلام سيكون بهذه الشدة في بداية المساء. إن الغيوم كثيفة، هذا هو السبب. ستبقى هذه الغيوم قليلاً على أية حال.

قفز أحدهم علينا.

صح جم:

ـ يا للرب القوي.

انفجرت دائرة نور في وجهينا، وقفز سيسيل جاكوبس مرحاً وراءنا. زعق:

ـ لقد ظفرت بكما. عرفت أنكما ستأتيان من هذه الطريق.

ـ ما الذي تفعله هنا يا ولد لوحدك؟ ألست خائفاً من بو رادلي؟

كان سيسيل قد وصل بأمان إلى المدرج مع والديه بالسيارة، ولم يرنا هناك، فهبط وانتظرنا في ذلك المكان لأنه كان واثقاً من أننا كنا سنمر من هناك إن عاجلاً أو آجلاً. وكان يظن على أية حال أن السيد فينتش سيكون معنا.

قال جم:

ـ لا داعي لذلك، فالمنزل قريب جداً من المدرسة. ومن يخاف أن يقطع مثل هذه المسافة القصيرة؟

كان علينا أن نقر بأن سيسيل قد نجح في ما ابتغاه. لقد أخافنا فعلاً، وكان يمكنه أن ينشر ذلك عبر بناء المدرسة كله، فتلك كانت مزيتّه.

ـ قل لي، ألست تمثل البقرة الليلة؟ أين زيّك؟

قال:

ـ إنه وراء الخشبة. تقول السيدة ميريوذر إن المشهد المسرحي لن يؤدى قبل مرور بعض الوقت. يمكنك أن تضعي زيّك وراء الخشبة بالقرب من زيّي يا سكاوت، ثم يمكننا إلى أن ننضم إلى البقية.

كانت تلك فكرة ممتازة، كما قال جم. كما كان يظن أنها فكرة عظيمة أن نكون سيسيل وأنا معاً. فبهذه الطريقة سيتاح لجم أن يبقى مع أناس من سنه.

حين وصلنا إلى المدرج، كانت البلدة كلها هناك عدا أتيكوس والسيدات اللواتي أنهكن من أعمال التزيين، وعدا المنبوذين والنساك المألوفين. كان معظم سكان المديرية هناك، كما يبدو فالقاعة كانت تعّج بالريفيين المرتدين أفضل ملابسهم. كان للمدرسة الثانوية ردهة واسعة في الطابق الأسفل، وكان الناس يدورون من حول الأكشاك التي نصبت على امتداد كل جانب منها.

تنهدت حين رأيتها وقلت:

ـ أوه يا جم، لقد نسيت إحضار نقودي.

ـ أتيكوس لم ينس. إليك ثلاثين سنتاً يمكنك بها شراء ستة أشياء. سأراك لاحقاً.

ـ حسناً.

هكذا قلت له وقد اقتنعت بالثلاثين سنتاً وسيسيل. وذهبت مع سيسيل إلى مقدمة المدرج، عبر باب إلى حد جانبيه، ثم إلى ما وراء الخشبة. تخلصت من زيّي وانطلقنا مسرعين، فالسيدة ميريوذر كانت تقف عند المنبر أمام الصف الأول من المقاعد وهي تقوم بتغييرات مجنونة في النص في آخر دقيقة.

سألت سيسيل كم معه من المال فقال إن معه ثلاثين سنتاً أيضاً مما جعلنا متساوين. وقد أنفقنا أول خمسة سنتات في «منزل الأهوال»، الذي لم يرعبنا أبداً، حيث دخلنا غرفة مظلمة من الدرجة السابعة وكان دليلنا فيها الغول المقيم، وقد جعلنا نلمس عدة أشياء زعم أنها أجزاء تشكل كائناً بشرياً. «هاهما عيناه» هكذا قيل لنا حين لمسنا حبتي عنب مقشرتين موضوعتين على صحن. «هذا قلبه» وكان ذلك شيئاً كالكبد النيء. «هاهي أحشاؤه» وأقحمت أيدينا في طبق من السباغيتي البارد.

كما زرنا سيسيل وأنا عدة أكشاك. وقد اشترى كل منا كيساً فيه قطع من الكعك الذي صنعته زوجة القاضي تايلور. أردت أن أمارس لعبة قضم التفاح ولكن سيسيل قال إنها ضارة بالصحة. إذ قالت له أمه إنه قد يلتقط عدوى أحدى الأمراض حيث أن الجميع يدفعون برؤوسهم في الحوض نفسه. قلت محتجّة: «ولكن لا يوجد في البلدة مرض معد»، فقال سيسيل إن أمه قالت إنه ضار بالصحة أن نأكل من أشياء سبق لأناس آخرين أن أكلوا منها. وقد سألت العمة ألكسندرا فيما بعد عن هذا، فقالت إن الناس الذين يحملون مثل هذه الآراء هم في العادة أشخاص يحاولون إحراز تقدم بوسائل لا علاقة لها بالكفاءة. كنا سنشتري قطعة من الحلوى القاسية الدبقة حين ظهر رسل السيدة ميريوذر وطلبوا منا أن نذهب إلى ما خلف خشبة المسرح، حيث حان الوقت لنحضر أنفسنا

للعرض. كان المدرج يمتلئ بالناس، كما كانت الفرقة الموسيقية لمدرسة مايكوم الثانوية قد اجتمعت في المقدمة تحت الخشبة. أنيرت أضواء المسرح وراحت الستارة المخملية الحمراء تتلاطم وتتماوج من الحركة السريعة التي تحدث خلفها.

خلف الخشبة، وصلنا سيسيل وأنا إلى الردهة الضيقة التي تعج بالناس: كبار في قبعات ثلاثية الزوايا مصنوعة في البيت، قبعات الجنوبيين في الحرب الأهلية، قبعات الحرب الإسبانية الأمريكية، وخوذ الحرب العالمية. أما الأطفال الذين كانوا يرتدون أزياء تمثل المنتجات الزراعية فكانوا يحتشدون حول النافذة الصغيرة الوحيدة.

صرخت منتحبة في رعب:

ـ لقد حطم أحدهم زيّي.

هرعت السيدة مريوذر نحوي وأعادت الأسلاك إلى ما كانت عليه ثم حشرتني داخلها.

سألني سيسيل:

ـ هل أنت على ما يرام في الداخل هناك يا سكاوت؟ صوتك يبدو وكأنه يأتي من البعيد، وكأنك على الجانب الآخر من الجبل.

قلت:

ـ لا يبدو صوتك أقرب من ذلك إليّ.

عزفت الفرقة النشيد الوطني، وسمعنا الجمهور ينهض. ثم سمعنا صوت الطبول الضخمة. قالت السيدة ميريوذر المتمركزة خلف المنبر قرب الفرقة الموسيقية: «مقاطعة مايكوم من الطين إلى النجوم». وقرعت الطبول الضخمة مرة أخرى، ثم ترجمت السيدة ميريوذر عنوان المشهد من اللاتينية إلى الإنكليزية وذلك من أجل الحضور من الريفيين وأضافت دون ضرورة كما بدا لي: «مشهد مسرحي احتفالي».

همس سيسيل:

ـ أعتقد أنهم ما كانوا سيفهمون المعنى لولا أنها قالته لهم.

ولكنه أُخرس فوراً.

همست:

ـ البلدة كلها تعرفه.

قال سيسيل:

ـ ولكن أهل الريف وصلوا أيضاً.

ـ اصمتوا هناك.

هذا ما أمر به صوت رجالي وسكتنا.

كان الطبل الضخم يدوّي مع كل جملة تقولها السيدة ميريوذر. ثم حكت بحزن عن مقاطعة مايكوم وكونها أقدم من الولاية التي تنتمي إليها، وأنها كانت جزءاً من مقاطعة ألاباما والميسيسبي، وأن أول رجل أبيض وصل إلى الغابات العذراء كان الجد الأكبر الخامس لقاضي الإشهاد، والذي ما عاد يسمع به أحد. ثم جاء الكولونيل مايكوم الرهيب الذي سميت المقاطعة باسمه.

كان أندرو جاكسون قد فوضه بسلطة كبيرة، وقد كان من شأن الثقة بالنفس التي كانت في غير محلها، والحس الضئيل بالتوجّه أن جلبا الكارثة على كل من كان معه في حروب الكريك الهندية. وقد واظب الكولونيل مايكوم على ممارسة جهوده المكرّسة لجعل المنطقة آمنة لممارسة الديمقراطية، ولكن أولى حملاته كانت آخرها. كانت الأوامر التي وصلته عن طريق رسول هنديّ صديق هي التحرك جنوباً. وبعد أن استشار شجرة ليعرف من أشنتها اتجاه الجنوب، وبعد رفضه الاستماع إلى مرؤوسيه الذين تجرؤوا على تصحيح غلطته، انطلق

الكولونيل مايكوم في رحلة هدفها اجتثاث الأعداء، وورّط قواته في السير باتجاه الشمال الغربي ضمن الغابة البدائية حتى أُنقذوا أخيراً من قبل مستوطنين كانوا متجهين نحو الداخل.

قدمت السيدة مريوذر وصفاً طوله نصف ساعة لمآثر الكولونيل مايكوم. وقد اكتشفت في تلك الأثناء أني إذا ثنيت ركبتي فإني أستطيع أن أحنيهما تحت زيّي وأستطيع الجلوس تقريباً. جلست واستمعت إلى خطاب السيدة ميريوذر الرتيب ودويّ الطبل الضخم وسرعان ما نمت.

قالوا لي لاحقاً إن السيدة مريوذر كانت تعتمد كثيراً على مسك الختام حتى أنها صاحت قائلة «لحم الخنزير» وبثقة ولّدتها لديها «شجرات الصنوبر» و«الفاصولياء» التي دخلت عند سماعها الإشارة المتفق عليها. انتظرت ثواني قليلة ثم صاحت: «لحم الخنزير»؟ وحين لم يظهر شيء على الخشبة، صاحت بقوة: «لحم الخنزير!».

لا بد أني سمعتها في نومي، أو أن الفرقة التي كانت تعزف لحن «ديكسي» قد أيقظتني، ولكني على كل حال اخترت الدخول إلى الخشبة حين كانت السيدة ميريوذر ترفع علم الولاية. كلمة «اخترت» ليست صحيحة: فقد كنت أظن أنه من الأفضل لي أن ألحق بالآخرين.

لقد قيل لي لاحقاً إن القاضي تايلور خرج إلى ما وراء المدرج ووقف هناك يضرب ركبتيه بقوة إلى حد أن السيدة تايلور جلبت له كأساً من الماء وحبة دواء.

بدا على السيدة ميريوذر وكأنها قد أصابت نجاحاً، فقد كان الجميع يهللون بذلك، ولكنها أمسكت بي خلف الخشبة وقالت لي إني دمرت عرضها المسرحي. لقد جعلتني أشعر ببؤس شديد، ولكن حين جاء جم ليوصلني إلى البيت كان لطيفاً. قال إنه لم يستطع أن يرى زيّي جيداً من

حيث كان يجلس. كيف استطاع أن يعرف أني كنت أشعر بالضيق تحت زيّي؟ هذا ما لا أعرفه، ولكنه قال إني كنت جيدة الأداء، وإن كنت وصلت متأخرة قليلاً، وهذا كل ما في الأمر. كان جم قد أصبح يتقن مثل أتيكوس تقريباً كيف يبعث فيك الأمل حين تسوء الأمور. ولكن ولا حتى جم كان يستطيع إخراجي عبر كل ذلك الحشود من الناس، وقد وافق على الانتظار خلف الخشبة حتى يغادر الجمهور المدرج.

سألني:

ـ هل تريدين خلعه يا سكاوت؟

ـ لا، سأبقيه علي.

كنت أستطيع إخفاء عاري خلفه.

سألنا أحدهم:

ـ هل تريدان أن أوصلكما بالسيارة إلى البيت؟

ـ لا، شكراً يا سيدي. إنه مجرد مشوار صغير على الأقدام.

قال الصوت:

ـ احذروا الأشباح. والأفضل أن تقولوا للأشباح أن تحذر من سكاوت.

قال لي جم:

ـ لم يبق أناس كثيرون. هيا نذهب.

انطلقنا عبر المدرج إلى الردهة، ثم نزلنا الدرج. كان الظلام شديداً لا يزال. بعض السيارات التي لم ترحل بعد كانت متوقفة عند الجانب الآخر من البناء، وكانت أنوارها الأمامية لا تقدم لنا أي عون على الرؤية. قال جم: «لو أن إحداها كانت تسير في اتجاهنا لكنا استطعنا أن نرى على نحو أفضل. هيا يا سكاوت، دعيني أمسك بسجنك حتى لا تفقدي توازنك».

ـ أستطيع أن أرى جيداً.

ـ حسناً، ولكنك قد تفقدين توازنك.

أحسست بضغط خفيف على رأسي وافترضت أن جم كان يمسك بنهاية فخذ لحم الخنزير.

ـ هل أمسكت بي؟

ـ نعم، نعم.

بدأنا بعبور فناء المدرسة المعتم، ونبذل قصارى جهدنا لنرى أقدامنا. قلت:

يا جم، لقد نسيت، حذائي. تركته هناك خلف الخشبة.

ـ حسناً، هيا نحضره.

ولكن ما أن التفتنا حتى كنت أنوار المدرج قد أطفئت.

قال:

ـ يمكنك إحضاره غداً.

ـ ولكن غداً هو الأحد.

قلت ذلك بلهجة احتجاجية، ولكن جم دفعني باتجاه البيت.

ـ تستطيعين أن تقولي للبواب أن يدخلك... يا سكاوت؟

ـ نعم؟

ـ لا شيء.

لم يكن جم قد عاد إلى مثل هذا منذ زمن طويل. وتساءلت في نفسي عما كان يفكر فيه. ربما سيقول لي متى أراد، وعلى الأرجح حين نصل إلى البيت. أحسست بأصابعه على رأس الزي وهي تشد عليه بقوة. هززت رأسي وقلت:

ـ يا جم، لست مضطراً إلى....

قال وهو يقرصني:

ـ اصمتي قليلاً يا سكاوت.

كان يمشي بصمت. قلت:

ـ انتهت الدقيقة. ما الذي تفكر فيه؟

التفتُّ لأنظر إليه، ولكن خياله كان مرئياً بالكاد.

قال:

ـ أظن أني سمعت شيئاً. توقفي للحظة.

توقفنا.

ـ هل سمعت شيئاً؟

قال:

ـ لا.

ولم نكن قد سرنا خمس خطوات أخرى إلا وكان قد جعلني أتوقف مرة أخرى.

ـ يا جم، هل تحاول إخافتي؟ أنت تعرف أني أكبر سناً...

ـ اصمتي.

وفهمت من لهجته أنه لم يكن يمزح.

كان الليل هادئاً. كنت أستطيع سماع تنفسه بالقرب مني. بين الحين والآخر كانت هناك نسمة فجائية تضرب ساقي العاريتين، ولكن كان ذلك كل ما تبقى من ليلة عاصفة موعودة. كان ذلك هدوء ما قبل العاصفة الرعدية. وأصغينا.

قلت:

ـ سمعت كلباً عجوزاً يعوي.

ـ لا، ليس ذاك. أسمع الصوت حين نمشي، وحين نتوقّف لا أسمعه.

ـ أنت تسمع صوت زيّي وهو يخشخش.... أوه، لا شك أن جو الهالووين قد أثّر فيك...

قلت ذلك لأقنع به نفسي وليس جم بالأحرى، فقد كنت أسمع بكل تأكيد. وما أن استأنفنا السير، سمعت ما كان جم يتحدث عنه. ولم يكن ذلك الصوت صادراً عن زيّي.

قال جم:

ـ لا بد وأنه سيسيل العجوز. لن يفاجئنا مرة أخرى. دعينا لا نجعله يظن أننا نسير بسرعة.

أبطأنا السير إلى حد الزحف. سألت جم كيف يستطيع سيسيل أن يلحق بنا في هذا الظلام، يبدو أنه سيفاجئنا من الخلف.

قال جم:

ـ أستطيع أن أراك يا سكاوت.

ـ كيف؟ أنا لا أستطيع أن أراك؟

ـ إن الخطوط العريضة على زيك تضيء في الظلام. لقد قامت السيدة كرنشو بطلائها ببعض الطلاء اللامع حتى تلتمع تحت أنوار الخشبة. أستطيع أن أراك جيداً، ويبدو أن سيسيل يستطيع أن يراك جيداً بحيث يلاحقنا من مسافة.

كنت أود أن أظهر لسيسيل أننا كنا نعرف أنه يلاحقنا وأننا كنا مستعدين له. صحت فجأة وأنا أستدير إلى الخلف:

ـ سيسيل جاكوبس دجاجة كبيرة مبلولة.

توقفنا. لم يكن هناك من جواب سوى الصدى المرتد من سور المدرسة البعيد.

قال جم:

ـ سأمسك به. هاي.

أجاب سور المدرسة:

ـ هاي هاي هاي.

لم يكن من عادة سيسيل أن يسكت مثل هذه الفترة الطويلة، فهو ما أن يقوم بمزحة حتى يكررها مرات ومرات. كان يجب أن يكون قد قفز علينا الآن. أشار إلي جم بالتوقف مرة أخرى.

قال هامساً:

ـ سكاوت هل يمكنك أن تخلعي ذلك الشيء؟

ـ أظن ذلك، ولكني لا أرتدي الشيء الكثير تحته.

ـ ثوبك معي هنا.

ـ لا أستطيع ارتداؤه في الظلام.

ـ حسناً. لا بأس.

ـ هل أنت خائف يا جم؟

ـ لا، أظن أننا اقتربنا من الشجرة الآن. بعدها بأمتار قليلة وسنكون قد وصلنا الشارع. عندها نستطيع أن نرى بواسطة نور الشارع.

كان جم يتحدث بصوت جاف حيادي وغير عجول. وتساءلت في نفسي إلى متى سيحاول يا ترى الإبقاء على أسطورة سيسيل؟.

ـ هل تعتقد أن علينا أن نغني يا جم؟

ـ لا، اصمتي جيداً يا سكاوت.

لم نكن قد زدنا سرعة خطونا. كان جم يعرف بقدر ما أعرف أنه كان من الصعب السير بسرعة دون أن يدوس هو على أحد أصابع قدمي، أو أن أتعثر بالحجارة، وغير ذلك من المشاق، حيث كنت حافية القدمين. ربما كان ذلك الصوت هو حفيف الأوراق. ولكن لم تكن هناك رياح ولا شجر عدا السنديانة الكبيرة.

كان رفيقنا يسير وهو يجرّ قدميه ويدلف متثاقلاً وكأنه يرتدي حذاء ثقيلاً. وكائناً من كان، فقد كان يرتدي بنطالاً سميكاً من القطن. وما كنت أظنه حفيف الأوراق كان صوت احتكاك القماش القطني بالقماش القطني، مع كل خطوة يخطوها.

أحسست بالرمل وقد أصبح بارداً تحت قدمي فعرفت أننا أصبحنا قرب السنديانة الكبيرة. ضغط جم على رأسي. توقفنا وأصغينا.

لم تتوقف الخطوات معنا في هذه المرة. كان بنطاله يهسهس بسرعة وثبات. ثم توقف. كان يعدو، يعدو نحونا بخطوات ليست خطوات طفل.

صرخ جم:

ـ اركضي يا سكاوت. اركضي. اركضي.

خطوت خطوة واحدة هائلة فوجدت نفسي أصاب بدوار: فأنا لم أكن أستطيع الحفاظ على توازني في الظلام بينما ذراعاي محشورتان ضمن الزي وعاطلتان عن العمل.

ـ يا جم، يا جم، ساعدني يا جم.

حطم شيء ما الأسلاك المحيطة بي. اختلط المعدن بالمعدن وسقطت على الأرض وتدحرجت إلى أبعد ما أستطيع متخبّطة وأنا أحاول النجاة من سجني المصنوع من الأسلاك. ومن مكان ما بالقرب مني وصلتني أصوات عراك ورفس، وأصوات الأحذية واللحم واحتكاكها بالتراب والجذور. تدحرج أحدهم من فوقي وأحسست أنه جم. نهض كالبرق وراح يجذبني معه، ولكن رغم أني كنت قد حررت رأسي وكتفي، إلا أني كنت في حالة من التشبّك ضمن الزي لم نستطع معها أن نهرب بعيداً إلى حد كاف.

كنا قد وصلنا إلى الشارع تقريباً، حين شعرت بيد جم تغادرني، وشعرت به يُقذف إلى الخلف ويُلقى به إلى الأرض. المزيد من أصوات العراك، ثم سمعت صوت شيء يسحق وصرخ جم.

ركضت في اتجاه صرخة جم وغرقت في بطن مترهلة لرجل. قال صاحبها: «أف» وحاول أن يمسك بذراعي. ولكنهما كانتا مكبلتين بشدة. كانت بطنه مترهلة ولكن ذراعيه كانتا كالفولاذ. وقد راح يخنقني ببطء. لم أستطع الحراك. وفجأة قُذف به إلى الخلف ورُمي به إلى الأرض، حاملاً إياي معه. ظننت أن جم قد نهض.

أحياناً يعمل عقل المرء على نحو بطيء جداً. وقفت هناك مصعوقة بكماء. كانت أصوات العراك تخبو، تنفس شخص ما بصعوبة مصدراً صوتاً كالصفير وهدأ الليل مرة أخرى.

هدأ الليل ولكن كان هناك صوت رجل يتنفس بصعوبة، يتنفس بصعوبة ويترنّح. أظن أنه اتجه نحو الشجرة واستند إليها. سعل بشدة، سعالاً نشيجياً من النوع الذي يجعل العظام ترتجف.

- جم؟

لم يكن هناك جواب سوى التنفس الثقيل للرجل.

ـ جم؟

لم يجب جم.

بدأ الرجل يتحرك في أنحاء المكان، وكأنه يبحث عن شيء ما. سمعته يئن ويجرّ شيئاً ثقيلاً على الأرض. وأدركت ببطء أن هناك أربعة أشخاص الآن تحت الشجرة.

ـ أتيكوس....؟

كان الرجل يمشي بتثاقل وترنح نحو الشارع.

سرتُ إلى حيث ظننت أنه كان واقفاً وتلمست الأرض بجنون بأصابع قدمي. وفوراً لمست شخصاً ما.

ـ جم؟

لمست أصابع قدمي بنطالاً وابزيم حزام وأزراراً وشيئاً ما لم أستطع تمييزه، وياقة ووجهاً. كان لحية عمرها أيام ومن النوع الواخز للوجه وقد أعلمتني أن ذاك لم يكن جم. وشممت رائحة الويسكي الرديء.

شققت طريقي نحو ما ظننت أنه الشارع. لم أكن واثقة، حيث أني تقلّبت مرات كثيرة. ولكني وجدته ونظرت نحو عمود النور. كان رجل ما يمر من تحته. كان الرجل يمشي بخطوات متقطعة كشخص يحمل حملاً ثقيلاً جداً عليه. كان يلتف حول الزاوية، وكان يحمل جم. كانت ذراع جم متدلية بجنون أمامه.

ولدى وصولي إلى الزاوية كان الرجل يعبر فناءنا الأمامي. أطّر النور الخارج من بابنا الأمامي خيال أتيكوس لبرهة، هرع نازلاً الدرج وأدخل هو والرجل جم إلى الداخل.

كنت عند الباب الأمامي حين كانا يعبران البهو. كانت العمة ألكسندرا تركض لتقابلني. وصل صوت أتيكوس بحدة من غرفة جم: «اهتفي للدكتور رينولدز. أين سكاوت؟».

صاحت العمة ألكسندرا وهي تجرني معها باتجاه الهاتف: «هاهي هنا». حاولت أن تتفحصني بقلق. فقلت لها: «أنا بخير يا عمتي. الأفضل أن تهتفي».

رفعت السماعة وقالت: «يولا ماي، اتصلي بالدكتور رينولدز، وبسرعة».

«آغنيس، هل والدك في البيت؟ يا إلهي أين هو؟ أرجوك أن تعلميه أن يأتي إلى هنا. أرجوك، إن الأمر ملّح».

لم يكن هناك من داع أن تعرّف العمة ألكسندرا على نفسها، فالناس في مايكوم كانوا يعرفون أصوات بعضهم البعض.

خرج أتيكوس من غرفة جم. وفي اللحظة التي قطعت فيها العمة ألكسندرا الاتصال، أخذ أتيكوس السماعة منها. ضرب على خطاف الهاتف ثم قال: «يا يولا ماي، أريد المأمور من فضلك».

«من هك؟ هنا أتيكوس فينتش. لقد طارد أحدهم ولديّ. جم مصاب، بين هنا ومبنى المدرسة. لا أستطيع أن أترك ولدي. أسرع إلى هنا من فضلك، وأنظر إن كان لا يزال في أرجاء المكان. أشك في أنك ستجده الآن، ولكني أود أن أراه لو وجدته. يجب أن أتركك الآن. شكراً يا هك».

ـ أتيكوس، هل مات جم؟

ـ لا يا سكاوت. اعتني بها يا أختي.

هذا ما قاله بصوت مرتفع وهو يعبر البهو.

ارتجفت أصابع العمة ألكسندرا وهي تفك عني القماش والأسلاك. وكانت تسألني المرة تلو الأخرى بينما تحرّرني من قيودي: «هل أنت بخير يا حبيبتي؟».

لكم شعرت بالراحة إذ تحررّت أخيراً. كانت ذراعاي قد بدأتا تخزانني، وكانتا حمراوين مع بقع سداسية صغيرة عليهما. فركتهما، وشعرت أنّ الوخز قد خفّ.

ـ عمتي، هل مات جم؟

ـ لا، لا يا حبيبتي، إنه فاقد الوعي. لا نعرف مدى سوء إصابته حتى يصل الدكتور رينولدز. يا جان لويز ماذا حدث؟

ـ لا أعرف.

وتركت هي الأمر عند هذا الحد. جلبت لي شيئاً أرتديه، ولو أني فكرت بالأمر في حينه، لكنت لن أدعها تنساه أبداً: ففي ذهولها جلبت لي عمتي أوفرولاً لأرتديه. قالت وهي تسلمني الملابس التي أكرهها أشد الكره: «البسي هذا يا حبيبتي».

ثم اندفعت عائدة نحو غرفة جم، وبعدها عادت إليّ في الردهة. ربتت عليّ بذهول ثم عادت إلى غرفة جم.

توقفت سيارة أمام المنزل. كنت أعرف خطوات الدكتور رينولدز كما أعرف خطوات أبي تقريباً. لقد أشرف على ولادة جم وولادتي، كما كان معنا في كل مرض يصيب الأطفال ومعروف من قبل الإنسان بما فيه تلك المرة التي سقط فيها جم من كوخ الشجرة، ولم يخسر صداقتنا أبداً. قال الدكتور رينولدز إننا لو كنا كبشر ميالين إلى أن تنمو لنا أعضاء إضافية لكانت الأمور مختلفة، ولكننا كنا نشك في ذلك.

دخل من الباب وقال: «يا للرب الطيب!». مشى نحوي وقال: «أنت لا تزالين واقفة»، ثم غيّر مجرى سيره. كان يعرف كل غرفة في المنزل. كما كان سيلاحظ أني مريضة لو كنت كذلك، وكذلك بالنسبة إلى جم.

بعد عشرة دهور عاد الدكتور رينولدز. سألته:

ـ هل مات جم؟

قال وهو يقرفص بالقرب مني:

ـ إنه بعيد كل البعد عن ذلك. لقد أصيب بنتوء في الرأس كما حدث لك أيضاً، كما كسرت ذراعه. يا سكاوت انظري هناك، لا، أديري رأسك، وحركي عينيك. والآن انظري إلى هناك. لقد كسرت ذراعه كسراً قوياً، وأستطيع أن أقول إن ذلك في المرفق. كأن شخصاً ما حاول أن يلوي ذراعه حتى ينتزعه من مكانها... والآن انظري إليّ.

ـ إذن هو ليس ميتاً؟

ـ لا.

انتصب الدكتور رينولدز واقفاً:

ـ لا نستطيع أن نفعل الكثير الليلة؛ إلا أن نحاول أن نجعله في وضع مريح بقدر ما نستطيع. علينا أن نصوّر ذراعه بأشعة إكس... ويبدو أنه سيظل يحمل ذراعه إلى جانبه فترة من الزمن. لا تقلقي على أية حال، فهو سيعود صحيحاً كما كان. الأولاد في سنّه يستعيدون عافيتهم بسرعة.

وبينما كان يتحدث، كان الدكتور رينولدز ينظر بحدّة إليّ، ويلمس بأصابعه النتوء الذي برز في جبهتي:

ـ أنت لا تشعرين أنك مصابة بكسر في أي مكان، أليس كذلك؟

جعلتني نكتة الدكتور رينولدز الصغيرة أبتسم.

ـ إذن أنت لا تعتقد أنه مات؟

ارتدى قبعته وقال:

ـ قد أكون مخطئاً طبعاً، ولكني أعتقد أنه حيّ جداً. إن لديه عوارض الحياة كلها. اذهبي وانظري إليه، وحين أعود سنجتمع معاً ونصل إلى قرار.

كانت خطوات الدكتور رينولدز شابة وحيوية. لم تكن خطوات السيد هك تيت كذلك. فجزمته الثقيلة كانت تعاقب الرواق وقد فتح الباب بارتباك، ولكنه قال الشيء نفسه الذي قاله لي الدكتور رينولدز حين دخل، ولكنه أضاف عليه:

ـ هل أنت بخير يا سكاوت؟

ـ نعم يا سيدي، سأدخل لأرى جم. أتيكوس والجميع هناك.

ـ إذن سأذهب معك.

كانت العمة ألكسندرا قد وضعت منشفة فوق ضوء المطالعة الخاص بجم، وكانت غرفته معتمة قليلاً. كان جم ممدداً على ظهره، وعلامة بشعة على امتداد أحد جانبي وجهه. كانت ذراعه اليسرى تمتد مبتعدة عن جسده. كان مرفقه ملوياً قليلاً، ولكن في الاتجاه المعاكس. كان جم مقطب الجبين.

ـ جم...؟

تكلم أتيكوس فقال:

ـ لا يستطيع أن يسمعك يا سكاوت، لقد فقد وعيه مرة أخرى.

تراجعت قائلة:

ـ نعم يا سيدي.

غرفة جم كانت كبيرة ومربعة الشكل. كانت العمة ألكسندرا جالسة في كرسي هزاز قرب الموقد. وكان الرجل الذي جلب جم إلى المنزل يقف في إحدى الزوايا، ويستند إلى الجدار. كان شخصاً ريفياً لا أعرفه. ربما حضر الحفل وكان لا يزال في الجوار حين حدث ما حدث. لا بد وأنه سمع صرخاتنا فجاء يعدو.

كان أتيكوس واقفاً بالقرب من سرير جم.

وقف السيد هك تيت عند الباب. كانت قبعته في يده، ومصباح يدوي يبرز من جيب بنطاله. كان يرتدي ملابس العمل.

قال أتيكوس:

ـ ادخل يا هك. هل وجدت شيئاً؟ لا أستطيع أن أتصور من هو ذاك الذي وصلت به النذالة إلى حد يمكنه معه أن يفعل مثل هذا الفعل الدنيء، ولكني آمل أن تكون قد وجدته.

نشق السيد تيت. نظر بحدة إلى الرجل الواقف في الزاوية، ثم أشار برأسه إليه، ونظر بعد ذلك في أرجاء الغرفة، إلى جم والعمة ألكسندرا ثم إلى أتيكوس.

قال بلطف:

ـ اجلس يا سيد فينتش.

قال أتيكوس:

ـ فلنجلس جميعاً. خذ هذا الكرسي يا هك، وسأحضر كرسياً آخر من غرفة الجلوس.

جلس السيد تيت في كرسي المطالعة الخاص بجم. انتظر حتى عاد أتيكوس ثم استرخى. تساءلت لماذا لم يجلب أتيكوس كرسياً للرجل الذي في الزاوية، ولكن أتيكوس كان يعرف أساليب الريفيين أفضل مني بكثير. كان بعض زبائنه الريفيين يوقفون مطاياهم طويلة الآذان تحت أشجار الأزادرخت في الفناء الخلفي، وكان أتيكوس غالباً ما يضرب المواعيد معهم على الدرج الخلفي. ربما كان هذا الشخص أكثر راحة حيث هو.

قال السيد تيت:

ـ يا سيد فينتش، سأقول لك ما وجدت. لقد وجدت ثوب فتاة صغيرة، وهو هناك في سيارتي. هل هو ثوبك يا سكاوت؟

ـ نعم يا سيدي، إن كان قرنفلي اللون مطرزاً.

كان السيد تيت يتصرف وكأنه جالس في منصة الشهود. كان يهوى أن يروي الأمور بطريقته الخاصة، متحرراً من قيود ممثل الادعاء أو الدفاع، وأحياناً كان ذلك يستغرقه بعض الوقت.

ـ لقد وجدت بعض القطع المضحكة من قماش بلون الطين...

ـ ذلك كان زيّي يا سيد تيت.

مرّر السيد تيت يديه فوق فخذيه. حكّ ذراعه اليسرى ثم تفحص مدفأة الجدار في غرفة جم، وبدا وكأنه مهتم بها. ثم بحثت أصابعه عن أنفه الطويل.

قال أتيكوس:

ـ ما الحكاية يا هك؟

وجد السيد تيت عنقه وحكه: ثم قال:

ـ بوب يوويل متمدد هناك على الأرض تحت الشجرة، وسكين مطبخ مغروزة بين أضلاعه. إنه ميت يا سيد فينتش.

* * *

الفصل التاسِعَ والعِشرون

نهضت العمة ألكسندرا ومدت يدها إلى المدفأة. نهض السيد تيت ليساعدها ولكنها رفضت المساعدة. ولمرة واحدة في حياته خانت أتيكوس كياسته الغريزية: فقد ظل جالساً حيث كان.

بطريقة ما، لم أستطع أن أفكر سوى بشيء واحد هو السيد يوويل وهو يقول إنه سينال من أتيكوس ولو استغرقه ذلك حياته بأكملها. لقد كاد السيد يوويل ينال منه، وكان ذلك آخر شيء فعله في حياته.

قال أتيكوس بكآبة:

ـ هل أنت واثق؟

ـ إنه ميت فعلاً، إنه ميت جداً، ولن يؤذي هذين الطفلين بعد الآن.

ـ لم أعن ذلك.

بدا على أتيكوس كأنه يتحدث في نومه. بدأ يظهر بعمره الحقيقي فجأة، وهذه إشارة إلى هيجان داخلي: هاهو خط فكه القوي قد ارتخى قليلاً، وبدأت بعض التجاعيد المحذِّرة تتشكل تحت أذنيه، ولا يعود المرء يلاحظ الآن شعره الفاحم بل البقع الرمادية النامية عند فوديه.

قالت العمة ألكسندرا أخيراً:

ـ أليس من الأفضل أن نذهب إلى غرفة الجلوس؟

قال السيد تيت:

ـ إذا كنتم لا تعترضون على ذلك، فأنا أرغب بالبقاء هنا إذا كان لا يضرّ بجم. أريد أن أرى إصابته بينما تحكي لنا سكاوت... عما حدث.

سألت العمة:

ـ هل يمكن أن أغادركم؟ إن وجودي غير ضروري في هذه الغرفة. سأكون في غرفتي إذا أردتني يا أتيكوس.

ذهبت العمة ألكسندرا نحو الباب، ولكنها توقفت والتفتت:

ـ أتيكوس، كان لدي شعور مسبق بما حدث... لقد... هذه غلطتي أنا... كان يجب أن...

رفع السيد تيت يده وقال:

ـ هيا يا سيدة ألكسندرا. أعرف أن هذا قد سبّب صدمة قوية لك، ولا تندمي على أي شيء... لو أننا كنا سنتتبع مشاعرنا طوال الوقت لكنا كالقطط التي تطارد ذيولها. يا آنسة سكاوت، هل تستطيعين أن تقّصي علينا ما حدث بينما لا يزال طازجاً بعد في ذهنك؟ هل تظنين أنه بمقدورك ذلك؟ هل شاهدتماه يلاحقكما؟

ذهبت نحو أتيكوس وأحسست بذراعيه تلتف حولي. دفنت وجهي في حجره ثم قلت:

ـ انطلقنا نحو البيت. قلت يا جم لقد نسيت حذائي. وما أن أردنا العودة لإحضاره حتى انطفأت الأنوار. قال جم إني أستطيع إحضاره غداً...

قال أتيكوس:

ـ ارفعي صوتك يا سكاوت حتى يستطيع السيد تيت سماعك.

ولكني تسللت إلى حجره.

ـ ثم قال جم اسكتي للحظة. وظننت أنه كـان يفكـر... إنـه يريـد منك دائماً أن تصمت حين يفكر... ثم قال إنه سمع شيئاً ما. وقـد كنـا نظن في البدء أنه كان سيسيل.

ـ سيسيل؟

ـ سيسيل جايكوبس. لقد أخافنا هذه الليلة مـرة، وكنـا نظـن أنـه يعاود الكرة. كان يرتدي ملاءة. كانوا سيعطون ربع دولار لأفضل زي. ولا أعرف من كسب الجائزة...

ـ أين كنتما حين ظننتما أن سيسيل كان يلاحقكما؟

ـ على مسافة قليلة من مـبنى المدرسـة. وقـد صـحت بـشيء مـا مخاطبة إياه...

ـ ماذا قلت؟

ـ سيسيل جايكوبس دجاجة كبيرة سمينة، هذا ما أظـن أني قلتـه. لم نسمع أي جواب. ثم صاح جم محيّياً أو قال شيئاً مـا بـصوت عـال جداً...

قال السيد تيت:

ـ لحظة يا سكاوت. هل سمعتهما يا سيد فينتش؟

قال أتيكوس إنه لم يسمع شيئاً. كان قد أدار جهـاز الراديـو. كمـا كانت العمة ألكسندرا قد أدارت جهازهـا أيـضاً في غرفـة نومهـا. إنـه يتذكر ذلك لأنها طلبت منه أن يخفـض الـصوت قلـيلاً حـتى تـستطيع الاستماع إلى جهازها. ابتسم أتيكوس ثم أردف:

ـ أنا أرفع صوت الراديو دائماً.

قال السيد تيت:

ـ أتساءل إن كان الجيران قد سمعوا شيئاً...

ـ أشك في ذلك يا هك. فمعظمهم يصغون إلى الراديو أو يذهبون إلى الفراش في موعد نوم الدجاج. قد تكون مودي أتكينسون لا تزال مستيقظة وإن كنت أشك في ذلك.

قال السيد تيت:

ـ تابعي يا سكاوت.

ـ حسناً، بعد أن صاح جم تابعنا السير. يا سيد تيت، كنت محبوسة في زيّي ولكني كنت أستطيع سماعها بنفسي. أعني الخطوات. كانت الخطوات تسير حين نسير وتتوقف حين نتوقف. قال جم إنه يستطيع رؤيتي لأن السيدة كرنشو وضعت نوعاً من الطلاء البراق على زيّي. كنت أقوم بدور فخذ لحم الخنزير.

سأل السيد تيت وقد صعق:

ـ وكيف ذلك؟

وصف له أتيكوس دوري، وكذلك تركيب الزي الذي أرتديه. ثم قال:

ـ كان يجب أن تراها حين دخلت. كان الزي محطماً كأنه عجينة.

حك السيد تيت ذقنه. قال:

ـ تساءلت لماذا كانت تلك العلامات على الرجل. كان كمّاه مثقّبين بثقوب صغيرة. كما كان على ذراعيه ثقب أو اثنان بحيث يتناسبان مع فتحتي العينين في الزي. هل يمكن أن أرى الزي يا سيدي؟

جلب أتيكوس بقايا الزي. قلّبه السيد تيت ثم لفّه ليأخذ فكرة عن شكله الأصلي. قال: «ربما أنقذ هذا الشيء حياتها. أنظر».

أشار بسبابته الطويلة. كان هناك خط نظيف لامع على السلك الباهت كأنما من أثر السكين. همهم السيد تيت:

ـ كان بوب يوويل جاداً في تهديداته.

قال أتيكوس:

ـ لا بدأنه قد جنّ.

ـ لا أحب أن أناقضك يا سيد فينتش... ولكنه لم يكن مجنوناً، بل وضيعاً إلى آخر حد. إنه شخص بغيض دنيء سكّير إلى درجة يصبح معها شجاعاً بما فيه الكفاية ليقتل أطفالاً. ما كان ليجرؤ على مواجهتك وجهاً لوجه.

هز أتيكوس رأسه وقال:

ـ لا أستطيع أن أتصور وجود إنسان يمكنه أن...

ـ يا سيد فينتش، هناك نوع من البشر عليك أن تقتلهم قبل أن تقول لهم مرحباً. وحتى آنذاك لا يستأهلون تلك الرصاصة التي يجب قتلهم بها. وكان يوويل واحداً من أولئك.

قال أتيكوس:

ـ ظننت أنه قد أفرغ حقده في ذلك اليوم الذي هدّدني به. وحتى لو لم يكن قد أفرغه كله، كنت أظن أنه سيحاول أن ينال مني أنا.

ـ كان لديه من الشجاعة ما يكفي لإزعاج امرأة ملونة فقيرة، وكانت لديه الشجاعة لإزعاج القاضي تايلور حين ظن أن المنزل كان فارغاً، لذا هل كنت تظن أنه سيواجهك وجهاً لوجه في وضح النهار؟

تنهد السيد تيت ثم أردف:

ـ هيا نتابع حديثنا. يا سكاوت، لقد سمعتماه يسير خلفكما...

ـ نعم يا سيدي. وحين وصلنا إلى تحت الشجرة...

ـ وكيف تعرفين أنكما كنتما تحت الشجرة؟ ما كنت تستطيعين أن تري شيئاً هناك.

ـ كنت حافية القدمين، وجم يقول إن الأرض تحت الشجرة تكون عادة أبرد.

ـ علينا أن نجعل منه نائباً للمأمور. هيا تابعي.

ثم حدث فجأة أن أمسك بي شيء ما وهشم زيّي... أعتقد أني وقعت على الأرض... سمعت صوت عراك تحت الشجرة... كانا يصطدمان بالجذع على ما يبدو. ثم وجدني جم وبدأ يجذبني نحو الطريق. ولكن... رماه السيد يوويل رماه أرضاً على ما أعتقد. وقد تعاركا فترة أخرى ثم سمعت ذلك الصوت المضحك... وصرخ جم...توقفت. إذن كانت تلك ذراع جم.

ـ على أية حال، صرخ جم ولم أعد أسمع صوته بعد ذلك والشيء التالي كان... كان السيد يوويل يحاول أن يعصرني حتى الموت، على ما أعتقد... ثم رمى شخص ما بالسيد يوويل أرضاً. لا بد أن جم كان قد نهض من جديد على ما أعتقد. هذا كل ما أعرفه...

ـ وثم...؟

كان السيد تيت ينظر إلي بحدّة.

ـ كان شخص ما يترنح ويلهث في أرجاء المكان و... يسعل حتى الموت. ظننت أنه جم أولاً، ولكن الصوت لم يكن صوته، ولذا بدأت أبحث عن جم على الأرض. ظننت أن أتيكوس جاء لإنقاذنا وقد أنهك من الركض...

ـ من كان ذالك؟

ـ هذا هو الشخص يا سيدي تيت، إنه يستطيع أن يقول لك اسمه بنفسه. وحين قلت ذلك، أشرت نصف إشارة إلى الرجل الواقف في الزاوية، ولكني أعدت ذراعي إلى مكانها بسرعة لئلا يوبخني أتيكوس على ذلك. كانت الإشارة إلى الناس بالذراع تصرفاً غير مهذب.

كان لا يزال مستنداً إلى الجدار. كان مستنداً إلى الجدار حين دخلت إلى الغرفة، وذراعاه ملتفتان فوق صدره. وحين أشرت إليه أنزل ذراعيه وضغط بكفيه على الجدار. كانت يداه بيضاوين، ولكنهما بيضاوان شاحبتان كأنهما لم تريا الشمس أبداً، بيضاوان إلى حد أنهما كانتا متوهجتين بالمقارنة مع الجدار الذي كان لونه بلون الكريم، تحت النور الباهت لغرفة جم.

نظرت من يديه إلى بنطاله الخاكي المبقع بالتراب، ثم سافرت عيناي على امتداد جسمه الناحل حتى قميصه القطني الممزق. كان وجهه أبيض كيديه، باستثناء ظل على ذقنه الناتئة. كانت وجنتاه ناحلتين إلى حد أنهما بدتا مجوفتين، وكان فمه واسعاً. وعلى صدغيه ثلمات ضحلة ودقيقة، كما كانت عيناه الرماديتان دون لون إلى حد بدا معه أنه كان أعمى. أما شعره فكان ميتاً وخفيفاً، كالريش تقريباً على قمة رأسه.

حين أشرت إليه انزلقت كفاه بخفة تاركة آثاراً دهنية من العرق على الجدار، ثم علق إبهاميه في حزامه. فجأة أصابته نوبة غريبة صغيرة من التشنج، وكأنه سمع أظافر تحك لوحاً حجرياً، ولكن وبينما كنت أحدق فيه مندهشة بدأ التوتر يزول ببطء من وجهه. انفرجت شفتاه بابتسامة خجولة، وفجأة هطلت دموعي فرأيت صورة جارنا ضبابية من خلف دموعي الفجائية.

قلت:

ـ مرحبا يا «بو».

* * *

الفصل الثلاثون

قل أتيكوس وهو يصحّح لي بلطف:

ـ السيد آرثر يا حبيبتي. يا جان لويز، هذا هو السيد آرثر رادلي. أعتقد أنه يعرفك مسبقاً.

إذا كان أتيكوس يستطيع تقديمي بهذه الرقة إلى بو رادلي في مثل هذا الوقت.. حسناً... فإن هذا هو أتيكوس.

رآني بو أهرع غريزياً نحو السرير حيث كان جم نائماً. فالابتسامة الخجولة زحفت هي نفسها عبر وجهه. وبسبب اضطرابي حاولت أن أخفي هذا الاضطراب عن طريق تغطية جم.

قال أتيكوس:

ـ ها ها. لا تلمسيه.

جلس السيد هك تيت ينظر بتركيز إلى بو من خلال نظارتيه ذات الإطار المصنوع من قرون الحيوانات. كان يهم بالحديث حين وصل الدكتور رينولدز قادماً من الردهة.

قال حين وصل إلى الباب:

ـ فليخرج الجميع. مساء الخير يا آرثر، لم ألاحظك في المرة الأولى التي كنت فيها هنا.

كان صوت الدكتور رينولدز حيوياً كخطواته، وقد حيّاه كأنما كان يحييه في كل يوم من أيام حياته، وهذا شيء أدهشني أكثر مما أدهشني كوني في الغرفة نفسها مع بو رادلي. طبعاً... حتى بو رادلي يصاب بالمرض أحياناً. ولكني ما كنت متأكدة على أية حال من ذلك.

كان الدكتور رينولدز يحمل رزمة كبيرة ملفوفة بورق الصحف. وضعها على مكتب جم وخلع جاكيته. ثم قال موجهاً كلامه إلي:

ـ هل أنت مقتنعة تماماً الآن أنه حي؟ هل أقول لك كيف عرفت أنه حي؟ حين حاولت أن أفحصه رفسني. وقد اضطررت إلى جعله يفقد وعيه حتى استطعت أن ألمسه. إذن هيا اذهبي.

قال أتيكوس وهو ينظر إلى بو:

ـ هيا نخرج إلى الرواق الأمامي. يوجد الكثير من الكراسي في الخارج هناك، ولما يزال الجوّ دفئاً بما فيه الكفاية.

تساءلت لماذا كان أتيكوس يدعونا إلى الرواق الأمامي بدلاً عن غرفة الجلوس، ثم فهمت لماذا. فأنوار غرفة الجلوس كانت قوية جداً.

خرجنا الواحد إثر الآخر. أولاً السيد تيت... كان أتيكوس ينتظر عند الباب حتى يخرج بو، ثم غيرّ رأيه ولحق بالسيد تيت.

من عادة الناس أن يمارسوا الأمور اليومية حتى في أغرب الظروف. ولم أكن أنا مستثناة من ذلك. سمعت نفسي أقول:

ـ هيا يا سيد آرثر. أنت لا تعرف المنزل جيداً. سأرافقك حتى الرواق يا سيدي.

نظر إلي وأومأ برأسه.

قدته عبر الردهة وغرفة الجلوس.

ـ هل لك أن تجلس يا سيد آرثر؟ هذا الكرسي الهزّاز لطيف ومريح.

هاهي الفانتازيا الصغيرة التي رسمتها له تعود حية مرة أخرى: كنت أتخيّله جالساً على الرواق... إنه طقس جميل تماماً، أليس كذلك يا سيد آرثر؟

أجل إنه طقس جميل تماماً. وبينما كنت أشعر بأن ما يحدث غير حقيقي، قدته نحو الكرسي الأبعد ما يكون عند أتيكوس والسيد تيت. كان الكرسي موضوعاً في الظل. سيشعر بو براحة أكبر في الظلام.

كان أتيكوس جالساً في الأرجوحة، والسيد تيت في الكرسي القريب منه. كان النور القادم من نوافذ غرفة الجلوس ينعكس بقوة عليهما. جلست أنا بالقرب من بو.

كان أتيكوس يقول:

ـ حسناً يا هك. أعتقد أن ما علينا أن نفعله... يا إلهي إني أفقد ذاكرتي...

دفع أتيكوس بنظارتيه إلى الأعلى وضغط بأصابعه على عينيه:

ـ إن جم لم يبلغ الثالثة عشرة بعد... لا، بل هو في الثالثة عشرة تماماً... لا أستطيع أن أتذكر. على أية حال، ستُرفع القضية أمام محكمة المقاطعة...

- أية قضية يا سيد فينتش؟

أنزل السيد تيت ساقاً عن الأخرى وانحنى إلى الأمام.

ـ بالطبع كان الأمر دفاعاً عن النفس واضحاً كعين الشمس، ولكن عليّ أن أذهب إلى المكتب وأبحث عن...

ـ يا سيد فينتش، هل تعتقد أن جم قتل بوب يوويل؟ هل تعتقد ذلك؟

ـ سمعت ما قالته سكاوت، لا شك في ذلك. لقد قالت إنه نهض ورماه عنها... ربما استطاع أن يمسك بطريقة ما بسكين يوويل في الظلام... سنعرف غداً.

ـ يا سيد فينتش، انتظر قليلاً. جم لم يطعن بوب يوويل.

صمت أتيكوس للحظة. نظر السيد تيت وكأنه كان يقيّم ما قاله. ولكن أتيكوس هزّ رأسه.

ـ هك، هذا كرم كبير منك وأعرف أنك تفعل ذلك من قلبك الطيب، ولكن لا تحاول طرح المشكلة بهذه الطريقة.

نهض السيد تيت وذهب إلى حافة الرواق. بصق في الشجيرات، ثم دفع يديه في جيبي بنطاله الخلفيين، ثم واجه أتيكوس وقال:

ـ أية طريقة؟

ـ يؤسفني أني تحدثت بحدّة يا هك، ولكن لن يقوم أحد بطمس هذه القضية. أنا لا أعيش بهذه الطريقة.

ـ لن يطمس أحد أي شيء يا سيد فيتش.

كان صوت السيد تيت هادئاً، ولكن جزمته كانت مزروعة فوق الألواح الخشبية للرواق بحيث بدا وكأنه نَبَتَ هناك. كان نوع من الخلاف الغريب ـ خلاف ذو طبيعة لم أفهمها ـ ينشأ بين أبي والمأمور.

كان دور أتيكوس الآن في النهوض والسير نحو حافة الرواق. تنحنح ثم بصق بصاقاً جافاً في الفناء. وضع يديه في جيبه وواجه السيد تيت:

ـ يا هك، لم تقلها، ولكني أعرف ما تفكر به. وأشكرك على ذلك. يا جان لويز.

وهنا استدار نحوي ثم قال:

ـ قلت إن جم رمى بالسيد يوويل عنك؟

ـ نعم يا سيدي، هذا ما ظننت...

ـ هل ترى يا هك؟ أشكرك من أعماق قلبي، ولكني لا أريد لابني أن يستهل حياته بشيء كهذا فوق رأسه. وأفضل طريقة لتنقية الجو هو أن

يجري كل شيء في العراء. فليأت سكان المديرية ومعهم سندويشاتهم. لا أريده أن يشب ويترعرع وهناك همسات حوله. لا أريد أن يقول أي شخص: «جم فيتش... لقد دفع أبوه مبلغاً كبيراً لتخليصه من تلك المشكلة». كلما أسرعنا بحل المشكلة كلما كان أفضل.

قال السيد تيت بتصميم:

ـ يا سيد فينتش. بوب يوويل يسقط على سكينه. لقد قتل نفسه.

سار أتيكوس نحو زاوية الرواق. نظر إلى نبات الحلوة. كان كل من الرجلين، بأسلوبه الخاص به، عنيداً بقدر ما هو الرجل الآخر. وتساءلت من سيتراجع أولاً. كان عناد أتيكوس هادئاً ولا يظهر إلا نادراً، ولكنه كان يتشبث برأيه في بعض الأمور كتشبّث آل كانيغهام. أما عناد السيد تيت فكان فطرياً وكليلاً، ولكنه كان مساوياً لعناد أبي.

أدار أبي ظهره ثم قال:

ـ يا هك، إذا طُمس هذا الأمر فسيكون تناقضاً صريحاً بالنسبة لجم مع ما ربّيته عليه. أحياناً أعتقد أني فاشل تماماً كأب، ولكنني كلّ ما يملكه ولداي. وقبل أن ينظر جم إلى أي شخص آخر فإنه ينظر إليّ، وقد حاولت أن أعيش بحيث استطيع أن أرد نظراته دون مواربة وأن أنظر في عينيه... وإذا ما حاولت شيئاً كالذي تطلبه، فإني بصراحة لن أكون قادراً على النظر في عينيه، وفي ذلك اليوم الذي لا أستطيع فيه أن أفعل ذلك، سأعرف أني خسرته. لا أريد أن أخسره هو أو سكاوت، لأنهما كلّ ما أملك.

قال السيد تيت وهو مازال مزروعاً على الألواح الخشبية لأرضية الرواق:

ـ يا سيد فينتش، لقد سقط بوب يوويل على سكينه. وأنا أستطيع إثبات ذلك.

التفت أتيكوس بحركة دائرية. كانت يداه مدسوستين في جيبه. قال:

- يا هك، ألا تستطيع حتى أن تحاول أن ترى الأمور من وجهة نظري؟ لديك أنت أطفال أيضاً، ولكني أكبر منك سناً. وحين يكبر طفلاي سأكون رجلاً عجوزاً هذا إذا كنت لا أزال حيّاً، ولكني الآن حيّ... وإذا كانا لا يستطيعان الوثوق بي فلن يثقا بأحد آخر. جم وسكاوت يعرفان ما حدث. وإذا سمعاني أقول في البلدة إن شيئاً آخر قد حدث... يا هك، فلن يكونا طفليّ بعدها أبداً. لا أستطيع أن أعيش في البلدة بأسلوب وفي البيت بأسلوب آخر.

هزّ السيد تيت نفسه على كعبيه ثم قال بصبر:

- لقد رمى بجم أرضاً، ثم تعثر بجذر تحت الشجرة و... انظر، أستطيع أن أريك كيف حدث ذلك.

أدخل السيد تيت يده في جيبه الجانبي وأخرج موسى كبيرة ذات نابض. وبينما كان يفعل ذلك وصل الدكتور رينولدز إلى الباب فقال له:

- ابن القـ... الميت هناك تحت الشجرة يا دكتور، داخل فناء المدرسة. هل لديك مصباح يدوي؟ خذ هذا.

قال الدكتور:

- أستطيع أن أتقدم بسيارتي ثم أستعمل أنوارها.

ولكنه أخذ مصباح السيد تيت مع ذلك، ثم أردف:

- جم بخير. لن يستيقظ الليلة، على ما آمل، لذا لا تقلقوا. أكانت تلك هي السكين التي قتلته؟

- لا يا سيدي، لا تزل مغروسة فيه بدت من مظهر قبضتها لي كسكين مطبخ. لا بد أن «كن» قد وصل الآن مع النقالة يا دكتور. طابت ليلتك.

فتح السيد تيت الموسى. قال: «كانت هكذا». أمسك بالموسى وتظاهر بالتعثر، وبينما كان ينحني نحو الأمام سبقته ذراعه اليسرى. «أترى؟ لقد طعن نفسه خلال تلك المادة الطرية التي بين الأضلاع. لقد جعلها ثقل جسمه كله تخرق صدره».

أغلق السيد تيت الموسى ودفعها في جيبه. قال:

ـ سكاوت في الثامنة من العمر. لقد كانت مصابة بالفزع إلى حد لم تستطع معه أن تعرف ما حدث بالضبط.

قال أتيكوس بكآبة:

ـ ستصاب بالدهشة.

ـ لا أقول إنها اختلقت الحكاية، بل أقول إنها كانت مصابة بالفزع إلى حد أنها لم تستطع أن تعرف ما حدث بالضبط. كان الظلام شديداً هناك، ظلاماً حالكاً كالحبر. وحتى يكون المرء شاهداً موثوقاً في مثل هذه الحالة، فلا بد أن يكون من النوع المعتاد جداً على العتمة. قال أتيكوس بلطف:

ـ لن أقبل بهذه الرواية.

ـ اللعنة، أنا لا أفكر بجم.

ضربت جزمة السيد تيت الألواح الخشبية بقوة إلى حد أن الأنوار في غرفة نوم الآنسة مودي أضيئت. كما أضيئت أنوار الآنسة ستيفاني كروفورد. نظر أتيكوس والسيد تيت عبر الشارع، ثم نظر كل منهما إلى الآخر وانتظرا.

وحين تكلم السيد تيت مرة أخرى كان صوته لا يسمع إلاّ بالكاد:

ـ يا سيد فينتش، أكره أن أنازلك حين تكون على هذه الحال. لقد تعرضت الليلة لحالة انفعال ليس من المفروض على أي رجل أن

يعيشها. لم لا أراك في الفراش بسببها لا أدري، ولكني أعرف أنك لا تستطيع الآن أن تعرف مجموع اثنين واثنين. إنّنا مضطرون إلى حل هذه المشكلة الليلة لأننا لو انتظرنا إلى الغد سنكون قد تأخرنا كثيراً. بوب يوويل لديه سكين مطبخ في أحشائه.

أضاف السيد تيت أن أتيكوس لن يقف هناك ويصر على أن أي غلام في حجم جم وبذراع مكسورة قد كانت لا تزال فيه من القوة ما يكفي لمجابهة رجل وقتله في الظلام الدامس.

قال أتيكوس بحدة:

ـ يا هك، كانت موسى ذات نابض تلك التي كنت تلوح بها. من أين حصلت عليها؟

أجاب السيد تيت ببرود:

ـ أخذتها من رجل مخمور.

حاولت أن أتذكر. كان السيد يوويل فوقي... ثم رمي أرضاً... لا بد أن جم قد نهض... على الأقل ظننت...

ـ يا هك؟

ـ قلت إني أخذتها من رجل مخمور في البلدة الليلة. ربما وجد يوويل سكين المطبخ تلك في مقلب القمامة، فشحذها ثم جثم ينتظر بصبر وهدوء... لقد انتظر بصبر وهدوء.

سار أتيكوس حتى الأرجوحة ثم جلس. كانت يداه متدليتين بترهل بين ركبتيه. كان ينظر إلى الأرضية. في تلك الليلة عند السجن رأيته يتحرك بالبطء نفسه الذي لاحظته الآن، وذلك حين ظننت أن طيّه للصحيفة ورميها على كرسيه سيستغرق الدهر كله.

مشى السيد تيت بهدوء وتثاقل حول الرواق. ثم قال:

ـ ليس القرار قرارك يا سيد فينتش، بل قراري أنا مائة بالمائة. إنه قراري ومسؤوليتي. وإذا كنت لا تراه كما أراه أنا، فليس هناك الكثير مما تستطيع فعله. إذا أردت أن تحاول، فسأدعوك بالكاذب في وجهك. لم يطعن ابنك بوب يوويل إطلاقاً... وما كان يمكنه أن يفعل ذلك وأنت تعرف كل شيء. كل ما كان يريده هو أن يصل هو وأخته إلى البيت سالمين.

توقف السيد تيت عن السير. توقف أمام أتيكوس وكان ظهره لنا. قال:

ـ لستُ رجلاً طيباً جداً يا سيدي، ولكني مأمور مقاطعة مايكوم. لقد عشت في هذه البلدة طوال حياتي وأصبحت الآن في الثالثة والأربعين. أعرف كل ما حدث في هذه البلدة وحتى ما حدث فيها من قبل أن أولد. هناك شاب أسود مات دون مبرر، والرجل المسؤول عن موته ميت بدوره الآن. فليدفن الموتى أنفسهم هذه المرة يا سيد فينتش. فليدفن الموتى أنفسهم.

سار السيد تيت نحو الأرجوحة والتقط قبعته. كانت مرمية قرب أتيكوس. دفع السيد تيت شعره إلى الخلف ثم ارتدى قبعته.

ـ لم يسبق لي أن سمعت أنه مناف للقانون أن يقوم المواطن ببذل قصارى جهده ليمنع جريمة من أن ترُتكب، وهذا ما فعله بالضبط، ولكنك قد تقول ربما إنه من واجبي أن أقول للبلدة كل شيء ولا أخفي شيئاً. هل تعرف ما سيحدث عندئذ؟ ستقوم كل السيدات في مايكوم بما فيهن زوجتي بالطرق على بابه وهن يحملن الكعك المحلّى له. بالنسبة إلي وبالطريقة التي أفكر بها يا سيد فينتش، فإن لفت النظر إلى الرجل الذي قدم لك ولهذه البلدة خدمة عظيمة وجرّه إلى أضواء الشهرة وهو الخجول بطبعه.. بالنسبة لي يبدو مثل هذا

الفعل كخطيئة. إنها خطيئة ولن أدعها تقع على كاهلي. لو تعلق الأمر بأي رجل آخر لاختلف الوضع. ولكن ليس هذا الرجل يا سيد فينتش.

كان السيد تيت يحاول أن يحفر حفرة في الأرضية بإبهام جزمته. شد أنفه ثم مسّد ذراعه اليسرى وقال:

ـ قد لا أكون رجلاً ذا شأن كبير يا سيد فينتش، ولكني لا أزال مأمور مقاطعة مايكوم وقد سقط بوب يوويل على سكينه. ليلتك طيبة يا سيدي.

سار السيد تيت بقوة قاطعاً الرواق ثم عبر الفناء الأمامي. وسمعنا صوت باب سيارته وهو ينصفق بقوة ثم انطلق بها بعيداً.

جلس أتيكوس ينظر إلى الأرض لفترة طويلة. وأخيراً رفع رأسه. قال:

ـ يا سكاوت، لقد سقط السيد يوويل على سكينه. هل يمكنك أن تفهمي ذلك؟

بدأ أتيكوس وكأنه بحاجة إلى تشجيع. ركضت إليه وضممته وقبلته بكل ما في من قوة. قلت له بلهجة مطمئنة:

ـ نعم يا سيدي، أفهم. كان السيد تيت على حق.

حرّر أتيكوس نفسه ونظر إلي وقال:

ـ ما الذي تعنينه؟

ـ سيكون ذلك أشبه بقتل عصفور ساخر، أليس كذلك؟

وضع اتيكوس وجهه في شعري ومرغه به. وحين نهض وسار عبر الرواق إلى الظلال، كانت خطوته الشابة قد عادت إليه. وقبل أن يدخل إلى البيت، توقف أمام بورادلي وقال له:

ـ شكراً لأجل طفلَي يا آرثر.

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

حين نهض بو رادلي على قدميه، التمع النور القادم من نوافذ غرفة الجلوس على جبهته. كل حركة كان يقوم بها بدت مضطربة، وكأنه لم يكن متأكداً من أن يديه وقدميه كانت قادرة على الاتصال الصحيح مع الأشياء التي كان يلمسها. سعل سعلته الرهيبة المخرخرة، وقد هزّته إلى حد أنه اضطر إلى الجلوس مرة أخرى. بحثت يده عن جيب بنطاله الخلفي، وأخرجت منديلاً. سعل في المنديل ثم مسح به وجهه.

وبما أني اعتدت إلى حد كبير على غيابه، فقد وجدت أنني لا أستطيع أن أصدق أنه كان جالساً إلى القرب منيّ طوال هذا الوقت، وأنه كان حاضراً. فهو لم يصدر صوتاً واحداً.

نهض مرة أخرى. استدار نحوي وأشار نحو الباب الأمامي برأسه.

ـ أنت تريد أن تتمنى لجم ليلة طيبة، أليس كذلك يا سيد آرثر؟ ادخل.

قدتُه عبر البهو. كانت العمة ألكسندرا جالسة قرب سرير جم. قالت:

ـ أدخل يا آرثر، إنه لا يزال نائماً. لقد أعطاه الدكتور رينولدز منوّماً قوياً. يا جان لويز هل أبوك في غرفة الجلوس؟

ـ نعم يا سيدتي، أظن ذلك.

ـ سأذهب لأتحدث إليه قليلاً. لقد ترك الدكتور رينولدز بعض...

ثم خفت صوتها حتى تلاشى.

كان بو قد انحرف نحو إحدى زوايا الغرفة، حيث وقف هناك وذقنه مرفوعة عالياً، وراح يحدق من بعد إلى جم. أخذته من يده، وهي يد دافئة إلى حد مدهش بالمقارنة مع بياضها. شددته قليلاً فسمح لي أن أقوده إلى سرير جم.

كان الدكتور رينولدز قد صنع نوعاً من الخيمة فوق ذراع جم، حتى يبقى الغطاء بعيداً عنها، وقد انحنى بو إلى الأمام ونظر من فوقها. كان على وجهه نوع من الفضول الخجول، وكأنه لم يَرَ صبياً من قبل. كان فمه مفتوحاً قليلاً، ونظر إلى جم من رأسه حتى قدميه. ارتفعت يد بو قليلاً، ولكنه تركها تسقط إلى جانبه.

ـ تستطيع أن تربت عليه يا سيد آرثر، إنه نائم. ما كنت تستطيع ذلك لو كان مستيقظاً. على أية حال ما كان سيدعك تفعل ذلك... هيا.

ارتفعت يد بو وحوّمت فوق رأس جم.

ـ هيا يا سيدي، إنه نائم.

نزلت يده بخفة على شعر جم.

كنت قد بدأت أتعلم للغة الإنكليزية الخاصة بجسده. اشتدت قبضة يده على يدي مشيراً إلى أنه يودّ الرحيل.

قدته إلى الرواق الأمامي، حيث توقفت خطواته القلقة. كان لا يزال يمسك بيدي ولم يقم بأية إشارة على أنه يريد إطلاق سراحي.

ـ هل لك أن تقوديني إلى البيت؟

همس تلك الجملة همساً تقريباً، وبصوت طفل خائف من الظلام.

وضعت قدمي على الدرجة العليا ثم توقفت. سأقوده عبر منزلنا ولكني لن أقوده أبداً إلى البيت.

ـ يا سيد آرثر، اثنِ ذراعك هنا، هكذا. هذا صحيح يا سيدي.

دفعت بذراعي تحت ذراعه.

كان عليه أن ينحني قليلاً حتى يماشيني، ولكن لو كانت الآنسة ستيفاني كروفورد تراقبنا من نافذة الطابق العلوي لمنزلها، لكانت سترى آرثر رادلي يرافقني عبر الممشى، كأي جنتلمان.

وصلنا إلى عمود النور على الزاوية، وتساءلت في نفسي كم مرة يا ترى وقف «ديل» هنا وهو يعانق هذا العمود الثخين، يراقب وينتظر ويأمل.

وتساءلت كم مرة يا ترى قمنا جم وأنا بهذه الرحلة، ولكنني دخلت عبر بوابة منزل آل رادلي للمرة الثانية في حياتي. صعدنا بو وأنا الدرج الأمامي نحو الرواق. وجدت أصابعه مقبض الباب الأمامي. حرّر يدي بلطف، فتح الباب ودخل، ثم أغلق الباب خلفه. ولم أره بعد ذلك أبداً.

الجيران يجلبون الطعام عند الموت والزهور عند المرض وأشياء صغيرة في حالات الما بين بين. كان بو جاراً لنا. لقد منحنا دميتين من الصابون، ساعة مكسورة مع سلسلة، زوجاً من البنسات التي تجلب الحظ السعيد، وحياتينا. ولكن الجيران يهدون أيضاً بالمقابل، إلاّ أننا لم نكن نعيد إلى الشجرة ما كنا نأخذه منها: لم نعطه شيئاً، وهذا ما أحزنني.

استدرت لأعود إلى المنزل. كانت أنوار الطريق تغمز عبر الشارع وحتى البلدة. لم أكن قد رأيت حيّنا من هذه الزاوية. هناك كان منزل الآنسة مودي، ومنزل الآنسة ستيفاني.. وذاك هو منزلنا. كنت أستطيع أن أرى أرجوحة الرواق... كان منزل الآنسة راشيل وراء منزلنا، ولكنه مرئي بوضوح. وكنت أستطيع أن أرى حتى منزل السيدة دوبوز.

نظرت إلى خلفي. إلى يسار الباب البني اللون كانت نافذة طويلة ذات مصراع مغلق. مشيت نحوها، ووقفت أمامها، ثم استدرت. في ضوء النهار، كما فكرت، يمكن للمرء أن يرى كل شيء حتى زاوية مكتب البريد.

ضوء النهار... في ذهني تلاشى الليل. كان الوقت الآن نهاراً والحيّ مليء بالحركة. الآنسة ستيفاني كروفورد تعبر الشارع لتحكي آخر الأخبار للآنسة راشيل، والآنسة مودي منحنية فوق شجرات الأزاليا. الفصل صيف، وهناك طفلان يعدوان على طول الرصيف باتجاه رجل يقترب من بعيد. الرجل يلوّح بيده. والطفلان يتسابقان نحوه.

لا زال الفصل صيفاً، والطفلان يقتربان. هناك صبي يمشي بجهد على الرصيف يجرّ وراءه قصبة صيد. وقف رجل ينتظر ويداه على وركيه. الفصل صيف، طفلاه يلعبان في الفناء الأمامي مع صديقهما، وهم يمثلون مسرحية صغيرة غريبة من اختراعهم.

الفصل خريف، وطفلان يتعاركان على الرصيف أمام منزل السيدة دوبوز. الصبي يساعد أخته على النهوض، ثم يذهبان إلى البيت. الفصل خريف وطفلاه يهرولان جيئة وذهاباً حول الزاوية، ومحن اليوم وانتصاراته على وجهيهما. يتوقفان أمام شجرة سنديان، مسرورين، محتارين وخائفين.

الفصل شتاء وطفلاه يرتجفان عند البوابة الأمامية وهو يراهما كظلين على خلفية منزل يحترق. الفصل شتاء، ويسير رجل في الشارع، يسقط نظارتيه ثم يطلق النار على كلب فيقتله.

الفصل صيف، وهو يراقب طفليه وقد تحطم قلباهما، الخريف مرة أخرى، وطفلا بو في حاجة إليه.

كان أتيكوس على حق. قال لي مرة لن تعرفي أبداً إنساناً ما على حقيقته حتى تقفي في حذائه وتتجولي به. كان الوقوف على رواق منزل آل رادلي كافياً.

كانت أنوار الشارع غائمة من المطر الخفيف الذي راح يهطل. وبينما كنت أسير إلى البيت، شعرت أني كبيرة جداً في السن، ولكني حين نظرت إلى أرنبة أنفي، استطعت أن أرى خرزات دقيقة ضبابية، ولكن النظر بعينين محولّتين جعلني أصاب بدوخة فتخليّت عما كنت أفعله، وبينما كنت في طريقي إلى البيت، فكرت في كل ما لديّ لأحكيه لجم غداً. سيجنّ لأن كل ذلك قد فاته، ولن يتحدث إلي أياماً بحالها. وبينما كنت في طريقي إلى البيت، فكرت في أننا جم وأنا سنكبر ولكن لم يبق أمامنا الكثير لنتعلمه، إلا علم الجبر ربما.

عدوت صاعدة الدرج ثم إلى داخل البيت. كانت العمة ألكسندرا قد أوت إلى فراشها، وكانت غرفة أتيكوس معتمة. سأرى إن كان جم يستعيد وعيه. كان أتيكوس في غرفة جم، جالساً إلى القرب من سريره. وكان يقرأ في كتاب.

ـ هل استيقظ جم؟

ـ إنه ينام بهدوء. لن يستيقظ حتى الصباح.

ـ أوه. هل أنت سهران عنده؟

ـ لمدة ساعة أو أكثر قليلاً. اذهبي إلى فراشك يا سكاوت. لقد كان يومك طويلاً.

ـ حسناً، أظن أني سأبقى معك قليلاً.

ـ كما تشائين.

كان الوقت بعد منتصف الليل، وعجبت من موافقته الودية. كان أحكم مني على أية حال. فما أن جلست حتى بدأت أشعر بالنعاس.

سألته:

ـ ماذا تقرأ؟.

قلب أتيكوس الكتاب ليريني غلافه:

ـ إنه من كتب جم وعنوانه: «الشبح الرمادي».

استيقظت فجأة:

ـ لماذا اخترت هذا الكتب بالذات؟

قال بحدة:

ـ حبيبتي، لا أعرف. لقد مددت يدي وانتقيته. إنه واحد من الأشياء القليلة التي لم أقرأها.

ـ اقرأه بصوت عال من فضلك يا أتيكوس. إنه مخيف فعلاً.

ـ لا. لقد نلت كفايتك من الخوف ولفترة طويلة. هذا الكتاب...

ـ أتيكوس، أنا لم أشعر بالخوف.

رفع حاجبيه، فقلت محتجّة:

ـ على الأقل لم أخف حتى بدأت أحكي للسيد تيت عما حدث. جم لم يكن خائفاً. لقد سألته وقال إنه ليس خائفاً. وزيادة عليه، فلا شيء هناك مخيف حقاً إلاّ ما نقرأه في الكتب.

فتح أتيكوس فمه ليقول شيئاً، ولكنه أغلقه مرة أخرى. رفع إبهامه من منتصف الكتاب وعاد إلى الصفحة الأولى. تحركت وأسندت رأسي إلى ركبتيه.

قال:

ـ احم... «الشبح الرمادي» بقلم «سيكاتاري هوكينز». الفصل الأول.

حاولت أن أبقى مستيقظة، ولكن المطر كان رقيقاً جداً والغرفة دافئة جداً وصوته عميقاً جداً وركبته مريحة جداً بحيث أني نمت.

بعد ثوان، كما بدا لي، كان حذاؤه يكز بلطف أضلاعي. أنهضني على قدميّ وسارَ بي إلى غرفتي. همهمت: «لقد سمعت كل كلمة قلتها... لم أكن نائمة إطلاقاً، والقصة تدور حول سفينة وحول «فرِدْ ذي الأصابع الثلاثة» والصبي ستونر...

فك أزرار الأوفرول، أسندني إليه ثم جردني منه. أمسكني بيد وتناول بيجامتي باليد الأخرى.

ـ حسناً، وكان الجميع يظنون أن الصبي ستونر هو الذي يوسخ مركز ناديهم ويرمي بالحبر في كل مكان و....

قادني إلى السرير وأجلسني فيه. رفع ساقيّ ووضعني تحت الغطاء.

ـ وقد طاردوه ولم يستطيعوا الإمساك به لأنهم ما كانوا يعرفون شكله، و... يا أتيكوس، وحين رأوه أخيراً، لم يكن قد ارتكب أياً من تلك الأشياء... يا أتيكوس، لقد كان لطيفاً حقاً...

كانت يداه تحت ذقني، ترفع الغطاء إلى فوق وتثبّته من حولي.

ـ معظم الناس هكذا يا سكاوت حين ترينهم أخيراً.

أطفأ النور وذهب إلى غرفة جم. سيبقى هناك طوال الليل، وسيكون هناك حين يستيقظ جم في الصباح.

* * *



HARPER LEE

TO KIL A MOCKING BIRD

"لا تقتل عصفوراً ساخراً" رواية هاربر لي الوحيدة في مشوارها الأدبي الذي بدأ عام 1959، وكانت كافية لتنال جائزة الميدالية الرئاسية للحرية عام 2007 عن مجمل مسيرتها الأدبية.

كما أنَّ هذه الرواية حازت على جائزة بوليترز عام 1961، لأنها عُدَّت إحدى علامات الأدب الأميركي الحديث.. تحولت الرواية إلي فيلم من أهم الأفلام العالمية، حصل على أوسكار أحسن سيناريو مأخوذ عن عمل أدبي وأحسن ممثل دور أول.

وتُقدَّم هذه الرواية كتعبير أدبي عميق عن التمييز العنصري في أميركا في مطلع القرن الماضي، لكن حقيقة الأمر، أن قضية العنصرية تحتل الجزء الثاني من الرواية التي تبدأ على لسان الراوية "سكاوت" الطفلة الصغيرة، لتنقلنا إلى فترة زمنية بعيدة عنا تُظهرنا فيها على مجتمعها ومجتمع قريتها، نستعيد معنى الطفولة من خلال حكاياتها الساخرة و المريرة أحياناً... لا يمكن أن تصادف مثل هذا الألم الساخر كثيراً، الأمر يحتاج إلى كاتب يكتب مُعَوِّلاً على روحه وقلبه قبل موهبته وقلمه.. تعيش «سكاوت» مع والدها المحامي " أتيكوس" بطل الرواية الأول، وأخيها «جيم» الذي يكبرها بسنوات، في مدينة مايكومب في ولاية آلاباما، خلال ثلاثينيات القرن العشرين، حيث تختلف التفاصيل الزمانية لكن يتشابه البشر والمجتمعات.





لوحة الغلاف للفنان ديلان عابدين أمين